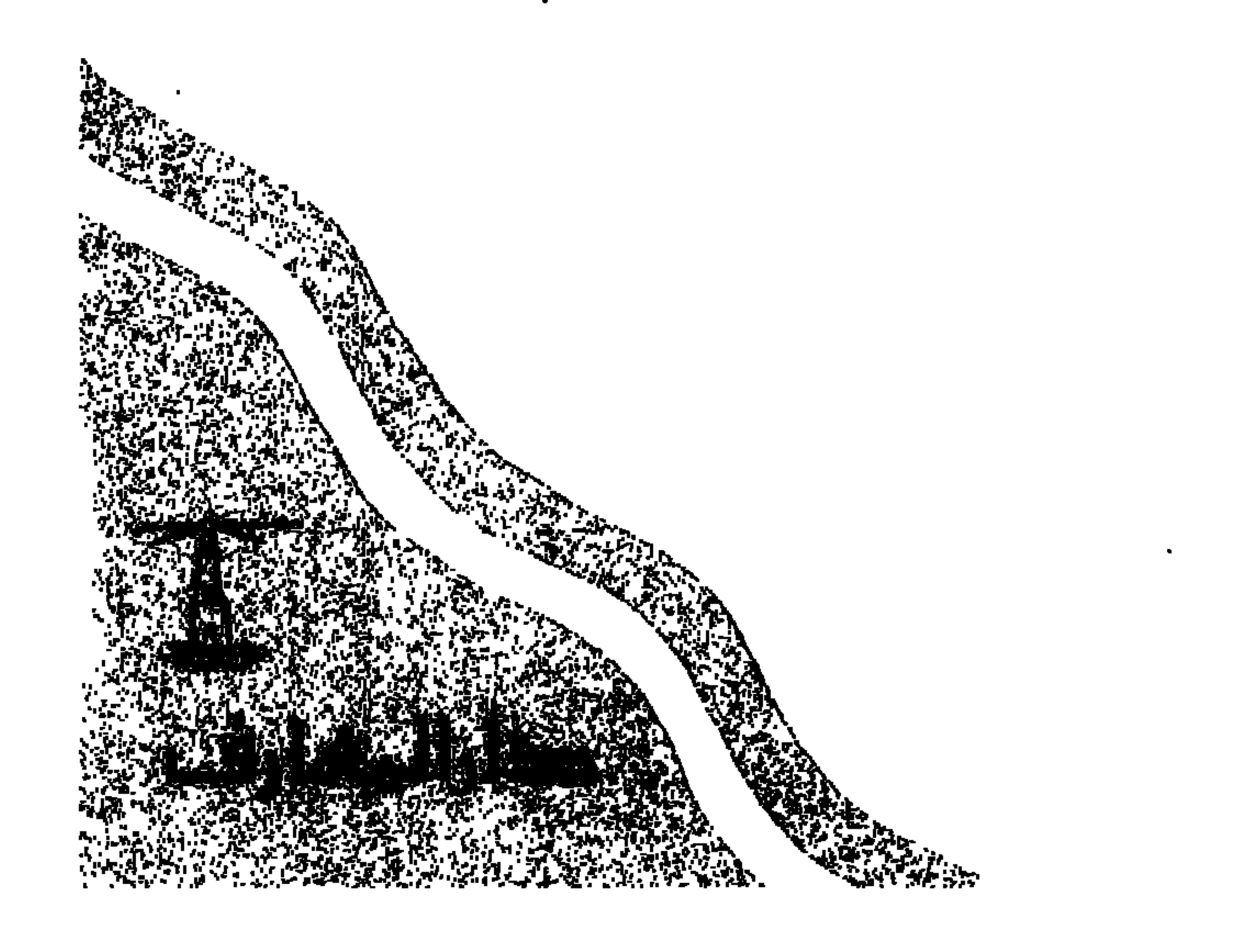

Bibliotheca Alexandrina
0137783

اقرأ

محمد السيد أيوب

اليمن بين القات وفساد الحكم قبل الثورة



اليمن بين القات وفساد الحكم
قبل الثورة

محمد السيد أيوب

اليمن بين القات وفساد الحكم
قبل الثورة

اقرأ ٢٤٦

دار المعارف

اقرأ ٢٤٦ — يونية سنة ١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. ع. م.

تقديم

إن مستقبل أى بلد من البلاد يرتبط ارتباطاً مباشراً
بنوع البشر الذى يعيشون فيه . (نهرو)

كتب هذا البحث وأعد للطبع قبل قيام ثورة سبتمبر سنة ١٩٦٢ التى أطاحت بحكم الطغاة من بيت حميد الدين الذين استبدوا باليمن دهوراً طويلة . وقد كان الدافع إلى كتابة هذا البحث هو ما شاهده الكاتب بنفسه عند زيارته لليمن فى خريف عام ١٩٥٥ وما رآه من تأثير القات على المجتمع العربى اليمنى وأعتقد بحق أنها كانت وسيلة فعالة من وسائل الطغاة كى يستتب لهم الأمر وتخضع لهم الأعناق ونجحوا فى ذلك ولكن إلى حين إذ لم تخل الأمة من أبناء بررة لم يخضعوا للضيم ولم يرتضوا الهوان قاموا بمحاولات متكررة للقضاء على تلك الفئة من الطغام كان أظهرها ما وقع فى السنوات ١٩٤٨ ، ١٩٥٥ ، ١٩٦١ وقد باءت بالإخفاق ثم كتب الله النصر لثورة سبتمبر الماضى .

قامت ثورة عام ١٩٤٨ بتدبير من الأمير إبراهيم ونفر من الشباب الحر الذين كانوا فى المنفى وفى السجون وقتلوا الإمام يحيى بالرصاص وأعلنوا عزمهم على النهوض بالوطن اليمنى ، ولكنهم أخطأوا خطأ تاريخياً كبيراً إذ كانوا فى حاجة إلى قوى خارجية لمساندة ثورتهم ولكنهم بدلا من الاعتماد على القوى

الشعبية فى العالم العربى لجأوا إلى جلادى الشعوب فى ذلك الوقت فى القاهرة وعمان والرياض إلى فاروق وعبد الله وعبد العزيز بن سعود ولذا لم يدم انتصارهم طويلا إذ تمكن الطاغية أحمد بمساندة قبائل الشمال وتمويل عبد العزيز آل سعود أن يقضى على ثورة الأحرار فى ثلاثة أسابيع . ضربت أعناق الأحرار بالسيف وعلقت رؤوسهم أياماً على بوابة صنعاء وقد سمى الملك عبد العزيز آل سعود هؤلاء الشهداء الأحرار « عصابة اللصوص قطاع الطريق » .

وفى عام ١٩٥٥ حاول جماعة من الأحرار ومعهم عبد الله ابن يحيى حميد الدين عزل الطاغية أحمد وحاصروه بقوة قوامها نحو ألفى محارب واضطر أن يوقع بياناً يعلن فيه تكليف أخيه عبد الله بتصريف الأمور العادية لانحراف فى صحته وقد وقع هذا البيان فى الثلاثين من مارس عام ١٩٥٥ وعند ما علم فى الثالث من أبريل بأن ابنه البدر بتشجيع الملك سعود وتأييده بدأ يحشد القبائل الموالية فى الشمال هب فى فجر ذلك اليوم وصعد إلى سطح قصره المحاصر محاطاً ببضعة جنود من أنصاره وقفز إلى مدفع رشاش صوبه على الثوار ففقد المحاصرون معنوياتهم واستسلم بعضهم وفر الباقون وهكذا قضى على الثورة فى خمسة أيام وبقى الطاغية جالساً على كرسيه يحكم البلاد بأسلوبه الفريد فى الظلم والبطش والقسوة .

وفى عام ١٩٦١ نجا أحمد من الموت عند ما أطلق

عليه الرصاص الشهيد الثائر أحمد الثلايا فى مستشفى الحديدة فأصابه في غير مقتل ولكنه ارتمى على الأرض وتظاهر بالموت وفر القاتل مطمئناً إلى نجاح مهمته ولكن الطاغية قام وظل من يومها إلى سبتمبر ١٩٦٢ يعانى من العلة ولم يكن قادراً على الحكم فى هذه الفترة فترك زمام الأمور لولده البدر وبقى هو يعانى سكرات الموت البطىء ويتعاطى المورفين بإدمان فكلما فاق من غيبوبته أسرع إلى تعاطى المخدر ليستغرق فى سبات عميق . . . وذهب غير مأسوف عليه ليحاسبه ربه عما جنت يداه طوال حياته ولم تجن شيئاً غير الشر وظلم العباد وسفك الدماء وسلب الحقوق .

وتولى ابنه البدر مكانه ورأى الأحرار من أبناء الوطن أن الفرصة سنحت للإطاحة بهذا النظام الفاسد وكانت ثورة سبتمبر سنة ١٩٦٢ بقيادة الزعيم عبد الله السلال .

ولم تكن الليلة أشبه بالبارحة . . .

فر البدر من صنعاء ولجأ كما لجأ أب له من قبل إلى قبائل الشمال فى صعدة وحرض يطلب منها المؤازرة والمساندة والعون ومد يده طالباً العون المادى من أبناء عبد العزيز آل سعود . . . سعود وفيصل . . .

ويمم زعيم الثورة وجهه قبل الجمهورية العربية المتحدة — مصر — ولكن مصر فى هذه المرة ليس فيها ملوك ولا طغاة . . . بل حكم شعبي رشيد . . . وطلب مساندة صادقة مخلصة قوية

نزيهة ووجد كل ما يحتاجه لنصرة الثورة وجده كاملا غير منقوص ولا مشروط .

وهكذا قضى إلى حيث لا رجعة على بيت حميد الدين والطغاة ومن سار فى ركابهم وعلى نهجهم .

قضى على العلة الأولى التى كانت عقبة كؤوداً فى طريق نهضة اليمن وسيره فى ركاب الحضارة . . . . وبقيت العقبة الثانية ألا وهى القات .

والقضاء على القات أمر ليس سهلاً إذ أصبح عادة يمارسها الجميع وأدمن تعاطيه غالبية الشعب .

ولقد شاءت المصادفات الطيبة أن أسافر لليمن مرة ثانية بعد قيام الثورة عضواً فى الوفد الاقتصادى للجمهورية العربية المتحدة وكلفت برسم تخطيط للسياسة الزراعية للجمهورية اليمنية وعمل تنظيم لإنشاء وزارة للزراعة وتطلب ذلك أن أجوب كل المناطق الزراعية فى التهائم والهضاب والمرتفعات وأن أزور القرى وأجتمع بالمزارعين لأستمع إلى مطالبهم ومشاكلهم الزراعية وزرت مناطق زراعة القات ودرست تفصيلا كل ما يتصل بزراعته وتسويقه واستعماله .

وقد أسعدنى حقاً أننى وجدت شبه إجماع من جمهور الزراع على ضرورة التخلص من القات كخطوة أولى فى سبيل النهوض بالوطن . . . كانوا يقولون : « إننا تعودنا تعاطيه ولكنه هدام معطل لقوانا هادم لصحتنا مضيع لأموالنا » ولكن

٩

لا أخفى أن هناك قلة تتمسك ببقائه لفرط حرصها على تعاطيه وتخشى أن يمس شجرة القات أدنى ضرر .

وعلى ضوء المشاهدات والدراسات التى قمت بها أعتقد أن القضاء على شجرة القات مسألة جوهرية وخطيرة إذ لن يكتب لأى خطة تنمية — فى أى مجال اقتصادى — أى نجاح ما لم تجتث هذه الشجرة ويحرم زراعتها .

والقضاء على القات مشكلة ليست سهلة الحل ولكنها مهما كانت معقدة فلا بد من إيجاد حل لها . . . حل عاجل حاسم لا ينفذ فجأة . ولكن تدريجياً بحيث يتم فى سنوات قليلة وترسم خطة يشترك فيها الاجتماعى والطبيب ورجل الدين والزراعى والمسئولون عن الأمن والتعليم .

ندعو مخلصين لإخواننا فى اليمن أن يتمكنوا من القضاء على القات كما قضوا على الطغاة .

أمة بين ماضيها وحاضرها

هناك فى أقصى الركن الجنوبى الغربى لقارة آسيا وعند ملتقى البحر الأحمر بالمحيط الهندى اختارت الأقدار لشعب اليمن موطناً ومستقراً منذ عرفت الإنسانية الاستقرار بعد أن انقضت فترة الرعى والترحال .

ويشغل الوطن اليمنى جزءاً صغير المساحة من شبه الجزيرة العربية ، ولكنه عظيم الأهمية والأثر بالنسبة للأمة العربية فقد عرف أهل اليمن الحضارة وأسهموا فيها بنصيب وافر منذ فجر التاريخ بل قبل أن يعرف التاريخ المدون . . . حضارة بناءة ذات آثار مجيدة عميقة تركت طابعها الواضح فى كثير من نواحى وصور النشاط البشرى . . . فى الدين واللغة والتجارة والزراعة والهندسة .

وقد أشار القرآن الكريم إلى اليمن وأهله وتجارته وزراعته وحدائقه وجناته فى مواضع كثيرة . . . حدثنا عن قوم عاد الذين بنوا مدينة إرم ذات العماد التى لم ير مثلها فى البلاد وعن قصتهم مع نبى الله هود . . . ثم عن ثمود ونبى الله صالح . . . وعن سبأ وقصة ملكتهم بلقيس مع سليمان .

وعن ملوكها وأهلها فى قصة أصحاب الأخدود من نصارى

نجران وما أنزله بهم ملك اليمن ذى نواس الذى اتخذ صنعاء مقراً لحكمه، وعن قصة هذا الملك مع أصحاب الفيل جند النجاشى ملك الحبشة .

وحدثنا عن مركزها التجارى فقد كانت سوقاً رئيسية للتجار العرب يقصدونها فى رحلة الشتاء عند ما يعتدل الجو .

ووصف الزراعة فيها وكيف كانت ناضرة يانعة . . . « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان ، عن يمين وشمال . . . » وكيف كانت البلاد آمنة مطمئنة فى عيشة رغدة . . . . « بلدة طيبة ورب غفور » . . . . وقصة أصحاب الجنة فى سورة القلم . وجاء فى سورة سبأ ذكر لسيل العرم الذى هدم سد مأرب .

وإذا كانت الدراسات التاريخية ليست مستوفاة عن اليمن فإن الآثار القديمة المتناثرة فى طول البلاد وعرضها أكبر شاهد عما كان بها من مجد وارتقاء ، نجد هذه الآثار منتشرة فى كل مكان بين ربوع اليمن فى تهائم السواحل وهضاب النجود ومرتفعات الجبال وإن كان أكثرها قد عبثت به الأيدى ولكن البقية الباقية تدل فى وضوح كيف كان حال البلاد فى الأزمان الغابرة قبل مولد المسيح بعشرات القرون .

وأهم هذه الآثار دون ريب هو سد مأرب الشهير الذى بنى فى مدينة مأرب قبل الميلاد بثمانية قرون ولا تتجلى عظمة

الفن الهندسي فى بناء هذا السد فحسب بل تتجلى أكثر وضوحاً فى المكان الذى اختير لبناء السد ليحجز أكبر قدر من الماء الذى يسيل على سفوح جبال السراة المرتفعة عقب موسم الأمطار ثم تضيع سدى فى الوديان التى تقذف بها إلى الصحراء وقد اختير موضع السد فى أضيق مكان تتجمع عنده ملتقى الوديان التى تسيل بكميات كبيرة من المياه حتى يحتجز أكبر ما يمكن من الماء ثم تقسم وتوزع على الوديان المختلفة طيلة العام إلى أن يحين موعد الأمطار التالى وكان هذا السد سبباً فى تعمير منطقة مأرب حتى أصبحت لزروعها وبساتينها شهرة لا يزال التاريخ يتحدث عنها . وكانوا يحرصون على صيانة هذا السد وترميمه وقيل إن آخر ترميم قام به أبرهة الحبشى فى عام مولد النبى صلوات الله عليه .

وقد تهدم بعد هذا فلم يعمر ثانية فتغير الحال وهلك الزرع والضرع وهاجر سكان المدن والقرى بعد أن نضب معين الرزق وتشتت القبائل التى كانت تستوطن المنطقة فانحازت غسان إلى الشام وجذامة إلى تهامة اليمن وأنمار إلى يثرب والأزد إلى عمان .

ولم يبق من السد إلا بعض جدران قليلة والبوابة اليمنى والبوابة اليسرى وقناة وموزع المياه الذى كان يقسم المياه على الجداول والوديان حسب حاجتها .

وقد ظل هذا السد قائماً يؤدى مهمته نحو ١٥٠٠ عام انتهت قبيل ظهور الإسلام ببضع سنوات .

ولا تزال هناك آثار باقية بين أنقاض مدينة مأرب فلا تزال هناك خرائب للمعابد والقصور .

ومن آثار اليمن القديمة معبد صرواح وقد أسس فى القرن الثامن . قبل الميلاد ولا يزال قائماً ولكنه مهمل وبه نقش يسمى نقش « النصر » وصرواح كانت عاصمة سبأ قبل مأرب .

والعمايد من الآثار الرائعة التى لاتزال قائمة وهى عبارة عن خمسة أعمدة شاهقة الارتفاع .

وبقايا الآثار لا تزال فى بلاد كثيرة أخرى غير مأرب مثل حصن الدعكر فى الجنوب وبقايا مدينة معين فى الجوف ثم بلاد السودا والبيضا وبراقش وغيرها .

والآثار السابقة كلها لمدنية كانت قبل ظهور الإسلام ولم يخل صدر الإسلام من مدنية لا تزال آثارها باقية وإن لم توجه لها أى عناية لدراستها شأنها شأن كل شىء باليمن فتوجد مساجد كثيرة لها طابع معمارى خاص .

كما أن هناك الفن المعمارى الصنعانى وهو ذو طابع خاص مميز .

وأهل اليمن كانوا من أمهر سكان العالم القديم فى الملاحة وفنون البحر وتجارة القوافل وكانت تحركاتهم المتصلة وسيلة لاقتباس حضارات الشعوب الذين يتصلون بهم .

كانوا حلقة الاتصال بين آسيا وأفريقيا وبلدان البحر المتوسط وبلاد الإغريق والرومان .

وكانت أهم التجارات فى العصور القديمة هى تجارة البخور وفى العصور الوسطى تجارة التوابل وكل من البخور والتوابل من منتجات آسيا وخاصة الهند والصين وكان يستهلك هذه الأنواع سكان الشام ومصر والإغريق والرومان فى بلدان أوربا فيما بعد. وكانت تلك البضائع ترد إلى ميناء عدن ومنها تنقلها السفن اليمنية عبر البحر الأحمر إلى البحر المتوسط أو تنقلها القوافل البرية مخترقة الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال حتى تصل غزة وبلاد الشام ثم تعود تلك القوافل مرة أخرى محملة بمنتجات الشام وما فى أسواقها . .

فإذا استعرضنا تاريخهم فى الزراعة وجدنا أمراً عجباً . . . فكما كانوا من أول سكان العالم الذين عرفوا بناء السدود فإنهم كانوا أيضاً من أسبق زراع العالم فى عمل المدرجات الجبلية فكانوا يهذبون سفوح الجبال ويسوونها على هيئة مصاطب لتستقبل مياه الأمطار الساقطة ولا تدعها تسيل على منحدر السفح إلى أسفل فى اتجاه الوادى فإذا كانت هذه المصاطب صخرية نقلوا إليها الطمى الناعم الخصب من أسفل الوادى على أكتافهم أو على دوابهم وهيأوا تربة خصبة تصبح مهاداً غنية بالمواد الغذائية لكل ما يزرع فيها من بذور .

وزرعوا حاصلات وخضر وفاكهة لا قبل لأهل الجزيرة العربية بها وساعدهم على ذلك طبيعة الأرض فاختلاف الارتفاعات ينتج عنه اختلاف درجات الحرارة والرطوبة مما

يعطى فرصة لنمو العديد من المزروعات .

وقد اشتهرت بلادهم فى القديم بزراعة الكروم وصناعة الخمور وزراعة الزيتون واستخراج الزيت .

وقد سبقت تربية الحيوان الزراعة فاعتنوا بتربية الأغنام والماعز والبقر والإبل .

ثم ساهم شعب اليمن بوصفه عضواً عاملا فى الأمة العربية فى صدر الإسلام فى بناء أمجاد أمة العرب فاشترك أبناؤه فى الفتوح الإسلامية التى امتدت بين المحيط الأطلسى غرباً وحدود الهند شرقاً . ونبغ منهم عدد غير قليل من علماء الفقه واللغة والشعر والأدب .

كان هذا لمحة من الماضى المجيد لأمة اليمن . . . فماذا عن حاضرها ؟

لقد استقطع الاستعمار الأوربى الكثير من أراضى اليمن وخاصة من الجنوب والشرق ولم يبق إلا رقعة من الأرض تبلغ مساحتها نحو ١٩٠ ألف كليومتر مربع أى نحو ٤٤ مليوناً من الأفدنة ويسكن هذه الرقعة عدد اختلف فى تقديره بين ثلاثة إلى ستة ملايين نسمة أى بين ١٦ ، ٣٢ نفساً لكل كيلومتر مربع .

ويعتمد أكثرهم على الزراعة وأكثرهم مستقرون فلا توجد إلا قلة من البداوة لا يعتد بها .

وأغلبية السكان تعيش فى المرتفعات الوسطى حيث تجود

الزراعة ويعيش ١٠٪ منهم فى المناطق الساحلية « التهائم » . يحترفون الزراعة أو الصيد والقلة القليلة الباقية تعيش فى النجود . وجميعهم من المسلمين تقريباً. وكانت هناك قلة يهودية ولكنها هاجرت إلى فلسطين المغتصبة ؛ وينقسم المسلمون إلى ثلاث طوائف :

الشافعية أو أهل السنة ويقطنون الأراضى الواطئة والمرتفعات المتوسطة .

والزيود وهم فرقة من الشيعة يسكنون المرتفعات ومنهم الطبقة الحاكمة وأكثر رجال الحكومة .

والإسماعيلية وهم فرقة من الشيعة أيضاً وعددهم قليل ويعيش أكثرهم بالمدن ويحترفون التجارة .

وقد حبت الأقدار أمة اليمن بموارد طبيعية ممتازة فهى بذلك أغنى بلاد الجزيرة العربية دون نقاش . . . وهى :

الثروة الزراعية والحيوانية :

وأول هذه المواد أهمية وأعظمها قدراً الزراعة فموارد المياه كافية لإنتاج زراعة مجزية فمتوسط ما يسقط سنوياً من المطر يبلغ نحو ٥٠٠ مليمتر ويقدر حجمه بنحو ١٠ مليون متر مكعب ويسيل قدر كبير من هذا الماء إلى البحر الأحمر دون أن ينتفع به . وهناك مياه جوفية فى كثير من المناطق ولكن لم ينتفع بها حتى الآن .

ونظراً لاختلاف أجواء المناطق الزراعية فنجد أن الفرصة سانحة لنمو كثير من النباتات التى تنمو بكل من المنطقتين الحارة والمعتدلة .

وأهم الحاصلات الحقلية هى الذرة الرفيعة والدخن والقمح والشعير والذرة والبن والقات .

ويجود كثير من الخضر منها البطاطس والباميا والجزر والبصل والطماطم والبطيخ والخيار والفجل والثوم وغيرها .

ومن الفاكهة النخيل ويوجد نحو ٢٥٠٠٠٠ نخلة والموز والمانجو والرمان والعنب والموالح والتين والتفاح والكمثرى والسفرجل والجوز والزيتون والتين الشوكى والعناب البرى والخرنوب .

كما تزرع كثير من النباتات العطرية .

وتنمو بريًّا أنواع مختلفة من الأشجار الخشبية منها السنط والسلم والأثل والزيتون والتمر هندى البرى وأنواع من الجميز (الفيكس) والجوز والخرنوب والمخيط والسدر والبطم والكافور والأراك والقضاب والعضاه والهجليج والدبار والأجوى والبشم والمرخ والعلب ويقدر أن الغابات تغطى نحو ٣ ملايين فدان .

والثروة الحيوانية لها اعتبارها فيوجد نحو :

٨,٥ مليون	من الأغنام والماعز
٣٠٠٠٠٠	من الأبقار
٧٠٠٠٠	من الإبل
٢٥٠٠	من الخيل

وتقدر قيمتها حسب الأسعار السائدة محلياً بنحو ٤٠ مليوناً من الجنيهات المصرية .

ولليمن ساحل طويل على شاطئ البحر الأحمر الغني بأسماكه وحيواناته البحرية ولكن عملية صيد الأسماك عملية بدائية ويبلغ عدد المشتغلين بالصيد نحو ١٥٠٠ شخص ومتوسط ما يصيدونه سنوياً ٢٠٠٠ طن يستهلك نصفه فى البلاد والباقى يجفف ويصدر إلى عدن أو عن طريقها .

وقوارب وأدوات الصيد وطرق الصيد كلها بسيطة بدائية .

ويوجد بالشاطئ اليمنى أنواع كثيرة من الأسماك جيدة الطعم مرتفعة القيمة الغذائية منها : العربى ، اللسان ، البياض ، الجحش ، مرجان ، عدف ، بهار ، تداف ، دراك ، القرش (الحام) ، باغه ، قوقاب ، وكلها ذات أهمية اقتصادية كما توجد كميات كبيرة من السردين ولكن لا يهتم بها أحد بينما تقوم أرتيريا التى تقع قبالة اليمن على الساحل الغربى للبحر الأحمر بصيد عشرات الآلاف من أطنان السردين وتصدر طازجة أو بعد تصنيعها .

وتوجد مراقد كثيرة للإسفنج فى المياه قليلة الغور تشابه فى صفاتها تلك التى تستعمل الآن فى أرتيريا وتكثر منابت الإسفنج حول جزر جاليتا والمرك وكوبان وتكفاش وحومر ورابن وعجوة وزريمة وقصار وتلافن وعراف واللابرا والبدهى وكدمان وزرات .

وتوجد أيضاً مغاصات للؤلؤ بالقرب من حومر وتعطى دخلا لا بأس به نسبياً .

الثروة المعدنية :

قامت بعثات فنية متعددة من مختلف الجنسيات بالتنقيب عن المعادن وقدمت تقاريرها الفنية للطاغية أحمد ثم توقف الأمر عند هذا الحد فلم تبد أى بادرة لاستغلال هذه الثروات المدفونة وموجز ما جاء بهذه التقارير أن فى منطقة صنعاء كميات كبيرة من الحديد قابلة للاستغلال على أساس اقتصادى سليم .

ووجد الفحم الحجرى بكثرة فى الجنوب حتى إنه يبدو على سطح الأرض فى منحدرات الجبال .

وفى صليف عثر على منجم ملح كان الأتراك قد بدأوا فى استثماره أيام حكمهم ثم أعيد استغلاله أخيراً وهذا الملح يحوى نسبة مرتفعة من كلورور الصوديوم تجعله فى مصاف أفضل مناجم العالم .

وثبت وجود الذهب والفضة واليورانيوم والنحاس والمنجنيز والبوتاس والأسمنت والفوسفات وكلها موجودة بكميات يمكن تعدينها بدرجة مربحة جداً . ويقال إن اليورانيوم موجود بكميات كبيرة نسبياً .

البترول :

قامت شركة ألمانية بالتنقيب عن البترول على الساحل حول الحديدة ثم اختلفت مع الطاغية أحمد فلم يعرف نتائج بحثها . ثم جاءت شركة أمريكية اسمها « شركة التطوير اليمنية » وحصلت على امتياز للتنقيب واستخراج البترول فى مساحة تبلغ ثلثى مساحة اليمن .

وقد بدأت أعمالها منذ عام ١٩٥٦ وكانت متعثرة بسبب خلافاتها المستمرة مع الحكومة السابقة .

وعلى الحدود الجنوبية بين اليمن وعدن توجد منطقة متنازع عليها بين بريطانيا واليمن وتقوم شركة بترول العراق بالبحث عن البترول فى مثلث بيهان — شبوه — عياضه — ويعقد جيولوجيو البترول آمالا كباراً على هذا المثلث .

الطاقة البشرية :

وهى أهم الموارد الطبيعية وأخطرها شأناً وأعلاها مكانة فالإنسان منذ وجوده على سطح الأرض هو الصانع الوحيد لحضارة هذا الكوكب وبه وجدت العلوم والفنون المختلفة وعلى يديه ترتقى وتتقدم كل يوم بل كل لحظة .

والإنسان هو الذى يحول الموارد الخام إلى صورة يمكن استغلالها أو استهلاكها وعلى قدر الهمة التى يبذلها ترتفع كفاءة المورد المستغل وبدون الطاقة البشرية لا يمكن الاستفادة من أى هبة من هبات الطبيعة .

وفى اليمن عدد من السكان هم دون الستة ملايين عداً دينهم الإسلام، ولغتهم العربية، وهم ذوو عادات وتقاليد واحدة وإن اختلفوا أجناساً بسبب اختلاف الأصل أو بسبب عوامل البيئة فنجد سكان التهائم وهى المناطق الساحلية لإفريقيا سمر الوجوه يدل ظاهرهم على التوالد من عنصر إفريقى وهم أميل إلى النحافة . أما المرتفعات فالناس أطول قامة وأغلظ عظاماً .

والشعب كريم وادع هادئ الطباع يتمسك بمبادئ الدين ويعشق الأدب ولكن غشيته غاشيات من تلك التى تبتلى بها الأمم عطلت الطاقة البشرية كلها عن الإنتاج والعمل المثمر مما أدى إلى عدم الانتفاع من المواد الأخرى المتوافرة فى الوطن اليمنى ونتج عن ذلك فقر مدقع للأمة كلها وتخلف لا مثيل له حتى أصبحت تلك الأمة مضرب الأمثال للفاقة والفقر والتخلف بعد أن كانت مضرب الأمثال للحضارة والفن الهندسى وتقدم الزراعة والتجارة . فنى تقرير لهيئة الأمم عن متوسط دخل الفرد السنوى لمختلف بلاد العالم عام ١٩٤٩ جاء فيه أن ٣١٪ من سكان العالم يقل دخل الفرد فيهم عن ٥٠ دولاراً سنوياً . وأن دخل الفرد فى بعض بلاد العالم هو كالآتى :

الولايات المتحدة الأمريكية	١٥٠٠	دولار
كندا	٨٧٠	دولاراً
سويسرا	٨٤٩	دولاراً
إنجلترا	٧٧٣	دولاراً
لبنان	١٢٥	دولاراً
مصر وسوريا	١٠٠	دولا
العراق	٨٥	دولاراً
اليمن	٤٠	دولاراً

ومنه يتضح أن دخل الفرد اليمنى هو أقل الدخول فى العالم ويبلغ جزءاً من أربعين من دخل الفرد الأمريكى . ومع ذلك فإن هذا الرقم الضئيل الهزيل لا يمثل حقيقة الحال فى اليمن السعيد إذ المعلوم أن متوسط الدخل الفردى هو حاصل قسمة مجموع الدخل الأهلى للبلد على عدد سكانه ولكن الدخل ليس موزعاً توزيعاً متساوياً فى أى بلد .

وفى بلد ساد فيه الإقطاع مثل اليمن حيث كانت تتركز الثروة والدخول الضخمة فى أيدى عدد قليل من الأفراد بينما الأكثرية لا تملك شيئاً نستنتج من هذا أن المتوسط الحقيقى لدخل الفرد من عامة الشعب ضئيل لا يبلغ نصف المبلغ السابق ذكره فقد جاء فى تقرير منظمة الأغذية والزراعة

التابعة لهيئة الأمم عام ١٩٥٦ عن ملكية الأراضى الزراعية باليمن أن : ٢٥٪ من مجموع الأراضى المنزرعة كانت مملوكة لأكثر من ٩٠٪ من الملاك . و ٧٥٪ من مجموع الأراضى المنزرعة مملوكة لأقل من ١٠٪ من الملاك أى أن أقل من عشر الملاك الزراعيين يمتلكون ثلاثة أرباع الأراضى المنزرعة باليمن وهى حقيقة بارزة لا تحتاج إلى وصف أو تحليل .

وترتب على هذا الدخل الهزيل نتائج خطيرة يتراكم بعضها فوق بعض ففى مجال الصحة نجد أن هناك العديد من الأمراض الأساسية ذات الخطر تتضمن التيفود والباراتيفود والدوسنتاريا والسل والجدرى والأمراض الجلدية والتناسلية والأمراض الناشئة عن العدوى بالطفيليات مثل الإسكارس والبلهارسيا بنوعيها البولية والمعوية والدودة الشريطية والإنكلستوما .

وثبت أن انتشار السل بنسبة	٥٠٪
والأمراض التناسلية بنسبة	٨٠٪
والتراكوما بنسبة	٩٠٪

والعمى وأمراض العيون شائعة جداً . والملاريا منتشرة لدرجة تعتبر معها أنها من أهم أسباب المرض والموت فى البلاد . ويوجد أكثر هذا المرض فى التهائم وفى وديان المرتفعات الوسطى .

وحصوة المثانة شائعة جداً فى جميع الأعمار بما فيها الأطفال الرضع والتراخوما والجرب منتشران انتشاراً عظيماً .

ومعدل موت الأطفال مرتفع جداً وهو أعلى نسبة فى العالم إذ تقدر بنحو ٥٠٠ فى الألف لمن لا تزيد سنهم عن سنة . أما أسباب ارتفاع هذا المعدل فيرجع إلى الأمراض المعدية المعوية الناشئة عن نقص الوقاية الصحية وعن أساليب تغذية الرضع والأطفال .

والتعليم ليس أكثر حظاً من الصحة فهو أولا مقصور على الذكور دون الإناث ويقدر عدد المتعلمين بما لا يزيد عن ١٠٪ وتعريف المتعلم هنا هو من يعرف القراءة والكتابة على أى مستوى كان ، وكان عدد المدارس نحو ١٤ مدرسة . . . ! ! منها ست مخصصة للتعليم الابتدائى والباقى للمتوسط والثانوى ولا تدرس اللغات الأجنبية ولا العلوم .

أما الإنتاج الزراعى فقد تدهور تدهوراً لامثيل له وانقطعت تماماً الصلة بين الماضى المجيد فى الزراعة والحاضر المرير ومع ما اتصف به المزارع اليمنى من جلد وصبر وقدرة على التحمل إلا أن الطريقة التى يزرع بها اليوم غارقة فى البدائية علاوة على أن أكثر أنواع الحاصلات ردىء الصفات وتفتك بها الآفات ولا يعرف المزارع اليمنى حتى اليوم ما هى الآفات وبالتالى لا يعرف أنها تتقى وتقاوم وتعالج . ولا يعرف أيضاً أن هناك آلات حديثة تستعمل فى الرى والحرث والعمليات

الزراعية الأخرى .

وبالمثل الإنتاج الحيوانى إنتاج تعترضه العديد من الأمراض والطفيليات ومن أهمها الحمى القلاعية وجدرى الضأن وتنتشر أنواع كثيرة من القراد والطفيليات المعدية والمعوية والديدان الكبدية هذا علاوة على الأمراض الوبائية التى تنتشر فى سرعة خاطفة وتنزل خسائر فادحة .

ومرض النجمة الذى يصيب الخيل فى جنوب أفريقيا متوطن باليمن وتنشأ عنه نفوق الخيل بنسبة أكبر من الحمير والبغال .

ويصاب الدجاج بمرض النيوكاسل وجدرى الطيور .

وأهم من كل هذا أنه توجد أمراض حيوانية من التى تعدى الإنسان مثل السل البقرى والإجهاض المعدى والدودة الشريطية .

وتتداول لحوم المدن فى الوقت الحاضر بطرق غير صحية فالمجازر ليس فيها ماء أرضها وحلة تجوس فيها أعداد كبيرة من الكلاب وتحوم فوقها الطيور الجارحة ويقف عليها الذباب بكثرة حتى يكاد يغطيها .

وصيد الأسماك عملية غير منتجة ولا مثمرة فقد ذكرنا أن عدد الصيادين يبلغ نحو ١٥٠٠ وأن جملة ما يصيدونه سنويًا نحو ٢٠٠٠ طن وهو قدر يمكن أن تصيده خمسة مراكب صيد تسير بالمحركات ويـ ـل على كل منها عدد من الصيادين

لا يتجاوز العشرة أى أن خمسين صياداً يمكنهم بالوسائل الحديثة أن ينتجوا مثلماً ينتج كل الصيادين باليمن .

وطرق المواصلات ووسائل النقل هى الأخرى غاية فى التخلف ،فليست هناك طرق داخلية تقريباً اللهم إلا بعض الدروب التى لا تصلح إلا لسير الدواب ووسيلة النقل السائدة هى الحمير والبغال والجمال . وتتصل المدن الرئيسية بطرق للسيارات ، ولكنها طرق رديئة غير صالحة للاستعمال فى مواسم الأمطار . وقد أدخلت وسائل النقل الجوى حديثاً فقط .

والموانى قليلة مهملة لا يبذل أى مجهد لتحسينها وقد دمر ميناء الحديدة بقنابل الإنجليز عام ١٩١٧ ولم يفكر أحد فى إصلاحه إلا عام ١٩٥٦ أى بعد نحو ٤٠ عاماً .

والتجارة ما زالت متأخرة بدائية وهى أضعف الحلقات فى سلسلة الاقتصاد القومى والتجار يمثلون نسبة ضئيلة من مجموع السكان .

ولم تتعد التجارة طور المقايضة كما كان يحدث فى عصور الجاهلية الأولى ، يحضر المزارعون الفائض من إنتاجهم إلى الأسواق ويبادلونه بما يحتاجونه من السلع الاستهلاكية مثل الأقمشة والأدوات المنزلية والبترول وبعض المواد الغذائية مثل السكر والشاى والأرز .

وطرق التسويق عديمة الكفاية بوجه عام فالتدرج والفرز والتعبئة غير معروفة . وقبل أن تصل السلع إلى المستهلك يحل بها العطب بدرجة كبيرة وتحتوى الحبوب وبعض السلع غير القابلة

للعطب على نسبة كبيرة من المواد الغريبة .

ولا توجد وحدات ثابتة للموازين والمكاييل بل تختلف من جهة إلى أخرى مما يزيد مشاكل التداول فى التسويق .

* * *

تلك هى الملامح الرئيسية للمجتمع اليمنى إلى قيام الثورة والتى من أجلها أجمع الكتاب وخبراء منظمات هيئة الأمم على وضع اليمن فى مؤخرة صفوف الأمم المتخلفة .

ترى ما الذى أوصل اليمن إلى هذا الحال . . . ؟

بعد الماضى المجيد والعز الفريد .

ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض من الجهل والبعد عن نور المعرفة .

وفاقة ومسغبة لا نظير لهما فى الوجود .

وأمراض وعلل وزعت نفسها على جميع السكان فلم يفلت أحد منها والسعيد حقـاً من فاز بعلة أوعلتين فحسب . .

وعزوف عن العمل والإنتاج .

وليست هذه الحالات من صفات اليمنى فى الماضى وليست فى وقتنا الحاضر من صفات اليمنى الذى يعيش خارج بلاده .

فإن هناك أكثر من مليون يمنى يعيشون خارج الحدود فى البلاد العربية وإنجلترا وأمريكا وأندونيسيا وغيرها وسلوكهم جميعاً فى تلك البلاد سلوك ممتاز منتج .

أمر عجيب . . . شعب له ماضٍ مشرف وحاضره مشرف

إذا كان خارج بلاده .

أما داخل البلاد فالحال غير الحال .

فما الذي أدى إلى هذا . . . لا بد أن هناك سبباً ؟

نعم هناك سبب . . . وهو مصيبة مزدوجة ابتلى بها شعب اليمن تلك هي . . . نظام الحكم السابق وشجرة القات . . . . والبحث في العامل الأول سياسي ولا شأن لهذا البحث بالسياسة إطلاقاً وإن كان العاملان مرتبطين ببعضهما البعض ارتباطاً وثيقاً ويتفاعلان تفاعلا قوياً ، تبدو نتائجه مجسمة في الوضع الذي آل إليه الحال في اليمن إلى قيام الثورة .

فإذا أشير في هذا البحث إلى بعض النواحي السياسية فهي إشارة عابرة فرضتها مناقشة الأسباب عساها تؤدي إلى علاج أو افتراض علاج .

أما شجرة القات التي صنعت ما عجز عنه الاستعمار في كل بلاد العالم فإنها شجرة خبيثة يجب أن تجتث من جذورها . . . إنها شجرة ملعونة استطاعت أن تكون السبب في انهيار شعب كامل بأسره .

وسنتحدث في الفصول التالية عن هذه الشجرة . . . وصفها . . . وآثارها . . . .

٢

القات فى عالم النبات

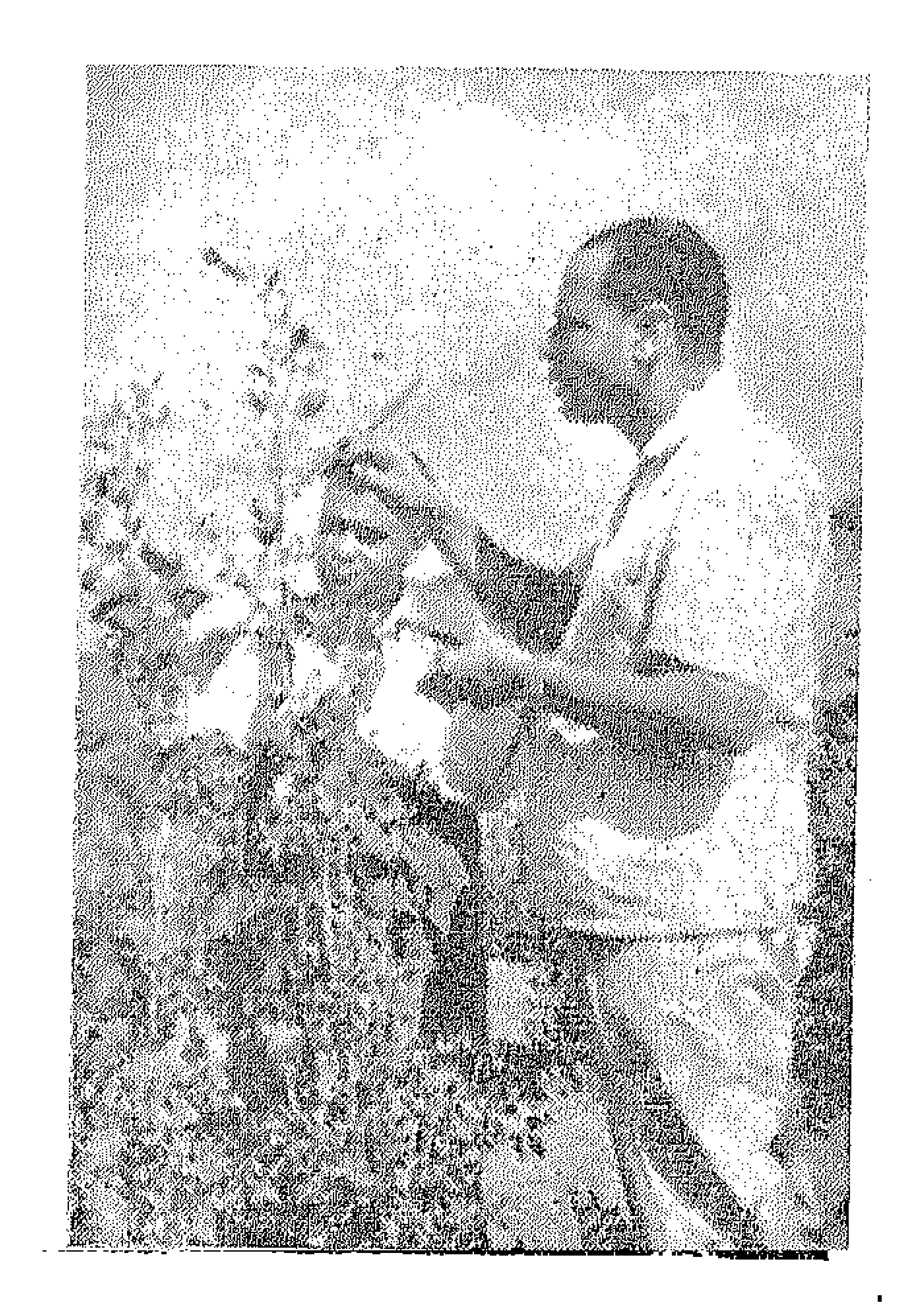
القات شجرة دائمة الخضرة اسمها العلمى Catha edulis Forsk تتبع العائلة النباتية Celastraceae . ضيقة الانتشار إذ يقتصر وجودها على شرق وأواسط إفريقيا وجنوب الجزيرة العربية.

يبلغ ارتفاعها نحو ٢ — ٣ أمتار فى المناطق الجبلية العالية الجافة ويصل هذا الارتفاع إلى نحو ٦ أمتار على سفوح الجبال الحبشية الرطبة أما إذا صادفت ظروفاً مناسبة فى المناطق الاستوائية فإن ارتفاعها يصل إلى ٢٥ متراً ويوجد منها أربع شجرات بالجزيرة النباتية فى أسوان ولكن ارتفاعها يبلغ نحو ٢,٥ متر فقط وشجرة واحدة بحديقة الأورمان بالجيزة يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثة أمتار .

ويبلغ محيط الجذع نحو ٦٠ سنتيمتراً وقشرة الساق — اللحاء — رقيقة ناعمة بنية اللون .

وقد سماها بعض الرحالة الأجانب شجرة شاى العرب ولكنها تختلف كثيراً عن شجرة الشاى .

الأوراق حديثة التكوين غضة محمرة اللون وعند ما تستكمل نموها يصبح لونها أخضر مصفراً . وهى متقابلة أهليجية رمحية



شجرة قات و يلاحظ أن الأفرع الطرفية تقطع أولا بأول لبيعها

قوامها جلدى لا طعم لها وتختلف أبعادها كثيراً وعادة يبلغ طولها نحو ١٠ سنتيمترات وعرضها نحو خمسة سم. الجزء الطرفى القاعدى أملس وبقية محيط الورقة ذو حافة منشارية والعرق الوسطى بارز من أسفل تميل جوانبه إلى الاحمرار والعروق الثانوية تتقابل قبل حافة الطرف . وبين العروق الثانوية توجد عروق أصغر تكون تعريقاً شبكياً .

ومن وجهة النظر التشريحية وصفها Perrot كما يلى :

طبقة البشرة ملساء ، النسيج الوسطى ذو وجهين وله طبقتان من النسيج العمادى - المحيطى - وخلايا برنشيمية إسفنجية ذو خلايا متشعبة ذات بلورات توأمية منفصلة وأحياناً تنتظم فى مجموعات عنقودية فى نفس الخلية .

الحزم الوعائية على شكل قوس مقفل ، يقفله شريطان علويان من اللحاء الملجنن . الأزهار صغيرة بيضاء أو مخضرة مرتبطة فى أشطاء إبطية عريضة نسبياً تتفتح من المركز إلى الخارج .

الكأس يحتوى على خمس سبلات مفصصة .

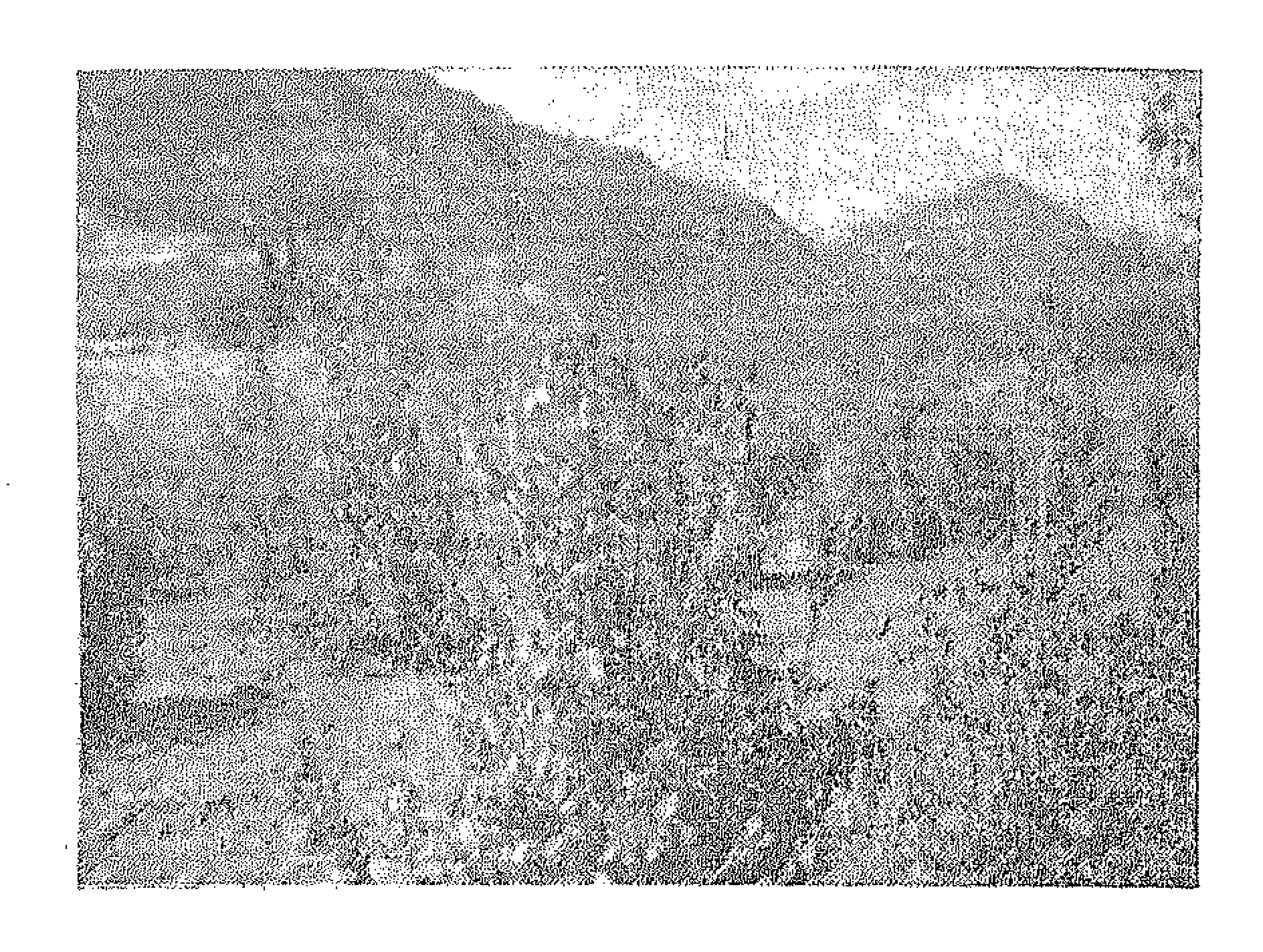
التويج يحتوى خمس بتلات .

الطلع يحتوى خمسة أسدية .

الثمرة كبسولة مستطيلة طولها نحو ثمانية مليمترات بنية غامقة ذات ثلاث مصاريع وكل مصراع يحتوى على ١ — ٣ بذور لونها بنى محمر . وطول البذرة حوالى ٣ مليمترات .

تاريخه وموطنه :

يحتمل أن يكون القات قد عرف واستعمل فى الجبال الحبشية ويبدو أنه كان مزروعاً من القدم مما يرجح أن الحبشة هى الموطن الأصلى لهذه الشجرة وإن كان ليس هناك دليل قاطع على أن تلك البلاد هى موطنه الأصلى .



مزرعة قات

والمعتقد أن القدماء كانوا لا يعرفون كثيراً عن القات وإن ذكر بعض المؤرخين أنه كان يستعمل لتنشيط الذهن وشحذ الذاكرة وإبعاد الهم والحزن عن النفس وذلك بحرق الأوراق واستنشاق دخانها .

وقيل إن الإسكندر الأكبر استعمل أوراق القات لعلاج جنوده من مرض تفشى بينهم .

وقد ربط بعض القدامى بين مفعول القات والحشيش والأفيون وظنوا أن تأثيرها كله واحد متشابه ولكن ذلك غير صحيح على الإطلاق .

وأول إشارة مدونة عن القات ذكرت فى مخطوط عربى

طبي محفوظ بدار الكتب الأهلية بباريس وجاء فيه أن الملك صبر الدين قرر زراعة القات فى مدينة مراد . ويقول Rochet إن القات أدخل اليمن عام ١٤٢٤ ميلادية .

ويذكر مرجع آخر أن القات زرع فى منطقة عدن فى القرن الرابع عشر وتكلم المؤرخ العربى « عبد القادر » عن وجود القات فى اليمن فى القرن السادس عشر .

ويظن أن زراعة القات فى اليمن سبقت زراعة البن

وفى وقتنا الحاضر ينمو القات برياً فى المناطق الجبلية الرطبة فى شرق وجنوب أفريقيا ويزرع أيضاً فى هذه المناطق .

ينمو القات تحت الظروف الطبيعية على ارتفاع يختلف من ١٥٠٠ — ٢٠٠٠ متر وكقاعدة عامة ينمو فى مناطق الصنوبر . ويوجد القات فى المناطق التالية :

الجزيرة العربية :

يوجد فى اليمن وهى أهم مناطق زراعته فى العالم إذ ينتشر فى جميع المناطق الجبلية .

ويوجد فى شرق اليمن (حضرموت) فى المناطق المرتفعة أيضاً .

وفى السعودية ينمو فى جبال السراة بمنطقة جيزان وخاصة جبال فيفا وبنى مالك والريث .

الكونغو : منطقة البحيرات وخاصة بالقرب من بحيرة كيدو Kidu والبرت مارك وإقليم روانزورى وبحيرة موجانجا .

أرتيريا : المعلومات متناقضة فبعض الكتاب يثبت وجوده فى أرتيريا والبعض ينفى ذلك .

الحبشة : إقليم ألبا يرما واكسم وأورا وشيريه وشو .

كينيا : المنطقة الشمالية المحصورة بين جبل كينيا وتلال شيولو .

نياسالاند : منطقة ديدزا ــ جبل ملانجى ــ منطقة بلانتير .

أوغنده : كيجازى ، كراموجا ، بوجيشو وجبال أوبيسيان وألجا .

روديسيا الجنوبية : إقليم سالسبورى وأوميتالى .

تنجانيقا : سجل وجود القات فى جميع المناطق الجبلية على المرتفعات من ١٢٠٠ ــ ٢٥٠٠ متر .

اتحاد جنوب إفريقيا : منطقة كوينزتاون .

أصناف القات :

لا يعرف حتى الآن إلا نوع نباتى واحد يتبع الجنس Catha وهو النوع edulis ولكن المشاهد أن أشجار القات ذات أشكال عديدة ولذا فمن المحقق أن هناك عدة أصناف من القات ومن المرجح أنها تختلف فى صفاتها .

ولما كانت أكثر أشجار القات فى العالم منزرعة فى اليمن ولا تسنح الفرصة لعلماء النبات بارتياد اليمن ودراسة نباتاته دراسة مستوفاة لهذا تعتبر دراسة القات من الوجهة النباتية دراسة غير مستوفاة لم تستكمل بعد .

وقد أشار الأستاذ شفالييه A. Chevalier . أن A. Richard لاحظ فى الحبشة وجود نوع من القـــات عرفـــه باسم : Celastrus padinus Richard ويتميز بأن بتلات الزهرة أطول وذات حواف أعرض .

والأصل البرى Methyscophyllum glaucum Eckl & Zeyher هو نوع مختلف اختلافاً واضحاً عن القات فأوراقه خضراء مغبرة ضيقة ويسمى أيضاً Catha glauca Comb. .

ومما يجدر الإشارة إليه أنه يوجد فى الفليبين نبات يتبع نفس العائلة النباتية التى يتبعها القات بتلات زهرته — أوراق

تويج الزهرة ـــ سامة وكانت تستعمل فى صنع رؤوس الحراب المسممة .

زراعة القات :

يجود نمو القات فى المناطق المرتفعة بين ١٦٥٠ ـــ ٢٥٠٠ متر ومنزرع فى منطقة هرر على ارتفاع ١٨٠٠ متر وتشاهد شجيراته مختلطة من شجيرات البن فى خطوط متبادلة ولا يروى صناعياً ويعتمد على مياه المطر .

أما فى اليمن فإن أجود أصناف القات هى التى تزرع فى المناطق الجبلية المرتفعة ولكن نظراً لارتفاع سعره هناك وكثرة الطلب عليه فإن الزراع فى مختلف المناطق يحاولون زراعته .

ويتكاثر بالعقلة غالباً وبالبذور نادراً .

تقطع الأفرع التى فى سمك الأصبع إلى قطع أو عقل طولها نحو نصف متر وتزرع فى مكانها المستديم وتروى صناعياً لمدة نحو ٤٠ يوماً ثم تترك لتعتمد على مياه المطر ويحرص الزراع على حماية الشجيرة وهى صغيرة فتحاط بأفرع وأغصان جافة أو يحاط حولها بجدار من طين وذلك لحمايتها من الماشية وخاصة الماعز .

ولا تصلح الشجرة لقطف الأوراق منها قبل ٣ ـــ ٤ سنوات ومتوسط ارتفاع الشجرة فى الحبشة حوالى خمسة أمتار وتعمر نحو ٢٠ ـــ ٢٥ سنة .

ولما كانت الأشجار تقلم سنويًّا وتقطع فروعها حديثة النمو ولذا فإنها لا ترتفع كثيراً عن خمسة أمتار ولو تركت دون الاعتداء عليها فإن ارتفاعها يصل إلى نحو عشرين متراً .



مزرعة أشجار قات

ولم تشاهد آفات زراعية هامة تصيب شجرة القات بينما تصاب أشجار البن المنزرعة بجوارها بعدة أمراض وحشرات قد تؤدى إلى موتها فتشاهد شجرات القات قوية نضرة قارعة وأشجار البن هزيلة ضعيفة مصفرة تفتك بها الحشرات والأمراض .

وحتى الجراد الذى لا يبقى ولا يذر يعاف أكل أوراق

القات ولا يقبل عليه إلا مضطراً إذا لم يجد غيره كى يقتات .

وتزرع الأشجار دون نظام أو دراية بل تزرع بتلك الطرق البدائية التى يزرع بها باقى الحاصلات فى اليمن أى بنفس الطرق التى كان يزرع بها الأجداد منذ آلاف السنين .

* * *

أسماء القات:

تختلف أسماء القات تبعاً للبلاد التى يزرع فيها فى إفريقيا والجزيرة الغربية وتكثر الأسماء نظراً لأن بعضها يطلق على الشجرة والبعض الآخر يطلق على الأجزاء المستعملة والأسماء التى عرفها الأوربيون عن القات منقولة كلها عن الأسماء المحلية بالبلاد العربية .

فى الإنجليزية يسمى :

Arabian tea plant, Khat, Kat, Cafta

وبالفرنسية :

Catha, Célastre, Cathe comestible, Gat.

وبالألمانية : Katpflanze

وبالإيطالية : Arapistan Çayi

وباليونانية : Catha

وأشهر أسمائه العربية « القات » أو شاى العرب وقد أطلق هذا الاسم الأخير عليه الرحالة الأجانب مع أنها لا تشبه شجرة الشاى فى شىء ولكن ربما كانت التسمية راجعة إلى أنه فى بداية استعمال القات لم تكن تعرف الطريقة الحالية لاستعماله وهى طريقة المضغ المشهورة باسم طريقة « التخزين » بل كانت توضع الأوراق الجافة أو الخضراء فى الماء المغلى بالطريقة التى يحضر بها الشاى وهنا أطلق عليه اسم شاى العرب .

ويطلق عليه كثير من أسماء الكناية فى اليمن فى أشعارهم وأزجالهم التى يتفنون فيها بالقات ومفعوله .

والاسم العربى « قات » هو أشهر الأسماء المعروفة لهذه الشجرة فى العالم نظراً لأن أكثر انتشار زراعة هذه الشجرة هو فى بلد عربى وهو اليمن ولأن اليمن هم أكثر الناس استعمالا له فى الوقت الحاضر وفى الماضى .

وعن العرب نقل الأوربيون الاسم حسب الطريقة التى ينطق بها كل لغة فهو :

Catha, Khat, Kat, gat, Ciat, ... etc.

وفى الصومال يسمى قات أيضاً وإن كانت تنطق محرفة « تشات » .

والاسم الذى يلى القات فى الشهرة وسعة الاستعمال هو « ميرا » أو « ميراء » وينتشر هذا الاسم فى شرق وجنوب إفريقيا ويستعمل فى الأبحاث العلمية

ومن الأسماء الشائعة فى شرق إفريقيا :

جزالاند : يسمى متسوارى .

كينيا : قات ، ميرانجى ، ميرا ، ميراء ، ليس ، طمايات ، ميونجى ، ماونج .

نياسالاند : متسوارى ، مديمامادزى .

أوغنده : موستات

الحبشة : تج أو تدج .

وقد ذكر بعض المؤرخين قائمة بأسماء وتعاريف تميز الصفات المختلفة للقات ولكن أكثر هذه التعاريف لا تتفق مع بعضها البعض .

٣
التركيب الكيماوى والأقرباذينى

الدراسات عن القات لا تزال قليلة كما هو معروف وقد قام كثير من الباحثين الأوربيين بتحليل عينات من أوراق القات ولكن يؤخذ على هذه الدراسات أن العينات لم تكن من مصدر واحد لصعوبة الحصول عليها بصفة دورية منتظمة كما أن العينات كانت تصل إلى معامل التحليل بعد مدة بسبب طول المسافة وبديهى أن تفقد بعض خواص الأوراق بمضى الوقت مما يجعل التحليل غير ممثل للحقيقة وهناك خلافات بين عينة تؤخذ من شجرة ارتفاعها متر واحد فقط وتنمو على ارتفاع ١٥٠٠ متر فى منطقة جبلية جافة وبين عينة أخرى مأخوذة من شجرة ارتفاعها ٦ أمتار مثلا نامية فى المنطقة الاستوائية وينتظر أيضاً وجود فرق بين عينة مأخوذة من الأطراف الغضة حديثة النمو والأوراق القديمة .

ومن الحقائق الكيميائية المعروفة أنه فى النباتات القلويدية يختلف التأثير كثيراً تبعاً لظروف البيئة وخاصة التربة والمناخ التى ينمو فيها النبات وكذلك تبعاً للطريقة التى يزرع بها النبات

ذا كان النبات يزرع وليس بريّاً ولذا تختلف المحتويات القلوية وقد تختفي أو تقل بعض التأثيرات والخواص وأكبر مثل لذلك نبات الأفيون إذ تختلف نسبة القلويدات الموجودة به كثيراً تبعاً للظروف السابق شرحها وبالتالى يختلف مفعول المادة وأثرها .

وأكبر برهان عملى على ذلك أن شجر القات نقل إلى كاليفورنيا وزرع فيها ونجحت زراعته تماماً وأجريت بحوث عديدة لمعرفة تأثير القات وذلك بمضغه بالطريقة الشائعة فى اليمن ولكن لم يظهر أى أثر أو مفعول للقات .

وأول دراسات كيماوية على القات كانت بمعرفة Fluckiger & Gerock ومن بعدهما Paul ثم Mosso . قام الأولان بعزل مادة قلويدية سمياها (القاتين Cathine) والأخير عزل مادة شبه قلوية وسماها سلاسترين : Celastrine

وفى الحقيقة أن هذه الدراسات كانت قليلة الأهمية لأن المواد المحضرة كانت غير نقية .

وجاءت المرحلة الثانية من البحوث الكيماوية على القات عام ١٩٠١ عندما قال Beitter أنه حضر عدة أملاح من القاتين Cathine وهى كبريتات القاتين ، هيدروكلوريد القاتين ــ هيدرو برومور القاتين ــ ساليسيلات القاتين .

ووصف القاتين بأنه مادة بلورية ــ البلورات أبرية ــ ــ مرة المذاق ــ لا رائحة لها ــ تذوب فى الأثير والكحول

والكلوروفورم وأعطى الرمز الكيماوى لها كالآتى :

$C_{10}H_{18}NO_2$

ك ١٠ يد ١٨ ن ١ ٢

وفى عام ١٩١١ قام Chevalier بعمل دراسات كيماوية هامة على القات ونشر بحوثه فى مطبوع صدر فى ذلك التاريخ وأعتقد أنه يمكن استعمال القاتين فى علاج الإدمان على الأفيون ولكن يبدوأن هذا الاقتراح لم يستعمل أبداً .

وفى عام ١٩١٢ أصدرت مجلة Pharmaceutical Journal نشرة للدكتور R. Stockman فيها بحث هام أثبت فيه وجود ثلاث مواد قلويدية بالقات وهى : Cathine, Cathidine & Cathinine

ولم يتمكن الباحث من الحصول إلا على أوراق جافة من أشجار القات لإجراء تجاربه وبحوثه عليها ونظراً للعقبات المعملية والصعوبات المترتبة على الخواص الطبيعية للمادة فإنه لم يحصل إلا على كميات ضئيلة ومتغيرة من هذه المواد .

وبالإضافة إلى القلويدات فإن الأوراق تحتوى على سكر وتانين Tannin وهى مادة قابضة ومقدار ضئيل من زيت طيار أصفر اللون طيب الرائحة حلو المذاق .

والقلويد الأول الذى تم عزله كان الكاتين Cathine على صورة كبريتات مركب على شكل بلاورات بيضاء إبرية

الشكل مر المذاق سهل الذوبان فى الماء والكحول المخفف ولا يذوب فى الكحول النقى ويذوب أيضاً فى الأثير والكلوروفورم . . . الخ . والكاتدين Cathidine مادة بيضاء غير متبلورة على هيئة مسحوق غير قابلة للذوبان فى الماء وتذوب فى الأثير والكحول النقى والأسيتون . . . الخ .

وقد كرر كثير من الباحثين هذه الصفات فى أبحاث متعددة نشرت بعد ذلك ولم يزد الوصف عما سبق .

ونسبة وجود القلويدات الثلاث إلى بعضها البعض فى القات هى كالتالى وإن كان يجب أن تؤخذ هذه النسب بكثير من التحفظ :

٠,٢٧٪	كاتين	Cathine
٠,٣٢٪	كاتدين	Cathidine
٠,١٥٪	كاتنين	Cathinine

وحتى لو افترضنا وجود خطأ كبير فى نتائج ونسب التحليل السابق فإن هذه النسب لا تشجع على تحضير المواد سالفة الذكر بطريقة اقتصادية .

وفى عام ١٩٣٠ أعطى وولفز Wolfes رمز كيميائى للكاتين يختلف عن الرمز الذى أعطاه Beitter وهو ك$_{9}$ يد$_{13}$ ن ا$_{2}$ وأثبت أنه يشابه الأيفدرين (d-nor-iso-ephedrine)

ك$_{6}$ يد ك$_{5}$ يد ا يد . ك يد (ن يد$_{2}$) ك يد$_{3}$

والمادة هي إحدى القلويات الموجودة في نبات Ephedra vulgaris الذى ينمو فى اليابان (نا — هونج) ومن توابع الأفدرين الشائع الاستعمال فى الطب .

وتبعاً لنظرية (Hesse) فإن المادتين الثانية والثالثة الكاتدين والكاتنين تشبه الأفدرين شبها قويـاً .

ونستطيع أن نؤكد بصفة عامة أن الأبحاث الكيماوية على القات تعتبر حتى الآن قليلة ونادرة ولعل مرجع ذلك صعوبة الحصول على الأوراق الطازجة بصفة منتظمة ثم وجود القلويدات الثلاث السابق ذكرها بنسبة ضئيلةمما يجعل تحضيرها من الأوراق عملا غير اقتصادى ثم إن أضرار القات كمخدر محصور فى جزء ضيق من العالم وهو الركن الجنوبى الغربى للجزيرة العربية وبعض البلاد الإفريقية لهذا لم يكن هناك حافز أو مشجع للكيماويين أو الباحثين لدراسته الدراسة الوافية .

وفى عام ١٩٥٢ قامت الآنسة Mustard بنشر نتائج أبحاثها على النباتات الاستوائية لتقدير محتوياتها من حمض الأسكوربيك (ascorbic acid)

قامت بعمل خمسة تحاليل على القات مكونة من مخاليط من الأوراق والبراعم الزهرية وهذا المخلوط يمثل القات التجارى أى الحالة التى يباع بها لجمهور المستهلكين ووجدت أنه يحتوى على حمض الأسكوربيك بنسبة ١٣٥,٧ ملـيجرام فى كل ١٠٠ جرام .

ومن المعلوم أن الذين يتعاطون القات لا يعلمون أنه يحتوى على نسبة من حامض الأسكوربيك وإذا اعتبر أن وجود حمض الأسكوربيك ميزة للقات فهى ميزة وحيده بجوار العديد من المضار المتسببة عن استعماله فمن الحقائق المعروفة أن مرض الأسقربوط مستوطن وشائع الانتشار فى جميع البلاد التى يستعمل فيها القات .

وأخيراً لفت Peters الأنظار إلى نقطة هامة جداً وهى :

« قامت المعامل الحكومية فى لندن عام ١٩٥٢ بإجراء سلسلة من التحليل على عينات من نباتات القات ثبت منها أنه لا يوجد فروق معنوية — ذات قيمة — بين نسبة القلويات التى تحتويها عينات الأوراق الغضة الطازجة وتلك التى تحتويها عينات الأوراق الجافة التى جففت وحفظت لمدة عشرة أيام .

ويستدل من هذا أنه لو كان هناك فرق بين خواص ومفعول الأوراق الطازجة والجافة كما يدلل ويعتقد أهالى البلاد التى تستعمل القات فإذاً لا بد أن يكون هناك عامل آخر يسبب هذا الفرق ليس هو على كل حال اختلاف نسبة القلويات ويرجح Peters أن السبب راجع إلى المادة الراتنجية الموجودة فى النبات

وكما أنه لا يمكن نسبة تعود شرب القهوة إلى وجود مادة الكافين (Caffeine) فيمكن القول إذن أن تعود مضغ القات ليس سببه القلويات الثلاث فى تركيبه ولا يكفى فى موضوع القات

أن يعزى مفعوله إلى الصفات الأقرباذينية للمواد القلوية الداخلة فى تركيبه فإن هذا ليس كافياً بعد ما ثبت أن نسبة هذه المواد واحدة فى كل من الأوراق الطازجة والجافة بينما أن الأوراق الطازجة هى التى لها التأثير الفعال الذى ينشده المدمن ولا يوجد هذا التأثير فى الأوراق الجافة . . . إذ فالموضوع لا يزال يحتاج إلى دراسة طبية وكيماوية وفسيولوجية تجرى محلياً فى البلاد التى ينمو فيها القات ويستعمله الأهالى بصفة مستمرة لمعرفة السر الذى يكمن فى الأوراق الغضة والذى لا يزال خافياً على العلم .

مفعول القات :

من الحقائق الهامة أنه ينظر إلى القات فى المناطق التى يستهلك بها على أنه شىء كالقهوة والشاى ولا يعترف أى شخص أن للقات صلة بالمخدرات .

وكانت حكومة اليمن السابقة تحلله وتشجع زراعته لأنه مورد من موارد الخزانة بما يفرض على زراعته وتجارته من ضرائب وقد تنبهت حكومات شرق وجنوب إفريقيا إلى أضراره فاتخذت الكثير من الوسائل للحد من استعماله وانتشاره .

ويزرع فى السعودية فى منطقة جيزان المجاورة لليمن وكان ينقل منها إلى باقى المملكة حيث يستعمله اليمنيون المقيمون هناك . ولكن منذ عام ١٩٥٤ اكتفى بحصر زراعته واستعماله فى بعض مناطق جبلية محدودة بمقاطعة جيزان وحرمت نقله إلى

خارج المنطقة .

والجزء المستعمل من شجرة القات هو الأوراق والأزهار والبراعم الطرفية كل منها على حدة أو مخلوط من اثنين منها أو من الثلاثة معاً . ويتوقف التأثير والفاعلية على درجة نضج هذا الجزء والمقدار المتعاطى .

والفروع الغضة حديثة التكوين والأوراق الصغيرة الحمراء هى المفضلة وهى أغلى ثمناً من الأوراق الخضراء والفروع القديمة ولذا يقال إن الأحمر أفضل وأقوى مفعولا من الأخضر .

كما تتوقف فاعلية القات على المكان المنزرع به وأحسن الأشجار وأعلاها قيمة وأسرعها مفعولا هى المنزرعة على سفوح جبال السراة باليمن ومنطقة جيزان بالسعودية . ويقال إن هناك أشجاراً لأوراقها مفعول سريع أسرع من مفعول الخمر يشعر متعاطيها بكثير من العظمة والترفع مع النشوة والبهجة والانسجام .

وأصناف القات ذات الشهرة تكون غالية الثمن بالطبع ولا يستطيع أن يداوم على استعمالها إلا ميسورو الحال الذين تساعدهم مواردهم على دفع أسعار مرتفعة كل يوم ، أما الفقراء والعمال ومحدودو الدخل فليس لديهم بد من شراء الأصناف الرخيصة مثل الأوراق الخضراء والفروع القديمة أو أى نوع يقابلهم فهو قات على كل حال .

تبين الدراسات التى أجريت أن مفعول القات مختلف تماماً على الفرد الذي يستعمله عرضاً لمرة أو بضع مرات والفرد الذى

تعوذ استعماله .

فى الحالة الأولى يتناسب التأثير طردياً مع القدر الذى يتعاطاه الفرد ، بمعنى أنه إذا أخذ قدراً صغيراً كان التأثير ضعيفاً وإذا زاد القدر اشتد مفعول القات . . . وهكذا .

أما الشخص الذى تعود تعاطى القات ، والذى يجب أن يطلق عليه اسم مدمن القات ، فإن تأثير القات عليه يعتبر حالة معقدة تحتاج إلى إسهاب فى الشرح فعندما يتعاطى المدمن قدراً من القات لا يشعر بأى أثر مما سبق أن شعر به عند استعمال القات فى البداية ولذا فهو مضطر إلى زيادة الكمية تدريجياً إلى أن يحس بمفعول المادة عليه ويستمتع بالنشوة التى يألفها عقب تعاطى القات . ومعنى هذا أن المدمن لكى يستمتع بمفعول القات مضطر إلى استعمال كميات كبيرة نسبياً وحينئذ يقع المدمن تحت سلسلة من التغييرات أو التأثيرات الفسيولوجية التى تعتبر نواتج مترتبة على استعمال تلك الكميات الكبيرة من القات .

فأول شىء تضعف شهيته ويعزف عن الطعام لأنه يشعر شعوراً كاذباً بالشبع وبذا تقل كمية الطعام التى يتناولها تدريجياً ويصبح جسمه هزيلا ضعيفاً قليل المقاومة للأمراض ، ويقع فريسة لأمراض سوء التغذية المعروفة التى ستذكر تفصيلا فيما بعد كما يصاب بالإمساك والصداع والخمول وقلة النوم .

ونتيجة لهذه التأثيرات الفسيولوجية وخاصة قلة الأكل والنوم

يقع المدمن فريسة لأمراض عديدة فهو يفقد موهبة الإدراك والتفكير إذ يصبح تفكيره سطحياً بسيطاً لا يعنى بمتابعة مجريات لأمور والأحداث ولا يبذل أى محاولة للبحث أو حل أى مشكلة تعرض عليه أو تعترض سبيله . يفقد الإرادة الشخصية والقدرة والعزيمة بل تضعف قواه الجنسية أو يفقدها وقد كانت من أهم الدوافع لتعاطى القات وترتب على هذا مشاكل اجتماعية متراكمة معقدة أصبح من العسير حلها وفى مقدمتها عدم اهتمام مدمن القات بنفسه أو أفراد أسرته أو مجتمعه الذى ينتمى إليه ويعيش فى وسطه ولو استمرت موارده تسمح له بالحصول على القات فإنه يصبح حطام إنسان لا نفع منه ولا قدرة له على العمل . . . لا يأكل ولا ينام ولا يعمل . . . يشكو الأمراض بالجملة .

وأما إذا لم تسمح له موارده بالحصول على المال الكافى لشراء القات فإنه يضطر اضطراراً إلى ارتكاب الرذيلة أو الجريمة فإما أن يتسول أو يسرق .

ولم تجر حتى الآن دراسات علمية مستوفاة على تأثير القات على الإنسان منذ أول تعاطيه إلى أن يصبح مدمناً مثل تلك الدراسات التى أجريت بما فيه الكفاية على الخمر والأفيون والمورفين وباقى المخدرات ولكن نصيب القات من الدراسة العلمية قليل جداً ولا تعدو هذه الدراسات المشاهدات التى سجلها الزائرون والأجانب أو الرحالة الذين ارتادوا مناطق القات

سواء فى إفريقيا أو الجزيرة العربية .

ولم يدرس حتى تأثير هذا المخدر على من يتعاطاه مرة أو مرات قليلة دون أن يصل إلى مرتبة الإدمان . وإن كان البعض من الأطباء والباحثين قد تعاطوه بقصد تسجيل ووصف مفعوله عليه ولكن مثل هذه الحالات قليلة ومع الأسف كلها متناقضة متضاربة ولكن بصفة عامة يستخلص من أقوال هؤلاء الأجانب الذين جربوه أن هناك نوعاً من الشعور بالعظمة والانطلاق والحرية ويعتقد الشخص أنه لا يقيده أى قيد فى هذه الدنيا من قيود النظم الحكومية أو الدينية أو التقاليد والعادات وأنه سيد نفسه لا سلطان لأحد فى هذه الدنيا عليه فهو السيد المبجل الوقور المحترم الذى لا يسيطر عليه أحد ولا تقيده أى قيود مهما كان نوعها أو شكلها ولا تضايقه أى هموم أو متاعب فهو سيد الدنيا وهو قاعد على أريكته لا يستطيع التحرك وهو الحر المنطلق فى أجواز الفضاء وهو أسير الحقيقة عاجز عن أى مجهود وهو السعيد الهانىء والأمراض تعبث بجسمه فساداً والفقر يحيق به هو وزوجته وأولاده وربما كانوا لا يجدون قوت يومهم والديون ترهق كاهلهم ... يتلفت حوله فى مكانه من الدار فيرى صحن الدار الذى تنبت به بعض نباتات من الريحان والفل فيظنها جنات الخلد ويحسب أن الأريكة الخشبية التى يجلس عليها قد فرشت تحته بالدمقس والحرير والديباج فإذا شرب من قلة الماء التى بجواره وما أكثر ما يشرب منها ظن

أنه يشرب الرحيق المختوم من كوثر جنة حاو المذق عذب روى حلقه الظامىء . . . وهيهات أن تروى حلقه الذى جففه ازدراد القات .

حتى الزمن لا يعترف بحدوده وقيوده فلا أمس من عمر الزمان ولا غد لقد حسب أنه انطلق حراً فوق كل مكان وبعد كل زمان .

وفى بداية النشوة أى بداية مفعول القات يشعر برغبة فى الكلام والضحك دون سبب مع القهقهة حينما تفاجئه بين الحين والحين وخزة فى عضو من جسده به علة كأن يفاجئه مغص أو ألم من أى نوع فما أكثر ما يحوى جسده من أمراض ذات أوجاع وآلام . . . ما أسعده مع نفسه وما أشقاه فى دنيا الواقع . . . . ! !

ويمكن تقسيم مفعول القات إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : تنبيه للإدراك والحس مع شعور بالسعادة والنشوة والانسجام .

المرحلة الثانية : يحدث تخدير للإدراك والقوى العقلية .

المرحلة الثالثة : خمود القوة العقلية تماماً مع فقدان القدرة على الانتباه وضعف الذاكرة .

وأول من قاموا بإجراء تجارب على القات الاستاذ Leloup حوالى عام ١٨٩٠ ووجد أنه يهيج الجهاز العصبي ويساعد على

السهر ويسبب الأرق ويزيد فى قوة العضلات .

وقد أجرى هذه التجارب على نفسه .

وفى عام ١٩١١ أجرى J. Chevalier تجارب على الحيوانات باستعمال القاتين Cathine الذى عزله كيماوياً وقد وجد أن الجرع الصغيرة تعمل على زيادة انتباه الحركات الإرادية ولكن بدون حدوث رد فعل مهيج .

أعطى ٣ ملليجرام واعتبرها جرعة خفيفة .

و ٦ — ١٠ ملّيجرام واعتبرها جرعة مميتة .

وفى المرحلة الأولى من ظهور تأثير مفعول القاتين المنبه على الحيوان أخذ يقفز ثم ظهرت إفرازات رغوية حول الفم ثم هدأ ورقد وظهرت عليه أعراض الشلل وإن بقيت الحساسية ولكن الحركة الآلية ورد الفعل المهيج اختفت تدريجيًّا . وأبطأت ضربات القلب ثم توقفت منقبضة . . . وكانت هذه الظواهر أكثر وضوحاً على الفيران والأرانب .

وعند حقن الحيوانات فى الوريد بمادة الكاتين بنسبة ٣ — ٤ سنتيجرام للكيلو ماتت بعد ٣ — ٤ ساعات و بتشريحها وجد تصلب فى العضلات .

أما الجرع التى كانت أقل من ذلك فقد سببت تهيجاً نتج عنها ظهور علامات تهيج مع اتساع حدقة العين وسرعة التنفس .

أما الكلاب فهى أكثر مقاومة فعندما حقنت بمقدار

٥ – ٦ سنتيجرام للكيلو أحدثت تشنج .
وقد حضّر دكتور (Martindale) تجارياً ثلاث مركبات

(١) كاتا لبن الكاكاو Catha-cocoa milk
(٢) كاتا – جليسروفوسفات الكاكاو Catha cocoa glycero phosphate وهو مقوى للأعصاب ومنبه .
(٣) Phenolphtalein with Catha وهو مستحضر فوار مقوى وملين خفيف على شكل أقراص .

وقال إنه حصل على أوراق القات من الجزيرة العربية ولكن وجد صعوبات للحصول عليها فيما بعد وكان الطلب على هذه المستحضرات محدوداً وصدر كميات منها إلى الهند وخلال مدة تبلغ أكثر من عشر سنوات كان ينتج ويبيع مستحضرات القاتين سالفة الذكر لم تصل إليه أى شكوى ولم يسمع بوجود أثر ضار لهذه الأدوية .

القات مخدر :

التعريف الطبي لكلمة مخدر هو المادة أو العنصر الذى يمنع الإحساس بالألم .
ولذا أطلقت كلمة « مخدر » على كل مادة تستعمل فى العمليات الجراحية فى الطب مثل البنج والكلوروفورم والأثير وغيرها كى تحول دون شعور المريض بالآلام الموضعية الناتجة

عن إجراء الجراحة .

ويستعمل أيضاً فى غير الجراحة لوقف بعض الآلام الشديدة وقفاً مؤقتاً إلى حين .

ومن هذا التعريف الخاص استعمل تعريف شامل لكلمة مخدر يطلق على العنصر أو المادة التى تزيل الألم من أى نوع سواء كان عضوياً أو نفسياً فالمعروف أن الحشيش والخمر لا تحدث تخديراً موضعياً لبعض أجزاء الجسم ولكنها تحدث تخديراً جزئياً للأعصاب ينتج عنها عدم الشعور بالآلام النفسية فينسى الشخص آلامه ومتاعبه وأحزانه طالما كان واقعاً تحت تأثير المخدر .

وقد اختلفت الآراء حيناً من الدهر حول القات وهل هو مخدر أو غير مخدر ومرجع هذا الاختلاف هو قلة الأبحاث العلمية التى أجريت عليه . ونظراً لأن القات يبدأ مفعوله بالتنبيه لهذا يتمسك المحبون له بأنه غير مخدر متناسين بقية مفعوله وما يحدث بعد فترة الانتباه من آثار هى صورة طبق الأصل لمفعول كل المخدرات .

وقد ذكرنا فى الفصل السابق أن مفعول القات يتم على ثلاث مراحل : الأولى مرحلة الانتباه والشعور بالسعادة والنشوة . والمرحلة التالية حدوث تخدير للإدراك والقوى العقلية والمرحلة الأخيرة خمود القوى العقلية وفقدان القدرة على الانتباه وضعف الذاكرة .

والمرحلة الأخيرة هى مرحلة تخدير مثالية لا شك فيها .

كما ذكرنا التجارب التى أجراها شفالييه عام ١٩١١ على الفيران والأرانب والكلاب لمعرفة مفعول مادة القاتين ونتائج هذه التجارب تدل بوضوح على أثر المادة ومفعولها المخدر .

وقد أشار كل الرحالة والكتاب والبعثات التى زارت وأتيحت لها الفرصة لمشاهدة البلاد التى ينمو فيها القات ويستعمله أهلها إلى الآثار المخدرة البغيضة التى تنتج عن استعمال هذا النبات .

ثم تنبهت حكومات بلاد أفريقيا التى ينمو فيها القات إلى ضرره فاتخذت الوسائل الكفيلة بالحد من أضراره وخاصة الوسائل التشريعية الخاصة بتحريمه .

ولما تكونت هيئة الأمم تنبهت منظمة الصحة العالمية ومنظمة الأغذية والزراعة إلى آثار القات المخدرة فنادت وطالبت الحكومات التى ينمو فيها إلى وجوب اتخاذ الإجراءات الكفيلة بمنع زراعته وتعاطيه .

طرق تعاطى القات :

تختلف طرق استعمال القات تبعاً لعوامل وظروف متعددة منها الإقليم . . . هل هو منتج للقات أو مستورد ، والطريقة التى يحصل بها المدمن على القات هل يحصل عليه طازجاً أو جافاً . . . والثمن الذى يدفعه والغرض الذى من أجله يتعاطى القات .

منذ خمسين عاماً كانت طريقة استعمال القات واحدة في كل الأقاليم التي تتعاطاه ففي ذلك كانت المواصلات تعتمد أساساً على قوافل الجمال ولذا لم يكن ميسوراً للمناطق المستوردة أن تحصل عليه إلا بعد أن يجف . . . ولذا — كقاعدة عامة — كان كل متعاطى القات الذين لا يزرعونه يحصلون عليه جافاً . أما بعد أن تقدمت وسائل النقل فقد أصبح من أول مهام الطائرات في بلد كاليمن هو نقل القات أولاً وقبل كل شيء كما ينقل بالسيارات والقطارات في بلدان شرق أفريقيا وبذا أصبح من السهل الحصول على أوراق القات الطازجة في البلاد والمناطق التي لا تنتجه .

ونجد أن كل الرحالة والكتاب الذين ارتادوا مناطق القات في القرن التاسع عشر كانوا يصفون طريقة تحضيره بأنها بواسطة نقع الأوراق الجافة في الماء ثم شرب هذا المنقوع ولعل هذه الطريقة هي التي كانت السبب في تسميته باسم « شاى العرب » أما بعد أن تقدمت المواصلات وأصبح في مقدور كل مدمن أن يحصل على الأوراق غضة طرية فإن الطريقة الشائعة الآن هي مضغ أوراق القات وهي الطريقة الشائعة في عدن واليمن وجيزان بالسعودية وتسمى التخزين .

وأهم طرق استعمال القات هي :

الطريقة الأولى : المضغ (التخزين) .

وهى عملية مضغ واستحلاب ويستعمل فى هذه الطريقة الأوراق الطازجة فقط أى التى لم يمض على قطفها أكثر من أربعة أو خمسة أيام والتى لا تزال تحتفظ برطوبتها ... ولكى تحتفظ برطوبتها تحفظ بين أوراق نباتية أخرى ترطب بالماء بين الحين والحين لتظل أوراق القات طرية غضة .

وأفضل الأوراق هى الصغيرة أى حديثة التكوين المأخوذة من أطراف الأغصان والتى يكون لونها مشوباً بحمرة . كما يعرف ويشتهر بين المستهلكين أصناف خاصة يميزونها ويعرفون مناطق إنتاجها ويفضلونها على غيرها . مثل هذه الأوراق تكون سهلة المضغ والاستحلاب .

ويقول (Peters) إن مثل هذه الأوراق لها اسم خاص فى اللغة الأمهرية بالحبشة وهو كودا (Koda) وفى الصومال تسمى هاجافا (Hagafa) .

وتسمى مالحانى فى اليمن وعدن وحضرموت .

وهكذا نجد أنه تبعاً لحجم الأوراق ولونها وكونها طازجة يتوقف سعر القات ومدى إقبال المستهلكين من أهل الخبرة عليه .

والمستهلك الذى تعود استعمال الأوراق الغضة الطرية جيدة النوع لا يجد فى نفسه الشهية أو الإقبال على الأوراق الجافة أو الرديئة مثله فى ذلك مثل مدمن تدخين الطباق الذى يتعود صنفاً ممتازاً فإنه لا يقبل على الأصناف الرديئة ولا يستسيغها

كما لا يستسيغ مضغ الطباق . ولذا نجد أن المدمن إذا لم يجد الصنف الذى تعوده فإنه يفضل أن يعود من السوق خالى الوفاض بدلا من أن يشترى أنواعاً من الورق لم يتعود استعمالها .

ولمضغ القات تؤخذ بضع أوراق وتلف باليد على هيئة كرة وتوضع فى الفم وتظل فى شدقه حتى يستحلب كل عصيرها ويستعين بشرب الماء وهو فى سبيل ذلك يتجرع كميات كبيرة من الماء وتستغرق هذه العملية من ١٠ — ١٥ دقيقة ثم يبتلع بقايا الأوراق التى فى شدقه . وخلال التخزين لا مانع من شرب السجائر .

والأوراق الغضة تساعد على إفراز اللعاب بكثرة ويبدو أن اللعاب يذيب المواد القلويدية والمواد الأخرى الفعالة التى تحتويها أوراق القات .

ولا ينشط إفراز اللعاب إذا كانت الأوراق جافة .

الطريقة الثانية :

تستعمل هذه الطريقة للأوراق الكبيرة والجافة التى لا تصلح للمضغ أو للأوراق والبراعم الصغيرة التى جفت بسبب طول السفر .

وفى هذه الحالة تجفف الأوراق فى الشمس ثم تطحن فى هاون حتى تصبح ناعمة . يوضع المسحوق فى ماء مغلى ويضاف له سكر وتوابل حتى يصبح لها قوام العجينة وتقطع هذه العجينة

إلى قطع صغيرة كروية الشكل تمضغ أو تخزن بدلا من القات الطازج وبالمثل تستحلب بطريقة القات الطازج ثم تبلع بعد ذلك . وخلال الاستحلاب تشرب كميات كبيرة من الماء .

الطريقة الثالثة :

في بعض البلاد التي لا ينتج فيها القات ويحصل المستهلكون عليه جافاً كما يحدث لليمنيين المقيمين في مختلف بلاد ومدن الجزيرة العربية التي لا ينمو فيها القات وفي بعض مدن جنوب إفريقيا يحضر القات بطريقة تحضير الشاي تماماً ولكن هذه الطريقة ليست شائعة ولا منتشرة الاستعمال لقلة مفعولها .

ومن الأشياء الشائعة لدى اليمنيين والإفريقيين أن تضاف أوراق القات إلى الشاي ويقولون إنه يحسن طعم الشاي ويزيد في مفعوله المنبه .

ومما يجب الإشارة إليه أن استعمال القات بهذه الطريقة تفقد أحد القلويدات وهو الكاثدين (Cathidine) لأنه غير قابل للذوبان في الماء وفي مثل — طريقة الشاي فإن الفضلات ترمى وبذا لا يبتلع المستهلك الكاثدين .

الطريقة الرابعة :

في بعض بلاد الجزيرة العربية يدخن القات كالطباق تماماً أو الحشيش أي يصنع سجاير أو يدخن في المداعة

والأجزاء التى تستعمل لهذا الغرض هى البراعم الزهرية والأوراق الصغيرة إذ تفتت وتلف سجائر .

* * *

وفى البلاد التى حرمت حكوماتها استعمال القات أصبح استعماله سراً وخفية وبعيداً عن الرقباء والعيون ولهذا يستعمله المدمن وحده .

ويختلف الوضع كثيراً فى البلاد التى لا يحرم فيها القات إذ يتم تعاطى القات جماعة فى العادة فى الأماكن العامة التى تعود الناس أن يمضوا فيها أوقاتهم أو فى المنازل الخاصة . وقد يدعى الإنسان إلى « تناول القات » كما يدعى فى البلاد الأخرى إلى « تناول القهوة » أو « تناول الشاى » .

وهناك فرق واضح بين الحالات التى يستعمل فيها القات عرضاً وبين الإدمان عليه .

ولما كان الوضع فى اليمن يختلف عن كل بلاد العالم لذا كانت طريقة تعاطى القات طريقة مثيرة تستحق الوصف التفصيلى . . .

طريقة تعاطى القات باليمن :

تقطف أوراق القات مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً وترسل إلى الأسواق وتعتبر طازجة إذا لم يكن قد مضى على قطفها أكثر من أربعة أيام فإذا زادت المدة عن ذلك يعتبر جافاً ويرخص

السعر كثيراً نظراً لأن فاعليته تضعف .

والطريقة التجارية التى ينقل ويوزع بها القات هى أن يربط فى حزم صغيرة وتبلغ الحزمة نحو ٤٠ عوداً طول كل منها نحو أربعين سنتيمتراً وتلف فى أوراق نباتات أخرى غضة مثل عيدان البرسيم أو أوراق الذرة والموز لتحفظ رطوبته فيبقى طرياً طازجاً . . . ثم ينقل إلى الأسواق على الدواب وأصبح الآن ينقل بالطائرة . ويبلغ ثمنه فى المناطق غير المنتجة له مثل المناطق الساحلية والحديدة ثلاثة أضعاف ثمنه فى المناطق الجبلية التى ينمو فيها ولهذا أثره الكبير على الكميات المستهلكة إذ يسبب ارتفاع السعر قلة فى الكميات التى يستهلكها الفرد .

وجميع أفراد الشعب . . . فوق سن السابعة — كانوا يتعاطون القات . . . الرجال والنساء . . . الحاكم والمحكوم . . . رجال الدين وأهل الفكر لا يستثنى منهم أحد ولا يعزف عنه فرد واحد هو خبز كل يوم لكل فود .

ولتعاطى القات طريقة خاصة ونظام مرسوم ووقت معلوم ففى كل يوم بعد الظهور قبل أن يبدأ الاجتماع يذهب كل فرد إلى نزهة قصيرة فإما أن يتريض سيراً على الأقدام أو على ظهر دابة ، وفى الأيام الباردة يأخذ حماماً ساخناً لهذا الغرض ثم يجتمع شمل الصحاب والخلان فى منزل أحدهم وفى يد كل منهم كمية من أوراق القات تكفى استعماله الشخصى ، ويتم

الاجتماع فى غرفة مقفلة إذا كان الجو بارداً تطل على الدار أو على حديقة أو حوض ماء ، وفى الصيف فى مكان ظليل أمام المنزل ، ويضع كل واحد أوراق القات فى فمه يمضغها مضغاً هيناً مرة أو مرتين ثم يلوكها فى شدقيه حتى تصبح كالكرة فى حجم الجوزة ثم يتركها فى أحد جانبى الفم ساكنة دون حركة . . . ثم يستحلبها تدريجياً وببطء شديد ، ونظراً لأنها قلوية الطعم قابضة فهو مضطر إلى شرب كميات متتالية من الماء على جرعات صغيرة ، ولذا توضع أوانى الماء البارد بجوار الآرائك لتمتد إليها الأيدى بين الحين والحين وتسمى هذه العملية « التخزين » ويشربون القشر وهو منقوع قشر البن وهو شراب طيب ممتاز ويدخنون نرجيله طويلة العنق لها مستودع نحاسى وذات مبسم واحد يتداوله جميع الجالسين وتسمى « المداعة » .

والدافع إلى استعمال القات عاملان الأول الاعتقاد بأنه منشط للناحية الجنسية وأما الثانى فهو الحالة التى كانت عليها اليمن ، فالحياة كانت هناك حلم بل وهم يتخلله كابوس ثقيل يجثم على الصدور وأوهام ورؤى وخيالات تختلف صورها ولكنها تهدف إلى الفكاك والتخلص مما هم فيه فإذا فكر اليمنى فيما هو فيه دبر كيف يكون الخلاص فإذا به لا يجد غير القات طريقاً ومنقذاً وملاذاً وأنيساً فى تلك الظلمات التى يلاحق بعضها بعضاً تتصل ولا تكاد تنقطع ومع توالى الأيام تحول القات

من وسيلة إلى هدف وغاية ولا شيء فى الدنيا سواه ، كان وسيلة إلى طلب المزيد من متعة جنسية وإلى نسيان مأساة الحكم وتحول رويداً رويداً دون شعور أو قصد إلى هدف يسعى إليه ولو جاع متعاطى القات أو تعرى هو وزوجته وأبناؤه ، ويحرص عليه ولو تعطل كل عمل منتج له حتى لو كان هذا العمل لنفسه أو لوطنه أو لدينه يتقاعس عن حرفته ويفر منها بعد ظهيرة كل يوم وهيهات أن يستمع لأى داع أو لأى مطلب من مطالب الأسرة أو المجتمع أو الوطن ، وحتى مطالب الرحمن فإنهم عنها متباطئون فإن قاموا للصلاة قاموا كسالى وهم متراخون ، قطع القات الصلة بينهم وبين أى عمل منتج مثمر بل قطع الصلة بينهم وبين الروحانيات الحبيبة إلى نفوسهم فقد أصبح لمتعاطى القات منطقه الخاص الذى يرفض منطق الدين والمجتمع والحضارة ولهذا يخطئ فهم الدين والمجتمع والحضارة .

إنه يكره دنيا الواقع ويحب الخيال ويعشق الأحلام . . . ويستعذب الأوهام ، يفر من قيوده وحاضره وسجنه إلى فضاء منطلق حر يصنعه ويكيفه بخياله حسب مشيئته وهواه ، إنه يصنع سراباً يحسبه وحده ماء .

موضع القات بين المخدرات :

وضع بعض البحاث القات ضمن مجموعة الحشيش والأفيون والواقع أن القات يختلف عن هذه المجموعة فى طريقة تخديره

وفى آثاره المترتبة على الإدمان وقد شرحنا طريقة تأثيره وطريقة تعاطيه ولكى نعرف موضعه بين المخدرات الرئيسية المنتشرة فى العالم نستعرض فى إيجاز طبيعية كل من الخمر والحشيش والأفيون .

الخمر :

عند تعاطى الخمر لأول مرة يشعر متعاطيها بغثيان وتقزز فإذا كرر الشراب شحب لونه ونضج جبينه بالعرق وتثاقل الجفون مع سرعة الرمش وقد يحدث القىء .

وبعد التعود يختلف السلوك باختلاف الأفراد فمنهم من يكثر كلامه ومنهم من يزداد مرحاً وتهريجاً . والبعض ينطوى على نفسه ويميل إلى العزلة والوحدة . . . والبعض يتوهم شجاعة مكتسبة فيصبح سريع التهيج محباً للشجار عربيداً . . . وآخرون يشعرون بتبكيت الضمير وقد تصيبهم نوبة بكاء .

ويحتوى دم الإنسان الطبيعى على ٠,٢٥ إلى ٠,٠٦ جرام كحول فى كل لتر دم وبعد تعاطى الكحول تزداد الكمية فى الدم تدريجياً إلى ١ — ٣ جرام لكل لتر دم وعند ما يصير تركيز الكحول فى الدم ٢ فى الألف يحدث اضطراب وخلل فى التوازن وعند ما يصل إلى ٣ — ٤ فى الألف يحدث انهيار وإذا وصل التركيز ٧ — ٨ فى الألف فإنه يصبح مميتاً .

ويؤثر الكحول على عضلات الإنسان وعلى الدورة الدموية

والتنفس والتبول فتزيد حركات العضلات عند تناول كمية قليلة من الكحول وفى الإنسان الطبيعى المستريح إذا زادت الكمية يحدث شلل مؤقت لحركات العضلات .

وقد أثبتت التجارب أيضاً أنه عند تناول الخمور فى حالات الانهيار الجثمانى تزيد من النشاط ولكن لمدة قصيرة .

وكمية قليلة من الخمر تزيد ضغط الدم قليلا وتدوم هذه الحالة فترة طويلة ويرجع ذلك إلى انقباض الأوعية الدموية للأحشاء وفى نفس الوقت يحدث اتساع فى الأوعية التى تحت الجلد والشعيرات الدموية الموجودة فى المخ ويزيد النبض زيادة محسوسة .

ويسرع التنفس عند تناول ١٠ — ٣٠ جرام كحول ويحدث ذلك بسبب زيادة وصول الدم إلى المراكز التنفسية .

ويكثر البول عند تناول كمية كبيرة من الخمور وذلك بنسبة أكبر مما لو أعطى بدل الخمر ماء للشرب ولا يعرف سبب ذلك بالضبط حتى الآن .

السكر :

هو حالة تخدير أو شلل جزئى للأعصاب والكحول هو العامل الفعال الذى يقرر درجة الركود العصبى إذ يتسرب الكحول إلى الدم وتتوقف درجة السكر على نسبة الكحول فى الدم فإذا كانت النسبة قليلة يفقد الشخص القدرة على السيطرة

على حركات العضلات مع ضعف القوة البصرية فإذا زادت النسبة حدث له التباس عقلى وعدم تمييز للجهات وترنح فى المشى ومضغ الكلام ، وهذه الدرجة هى التى تصف صاحبها بأنه ثمل . وفى الدرجة التالية عند ما ترتفع النسبة عن ذلك يحدث له ذهول وخبل وركود مخى وسبات ثم إغماء فإذا حدث إفراط فوق ذلك قد يحدث تحطيم فى الأعصاب وشلل دائم لا يرجى البرء منه . . . ثم الموت .

التعود على الكحول :

يرجع إلى أن الكحول يؤثر على المركز العصبى الموجود فى المخ .

علاج مدمن الخمر :

يعالج بدواء يسمى تجارياً أنتابوس وهذا الاسم لاتينى الأصل . . . أنتى معناها ضد وبوس معناها سوء استعمال .

وقد حضرت هذه المادة عام ١٨٨١ ورجع إليها عام ١٩٢٠ لاستعمالها فى الصناعة لتطرية الكاوتشوك ومنعه من التشقق .

والجرعة التى تعطى للمدمن ١ر ــ ١,٥ جرام فى اليوم الأول ثم ٠,٢٥ جرام يومياً ويتم العلاج تحت إشراف الطبيب .

* * *

الأفيون :

يستخرج الأفيون من نبات الخشخاش (أبو النوم) ويعزى مفعول الأفيون إلى عدد كبير من الجواهر الفعالة فيه تسمى قلويدات الأفيون ويمكن تقسيمها إلى مجموعتين كبيرتين هما :

(١) القلويدات المنومة أو المخدرة وتشمل :

المورفين ويوجد بنسبة ١٠ ٪

الكلودايين ويوجد بنسبة ٠,٥ ٪

المارسين ويوجد بنسبة ٠,٢ ٪

(٢) القلويدات المسببة للتشنجات وأهمها :

الناركوتين ويوجد بنسبة ٦ ٪

البابافيرين ويوجد بنسبة ٢ ٪

التبايين ويوجد بنسبة ٠,٣ ٪

مما سبق يضح أن أعلى نسبة من الجواهر الفعالة فى الأفيون هى نسبة المورفين ولذلك فإن التأثير المخدر للأفيون مرجعه إلى المورفين .

ويعتبر المورفين من أقوى المخدرات لأعصاب الإنسان وذلك لأنه يؤثر على منطقة الإحساس فى الجهاز العصبى المركزى بالمخ مما يجعل الشخص يفقد الشعور بالألم دون فقدانه للوعى .

فعند تعاطيه بطريق الفم تظهر الأعراض على الإنسان بعد حوالى نصف ساعة، بينما تظهر الأعراض سريعاً بعد الحقن وتتلخص الأعراض فيما يلى :

أول ما يبدأ فى الظهور على المتعاطى شعوره بالدوخه ثم يسقط فى نوم عميق ويختلف العمق فى النوم حسب الجرعة التى يتناولها الشخص، فإذا كانت الجرعة بسيطة تمكن من الاستيقاظ بعد النوم فى هدوء، أما إذا كانت الجرعة كبيرة راح فى نوم عميق مصحوب بشخير وصوت متهدج وربما راح فى غيبوبة .

أما المدمن فإنه يشعر بالانتباه عقب تعاطى الأفيون لفترة وجيزة ويعتريه القلق ثم ينام نوماً عميقاً .

وتقل سرعة النبض قليلا وتكون منتظمة قوية .

تضيق حدقة العين وتظل ثابتة لا تتحرك .

يبدو الوجه محتقناً مشوباً بزرقة خفيفة ويكون الجلد دافئاً ويتصبب العرق البارد .

الإدمان على الأفيون :

يعتبر المورفين فى أول قائمة المخدرات المسببة للإدمان ثم يأتى من بعده الخمر والكوكايين ثم الحشيش .

ويتسبب الإدمان عن طريق وصفه للمرضى فى العلاج لمدة طويلة أو عن طريق تعاطيه بالفم أو عن طريق التدخين .

وأهم أعراض الإدمان هى عدم السيطرة على القوى الطبيعية

والعقلية وفقدان المدمن لشخصيته تدريجياً ، وعدم قدرته على التركيز فى التفكير مع عدم مبالاته لشعور الغير ويضطرب الجهاز الهضمي ويشعر المدمن بالغشيان وفقدان الشهية للأكل مع الإمساك المزمن وتضييق حدقة العين مع اضطراب ضربات القلب .

وتظهر بعض الارتعاشات الخفيفة باليدين وعدم القدرة على التوازن فى المشى .

وتختلف الكمية التى تؤثر بمفعولها من شخص لآخر حسب درجة إدمانه ولذا يتعاطى المدمن كمية كبيرة نسبياً من المخدر لتؤثر بمفعولها المطلوب على جسمه أكثر من شخص غير مدمن .

ويحذر علماء العالم جميعاً من تجربة المورفين ولو مرة واحدة التى قد تكون كافية للتعود عليه وبالتالى الإدمان .

وعلاج مدمنى المورفين ميئوس منه إلا فى حالات قليلة جداً لا تتعدى الواحد فى المليون ويمكن علاجها فى مستشفى الأمراض العقلية فقط .

ومن الطريف أن المورفين لا يؤثر على الحيوانات اللافقرية ولكن يؤثر على جميع الحيوانات الفقرية وكلما ارتقى الحيوان كلما زاد تأثير المورفين عليه .

* *

الحشيش :

يعتبر الحشيش من المواد التى لا تستعمل طبياً أو التى لا يعرف استعمالاتها فى الطب حتى الآن ولكن كثيراً من المدمنين فى الشرق يتعاطونه لتأثيره المخدر على الأعصاب وظناً منهم أنه يطيل فترة الجماع عند الرجال .

ويؤخذ الحشيش على صور كثيرة منها :

يمكن تعاطيه عن طريق التدخين مع السجائر أو عن طريق الجوزة .

يمكن تعاطيه مع القهوة .

يمكن عمله على هيئة معجون مضغوط وذلك بعجنه فى الزيت مع جوز الهند والسكر أو العسل النحل ويقطع على هيئة كرات صغيرة .

تأثيره على الجسم :

يمتاز الحشيش بتأثيره المخدر على الجهاز العصبى المركزى ويرجع هذا التأثير إلى أكثر من عنصر فعال والتى لم تفصل بصورة نقية للآن ، إلا أنه يمكن القول بأن أهم جوهر فعال فى الحشيش هو الكانابينول (Cannabinol) ولهذا العنصر جملة تفاعلات متضاربة على الجهاز العصبى فهو ينبه الأعصاب وينشطها ثم يؤثر عليها تأثيراً مخدراً ويخمدها ، وهذا التأثير المخدر غير ثابت المفعول ، ويختلف من شخص إلى آخر ، وتظهر الأعراض الناتجة

عن تعاطى الحشيش على الأشخاص بالصورة التالية .

عند تعاطى جرعة صغيرة أو كمية بسيطة يشعر الشخص بالسعادة داخل نفسه ويمتلىء بالثقة ويكثر الكلام بينما يتصبب عرقاً .

وعند تعاطى كمية أكبر يدخل الشخص مرحلة أخرى وهى مرحلة أحلام اليقظة مع تفكيره فى قرارة نفسه بالعظمة مع أنه يبدو كمن يفقد الوعى ولا يستطيع السيطرة على التحكم فى الأشياء التى حوله خاصة بالنسبة للوقت والمكان وينتابه خرف فى التفكير .

ولكن أهم ما يشعر به المريض هو شعوره بالثقة فى نفسه وراحته ودخوله فى مرحلة استرخاء نفسى وهدوء شامل .

وفى كل هذه الحالات لا يفقد الإنسان وعيه مطلقاً ولكنه يعيش فى خيالات وأحلام وأوهام كأنها السراب لا يمكن تحقيقها وهو فى هذا كله يملك السيطرة على عواطفه أو هواجسه . كما أن قدرته على اللمس تتضاعف وشعوره للألم يقل شيئاً ما . وتتسع حدقه العين بينما تزيد ضربات القلب فى سرعتها مع بقائها منتظمة .

وعند تعاطى الحشيش بكميات كبيرة ومتكررة يبدأ المدمن بفترة الأحلام ثم يدخل فى حالة فقدان الوعى ثم النوم العميق الذى يستيقظ بعده فائقاً منتعشاً .

وإذا تعاطاه الشخص والمعدة خالية سواء عن طريق الفم

أو التدخين فإنه يشعر بحالة هيجان وعدم استقرار مع توتر الأعصاب .

وإدمان الحشيش المستمر يؤدى بالشخص إلى فقدان عقله وصوابه وقد يصل به إلى الجنون .

مما سبق يتضح أن المخدرات الرئيسية تختلف عن بعضها فى طريقة تأثيرها على الإنسان سواء من الناحية الوظيفية أو النفسية وأن أخطرها على الصحة هو الأفيون ويأتى بعده فى المرتبة القات ثم الخمر والحشيش .

ولما كانت الخمر والحشيش والأفيون من المخدرات التى عرفتها الإنسانية من قديم لذا فقد استوفى كل منها بحثاً سواء من الناحية الطبية أو النفسية أو الاجتماعية .

والوضع يختلف بالنسبة للقات فنظراً لأنه لم يستعمل كمخدر إلا منذ عهود قريبة واستعماله قاصر على جزء محصور محدد من العالم لذا نجد أن نصيبه من الدراسات العلمية قليل وأن مفعول القات الحقيقى غير معروف علمياً حتى كتابة هذه السطور .

فإذا نظرنا إلى النتائج التى تترتب على استعمال المخدرات وجدنا أن الأفيون كاد يقضى على أمة الصين العظيمة وجثم على كاهل الشعب الصينى حيناً من الدهر حتى شاء الله للصين أن تفيق من غيبوبتها وتبرأ من كارثتها منذ سنوات قليلة مضت .

وأما الخمر والحشيش فهى من المخدرات التى تستعمل بصفة فردية فى مختلف أنحاء العالم فضررها قاصر على من يستعملها .

أما القات فإن ضرره البليغ ناتج عن تلك الطريقة التى يستعمل بها وقد حرمته الحكومات التى ينبت بها ما عدا حكومة اليمن حيث يستعمل بطريقة جماعية مثيرة . أدمن على تعاطيه جميع أفراد الشعب رجالا ونساء العالم والجاهل ، الطفل والصبى والشاب والشيخ ، المريض والسليم ، المقيم والمسافر . ثم طريقة تعاطيه طريقة غريبة عجيبة تضيع الوقت إذ تستهلك نصف وقت الأمة بطريق مباشر وتؤثر تأثيراً سيئاً فى النصف الباقى من الوقت .

ولهذا ترك القات آثاراً بعيدة المدى على جميع صور الحياة لشعب اليمن . . . ترك آثاره الخطيرة على الصحة وآثاره الهدامة على الإنتاج وآثاراً مضللة على المجتمع ثم آثاراً ساحقة ماحقة للأوضاع السياسية .

وسيأتى شرح هذه العوامل بشىء من التفصيل فى الفصل التالى .

٤

آثار القات على المجتمع اليمنى

الآثار الصحية :

عددنا فيما سبق الأمراض المتفشية فى اليمن وهى أمراض لم يبذل لمكافحتها أى جهد من الطب الوقائى أو العلاجى وكان هناك أداة حكومية يطلق عليها عبارة « وزارة الصحة » مقرها صنعاء وكانت وزارة بلا وزير يشرف عليها الإمام السابق ويديرها مجموعة من الكتاب لا صلة بينهم وبين العلوم الطبية .

والمستشفيات التى كانت موجودة ثلاثة فى تعز والحديدة وصنعاء الأول به ١٥٠ سريراً — والثانى به ١٢٠ سريراً، والثلث به ٣٠٠ سرير ويدير هذه المستشفيات أطباء أجانب أكثرهم من الإيطاليين .

وعدد الأطباء باليمن هو ٢٢ طبيباً . . .

والعمال اليمنيون الذين كانوا يعملون بالمستشفيات لفترة طويلة كانوا يعطون شهادات تؤهلهم لمزاولة مهنة الطب . . .

والمستشفيات المذكورة كان ينقصها كل شيء لتؤدى وظيفتها . . . تنقصها الأجهزة والأدوية وهيئة التمريض . . . مستشفيات بها أسرة فقط .

ومياه الشرب تختلف فى صلاحيتها حسب مصدرها فأفضلها ما كان من ينابيع والأكثرية من آبار مكشوفة ولذا فالمياه عرضة للتلوث بكثير من جراثيم الأمراض وكثير من هذه الآبار ملوثة بدودة خيطية (Filariasis) تصيب الإنسان وتعيش فى الأغشية الليمفاوية وتبدو واضحة تحت سطح الجلد .

وطرق التخلص من الفضلات متأخرة بدائية غير صحية .

وهكذا نجد أن مجموعة الأمراض المتوطنة باليمن مع عدم وجود أى نوع من الوقاية أو العلاج كفيلة بالقضاء على أى مجموعة من الناس مهما كثر عددها .

ولكن يأبى القات إلا أن يساهم ويشترك بنصيب وافر فى جميع علل ومشاكل المجتمع اليمنى فلم يترك أى علة أو كارثة إلا وكان المسبب الأول سواء بطريق مباشر أو غير مباشر .

وفى المشكلة الصحية شاء أن يضيف إلى الأمراض والعلل مرضاً يعتبر أساساً لكل الأمراض ألا وهو سوء التغذية .

فالشعب لا يجد القوت الكافى أساساً لشدة فقره ومن أظهر خصائص القات على مدمنيه أنه يخمد حاسة الجوع ويشغل المعدة عن اشتهاء الطعام ويشعر متعاطيه شعوراً كاذباً

بالشبع فيمتنع عن تناول العشاء وفى الصباح يتناول وجبة الإفطار دون شهية وترتب على ذلك انتشار أمراض سوء التغذية ومضاعفاتها وخاصة لدى الطبقات الفقيرة مثل البلاجرا والأنيميا وقروح المعدة والسل والجنون وتضخم الكبد — ولولا أن من عادات الشعب اليمنى الغذائية تناول كميات كبيرة من الحلبة يومياً سواء وحدها أو مختلطة بالخبز أو الأطعمة الأخرى لساءت الأحوال كثيراً عما هى عليه الآن ذلك ، لأن الحلبة غنية جدا بقيمتها الغذائية إذ تحتوى على نسبة مرتفعة من فتيامين ج ، د Vitamins C & D وبها من البروتين الخام ما تبلغ نسبته ٢٧٪ ومن الكربوايدرات الذائبة نحو ٥٠٪ كما تحتوى على الفسفور والكالسيوم ويوصى باستعمالها طبياً لإدرار اللبن عند المرضعات وفى حالات الضعف العام وعلاج النحافة وأمراض الرئتين ، ولهذا تقوم الحلبة حالياً بدور هام فى المحافظة على البقية الباقية من صحة شعب اليمن كما أن الحلبة تعالج حالة القبض الشديد الذى يحدث بالأمعاء نتيجة تعاطى القات .

وتأثير القات تأثير مخدر منبه فهو يوسع حدقة العين ويثير الجهاز العصبى المركزى ويبدأ تأثيره فى الظهور بعد ثلاث ساعات من بداية الجلسة ويكون الليل قد أقبل وأرخى سدوله ويبدأ التأثير المنبه أولا فيتكلمون وينشدون الشعر ويتبادلون النكات ويطول السمر وينسون طعام العشاء لأنهم لا يشعرون بالجوع وقد يطول هذا إلى منتصف الليل أو إلى

ما بعده بقليل وكلما مضى الوقت بدأ ظهور التأثير الثانى للمخدر فترى القوم على الآرائك متقابلين تحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، عيون جاحظة ، وعضلات مسترخية وهمم فاترة ونفوس مطمئنة راضية سعيدة مهما أقبلت الدنيا أو أدبرت ثم تبدأ العقول فى الخمول فتشرد وتغيب وتهيم فى ملكوت الأوهام الهائمة والأحلام اللذيذة وحيئذ يأوى كل إلى فراشه حيث يظهر أثر المخدر هناك إن كان فى بداية الاستعمال ويفقده إذا كان قد وصل إلى مرتبة الإدمان وهى الحقيقة الشائعة السائدة .

ويستيقظ كل واحد من نومه متأخراً يشكو فتور الهمة وفقد الشهية والصداع والإمساك أو النزلات المعوية التى تسبب الإسهال الشديد . ولا يبدو عليه أى رغبة فى العمل ولا تبدو أى بادرة لنشاط أوهمة .

وقد لوحظ فى الحديدة أن القات ينقل إليها بالطائرة مرة كل أسبوع وفى اليوم التالى لوصول الطائرة بالقات يتضاعف عدد المرضى بالعيادة الخارجية بمستشفى الحديدة .

وللقات آثار كثيرة على مدمنيه فنجد أنه يسبب لهم تنبهاً جسمانياً وعقلياً ثم يؤدى الإفراط فيه إلى الخدر والفتور وفقد الشهية . ثم يفقد المدمن الثقة بنفسه والاعتماد عليها ويصبح عالة على الآخرين فى سن مبكرة حوالى الأربعين وهى السن التى كان يجب أن تكون ذروة الإنتاج الجسمانى والذهنى .

وينتج عن الإدمان الإصابة بالعجز الجنسى والعقم

وثبت أنه يؤثر على لبن الأمهات المرضعات من حيث الكم والكيف وهذا يؤثر بالتالى على تغذية الأطفال الرضع .

ومع مداومة الإدمان وتقدم السن يحدث ارتخاء فى عضلات الشرج فتخرج الفضلات إلا إراديًا .

والقات بصفة عامة طارد للنوم مضيع للشهية يجعل السليم سقيماً والنشيط بليداً وإذا بعث فى النفس بعض الانتعاش فذلك لفترة مؤقتة يعقبها رد فعل شديد .

ومن عادات تعاطى القات. أن يدخن الحاضرون المداعة (وهى تشبه النارجيلة أو الشيشة) من مبسم واحد فيكون ذلك سبباً فى نقل العدوى لبعض الأمراض كالسل والأمراض الجلدية .

* * *

الآثار الاقتصادية :

حبا الله اليمن بموارد طبيعية متوفرة فى الزراعة نجد أن هناك أجواء مناخية مختلفة إذ تختلف ارتفاعات المناطق الزراعية من الساحل إلى ارتفاعات تنوف عن ثلاثة آلاف متر مما يهيئ الفرصة للعديد من الحاصلات بالنمو فى مختلف فصول السنة .

ومساحة اليمن تبلغ نحو ٤٤ مليوناً من الأفدنة منها نحو

مليون فدان منزرعة زراعات مستديمة ولكن باقى المساحة ليست قحلا بل أراضى غابات ومراعى خضراء ونصف جافة فالفرصة سانحة لإنتاج حيوانى ضخم .

ونصيبها من مياه الأمطار والعيون وما فى باطن الأرض من مياه جوفية كفيل بمضاعفة الرقعة المنزرعة .

وعدد السكان يقال إنه نحو ستة ملايين نسمة .

ولكن كل هذه الموارد الطبيعية معطلة .

قوى بشرية لا تستخدم ، إنتاج يتدهور بصفة مستمرة ، كفاية هزيلة لم تأخذ بأسباب المعرفة أو الخبرة أو المران .

زراعات بدائية جامدة الأساليب لا تعرف التطور فالكثير من الحاصلات من أصناف ذات صفات رديئة ولا تعرف كيف تمهد الأرض وتختار لها البذور الممتازة وكيف تروى بانتظام وتنقى منها الحشائش الضارة ولا كيف تسمد وتقاوم الحشرات وعمليات الحصاد والجنى والنقل والتخزين والتسويق كلها وسائل متأخرة متخلفة .

والدخل الأهلى كان موزعاً على أسوأ صورة عرفتها توزيع الدخول بين أمم العالم كله فإن ١٠ ./. من الملاك الزراعيين كانوا يمتلكون ثلاثة أرباع الأراضى الزراعية باليمن وهى تمثل أجود وأخصب الأراضى كما كانوا يمتلكون أكبر نصيب من الثروة الحيوانية .

والدخل لا يستثمر لزيادة الطاقة الإنتاجية ولكن يضيع

معظمه فى الاستهلاك .

وأول أعمدة الاقتصاد اليمنى هو الزراعة فهى مصدر الدخل الرئيسى وعماد الثروة وحرفه أكثر من ٩٠٪ من السكان .

وغلة الأرض تزيد عاماً بعد عام فى كل بلاد العالم مع ثبات عدد العمال والآلات والمخصبات ولكنها فى اليمن تضمحل عاماً بعد عام مع زيادة عدد العمال فقد أصبحت الزراعة أكثر المجالات تأثراً باستعمال القات .

فإنتاج العامل اليمنى يقل عما يجب أن يكون عليه لو لم يكن هذا القات موجوداً إذ كيف ينتج أو يعمل أى شخص قضى أكثر الليل سهراً نتيجة تنبيه غير طبيعى بسبب تعاطى القات ولم يتناول عشاءه ثم قام من نومه فى اليوم التالى مضعضع الأوصال فاتر الهمة يشعر بالصداع وثقل الجفون ينتابه الإمساك انعدم لديه الحافز للعمل واعتراه الملل لا هدف له فى الدنيا ولا غاية إلا أن تمضى ساعات الضحى والظهيرة سريعاً ويقبل العصر ليبدأ جلسات القات مع الرفاق والخلان فهو لا يعمل إذاً إلا من الضحى إلى العصر عملا ينتابه الفتور والتراخى والتكاسل فهو عمل منقوص غير متقن فإذا حولنا هذا العمل إلى عملية حسابية وجدنا أنه إذا أسقطنا الفترة التى ينامها اليمنى وجدنا فترة اليقظة تمتد من الضحى إلى ما بعد منتصف الليل وإن هذه الفترة تنقسم إلى مرحلتين الأولى مرحلة العمل والثانية مرحلة تناول القات وفترة العمل فترة لا تتم على وجهها الأكمل بسبب العوامل

الصحية والنفسية ، أى أن الفرد اليمنى يؤدى ربع واجبه فى العمل كحد أقصى وبمعنى آخر أنه إذا كان سكان اليمن ستة ملايين فإن حصيلة العمل المنتج تعادل إنتاج ١,٥ مليون شخص فقط بينما أن احتياجاتهم من الخدمات واستهلاكهم هى احتياجات واستهلاكات ستة ملايين .

وإذا كان سوء التغذية من أكبر العوامل المحددة لإنتاج العمل فإنه لا يكفى التغلب على سوء التغذية كى يؤدى العامل عمله بطريقة فعالة سليمة فالطريقة التى يؤدى بها العامل الزراعى عمله طريقة غير فعالة ولا منتجة ينقصها الكفاءة الشخصية والنشاط والدوافع والطموح .

أما ما هى وسيلة النهوض بالعمال والعمل فكل حلول للمشكلة تعتبر هباء مالم يقض أولا وقبل كل شيء على القات وبعدها يمكن تقديم النصائح التقليدية مثل التدريب والإرشاد والتثقيف والنهوض بالصحة ومستوى المعيشة . . . . . . إلى آخر تلك المسميات ولا فائدة ترجى من بذل أى محاولة وشجزة القات قائمة . . .

وكان من نتيجة ماحاق بالفلاح اليمنى أن أصبحت البساتين مهملة والزراعات متدهورة تكثر بها الحشائش وتفتك بها الآفات الزراعية من كل نوع وجنس وكان الفلاح اليمنى من أمهر وأبرع فلاحى العالم فى زراعة السفوح الجبلية وإنشاء المدرجات ولكن تهدمت هذه المدرجات وأهملت كثيراً .

وكان أكبر مظهر لآثار القات في الإنتاج الزراعي هو على محصول البن. المحصول الذي كان رئيسياً باليمن وبه اشتهرت ومنها صدر إلى كل بلاد العالم دون استثناء فاليمن هي أول بلد اكتشف مفعول البن كشراب منعش محبوب واليمن أيضاً هي أول من استعمل القات كمخدر بغيض . . . لقد شاركها كل العالم في شرب القهوة . . . وبقي القات لها وحدها .

ونجد لسوء الحظ أن شجرة القات لا يحسن نموها وتزيد فاعلية المواد المخدرة الموجودة بالأوراق إلا إذا زرعت الشجرة في تربة خاصة تحت ظروف مناخيه محددة وهي نفس التربة والأجواء الملائمة لنمو شجرة البن ، فالتربة الملائمة هي الطميية الناعمة الخفيفة الغنية بالمواد العضوية كما يلائمها المناطق الجبلية المعتدلة المناخ على ارتفاعات تختلف من ١٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ متر . ونظراً لكثرة الإقبال على استعمال القات وكثرة الأرباح التي يحققها آثر الزراع التوسع في زراعته ويكون التوسع دائماً على حساب شجرة البن . ولا تحتاج أشجار القات إلى عناية بعد زراعتها بينما تحتاج أشجار البن إلى عناية في زراعتها ورعاية أثناء نموها وجهد عند جني ثمارها فتزرع تحت أشجار كبيرة ظليلة مثل المخيط والجميز البنغالي وتجمع الثمار على فترات مختلفة وتجفف في الشمس ثم تدش الثمار بواسطة رحى يدوية لفصل القشر ثم تنقى من المواد الغريبة وتفرز إلى درجات . وشجرة القات يمكن قطف أوراقها في أي وقت بينما تختلف

ظروف أثمار شجرة البن فهى ثلاثة أنواع حولى يثمر طوال السنة وسنوى ويغل مرة واحدة وذوالسنتين وهو متبادل الحمل أى يثمر سنة ويتخلف أخرى وهو أجودها وأول إثمار لشجرة البن يكون بعد ٦ — ٨ سنوات حيث تعطى الشجرة نحو كيلو جرام أو أقل وتزداد الكمية تدريجيًا بعد ذلك وتصل إلى ٤ كيلو ويحرص زراع البن على عدم ترك أشجاره تنمو إلى ارتفاع كبير حتى يسهل قطف حبات البن، والإيراد المتحصل من شجرة البن يبلغ فى المتوسط نحو نصف جنيه مقدراً بالعملة المصرية بينما يبلغ متوسط إيراد شجرة القات نحو عشرين جنيهاً ولما كانت شجرة القات أكبر حجماً من شجرة البن وتحتاج إلى حيز من الأرض يكفى لنمو شجرتين أو أكثر من البن . . . من هذا نجد أن القات يعطى إيراداً يبلغ أكثر من عشرة أضعاف ما تغله زراعة البن علاوة على الفارق فى المجهود الذى يبذل لكل من الزراعتين .

لهذا انصرف الزراع عن زراعة البن وتوسعوا فى زراعة القات وبدا ذلك واضحاً ملموساً خلال العقدين الأخيرين وقل صادر البن سنويًا بينما اهتمت جارات اليمن فى أفريقيا مثل الصومال والحبشة بالبن وزراعته على أسس علمية سليمة لذا تزداد صادراتها سنوياً مع جودة الصنف وأصبحت شهرة البن اليمنى خرافة لا تستند إلى أساس من الواقع أو الحقيقة وأصبح بن هرر أكثر شهرة من بن مخا . وبذا فقدت اليمن مورداً هاما من موارد العملة

الأجنبية كان يتدفق عليها ثمناً لبن مخا الشهير .

فلو استعرضنا المركز الاقتصادى للبن خلال السنوات الأخيرة الماضية لوجدنا أن جملة صادرات اليمن تقدر بنحو عشرة ملايين دولار أمريكى منها ستة ملايين ثمن صادرات البن أى أن البن وحده يمثل نحو ٦٠ ٪ من قيمة الصادرات وبهذا يمثل المركز الرئيسى الأول ولا ينافسه فى هذه المرتبة محصول آخر .

وجملة المنزرع من البن تبلغ ١٥٠٠٠ فدان تعطى محصولا يبلغ نحو ٤ آلاف طن أى أن متوسط إنتاج الفدان يقل عن ٣٠٠ كيلوجرام وهو إنتاج هزيل جداً .

والبن اليمنى يمثل ٢ ٠٠, من جملة التجارة العالمية للبن .

وكانت السعودية تستهلك أكثر من نصف إنتاج اليمن من البن لاعتبارات كثيرة منها الجوار وقرب المسافات وعدم وجود قيود على التجارة أو العملة وتفضيل المستهلك السعودى للبن اليمنى عما عداه من الأصناف ولكن تدهورت صادرات البن اليمنى إلى السعودية بسبب نقص إنتاجه على أثر التوسع فى القات ثم منافسة الأصناف الأجنبية وتفوقها فى الجودة حتى إنها تباع بأسعار تزيد عن سعر البن اليمنى ومع ذلك فالإقبال أشد على الأصناف الأجنبية وخاصة بن هرر والبرازيل .

أما جملة صادرات اليمن من البن إلى مختلف بلاد العالم فهى

حسب أقرب الإحصائيات إلى الدقة كما يلى :

السنة	طن
١٩٤٥	٥٣٤٠
١٩٥١	٤٨٩٠
١٩٥٣	٤٠٨٧
١٩٥٤	٢٧٩٩
١٩٥٩	٢٦٣٧

فإذا عرفنا أن أهل اليمن لا يستهلكون البن ولكنهم يصنعون شراباً من قشر البن وأكثر البن يصدر إلى الخارج وعلى هذا نستنتج من الجدول السابق أن إنتاج محصول البن تدهور إلى النصف خلال الخمسة عشرة سنة الأخيرة وهو بيان غنى عن التحليل والتفسير .

المحصول الرئيسى ينخفض إنتاجه إلى النصف بسبب واحد وهو انتشار زراعة أشجار القات على حساب أشجار البن .

انخفض الإنتاج إلى النصف وتدهور سعره عن باقى أصناف البن فى العالم . . . فقد كان سعر البن اليمنى يزيد عن متوسط الأسعار العالمية بنحو ١٥٪ منذ خمسة عشر سنة وأصبح الآن يقل عن هذه الأسعار بنحو ٢٥٪ . . . يا لها من حقائق مؤلمة .

كان البن ولا يزال هو المصدر الوحيد للحصول على العملات الأجنبية الصعبة ولكنه مصدر على وشك النضوب إن استمر الحال على ما هو عليه دون علاج .

ويستنفد القات قسماً كبيراً من ميزانية الأسرة إذ ينفق كل فرد جزءاً من إيراده ثمناً للقات الذى يتعاطاه وينفق العامل ربع أجره اليومى لهذا الغرض فى المناطق الجبلية وهى مناطق إنتاج القات ويزداد الثمن فى المناطق غير المنتجة للقات مثل التهائم إذ ينقل إليها بالطائرات والجمال ولذا يبلغ ثمنه هناك ثلاثة أضعاف ثمنه فى مناطق الإنتاج ولذا ينفق الفرد مبلغاً أكبر على القات رغم أنه مضطر إلى تقليل ما يتعاطاه نظراً لارتفاع السعر وذلك عند الأفراد محدودى الدخل كالعمال والفلاحين .

والماعز هى الأخرى مغرمة بأكل أوراق القات ويترتب على ذلك نقص فى إنتاج لبنها يقدر بنحو ٥٠٪ .

والضريبة المترتبة على زراعة القات تشكل الرقم الرئيسى فى إيردات الدولة حالياً فأضاف هذا سبباً آخر إلى جملة الأسباب التى من أجلها تحرص حكومة اليمن على بقاء القات .

وعلاج هذه المشاكل الاقتصادية لن يكون عن طريق تطبيق النظريات الاقتصادية لأن مثل تلك النظريات التقليدية وضعت على أساس وجود مشاكل معينة لم يكن من بينها مشكلة

مثل مشكلة القات .

ولن يتأتى حل هذه المشاكل حلولا عملية واقعية إلا على أيدى طليعة مخلصة من أبنائها الشبان المثقفين يهبون للوطن عمرهم .

مثل هؤلاء يفكرون فى مشاكلهم ويحاولون وضع الحلول العملية القابلة للتطبيق والتنفيذ بحيث يمكن تحقيق الأهداف دون حدوث أخطاء أو هزات اجتماعية .

ولا بد أولا من تعبئة الموارد ولكن يا ترى كيف تعبأ الموارد فى بلد كاليمن قوته الاقتصادية فى حاجة ماسة إلى تدعيمها بالقوة البشرية أولا وقبل كل شىء . . . والطاقة البشرية معطلة لا تعمل إلا بربع قدرتها على العمل وبأساليب بدائية . . . واختلفت هذه الطاقة البشرية فى كل شىء . . . فى المذاهب الدينية والمراكز الاجتماعية وفى توزيع الثروة . . . وفى الأجناس . . . ولكنهم اتفقوا جميعاً على شىء واحد وهو حب القات ثم التفانى فى هذا الحب .

ولا يمكن وضع منهج للتنمية الاقتصادية قبل إصلاح الجهاز البشرى ولن يتم ذلك إلا بالقضاء على القات .

وإذا كانت التنمية الاقتصادية تعنى أشياء كثيرة فإن فى مقدمتها استخدام الموارد الموجودة حالياً بالأقاليم بطريقة أفضل عما هى عليه .

وفى مثل ظروف اليمن نجد أن المجال يتسع اتساعاً غير

محدود لتحسين الموارد الحالية مثل الطاقة البشرية والزراعة والثروة الحيوانية ومصائد الأسماك واستغلال المناجم .

وتتمثل عقبات النهوض الاقتصادى فى جملة مسائل أهمها كانت إلى اليوم عدم وجود طبقة من المنظمين فى الجهاز الحكومى .

ثم نظام الحكم ونظام الضرائب وطريقة جبايتها والتكوين الطبقى للمجتمع وعدم توافر الخبرة للعمال فى جميع المجالات سواء فى الزراعة أو الحرف الأخرى وما يسود المجتمع من خرافات تسيطر على أفكار الشعب ثم التفكير الفردى الانعزالى وأخيراً القات وهو أهم الأسباب وأخطرها .

لهذا نجد أن التنظيم الاقتصادى لليمن ليس مسألة هينة ترسم لها البرامج لأن العبرة بتنفيذ تلك البرامج ولا يمكن تنفيذ أى برنامج لإصلاح اقتصاديات البلاد والأوضاع على ما كانت عليه وهذا ما يجعلنا نقدر العبء الضخم الذى تضطلع به الثورة فى هذا المضمار .

الآثار الاجتماعية :

تكوين الأسرة بالمجتمع اليمنى ينطبق عليه وصف « الأسرة المستقرة » فالأبناء يظلون مع آبائهم فى نفس المنزل حتى بعد الزواج وجميع ما يحصل عليه الأبناء من مكاسب ينفقها رب الأسرة على خدمة الأسرة كلها ومن يهاجر من الأبناء إلى

البلاد المجاورة وخاصة فى الجزيرة العربية حيث تتوافر فرص العمل — يحرصون على إرسال النقود إلى رب الأسرة القاعد فى اليمن لينفق منها على احتياجات العائلة وربع قيمة هذه الاحتياجات لتوفير طلبات الأسرة من القات .

وتعمل المرأة فى الزراعة ولكن ضعف صحتها يحول دون حسن قيامها بهذا العمل ضعف الصحة الناتج عن سوء التغذية وعن استعمال القات — وهى لا تحسن قيامها بدورها الطبيعى . . . دور الأم . . . بسبب الجهل والإهمال وتأثير القات على لبن الرضاعة . . . إنها تسهر وتسرف فى السهر لتصبح واهنة مفككة الأوصال خاملة وئيدة الخطى بطيئة الحركة مثقلة الجفون .

أما التركيب الطبقى للمجتمع فيما قبل ثورة سبتمبر سنة ١٩٦٢ فيمكن تقسيمه إلى أربعة طوائف :

(١) السادة الأشراف أو سلالة النبى صلوات الله عليه وهم طائفة ممتازة كانت لهم مكانة ملحوظة — وكانوا يمتلكون الأراضى والعقارات ويشغلون المناصب الكبرى فى الدولة .

(٢) رجال القبائل الذين يكونون غالبية السكان .

(٣) الرعوية وينتسب إليهم التجار والمزارعون الذين لا ينتمون إلى قبيلة ما .

(٤) طائفة الخدم والعبيد .

والفروق بين هذه الطبقات واضحة مميزة يفرق بينها النقود والنفوذ ولكنها تتساوى جميعها فى الثقافة مساواة تكاد تكون تامة لأن مستوى الثقافة هناك هو الحد الأدنى للمعرفة فالشعب كان فى عزلة ثقافية عن العالم كله فالمدارس والسينما والمسرح والتصوير وكل الفنون والصحف والمجلات وطباعة الكتب كلها أشياء غير معروفة البتة .

ثقافة كانت وسيلتها أربعة عشرة مدرسة من مدارس المراحل الأولى وليس من بين مواد التعليم لغة أجنبية أو مادة من مواد العلوم كالرياضة والطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات .

ثقافة كانت حصيلتها أسلوبا ركيكاً فى الكتابة وشعراً لا يمت إلى الشعر العربى الجزل بصلة . بعض هذا الشعر يمجد الأمام السابق عن رهبة وخوف والباقى يشيد بالقات عن رغبة ومحبة .

وهذا النصيب الضئيل من الثقافة والمعرفة جعلهم بعيدين عما يجرى فى العالم من تطور فى العلوم والمعارف .

وقد اجتمع فى القاهرة فى يولية عام ١٩٦٢ مؤتمر « مسائل التنمية الاقتصادية » وحضره وفود ٣٧ أمة وكان أعضاء كل وفد من الصفوة الممتازة أهل الخبرة والتخصص . . . وكان مندوب اليمن صبياً فى الخامسة عشرة من عمره لأنه تلميذ بالسنة الأولى الثانوية فهو فى ظنهم يستطيع أن يساير المشاكل العالمية ويدرسها ويحللها ويستوعبها . . .

أما علاقة الفرد بمجتمعه فهي تختلف عن كل ما ألفه العالم من حيث الإدراك وتحمل المسئولية وطرق المعيشة .

فمن حيث الإدراك تسود الخرافات محل الحقائق .

والشعور بالمسئولية قاصر على المسئولية الخاصة ولا شأن له بالمسئولية العامة .

أما طريقة المعيشة وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض فإنه يسودها الغموض والشك وعدم الثقة .

هذا المجتمع اليمني بصوره التي وصفناها بايجاز يتفاعل تفاعلا شديداً مع القات حتى أصبح أكبر همه ومبلغ علمه فالناس هناك على موعد معه كل يوم حريصون عليه خصصوا له أطيب أوقات النهار وردحاً من الليل ويتخيرون لمجلسه خير أماكن الدار وصفوة الأصدقاء والخلان . . . ينشدون الشعر ويتبادلون النكات ويتسامرون . . . أجمعوا على حبه إذ لا يوجد يمني واحد ينتقد القات أو يعترف بأضراره أو يقدر أخطاره حتى رجال الدين قد أحلوا استعماله مع أنه أشد ضرراً من الخمر والحشيش . وهناك بجوارهم في الجزيرة العربية نهى خلفاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن التدخين وحرمت الحكومة استعمال القات مستندة إلى أحكام الشرع الحنيف ولكن لم يتشجع أحد رجال الدين باليمن ويذكر الحقيقة التي لا مراء فيها وهي أن ما يسري على الخمر من تحريم يسري على القات دون تفرقة .

إنهم لا يعترفون بالمجتمع المتولد عن القات ويرفضون الاعتراف به ولا يحاولون الفكاك منه أو التأثير فيه لأصلاحه . يجذ القات جذباً هائلا للراحة والخمول والكسل والتراخى ويفرض عليهم بالواقع الرضا عن طمأنينة وسعادة وراحة بال مهما كان هذا الواقع مريراً أو قاسياً أو ظالماً ويولد لديهم حنيناً هائلا للخيال واشتهاء الجنس .

كان شعب القات معزولا عن العالم . . . كان يخاصم الدنيا كلها فى عزلته التى صنعها بنفسه داخل عزلة اليمن التى صنعها الإمام السابق . . . عزلة داخل عزلة . . . أسوار عاتية مزدوجة أحاطت باليمن ولفته فى ظلام دامس فلم يسمع العالم الخارجى عنه شيئاً إلا همساً .

وهكذا كان الشعب فى عزلة تامة عن العالم لا يعلم ولا يريد أن يعلم بما يجرى حوله بينما أمم العالم تحث الخطى بل تنهب الأرض نهباً لتحقيق مستويات من العيش أكرم وأفضل لبنيها .

وزاد المر مرارة وعلقماً والطين بلة ووحلا أن الشعب كان خلف تلكم الأسوار يرسف فى أغلال ليس لها مثيل . . . أغلال صنعت من شجرة خبيثة هى شجرة القات وأصبح فى غيبوبة ناتجة عن الظلم والقات .

على أن أسوأ النتائج التى حاقت بالمجتمع اليمنى فى عهد الأئمة الطغاة هى رضا الشعب بالوضع الذى كان قائماً وسيطرة

الأوهام والخرافات على تفكير الشعب، فعلى سبيل المثال نذكر أن الشعب كان يعتقد فى الإمام السابق اعتقادات خرافية لا أساس لها إذ كانوا يظنون أنه ذو قوة خارقة للعادة وأنه محصن لا يمكن أن يصيبه مكروه وقد ذكر لى مرة واحد من أهل الرأى باليمن أن الإمام يحفظ قسماً لو تلاه على طائرة فى السماء فإنها تسقط فى الحال ولست أدرى إن كان صاحبى هذا يصدق ما يرويه ويحكيه للناس أم أنها من قبيل نشر الدعايات، وقد ساعدت بعض المصادفات الشاذة العجيبة على رسوخ أمثال تلك الخرافات وغيرها فى أذهان عامة الشعب فقد انتصر الإمام أحمد على ثوار عام ١٩٤٨ الذين قتلوا والده وحاولوا تغيير الأوضاع السياسية، كما تمكن من استعادة عرشه بعد انقلاب عام ١٩٥٥ الذى كان بقيادة أخيه عبد الله واستمر خمسة أيام وكان يمكن لهذا الانقلاب أن ينجح، فقد وقع الإمام فعلا بياناً أعلن فيه تكليف أخيه عبد الله بتصريف الأمور نظراً لمرضه ولكنه بعد ثلاثة أيام من توقيع هذا البيان صعد إلى سطح قصره فجراً وأمسك مدفعاً رشاشاً وأطلقه على الجنود المحاصرين فسرعان ما تشتتوا وانهارت حالتهم المعنوية واستسلم البعض وفر الباقون.

كما نجا الإمام من الموت عام ١٩٦١ بحيلة عملها عند ما أطلق عليه الرصاص فأصابه فى غير مقتل فارتمى سريعاً على الأرض وتظاهر بالموت وفر الجانى مطمئناً إلى أنه أنهى مهمته وقضى

على الإمام ولكن الإمام قام وكتب له الشفاء .

مثل هذه الحوادث وغيرها جعلت الشعب يعتقد تحت تأثير مفعول القات إن للإمام قوى خارقة للعادة وأنه لا يقهر .

وهكذا رضى أهل اليمن بالمداعة والقات وتبادل النكات وقرض الأشعار والانسجام بالليل والنهار .

نعم رضوا بالمداعة فاستكانوا ومضغوا القات فضعفوا وهانوا وهاموا بالشعر وتخلوا عن الفعل فتخلفوا وناموا وتعطلوا بالنهار فطال بهم مع البؤس والفقر المدار .

كانت عبودية للإمام ورقاً للقات.

إلى أن شاء الله أن يطلع الفجر بعد طول ظلام . . . وقامت ثورة الإصلاح على يد الأحرار من أبناء الوطن يشد أزرهم دولة شقيقة منها انطلقت أولى الثورات ضد الملوك والطغاة وفساد الحكم وجعلت القومية العربية حقيقة بعد أن كانت حلماً .

وستكون الخطوة الأولى فى الإصلاح هى القضاء على شجرة القات حتى يستفاد بالطاقة البشرية بأقصى قوتها . وأكرم أوضاعها .

الآثار السياسية :

كان الاحتلال العثمانى نكبة على الأمة العربية جمعاء وعند ما تقلص ظله صحت البلدان العربية الواحدة تلو الأخرى ماعدا اليمن السعيدة التى ظلت على حالها إذ بعدما انحسر عنها ظلم

العثمانيين وقعت تحت وطأة آل حميد الدين وكانت للعثمانيين طرائقهم المتعددة فى سلب حقوق الشعوب وكان لبيت حميد الدين سلاحه الفذ فى سلب حقوق الشعب العربى اليمنى دون أن يتفوه فرد بالشكوى . . . هذا السلاح الوحيد هو نشر استعمال القات حتى أصبح عاماً شاملا لجميع طبقات الأمة وأفراد الشعب . . . فلما تمكن المخدر من الجميع وأصبح الشعب ضعيفاً مستكيناً مستسلماً راضياً استمد الإمام قوته من ضعف الشعب وخضوعه ورضوخه . . .

أصبح الإمام المريض أضعف حاكم فى العالم يغتصب وحده حقوق أمة بأسرها لا ينازعه ولا يشاركه أحد . . . إنه إمام الناس حقاً . . . إمامهم فى استعمال سيف بتار رهيب . . . سيف ليس من سيوف الإسلام . . . سيف ساحر عجيب . . . هو مخدر خاص لا يستعمل حالياً إلا فى اليمن ولا تحله فى وقتنا هذا إلا شريعة اليمن وليس هناك إجماع على حبه إلا بين شعب اليمن .

كان أحمد بن يحيى بن محمد حميد الدين إماماً حقاً وكان دون منازع أكبر أئمة القرن العشرين ظلماً وبطشاً وقسوة .

وكان سيفاً حقاً ... وحاشا أن يكون من سيوف الإسلام ولكنه سيف فريد . . . سيف ارتفع على رؤوس ستة ملايين من البشر فناموا واستكانوا وشعروا فى نومهم واستكانتهم بلذة ونشوة ورضا . . . إنه سيف القات أعجب مخدر على وجه الأرض .

. . . هل يشبه ذلك الموقف موقف حسن الصباح من أتباعه الحشاشين فى صدر الدولة الفاطمية، لقد كانت وسيلة الصباح فى السيطرة على رجاله هو مخدر الحشيش ولكنه كان ذكياً قوى الشخصية كان أتباعه يكونون جمعية سرية إرهابية عاثت فساداً فى جميع أنحاء الشرق واغتالوا الملوك والأمراء والوزراء . . . والإمام أحمد سيطر على أتباعه بواسطة القات سيطرة علنية لاسرية فيها، واكتفى أفراد رعيته بالانطواء على أنفسهم وبقى ضرر المخدر محصوراً داخل حدود إقليمهم .

وليس هناك أدنى شك أن الأئمة من بيت حميد الدين هم الذين عملوا على نشر استعمال القات لدعم نظام حكمهم لأن القات من أولى خصائصه الشعور بالرضا والسعادة والتقاعد وتقاعس الهمم .

وعهد الإمام يحيى كان عهد القات الذهبى إذ شجع زراعته وعمل على نشره وكان هو نفسه يحبه حباً جماً وينشد فيه الشعر .

ذكر أمين الريحانى فى كتابه ملوك العرب أن رفيقاً له فى رحلة يسمى قسطنطين نظم قصيدة يهجو فيها القات وأرسلها إلى الإمام يحيى جاء فيها .

القـــات فيـــه عجابُ ... كما يقول الصحـــابُ
درت به الشاة لمـــا ... أن طاردتهـــا الذئاب
ذاقتـــه واســـتعذبته ... وســـال منهـــا اللعاب

إلى أن قص القصة التى يروونها فى اليمن أن راعياً أضاع شاة من غنمه فراح يبحث عنها فرآها نائمة فى ظل صخرة وورق القات فى فمها فجربه مثلها فاستعذبه واسترسل الشاعر يقول :

أمسى يجمع منه حتى تملى الجراب
مشى يحدث عنه وفى الحديث الصواب
فصدقوه وذاقوه مثله واستطابوا

وبعد أن يصف كيفية استعماله فى اليمن ويعدد الفضائل التى يروونها فيه قال :

ما نفعه أنبئونى هل عند شخص جواب
جربته واختبارى يجدى به الإسهاب
تنتاب جسم الفتى قش عريرة والتهاب
وفيه يفعل مالا يقوى عليه الشراب
والصدر فيه من الوخز والعذاب خراب
والنسل يضعف منه ما فى كلامى ارتياب
لا نفع فى القات لكن فيه الشقاء والعذاب
وتزهق النفس منه والقلب والأعصاب
والجفن يذبل حتى يغشى العيون سحاب
وسوء هضم وقبض منه يغيب الصواب
والرأس يثقل وطشا وبالدوار يصاب
ويعترى بعد هذا الـ مفاصل الاضطراب
لم يبق أرخت ربما القات للقتل باب

وقد رد عليه الإمام يحيي حميد الدين ــ غفر الله له ــ بقصيدة طويلة يعدد محاسن القات ويمدحه جاء فيها :

فللعيــون جــلاء للضعيــف منــه ذهاب
وللثغــور صــباغ زمــردى يــذاب
أحســن بثغــر مليــح له المــذاب رضــاب
يامــا أحيــلاه ظلمــا تشــفى به الأحبــاب
وللنفــوس مــريح وللنشــاط انجــذاب
ويشــحذ الفكر حتى يخــاف منــه التهــاب
ويطرد النــوم عن من لــه الجليس كتــاب
أمــا الذى قاله قســ طنطين فهــو سراب
أليس من جاوز الحــد أكلــه والشراب
يكون عرضــة خسر ويعــتريه اكتئــاب
والأكل والشرب مــالا بــه الكرام تعــاب
وإنمــا العيــب إسرا ف منه يبــدو العجاب
هــذا الملفــق يا قسـ طنطين منــا جــواب
يهــدى إليــك عليــه مــن الحيــاء نقــاب
لأنه ليس كفــؤا للــدر وهــو تراب
فاســتر ملفــق يحيي فالســتر فيــه ثواب

وغير الإمام يحيي مدح القات شعراء وما أكثر الشعراء فى اليمن إذ يكاد كل فرد يكون شاعراً بصرف النظر عما إذا كان هذا الشعر موزون القوافى أو مختلها .

يقول الشاعر :

زمرداً يقطف الأصحاب أوقاتاً يصفو به العيش أحياناً وأوقاتا
ياعاذلى عن حصول القات مت كمداً لا نترك القات أحياءاً وأمواتا

وقال فى مدحه شاعر متصوف :

بزاك معراج قلبي حين يصعده جبريل روحى إلى أعلى سماواتى

وقال شاعر غير يمنى يهجو القات :

إنما القات حشيش أخضر ليس يحتاج إليه البشر
فإذا مالت إليه فئة فاعذروهم إنما هم بقر

ومجالس تعاطى القات كما سبق وصفها تضم مجموعة من الصحاب يدخنون المداعة أثناء تخزين القات فهى عملية مكملة له ولصفو الخلان .

وينشد الشاعر للمداعة :

مداعتى أنيستى جليستى فى وحدتى
تقول فى كركرها بالله خذنى بالتى

وقد أدى القات رسالة للأئمة على أكمل وجه فاستطاب الشعب الخضوع لهم ورضوا عن تصرفاتهم ومجدوا أشخاصهم ورفعوهم فوق مستوى البشر .

وقد زرت أثناء زيارتى لليمن فى شهر يناير الماضى قصر البشائر

الذى دكه المشير السلال ليلة قيام الثورة وكان البدر مقيماً فيه وتمكن من الهرب وبقيت بعض مخلفات القصر وقد لاحظت بين مخلفات القصر أكواماً من المكاتبات الرسمية والرسائل التى كان يبعث بها الأهالى إلى الإمام .

ولاحظت أن أسلوب التخاطب مع الأمام أسلوب يشوبه الخضوع والخنوع وإليك أمثلة منها .

صلاة الله عليكم يا أمير المؤمنين .

مولانا أمير المؤمنين .

نقبل بواطن الأكف والأقدام .

أمد الله مدة مولانا ومالك أمرنا أمير المؤمنين والحجة على الخلق أجمعين المتوكل على الله رب العالمين والسلام عليه ورحمة الله وبركاته يردد فى كل وقت وحين .

خلاصة الأطهار الأمجاد ، روضة المجد رفيع العماد ، قرة العين والكمال ، عنوان الاعتبار والجلال .

الركن الأركن والسند المستند .

التقى النقى الطاهر الورع .

شفاء النفوس وطب القلوب وضياء العيون .

رحمتنا بالسجن والتعذيب فارحمنا بالإفراج .

وتوقيع أصحاب مثل هذه الرسائل يكون مسبوقاً بعبارات كلها ذلة ومسكنة مثل تراب نعالكم .

العبد المملوك .

وكان القسم المتداول « ورأس الإمام » وكنت تسمع عبارات مثل « على العين والرأس أمر الإمام » .

ويقول الشاعر المنافق :

يامن يخالف أمرمولاناويعصيه لا بـد مـن يـوم تراه
لابد من يوم يشيب الطفل فيه والطـير يرسى فى سمـاه

ومن أعجب الأمور أن القات كان يوزع ضمن جراية الجند وأهم عناصر هذه الجراية هى القات والبر (الحنطة) .

كان من نتيجة انعدام الحرية الشخصية والسياسية فوائد عظيمة للإمام فقد حصن نفسه ضد أى تهديد داخلى إذ لا يستطيع أى فرد أن ينتقد أو حتى يتحدث عن نظام الحكم وعيوبه وشوائبه وبهذا أصبح الإمام الجن فى مأمن تام لا يخشى شيئاً بعد أن جثم على أنفاس شعبه بوسيلتيه الجبارتين انعدام الحرية والقات . . . ولكن ماذا كانت نتيجة انعدام الحرية بالنسبة للشعب . . . ؟

لقد كانت النتائج بالغة الخطر شديدة الضرر بهذا الشعب يصعب تعدادها ويطول شرحها ويصعب تقريرها فمهما أسهب فى الشرح أو بذل من جهد فى التصوير فان نستطيع أعطاء صورة حقيقية للواقع المرير ، واقع بالغ من قسوته ومرارته أن الستة ملايين الذين يعيشون فيه لا يشعرون بما هم فيه ولا يدرون إلى أى درك فى الهاوية انحدروا ، ويكفى أن نذكر من تلك النتائج

ثلاث وهى : فقدان كل من الوعى . . . والثقة . . . والاندفاع الشعبى الخلاق .

لقد قضى على وعى الشعب قضاء تاماً ، هذا الشعب الأصيل ذو التاريخ المجيد الذى قام بدوره فى حضارة العالم قبل خمسة عشر قرناً ثم ساهم بنصيب وافر فى الفتوحات العربية فى صدر الإسلام وساهم فى أدب اللغة وفقه الدين نجده يعيش اليوم وليس لديه أى قدر من الوعى الظاهر أو المكنون حتى ذلك الوعى الفطرى الموروث كان قبل الثورة فى حالة تعطل تام .

كما انعدمت الثقة على جميع المستويات وفى جميع الاتجاهات انعدمت الثقة بين أفراد الطبقة الواحدة وبين طبقات الشعب الاجتماعية المختلفة وهى معدومة أصلا بين الزيود والشوافع والاسماعيليين وكانت معدومة بين كل هؤلاء وبين اليهود قبل رحيلهم إلى فلسطين المحتلة فى السنوات القليلة الماضية والثقة كانت معدومة بين الحاكم والمحكوم فلم تكن هناك ثقة مطلقاً بين أى فرد من الشعب فى أى فرد حكومى أو أى جهاز حكومى من أوطى درجات الحكم وتتدرج عدم الثقة صعوداً حتى تصل الإمام ومجلسه وكان الجهاز الحكومى لا يثق فى نفسه والأجهزة الحكومية المختلفة تتنافر وتتحزب ويكيد بعضها للبعض الآخر والإمام سيف الإسلام لا يثق بكل أولئك وهؤلاء لا يثق بوزرائه ورجاله المقربين منه كان لا يثق بأشقائه ولا يثق

بولده الذى منحه ولاية العرش على غير ما يقضى به عرف عائلة حميد الدين، كان لا يثق بأسرته وحريمه . . . ولا يثق بجيشه سواء كانت قوات الشمال أو الجنوب وسواء كانوا زيوداً أو شوافع . لا يثق بأى دولة أخرى عربية كانت أو أجنبية وبديهى أن شخصاً له هذه الطباع لا يثق حتى فى نفسه وبذا أصبح عدم الثقة « هى طعام الشعب وشرابه أصبحت مادة تسرى فى الدماء لتغذى كل خلية من خلايا الجسد وترتب على هذا فقدان الأمل فى أى إصلاح أو أى بارقة أمل للإصلاح .

ومن بين نتائج انعدام الحرية وعدم وجود ذلك الاندفاع الشعبي الخلاق وهى الصفة الملازمة لكل أمة أو شعب يريد الحياة ويريد العمل إذ كيف يتسنى للأمة أن تأخذ مكانتها فى الوجود دون أن تكون هناك تلك القوى الدافعة المحركة للجهود الكامنة للطاقات البشرية التى يمكن أن تستغل لخير المجموع وإسعاده فهذا الاندفاع الذاتى للقوى البشرية ضرورة لازمة . . . فلا شك أن هذه القوى وتلك الطاقات البشرية موجودة ما دام هناك مجموعة من الناس تعدادها ست ملايين . . . ولكنها قوى كانت راكدة معطلة متجمدة لأسباب نفسية ووظيفية (فسيولوجية) أما النفسية فترجع إلى سلب الحرية وأما الوظيفية فمرجعها إلى تعاطى القات .

* * *

نستخلص مما سبق ذكره أن القات مخدر لا شك فى ذلك وأنه ينتشر فى أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية وقد حرمته كل الحكومات إلا حكومة اليمن ويأتى القات بعد الأفيون فى خطره ويسبق الخمر والحشيش .

ولا تزال الدراسات العلمية عنه قليلة ولا بد من إجراء بحوث علمية مستفيضة علمية لدراسة أسباب الإدمان والبحث عن وسيلة لعلاجها طبيًّا .

وقد ترك القات آثاره البغيضة على أمة اليمن فقد أنحل أجسامهم استعمال القات وترادف الهموم .

عيون مسهدة جمدت لا تجود حتى بالدمع كأن الدمع لم يخلق لهم .

وأجساد متراخية وجنوب قد نبت بها المضاجع . . . وحلوق جف ريقها وألسنة عجزت عن الشكوى ونسيت حتى الدعاء . . . تمضى بهم الأيام وأنياب الخطو بطيئات المسرى وليال لا تتحرك كواكبها ... وجوم حزين كان يملأ سماوات اليمن وآفاقها . . .

الخاتمة

لن تحل المشكلة بخطب وعظات تلقى أو كتب ومنشورات توزع أو قوانين تسن . . . إن المشكلة أكبر من كل هذا بكثير وكل دقيقة تمضى تزيد الأمر تعقيداً ولن تحمل لا بقيام حكومةرشيدةتضع سياسةمرسومةحكيمة للقضاءعلىالقات تدريجياً والحمد لله لقد قضى على حكومة الأشرار وجاءت حكومة الأبرار المصلحين .

ولن يتم أى علاج إلا إذا تغيرت علاقة اليمنى ببيئته وتغير إدراكه ونظرته للأمور ولن يحدث كل هذا إلا إذا قضى على شجرة القات .

وهل يا ترى تتم مشاريع التنمية الاقتصادية أولا وبعدها يأتى الإصلاح الاجتماعى أويتم الإصلاح الاجتماعى أولا ، وسواء كان هذا أو ذاك فلن يتم شىء ما دامت شجرة القات تنمو على سفوح جبال اليمن .

وما من شك فى أن حكومة الثورة الرشيدة ستعنى بجميع برامج الإصلاح ومنها نشر التعليم وإعادة نشر الثقافة الإسلامية على قواعد سليمة غير مضللة ولا مضللة .لا تهدف إلى استبداد فرد بدعوى أنه من سلالة النبى صلوات الله عليه والنبى منه

بريء . وكيف لا يبرأ منه وهو الداعي إلى المساواة . « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » . نبي لم يقل قط بوجود شرفاء وأئمة حتى لو كانوا للإسلام سيوفاً . نبي دعا إلى دين يستوى فيه الشريف والمشروف . . . نبي لم يحلل دينه استعمال المخدرات .

ومن تلك البرامج أيضاً سرعة النهوض بالزراعة وتربية الحيوان والتصنيع على أحدث النظم العلمية والتدريب على جميع المستويات كل بما يناسبه وبذا يجد أفراد الشعب ما يشغلهم ويملأ وقت فراغهم بالأعمال المثمرة المنتجة فيكون تحقيق الأرباح وزيادة الأجور من العوامل التي تساعد على التخلي عن القات ولو تدريجياً .

يجب أن يصنع أبناء اليمن كل هذا حتى تذوب ثلوج التجمد وبذا تستطيع اليمن أن تتحرك حتى تدرك الطريق .

مراجع البحث

1. Hunnius. C.: "Pharmazeutisches Worterbuch" 1959.
2. Barley, L.H.: "The Standard Cyclopedia of Horticulture" Macmillan, New York - 1947.
3. Baird, D.A.: British Medical Journal 1951, pp. 15-22.
4. Glaser: "Travel in Arabia": The. Geographical Magazine 1887 p. 291.
5. United Nations Commission On Norcotics Drugs. "The problem of khat 20 April 1956.
6. Annual Report of the Kenya Department of Agriculture 1947 p. 45.
7. Anonymous: "The need for the control of khat". East African Medical Journal, 1945, 22-1 pp. 9-10.
8. League of Nations Advisory Committee On Traffic in Opium and other dangerous drugs. (Report on the characteristics and uses of the plant kat. Document O.C. 1617, 3 Feb. 1936.

٩ — د. أحمد فخري : اليمن بين القديم والحديث محاضرات الجمعية الجغرافية المصرية ١٩٥٩ .

١٠ – جان جاك بيربى : جزيرة العرب – تعريب نجده الهاجر وسعيد الغز – بيروت ١٩٦٠

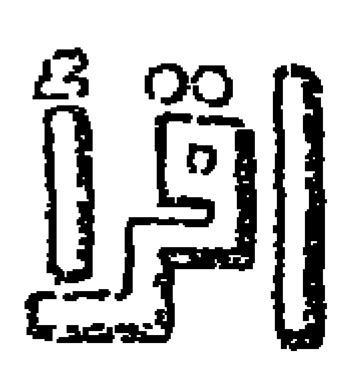
١١ – أمين الريحانى : ملوك العرب – الجزء الأول – بيروت ١٩٥١

١٢ – محمد السيد أيوب : «شجرة القات وآثارها على المجتمع العربى اليمنى» مجلة مرآة العلوم الاجتماعية – المجلد الخامس – العدد الثانى مارس ١٩٦٢

محتويات الكتاب

صفحة

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف
سنة ١٩٦٣



دكتور علي حسني الخربوطلي

البحر المتوسط
بحيرة عربية



البحر المتوسط

بحيرة عربية

دكتور على حسنى الخربوطلى

البحر المتوسط

بحيرة عربية

اقرأ ٢٤٧

دار المعارف

اقرأ ٢٤٧ – يولية سنة ١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

مقدمة

اعتاد المؤرخون — قدامى ومحدثون — أن يتحدثوا عن إحجام العرب فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام عن ركوب البحر. ولكن هذا الرأى لا ينطبق إلا على فريق من عرب الجزيرة العربية من البدو الذين جعلوا الرعى حرفتهم الأولى. فقد كان عرب اليمن يعملون بالتجارة البحرية ويمتلكون الأساطيل الضخمة، وشهد البحر الأحمر والمحيط الهندى أساطيل حمير وسبأ فى أيام التبابعة. أما عرب الحجاز، وإن كانوا لا يجارون عرب اليمن فى ركوب البحار فما كانوا يحجمون عن ركوبه خوفاً أو هلعاً، ولكن تمشياً مع طبيعة بلادهم، فقد كانت بلاد اليمن يحيط بها الماء من غربها حيث البحر الأحمر، ومن الجنوب حيث المحيط الهندى. أما بلاد الحجاز فقد وجهت اهتمامها نحو الشمال حيث الشام غرباً والعراق شرقاً، واتخذوا الطرق البرية دون البحرية، واهتموا بالقوافل دون السفن. وفى الحقيقة كان عبور صحراء شمال الجزيرة العربية وبادية الشام أكثر مشقة من عبور البحار، حتى إن الجغرافيين اعتادوا أن يسموا بلاد العرب (الجزيرة العربية) بدلا من (شبه الجزيرة العربية)، فقد اعتبروا بادية الشام بحراً يعج بالرمال وهو أكثر مشقة من بحز الماء.

ولابد أن عرب الحجاز اعتادوا ارتياد البحر الأحمر ، وأن سفنهم كانت تجوب هذا البحر ، فى عهد الرسول حينما اشتد إيذاء الوثنيين للمسلمين ، فكر محمد فى هجرة المسلمين واختار الحبشة لتكون مكان هجرة ، ولولا أن أهل مكة من المسلمين كانوا يقصدون هذه البلاد منذ العصر الجاهلى لما فكروا فى الخروج إليها ، وقد تتابعت سفن المسلمين إلى الحبشة تحمل وفوداً من المهاجرين ، وما لبثت قريش أن بعثت وفداً برئاسة عمرو بن العاص يطلب من النجاشى ردّ المسلمين ، ولكن النجاشى اقتنع بصدق الدين الجديد الذى اعتنقه العرب فرد وفد قريش خائباً . وظل المهاجرون المسلمون يقيمون فى الحبشة إلى أن هاجرالرسول من مكة إلى المدينة فعاد المهاجرون من الحبشة .

كانت بداية الفتوحات العربية الإسلامية فى عهد الخليفتين الأولين أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب إيذاناً بظهور المجد العربى الحربى ، والسيادة العربية فى البحار ، وخاصة فى البحر المتوسط فقد فتح العرب المسلمون الشام ومصر بعد أن قضوا على السيادة الرومانية ، وكان هذا إيذاناً بانتهاء السيادة الرومانية أيضاً فى البحر المتوسط ، وبدأت الأساطيل العربية تجول وتصول فى البحر المتوسط . وبمرور الأعوام ، سيطر المسلمون على شرق البحر المتوسط حيث بلاد الشام ، ثم جنوب شرقى البحر المتوسط حيث مصر . ثم وصلت الفتوحات العربية إلى

سواحل المحيط الأطلسى ، وخضع شمال أفريقية جميعه للحكم العربى ، فسيطر العرب على جنوب البحر المتوسط ، ثم فتح العرب بلاد الأندلس ووصلوا إلى جنوب فرنسا فسيطروا بذلك على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، وفتحوا معظم جزر البحر المتوسط وغزوا جنوب إيطاليا ، وأصبحوا يسيطرون على معظم أرجاء شمال البحر المتوسط ، وتحول هذا البحر إلى بحيرة عربية ، بعد أن كان فى عهد الإمبراطور جستنيان بحيرة بيزنطية .

اتفق المؤرخون — عرب وأجانب — على أن البحر المتوسط كان طوال معظم العصور التاريخية بحيرة عربية . فتحدث ابن خلدون عن عظمة العرب والمسلمين البحرية فى البحر المتوسط فقال : « وقد كان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومينورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج » .

وتحدث (آدم متز) فى كتابه (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) عن عظمة البحرية العربية فقال : « لم يكن لأوربا سلطان على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن العاشر الميلادى ، فقد كان بحراً عربياً ، وكان لا بد لمن يريد أن يقضى

لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ودّ العرب ، كما فعلت نابلى وغيتة وأمالفى . ويظهر أن الملاحة الأوربية نفسها كانت فى ذلك العصر على حال يرثى لها من الضعف » .

عدّد المؤرخ الأمريكى المعاصر (أرشيبالدر لويس) فى كتابه(القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط) كثيراً من صور أمجاد العرب ، وقرر أن العرب كانوا فى معظم عهودهم ، وخاصة فى القرن العاشر الميلادى ، سادة البحر المتوسط .

وتحدث المؤرخ الألمانى (فون كريمر) فى كتابه (الشرق فى ظل الخلفاء)[1] . عن أثر أساطيل العرب فى الأساطيل الأوربية ، فقال : « مما يوضح لنا أن الأساطيل العربية البحرية لاتزال شائعة على ألسنة التجارة فى جنوب أوربا . نذكر من بين تلك الاصطلاحات كلمة Cable المأخوذة عن لفظ (حبل) العربى . وكلمة Arsenal (وبالإيطالية Darsonal) المأخوذة عن لفظ (دار الصناعة) بالعربية ، وكذا كلمة Corvette المأخوذة عن لفظ غراب الغربية ، وكلمة Admiral المأخوذة عن (أمير البحر) » .

هذه هى صفحات تتحدث عن جانب من جوانب الأمجاد العربية ، المجد البحرى ، وأرجو أن أكون قد ساهمت مع من ساهموا فى إبراز العظمة العربية التى تدعو إلى الفخر والاعتزاز ، والله ولى التوفيق .

المؤلف

---

(١) P. 356

١ – قيام الأسطول العربى فى البحر المتوسط

رواد البحر الأولون :

خفقت أعلام المسلمين على سواحل الشام ومصر ، ورأى العرب سفن الروم ، وشاهدوا حروبها فيها ، فتاقت أنفسهم للغزو فى البحر وامتلاك الأساطيل . كان أول عربى ركب البحر هو العلاء بن الحضرمى ، والى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب على البحرين . فقد خرج باثنى عشر ألفاً من الجند المسلمين من غير إذن الخليفة لغزو بلاد فارس ، فعبر بسفنه الخليج الفارسى ، وعاد المسلمون إلى البصرة محملين بالغنائم ولكنهم فقدوا معظم سفنهم التى خرجوا بها ، وعلم الخليفة عمر بهذه الحملة ، فأبدى غضبه على العلاء وولى سعد بن أبى وقاص الإمارة وجعل العلاء مرؤوساً له .

يصور بعض المؤرخين حملة العلاء على أنها حملة فاشلة ، ولكننا لا نرى غرق معظم السفن مقياساً للفشل ، فقد عاد معظم جند الحملة سالمين ، ومعهم كثير من الغنائم ، وإذا كانت هذه هى التجربة الأولى للسفن العربية الإسلامية ، فإن النتيجة ليست بالغة السوء .

انتهت الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد الشام ومصر

باستقرار العرب فيها وامتلاكهم للساحل الشرقى والجنوبى للبحر المتوسط ، وشاهد العرب ، سفن الروم ، فتاقوا إلى مجاراة أعدائهم ، وكان أكثر العرب توقاً معاوية بن أبى سفيان وكان يتولى جند دمشق والأردن ، كما كان طموحاً بعيد المطامع فأراد ركوب البحر المتوسط ، أو بحر الروم كما كانوا يسمونه قبل سيادة العرب ، وغزو بلاد الروم بحراً ، ولم يشأ أن يكرر خطأ العلاء الذى خرج دون استئذان الخليفة ، فبعث معاوية إلى عمر بن الخطاب يستأذنه وألح فى الاستئذان . ولما كان عمر ليس لديه فكرة واضحة عن الغزو فى البحر ، بعث إلى عمرو ابن العاص الوالى العربى لمصر رسالة يطلب فيها من عمرو أن يصف له البحر ، فكتب عمرو « يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد أحزن القلوب ، وإن ثار أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق » . وكان هذا الوصف كافياً ليكتب عمر إلى معاوية ينهاه عن ركوب البحر ، فقال له : « لا والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً » .

علل ابن خلدون [١] سبب امتناع العرب فى صدر الإسلام عند ركوب البحر فقال : « والسبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم

---

(١) المقدمة ص ٢٢٠ .

لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته وزكوبه ، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم فى التغلب على أعواده ، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم البحر خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته واستخدموا النوتية فى حاجاتهم البحرية أمماً ، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن فيه والشوانى ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس » .

يخطئ الذين يقولون إن العرب لنزوحهم من الصحراء كانوا غير أهل لمزاولة الملاحة البحرية ، فإنهم ما كادوا يستقرون على ساحل البحر المتوسط فى سوريا وفلسطين ومصر ، حتى مرنوا على البحر واستعانوا بالروم وسكان فينيقيا القديمة فى بناء أساطيلهم التجارية والبحرية ، ولم يطل بهم الزمن حتى استطاعوا فى عهد الأمويين أن يخضعوا جزيرة قبرص ويهاجموا بيزنطة مرة أخرى . وقد أنشأوا ميناء البصرة على رأس خليج فارس كما عبروا مضيق هرقل واجتازوا صخرته بقيادة طارق بن زياد سنة ٧١١ م لفتح الأندلس ، فهو جبل طارق منذ ذلك التاريخ.

ولما استقر أمور العرب فى الأندلس وشمال أفريقية استطاعوا

احتلال جزر البليار فى الغرب ، وصقلية ومالطة وجنوبى إيطاليا فإذا كان قد استعصى على العرب فتح مغاليق أوربا أمام القسطنطينية من الشرق ، فإنهم قد فتحوا طريقهم إلى صميم أوربا من الجنوب والغرب وأنشأوا لهم فى الأندلس دولة دامت قرابة ثمانية قرون[1].

فجر السيادة العربية فى عصر عثمان :

لم يكن فى رفض عمر بن الخطاب صرف لمعاوية عن أطماعه ، فظلت رغبته حبيسة فى نفسه حتى تولى الخلافة عثمان ابن عفان وكان يجمعهما الانتساب إلى البيت الأموى . فأعاد معاوية الاستئذان من عثمان ليسمح له بغزو الروم بحراً ، ووافق عثمان ، واشترط على معاوية ألا يحمل الناس على ركوب البحر كرهاً ، فتكون الخدمة البحرية عن طريق التطوع ، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس . فغزا معاوية خمسين غزوة بين شاتية وصائفة ، هاجم فيه الجزر اليونانية ، وتمكن المسلمون من فتح جزيرة قبرص سنة ٢٨ هـ على يد حملات بحرية خرجت من شواطئ الشام ومصر ، وصالح أهل قبرص معاوية على أن يدفعوا له كل سنة ٧٢٠٠ دينار . وكانت غزوة قبرص أول غزوة غزاها العرب المسلمون فى البحر . وراق

---

(١) محمد رفعت : التيارات السياسية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ص ٢٨ .

الغرب النصر فازدادوا رغبة فى الغزو البحرى ، وجعلوا ذلك فى أوقات معينة من الصيف والشتاء .

كانت حملة قبرص غارة بحرية ، كما كانت فى الوقت نفسه عملا دفاعياً ، جمع له معاوية عدداً كبيراً من سفن مدن سورية الساحلية ، وفرقاً محاربة من مصر . وقد سهل على العرب بفضل استيلائهم على دور الصناعة الرومانية فى الإسكندرية والشام سليمة ، أن تكون لديهم سفن حربية ، إما حاضرة وإما سهلة الإنشاء ، كما كانت تحت أيديهم السفن التجارية التى يملكها أهل الشام ومصر ، وهذه يمكن الاستيلاء عليها واستخدامها فى أغراض الحرب مع ما يكفيها من ملاحى تلك الثغور الخبيرين بشئون الملاحة[١] .

صادف معاوية التوفيق ، ويذكر المؤرخون العرب أن الأسطول الذى هاجم قبرص بلغ ١٧٠٠ سفينة ، واستولى معاوية على الجزيرة فى يسر ، كما استولى على غنائم كثيرة ، وفرض على أهلها جزية بلغت ٧٢٠٠ قطعة من الذهب تدفع إلى دمشق سنوياً . ويضاف إلى هذا أن يتعهد أهل قبرص بإبلاغ العرب عن أية استعدادات يقوم بها الروم ضدهم . ومن هذا الشرط الأخير نرى سر اهتمام معاوية بقوة الروم البحرية وبعد عام من الهجوم السابق سقطت مدينة أرواد فى يد قوة

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩١

برية بحرية من العرب . وكانت آخر وأقوى حصن للروم على سواحل الشام .

وهكذا كان عهد عثمان بن عفان هو بداية ظهور الأسطول العربى فى العصر الإسلامى ، وبداية السيادة العربية فى البحر المتوسط . فقد اتسعت الإمبراطورية العربية الإسلامية وشملت شعوباً وأمماً بحرية، ووجد العرب أنفسهم مضطرين إلى قتال شعوب بحرية ، وأنهم فى حاجة إلى الاستيلاء على جزر البحر المتوسط لأهميتها الحربية الاستراتيجية فى الدفاع عن سواحل الشام ومصر التى استولى العرب عليها ، ولذا شعر العرب بحاجتهم الماسة إلى أسطول يكون عوناً لهم فى تحقيق أمانيهم فى مد سلطانهم وغزو الروم فى عقر دارهم ، ولذا وافق عثمان بن عفان على إنشاء الأسطول العربى الإسلامى ، والسماح للعرب المسلمين بالتطوع فى الخدمة البحرية .

عوامل قيام الأسطول العربى :

إذا كان العرب فى فجر الإسلام قد بعدوا عن ركوب مياه البحر العميقة الزرقاء ، فإن السياسة الحكيمة أشارت بارتيادها والمغامرة فيها . فالجغرافية جعلت من مصر ومن سورية الساحلية بلاداً لا يمكن عزلها عن البحر المتوسط وإن نظرة سريعة إلى الخريطة ترينا كيف يبدو أنهما أكثر اتجاهاً إلى البحر منهما

إلى البر حيث الصحارى الداخلية . ولما كان معظم ثروة مصر وسورية من تجارتهما الداخلية وعلاقاتهما التجارية الخارجية مع بلاد البحر المتوسط ، فإن العرب إذا ما انصرفوا عن البحر وأهملوا العلاقات الاقتصادية التى تقوم مع بلاد البحر المتوسط لنضبت موارد مصر والشام ، ولذا سرعان ما اندمج العرب فاتحو مصر وسورية فى حياة البحر .

ومن أهم ما دفع العرب إلى التحوّل نحو البحر ، حاجتهم للدفاع عن الفتوحات العربية الإسلامية التى بذلوا جهودهم وأرواحهم فى سبيلها حقيقة أنهم ملكوا البرّ ، ولكن البحر كان لا يزال فى قبضة الرومان .

كان مما دعا عثمان بن عفان إلى التفكير جدياً إلى إنشاء أسطول عربى إسلامى تعرض مصر لمحاولة رومانية لإعادة مصر إلى الحكم الرومانى مرة أخرى . ففى عهد الإمبراطور (كونستانس الثانى) ابن هرقل ، بدأت الدولة الرومانية تضع سياسة جديدة لمواجهة الأوضاع الحربية الجديدة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط . وأخذ الإمبراطور يستعد لاسترداد مصر والشام من أيدى العرب المسلمين . فبعث فى سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) ثلثمائة سفينة رومانية عليها آلاف من الجند لاسترداد مصر ، وعين (مانويل) قائداً للحملة ، وهو القائد الذى دافع عن الإسكندرية ببسالة خلال حصار عمرو بن العاص لها فى خلافة عمر بن الخطاب وفوجىء أهالى الإسكندرية بقدوم

الحملة الرومانية بغتة ، وسقطت الإسكندرية فى أيدى الرومان الذين تقدموا فى أراضى الدلتا واقتربوا من حصن بابليون ، ورأى عثمان بن عفان أن يبعث عمرو بن العاص لصدّ الروم ، برغم أنه كان قد عزله من حكم مصر وولى بدله عبد الله بن سعد ابن أبى سرح ، فقد كان عمرو أكثر القواد العرب خبرة بحرب الروم وخاصة فى الأراضى المصرية ، وكان عالماً بخطط مانويل ، ونجح عمرو فى هزيمة مانويل عند (نيقيوس) فتراجع إلى الإسكندرية وتحصن فيها. ولكن عمرو بن العاص حاصرها وتمكن من اقتحام أسوارها ، وقتل حامية الروم ، وفى مقدمتهم القائد مانويل [١].

وفى نفس الوقت الذى كانت الحملة الرومانية تشن غارتها على مصر كانت حملة رومانية أخرى تغير على الشام ، ولكن معاوية بن أبى سفيان انبرى يدافع عن الشام ، وتمكن من إنزال الهزيمة بالرومان ، وبذلك نجت الشام كما نجت مصر من محاولة الروم إعادتهما للحكم الرومانى ، وزاد إيمان العرب بضرورة الاهتمام بالأساطيل البحرية [٢].

معركة ذات الصوارى :

وفى سنة ٣٤ هـ قدم أسطول رومانى يتألف من حوالى ٦٠٠ سفينة بقيادة الإمبراطور كنستانس الثانى لغزو الإسكندرية

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٣٥٨ .

(٢) Bury II p. 288

وكان والى مصر حينئذ عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وخرج الأسطول المصرى بقيادة عبد الله بن سعد للقاء الأسطول الرومانى ، وبعث معاوية بن أبى سفيان والى عثمان بالشام أسطولا بقيادة بسر بن أرطأة ليتعاون مع الأسطول المصرى فى صد الروم ودارت معركة بحرية عنيفة عند (فوينكس Phoenix) قرب شواطئ ليكيا بآسيا الصغرى ، فقد أبحر المسلمون فى جرأة مقتربين من سفن العدو وأقدم العرب على ربط السفن العربية إلى السفن البيزنطية وحارب الجند ملتحمين ، وقامت معركة دامية ، وصفها المؤرخ الإغريقى (ثيوفانس) بأنها كانت يرموكاً ثانياً على الروم . ووصفها المؤرخ العربى الطبرى فقال إن الدم كان غالباً على الماء فى هذه المعركة ، وإن الأمواج طرحت جثث القتلى ركاماً . وكانت بثينة الجميلة الجريئة — وزوجة القائد— على ظهر إحدى السفن . ولقد روت وصفاً عيانياً لما قام به جندى شاب يدعى علقمة ، الذى أنقذ سفينة القائد بأن ألقى بنفسه على السلاسل وقطعها بسيفه . وأطلق على هذه المعركة العنيفة اسم (ذات الصوارى) لكثرة صوارى السفن التى اشتركت فى المعركة . وقد انتهت المعركة باندحار الأسطول الرومانى ، وكاد الإمبراطور يقع أسيراً فى أيدى المسلمين[1] .

انتهت معركة ذات الصوارى بأول نصر عربى فى معركة

---

(١) ابن عبد الحكم ص ١٩٠ ، مصر فى عصر الولاة ص ٦٥ .

بحرية . ويبدو أن انتصار العرب نتيجة لخطط غير عادية ؛ إذ ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض بسلاسل ثقيلة ، فاستحال على أعدائهم اختراق صفوفهم واستخدموا فى تلك المعركة خطاطيف طويلة يصيدون بها صوارع وشرع سفن الأعداء ، الأمر الذى انتهى بكارثة بالنسبة للروم ، ونجا الإمبراطور كونستانس من الموت بفضل سفينة من سفنه السريعة .

ومما يلفت النظر أن المكان الذى دارت فيه المعركة ، وهو ساحل الأناضول يزدحم بغابات السرو الكثيفة ، وهو الشجر المستخدم فى صوارى السفن . ولعل الروم قرروا القيام تلك المعركة ليحولوا بين الخشب اللازم لصناعة السفن ، وبين وقوعه فى قبضة العرب . وإذا صحّ هذا الزعم فإنه يقوم دليلا على أهمية الخشب فى الصراع البحرى بين العرب والروم .

كانت معركة ذات الصوارى حداً فاصلاً فى سياسة الروم إزاء العرب للمسلمين ، فقد أفاق الإمبراطور كونستانس بعدها إلى نفسه ، وأدرك أن إعداد أية حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام مجهود فاشل ضائع ومحاولات فات أوانها . ورأى من الأجدى أن ينظم دولته وسياستها على أساس الأمر الواقع للاحتفاظ بالبقية الباقية من ممتلكاتها ، ويقوى أداتها الحربية لصد هجوم المسلمين الذين بدأوا يتطلعون إلى فتح القسطنطينية عاصمة الروم .

أفادت هذه السياسة الدولة الرومانية ، فقد استطاع خلفاء

كونستانس على ضوء هذه السياسة أن يوقفوا تيار الفتوحات الإسلامية عند أطراف آسيا الصغرى الجنوبية . ومما ساعد أباطرة الروم على الدفاع عن كيانهم أن الفتوحات الإسلامية حملت لدولتهم نتائج حسنة جاءت عن غير قصد ذلك أن سقوط مصر والشام فى أيدى المسلمين اقتطع رقعة أقلقت دولة الروم كثيراً وأجهدتها زمناً طويلا ، وصرفت اهتمام أباطرتها إلى ميدان لا طائل من ورائه وهو حل المشكلة المذهبية . وغدت أراضى الروم باستثناء بعض الجهات التى ظلت تابعة للدولة ، فى شمال أفريقية وإيطاليا ، وحدة يسودها سكان إغريق يتكلمون لغة واحدة ويدينون بعقيدة واحدة ومذهب واحد ، ويكونون كتلة متماسكة موالية للإمبراطور فأصبحت بذلك المشاكل التى تواجهها دولة الروم محدودة بسيطة . وصح للمؤرخ (فازيليف) القول بأن الفتوحات الإسلامية خففت الأعباء الثقيلة التى ناءت بها دولة الروم، وتركتها تجتاز فترة نقاهة تسترد فيها قوتها [1]

أدت الفوضى الداخلية فى الدولة الرومانية إلى أن اتخذ كونستانس الثانى خطوة جريئة لم تتخذ قبل ، تلك هى نقل عاصمته وجانب كبير من أسطوله ، وعشرين ألفاً من رجال جيشه من الأسيويين إلى مدينة (سرقوسة) بصقلية ولعله أدرك بغريزته الدور الذى يمكن أن تلعبه أملاكه فى

---

(١) العدوى : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٦٤ .

شمال أفريقية وصقلية وإيطاليا لصيانة إمبراطوريته البحرية فى البحر المتوسط ومن المؤكد أن غارات العرب البرية والبحرية على تلك المنطقة كشفت عن نواياهم العدائية المنتظرة وبرهنت على أنه لم يكن هناك متسع من الوقت لإضاعته فى تنظيم المقر الغربى لحكام القسطنطينية .

نهضة مصر البحرية فى العصر العربى :

ساهمت مصر بنصيب وافر فى إنشاء الأساطيل الإسلامية ويمكننا أن نقول إن عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى خلف عمرو بن العاص فى حكم مصر، فى خلافة عثمان بن عفان كان أمير البحر الثانى فى العصر العربى الإسلامى أما أمير البحر الأول فهو والى عمر وعثمان بالشام معاوية بن أبى سفيان فكان المسلمون يقومون بغزواتهم البحرية ضد البيزنطيين من الشام بقيادة معاوية ، ومن مصر بقيادة عبد الله بن سعد وبعد أن كان البحر المتوسط فى عهد جستنيان بحيرة بيزنطية أصبح بفضل مصر والشام بحيرة عربية .

كانت صناعة السفن الحربية مزدهرة فى وادى النيل . وأصبح اسم « الصناعة » فى مصر يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية . وكانت الصناعة موجودة فى جزيرة الروضة وفى القلزم (السويس الحالية) وفى الإسكندرية . ولم يقتصر نشاط المصريين على إعداد الأسطول المصرى بل كان والى

مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب أو أسطول المشرق ، والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة العربية الإسلامية[١].

اشتهرت مصر منذ بداية الحكم العربى الإسلامى بصناعة السفن التى كان يحتاج إليها أسطول الخلافة ، وأصبحت صناعة السفن أكبر صناعات الإسكندرية ، وقد كانت الإسكندرية أكبر أسواق العالم وأكثر ثغوره ازدحاماً وحركة ، وكانت بها تجارة عظيمة فى القمح والكتان والورق والزجاج وغير ذلك مما تحتاجه البلاد وكانت تحمل إليها مقادير عظيمة من الذهب والعاج من بلاد النوبة وأثيوبيا ، كما كانت تحمل إليها أنواع من البهار والحرير والفضة والجوهر وغيرها ، تأتى من بحار الهند والصين إلى البحر الأحمر ومن القلزم (السويس) فتحمل فى الترعة إلى (ممفيس) ومنها تنحدر فى نهر النيل إلى الإسكندرية حيث كانت تبعث إلى أطراف البحر المتوسط . ومثل هذه التجارة العظيمة لابد لها من عدد كبير من السفن ، وكانت تجلب الأخشاب لبناء السفن فى الإسكندرية إذ كان بناؤها هناك فى مقر التجارة التى تحتاج إليها أعود بالربح وأجدى على التجار . وكانت مصر فوق كل ذلك تنبت نوعاً من التيل يصلح لحبال وأدوات السفن .

---

(١) سيده كاشف : عصر الولاة ص ٥٦ ، المعارف البحرية ٤٣

وأكبر الظن أن تلك السفن التجارية كانت أكبر بكثير مما اعتاد الناس أن يظنوا فيها ، وكذلك كان حال السفن الحربية وعندما أصبحت مصر ولاية عربية إسلامية أمر معاوية ، والى الشام ، ببناء عدد من السفن الحربية فى الإسكندرية وسواها من الموانى التى تتبع الدولة العربية الإسلامية وذلك فى وقت لم يكن بمراسى الإسكندرية أحد من بنائى السفن الذين هم من أصل بيزنطى محض إذ كانوا لابد قد خرجوا منها جميعاً .

بعد مصرع الخليفة عثمان بن عفان (٣٥ هـ) تولى على بن أبى طالب الخلافة ، ونازعه والى الشام معاوية بن أبى سفيان . وانتهز الإمبراطور (كونستانس) فرصة انشغال العرب المسلمين بمشاكلهم الداخلية و بدأ يقوى الدولة الرومانية ، وفكر فى نقل مقر الحكم من القسطنطينية إلى جزيرة صقلية ، فقد ظن أنه فى إقامته بصقلية يكون فى مكان يتوسط الدولة ، ويربط دولة الروم بالبقية الباقية لها فى شمال أفريقية ، وأن يصد الزحف الإسلامى عما تبقى للروم فى أفريقية ، ولكن الإمبراطور اغتيل فى سيراكوز ومات مشروعه بموته [١] .

(١) العدوى : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٦٥

٢ ـ الدولة الأموية وسيادة البحر المتوسط

معاوية أمير البحر الأول :

كان معاوية أمير البحر الأول في الدولة العربية الإسلامية وباعث النهضة العربية فى البحر المتوسط . وقد بدأ معاوية مشاريعه البحرية منذ اللحظة الأولى لاستقرار الفتوحات العربية الإسلامية فى بلاد الشام فى عهد عمر بن الخطاب ، وحقق كثيراً من هذه المشاريع فى خلافة عثمان بن عفان ، ولكنه شغل بنزاعه مع الخليفة على بن أبى طالب عن المضى فى نشاطه البحرى الواسع النطاق . حتى إذا قتل على بن أبى طالب ، وأصبح معاوية خليفة وأصبح صاحب السلطة الأولى فى الدولة العربية الإسلامية أخذ يحقق ما كان يعتمل فى ذهنه أو نفسه من مشاريع بحرية .

كان أول مشروع لمعاوية هو غزو الروم فى عقر دارهم ، وفتح عاصمتهم القسطنطينية ، وكانت الظروف تسمح بالقيام بهذه الحملة البحرية الكبيرة ، فقد تولى إمبراطور صغير السن هو قسطنطين الرابع سنة ٦٦٨ م بعد مصرع أبيه كونستانس الثانى .

يبدو أن موت كونستانس وما أعقبه من ارتباك وفوضى أثناء عودة ابنه قسطنطين الرابع إلى القسطنطينية ، دفع معاوية إلى أن يفكر معاوية فى معاودة الهجوم البحرى عام ٦٦٩ م. وكان معاوية

يرى ضرورة السيطرة على شواطئ البحر المتوسط واتخاذ خطة الهجوم ، بدلا من السياسة الدفاعية التى اتبعتها العرب فى السنوات السابقة [١] .

اتجه جانب من الغزو العربى نحو الغرب ، فأغار العرب على جزيرة صقلية عام ٦٦٩ م . وفى العام التالى انتشر جيش عربى فى شمال أفريقية ، وأقام قاعدة حصينة دائمة فى القيروان فى جنوب شرقى تونس . ومن هذه القاعدة أخذوا فى القيام فيما بعد أعمال حربية بعيداً فى داخل الإقليم . على أنه يبدو أن غزوات العرب كانت أقرب ما تكون إلى الخدعة الحربية . وأن جهودهم الحقيقية كانت موجهة نحو القسطنطينية نفسها باعتبارها مركز الدولة الرومانية . وفى عام ٦٦٩ قام العرب بغارة تجريبية على خلقدونية لاختبار قوة الدفاع فى المنطقة المحيطة بالعاصمة . وفى عام ٦٧٢ م سلطت القوة العربية البحرية تسليطاً عنيفاً على منطقة بحر إيجه ، فهاجمت كريت ، واستولت على رودس فى نفس السنة . وقام الرومان بغارة مضادة على دلتا النيل عام ٦٧٣ م ، ولم تؤد الغارة إلى نتيجة ما . ويرجع ذلك إلى خروج عمارة ضخمة عليها فرق بحرية من المصريين والسوريين قاصدة بحر مرمرة ، وذلك فى نفس السنة ، وقد استمرت هناك سبع سنوات تحاصر العاصمة الرومانية .

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٦ .

العرب يغزون القسطنطينية العاصمة الرومانية :

خرج الأسطول العربى قاصداً القسطنطينية ، واشتبك مع الأسطول الرومانى فى مياه القسطنطينية فى عدة معارك حامية استمرت سبع سنوات (٥٤ — ٦٠ هـ — ٦٧٤ — ٦٨٠ م) . وكانت السفن العربية تقضى الشتاء فى جزيرة أرواد (كيزيكوس) وتحاصر القسطنطينية فى الربيع والصيف ، ولكن المسلمين لم يتمكنوا من فتح القسطنطينية لمناعة حصونها ، فقد دافع الروم عنها فى استبسال . وكانت المؤن والذخائر تأتى إلى العاصمة من جميع أرجاء الدولة الرومانية . كما استخدم الروم جنداً غير نظامية عُرفوا بالشجاعة والخشونة ، نتيجة معيشتهم بالجبال ، سماهم العرب (الجراجمة) أو (المردة) ، أى الثوار الخارجون على القانون ، بينما شبههم بعض المؤرخين بفرق الموت أو فرقة الصاعقة . وقد حارب (المردة) العرب حرب العصابات التى جهلها العرب ، فقد اعتادوا على الحروب المنتظمة المكشوفة ، فكانوا يحاربون وجهاً لوجه .

نجح معاوية فى القضاء على حركات المردة ، ونجح الأسطول العربى الإسلامى فى محاصرة القسطنطينية حصاراً قاسياً برغم النار البحرية التى اخترعها الروم ، وسموها النار الإغريقية واستخدموها فى صد المسلمين ولم يرفع معاوية الحصار إلا حينما شعر بدنو أجله ، ورأى أن تعود القوات الحربية إلى الشام

لحفظ الأمن الداخلي في الدولة العربية الأموية .

كان خلاص القسطنطينية من الفتح راجعاً لاختراع جديد له شأنه ألا وهو استخدام النار الإغريقية(Greek Fire) ضد أسطول العدو المحاصر للعاصمة . وكان التركيب الكيماوي السري مما يحتمل أن يكون قد استخدم منذ سنة ٥١٦ م، ثم اكتشفه من جديد أو أدخل عليه التحسن رجل يدعى(كاالينيكوس) ، وهو سوري مقيم في القسطنطينية ، وهناك استخدم هذا التركيب الجديد في صورته الجديدة لأول مرة أثناء الحصار ، مما أدى إلى احتراق عدد من السفن العربية .

بلغ عدد سفن الأسطول العربي الذي اشترك في حصار القسطنطينية حوالي ١٨٠٠ سفينة [١] . وفي سنة ٥٤ هـ قام الأسطول العربي بغارة بحرية على جزيرة كريت . وكان أعظم أميرين للبحر في خلافة معاوية هما جنادة وعبد الله بن قيس . وقاد عبد الله وحده خمسين غارة على البيزنطيين . وفي سنة ٦٨ — ٦٩ هـ أبحر أسطول من مائتي سفينة من الإسكندرية وهاجم صقلية ، ونجحت الغارة البحرية وعادت الحملة بغنائم كثيرة .

وفي خلافة معاوية غزا عقبة بن عامر الفهري جزيرة رودس وعاد العرب ومعهم الأنقاض النحاسية لتمثال إله الشمس ويبدو

---

(١) Bury II p. 41 ، لويس : القوى البحرية التجارية .

أن قبرص لم تلتزم شروط معاهدة عام ٦٤٨ م ، بدليل العودة إلى الإغارة عليها عام ٦٥٤ م ، وفى تلك الغارة حطمت ميناء قسطنطينية واحتلت الجزيرة نهائياً ، ونزل بها ١٢٠٠٠ من الجند العرب المسلمين أقاموا فى ليبيتوس على الساحل الشمالى للجزيرة ، ولم تتغير الجزيرة المقررة عليها عما كانت قبلا .

وفى سنة ٥٣ هـ غزا الروم البرلس فى عهد ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) وقتلوا عدداً من المسلمين ، وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص ، ومن ثم اهتم أمراء مصر ببناء السفن ، فأنشئت لأول مرة (٥٤ هـ) دار الصناعة لبنائها فى جزيرة الروضة[1] .

وبنهاية حكم معاوية كان للمسلمين أسطول عظيم يتألف من ١٧٠٠ سفينة . وكانت مهمة بناء السفن على هذا النمط العظيم أمراً ميسوراً بسبب الغابات الواسعة فى جبال لبنان ، وبالإضافة إلى دور السفن على الساحل الشامى ، قامت عدة دور أخرى للصناعة على ساحل مصر ببناء السفن كذلك .

كان الأسطول البيزنطى لا يتفوق على الأسطول العربى سوى باختراع النار الإغريقية ، وكان التركيب الكيماوى لهذا السلاح أهم أسرار الإمبراطورية الرومانية واحتفظت بسريته ، وأغلب الظن أن الأسطول الإمبراطورى المرابط فى مياه

---

(١) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٩٠

القسطنطينية هو وحده الذى جُهِّز بالنار الإغريقية . وفى حالات الضرورة سمح للوحدات البحرية فى الأقاليم التابعة للإمبراطورية باستخدام هذا السلاح . ولهذا لم يستطع الأسطول العربى ، على الرغم من مهارة وشجاعة رجاله ، مقاومة النار الإغريقية .

كما أن الإمبراطورية الرومانية كان لديها الوفير من الأخشاب وحاجيات السفن والحديد، وكل ما هو ضرورى لبناء الأساطيل البحرية ، كما أنها فى نفس الوقت استطاعت أن تحول دون حصول أعدائها الأمويين على الكثير من هذه المواد . ولم يكن الحديد متوافراً فى الشام ومصر ، ولم يكن بوادى النيل الخشب اللازم للسفن والصوارى كما أن محصول الشام من خشب الصوارى فى لبنان كان محدوداً .

أمجاد عربية فى عصر عبد الملك بن مروان :

شُغل العرب منذ عهد الخليفة يزيد بن معاوية إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان بالنزاع الداخلى عن الاهتمام بالغزو البحرى فى البحر المتوسط وإضافة أمجاد عربية بحرية جديدة . وفى عهد عبد الملك بن مروان ازداد خطر المردة (الجراجمة) . فعقد عبد الملك معاهدة مع الإمبراطور الرومانى جستنيان الثانى (٦٨٥ — ٦٩٥ م) من شروطها وقف خطر الجراجمة ونقل معظمهم إلى بعض أرجاء الدولة الرومانية قليلة السلطان مثل رومانيا وتراقيا . وبذلك حطم الإمبراطور

ذلك « الحائط النحاسى » الذى كان سدًّا منيعاً عرقل تيار الفتوحات الإسلامية (العدوى ص ٦٨)

وبرغم انشغال عبد الملك بن مروان بالمشاكل الداخلية والثورات والفتن ، مما جعله يصرف نظراً عن معاودة فتح القسطنطينية ، إلا أنه لم يهمل شأن تنمية الأسطول العربى ، فى عهده أنشئت أول دار كبيرة للصناعة ، وقد بُنيت فى تونس ، فقد أمر عبد الملك واليه بأفريقية حسان بن نعمان ببناء دار الصناعة ، فأنشأ السفن وزودها بالعدد والسلاح ، وبعث فيها المقاتلة لغزو جزيرة صقلية ..

لم يقدر للصلح بين عبد الملك بن مروان وجستنيان أن يستمر طويلا ، فى عام ٦٩٣ م عادت الحرب مرة أخرى . ويرجع السبب فى ذلك أن عبد الملك ضرب الدينار الذهبى العربى لأول مرة ، ونقش عليه نصاً بالعربية ولم ينقش عليه صورة القياصرة البيزنطيين ، فأعلن جستنيان الحرب ، لكن يبدو أنه تسرع فى اتخاذ هذا القرار ، وخاصة أنه عجز عن الاستفادة من المردة ، كما أخفق فى الضغط على دمشق ، وانتهى أمره بهزيمة منكرة على حدود آسيا الصغرى ، ثم إن طرده لكثير من أهل قبرص من جزيرتهم أثار شعوراً من المرارة فى نفوس قواته البحرية من أهل الجنوب . وفى عام ٦٩٨ ثار البحارة الكريتيون ، ونادوا بأمير أسطولهم أسبيار إمبراطوريًّا للدولة الرومانية ولُقِّب (طيباريوس الثالث) . وأجبر الإمبراطور

الجديد إلى القسطنطينية فلم تقاوم المدينة قواته. وفر الإمبراطور المعزول (جستنيان الثانى) إلى القرم ومنها إلى مماكة الخزر، ومكث فى منفاه عشر سنوات حتى عاد سنة ٧٠٥ منتصراً إلى القسطنطينية.

شغلت هذه الأحداث الروم، كما سمحت للأمويين بالفوز بالنصر فى شمال أفريقية. ففى سنة ٨٩٣ أرسل عبد الملك ابن مروان حملة حربية ضخمة قوامها ٤٠,٠٠٠ رجل بقيادة حسّان بن النعمان الذى تمكن بمساعدة الأسطول العربى أن يقضى على المعاقل الرومانية على ساحل البحر المتوسط واحداً بعد آخر. وفى عام ٦٩٥ سقطت قرطاجنة عاصمة أفريقية الرومانية فى يد العرب. ولكن الروم حرّضوا البربر على الثورة فثاروا بزعامة الكاهنة، واستطاع أسطول بيزنطى بقيادة حنا بطريق صقلية استعادة قرطاجنة. ولكن العرب استردوا قرطاجنة عام ٦٩٨ وقتلت الكاهنة وانتهى الحكم الرومانى فى أفريقية نهائيًّا.

وتبع ذلك أن أظهر الخليفة عبد الملك بن مروان اهتمامه الشديد بالقوة البحرية، ويمكن إرجاع هذا الاهتمام إلى ما قاساه أول عهده على يد بحرية أعدائه الروم. لذلك نجده يأمر موسى بن نصير والى أفريقية بإنشاء قاعدة بحرية هناك ويرسل له ألف قبطى مصرى من بناة السفن — مع عائلاتهم — لمعاونته على بناء أسطوله. يُضاف إلى هذا استيلاء العرب على جزيرة

قوصرة قرب الشواطئ الأفريقية ، وسيطرتهم على المضيق الفاصل بين الشاطئ وجزيرة صقلية .

لم يبن موسى بن نصير قاعدته البحرية أو دار صناعة فى قرطاجنة ، بل اختار موضعاً جديداً ، يطل على بحيرة ، ثم حفر قناة تصل ذلك الموضع بالخليج القريب . وفى هذا المكان قامت مدينة تونس وهجرت قرطاجنة تماماً . ثم غدت تونس قاعدة أمينة للأسطول البحرى ، بعيدة عن أية مغامرة رومانية بحرية . وفى ظل هذا الاستقرار المأمون الجانب ، بنى موسى بن نصير مائة سفينة حربية فى القاعدة البحرية الجديدة . وانضم هذا الأسطول عام ٧٠٤ م إلى الأسطول الأموى الذى كان يعمل فعلا فى البحر المتوسط . وأصبح شمال أفريقية مركزاً بحرياً ثالثاً ، أضيف إلى المركزين العربيين القديمين فى الشام ومصر .

وسرعان ما أثبتت القاعدة البحرية الجديدة فى تونس فائدتها ففى عام ٧٠٣ م أغار أسطول مصر على صقلية ، وهبت عاصفة شديدة هددته بالفناء فلجأت سفنه إلى القاعدة الأمينة فى تونس . أما الأعظم أهمية من كل هذا فهو السفن الجديدة التى أشرف على بنائها موسى بن نصير ، والتى أرسلها للإغارة على صقلية وربما للإغارة على سردينية أيضاً عام ٧٠٤ ، ثم قاد موسى الأسطول بنفسه عام ٧٠٨ نحو جزر البليار ، وأغار على جزيرة مايورقة وأسر حاكمها البيزنطى ، وكانت جزيره سردينية هى الغنيمة سنة ٧١٠م .

لم يكن هذا العمل البحرى مجرد غارات عرضية ، بل كان وفق خطة محكمة ، فإن موسى — وقد كان يعمل فى فتح المغرب إلى المحيط الأطلسى — استخدم أسطوله من قاعدته فى تونس ، ليشل تهديد الأسطول الرومانى من قواعده فى صقلية وسردينية وجزر البليار[1] .

العودة إلى مشروع فتح القسطنطينية :

تميز عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك بالهدوء ، والاستقرار الداخلى ، مما أتاح له فرصة معاودة سياسة الفتح ، فقد أكملت الجيوش العربية فتح شمال أفريقية ، ثم فتحت بلاد الأندلس فتم للعرب السيطرة على السواحل الشرقية والجنوبية والغربية للبحر المتوسط ثم بدأ الوليد يوجه همه نحو الساحل الشمالى ، فعاود محاولة أسلافه فى فتح القسطنطينية ، وأعد حملة بحرية كبيرة لفتحها ، ولكن الوليد مات قبل إبحار الحملة إلى القسطنطينية ، فتولى إكمال المشروع خليفته سليمان بن عبد الملك .

بدأ سليمان بن عبد الملك يستعد لفتح القسطنطينية ، ورسم خطة فتحها براً وبحراً ، وعين أخاه مسلمة بن عبد الملك قائداً ، وحاصرت الجيوش العربية القسطنطينية براً ، فى نفس الوقت الذى حاصرها الأسطول العربى بحراً بقيادة

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٠١ .

أمير البحر سليمان (سمى الخليفة) .

كان نجاح العرب فى فتح القسطنطينية رهناً بنجاح الأسطول الإسلامى فى التعاون مع القوات البرية فى إكمال الحصار وفرض حلقة منيعة فى البحر ولذا كان أول هدف أمير البحر الإسلامى هو قطع المواصلات البحرية بين القسطنطينية وبين البحر الأسود شمالا ، وبينها وبين بحر مرمرة وبحر إيجة جنوباً .

نجح سليمان فى تنفيذ الشطر الأول من خطته فى قفل الباب الجنوبى ولكن عند ما انتهز فرصة هبوب رياح مواتية وبعث قسما من أسطوله لاحتلال مدخل البحر الأسود وقعت كارثة قلبت الخطط الإسلامية رأساً على عقب ؛ إذ كانت هذه المنطقة صعبة الملاحة بسبب انحدار تيار مائى من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة ، وفضلا عن ذلك لا تستطيع السفن الصاعدة ضد هذا التيار الاعتماد على تسخير الرياح فى جانبها زمناً طويلا . وهذا ما حدث للسفن الإسلامية التى أبحرت فى تلك المنطقة لسد المدخل الشمالى ، إذ سارت ببطء شديد من جراء التيارات المائية ، ثم لم تلبث الرياح أن غيرت اتجاهها ، فوقع الاضطراب بين السفن التى ارتطمت ببعضها البعض وفقدت توازنها . وفى هذه الأثناء بعث الروم سفناً محملة بالنار الإغريقية أتمت حلقة الاضطراب فى الأسطول العربى الإسلامى وقضت على خطة أمير البحر سليمان .

تولى الدفاع عن القسطنطينية أحد أباطرة الرومان وهو

(ليو الثالث) واستطاع أن ينقذ من حصار المسلمين ، وساعدته الطبيعة فقد بدأ الشتاء ببرده القارس وثلوجه المتراكمة مما أدى إلى توقف نشاط العرب المسلمين الحربى . حتى إذا انقشع الشتاء عاود العرب نشاطهم وقدمت إليهم نجدات بحرية من مصر وشمال أفريقية ، ولكن القسطنطينية كانت على جانب كبير من التحصين فاستطاعت الصمود . استمر حصار القسطنطينية طوال خلافة سليمان بن عبد الملك ، وبعد اثنى عشر شهراً من الحصار ، توفى سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز وكان من سياسته التفرغ للإصلاحات الداخلية دون الانشغال بالحروب الخارجية ، فأمر أسطوله برفع الحصار عن القسطنطينية والعودة إلى الشام .

تعتبر النتائج العامة لمعركة القسطنطينية حدثاً من الأحداث الكبرى فى تاريخ العصور الوسطى ؛ إذ جعلت كلا من الدولة العربية الإسلامية وإمبراطورية الروم تتطلع إحداهما إلى الأخرى بمنظار جديد قوامه أن الدولتين لابد وأن يعيشا جنباً إلى جنب لاغنى لإحداهما عن الأخرى فى التعاون على قضاء مصالحهما العامة ، وإن الجشع فى الاستئثار ببعض الفوائد المادية مثار لحروب لاجدوى من ورائها[1] .

كان يتحتم على الدولة الرومانية بعد نجاة عاصمتها

---

(١) العدوى : ص ٦٩ — ٧٠ .

القسطنطينية أن توقف حروبها البحرية فى الحال ، ولكنها بدلا من ذلك استمرت فى حروبها استغرقت ثلاثين سنة تقريباً وسبب فشل الدولة الرومانية فى الاستفادة من انتصارها العظيم يرجع إلى الخلافات الدينية الشديدة فى الدولة الرومانية إذ عمد الإمبراطور المنتصر ليو الثالث ، إلى ما عمد إليه سلفاه جستنيان وهرقل ، من اختيار لحظ الانتصار للزج بالإمبراطورية فى خلافات دينية . وجاء الخلاف نتيجة تحيز ليو الثالث للحركة اللاأيقونية الجديدة ومحاولة فرضها بالقوة على الإمبراطورية النافرة منها عام ٧٢٥ م .

أدت المشاكل الداخلية فى الدولة الرومانية إلى شل نشاط الأسطول الرومانى ، فعاود الأسطول العربى الأموى هجومه . وفى عام ٧٢٦ أغار أسطول عربى على جزيرة قبرص وفرض عليها جزية كبيرة كالتى فرضت زمن عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ولم يكن الوضع فى الدولة الرومانية يسمح بالقيام بهجوم مماثل قبل مضى عشر سنوات على الأقل . وحاول الرومان سنة ٧٣٦ الإغارة على مصر ، ولكن العرب قابلوا هذا الهجوم بغارة بحرية على جزيرة قبرص عام ٧٤٣ وحملوا معهم عدداً كبيراً من سكان الجزيرة واحتفظوا بهم أسرى فى الشام .

كانت مصر وقبرص هما هدفى الهجوم الرومانى والعربى . أما أساطيل الغرب فى شمال أفريقية فكانت تقوم بالهجوم من

وقت إلى آخر على صقلية وسردينية ، والروم لا يستطيعون رد هذا الهجوم بالمثل .

الأسطول العربى فى مصر :

تشهد الأوراق البردية التى ترجع إلى العصر الأموى فى مصر أن الولاة كانوا يطلبون عمالا وصناعاً وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى إعداد الأسطول المصرى الحربى ، وكان الولاة ينفقون مقدماً على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول ، وكذلك كان يفرض على الكور قدر من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن ولتنظيفها كما كان يفرض عليها تموين الملاحين الذين يشتغلون فى إعداد الأسطول .

وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة فى مصر طوال عصر الولاة والمعروف أن بناء السفن كان فى البداية بمصر فقط ، وظل كذلك إلى خلافة معاوية بن أبى سفيان حين أمر بإنشاء دار للصناعة فى عكا . وإذا كان الفضل لعظمة الخلافة البحرية يرجع إلى الشعوب التى فتحوها والتى تعلموا منها هذا الفن ، والتى استخدموها فى حاجاتهم البحرية ، فلنا أن نقول غير مبالغين بأن الفضل الأكبر والأول يرجع إلى مصر والمصريين[1] .

---

(١) مصر فى عصر الولاة ، ص ٥٧ .

كانت مصر مركز بناء السفن في العصر الأموى ، ففى الفسطاط والقلزم بنيت السفن العربية الأولى ، واستقدم معاوية بناة السفن من المصريين ليبنوا سفن الأسطول الشامى فى عكا ، وسرعان ما أصبحت هذه المدينة أهم قاعدة بحرية فى سورية . وفعل عبد الملك بن مروان ما فعله معاوية ، إذ أوفد عمالا مصريين إلى شمال أفريقية حيث بنوا — بعد عام ٧٠٠ م — أول أسطول بحرى إسلامى لموسى بن نصير . وخلال أربعين عاماً بعد الفتح ، بلغ ما أنفقه متولو بناء السفن فى مصر ٧٠٠ دينار سنوياً [١] . والمشكلة الرئيسية التى واجهها الموكلون بناء السفن فى مصر قلة الأخشاب . وكانت معظم قوات الأسطول فى السنوات الأولى تتكون من الوطنيين السوريين والمصريين فى الموانى الساحلية ، ثم ساد نظام أدق فيما بعد ، ولا سيما زمن خلافتى عبد الملك وابنه الوليد . فكانت تستدعى فرقاً من المدن الساحلية لتلتحق بالقوة البحرية العاملة ، مثلما كان يحدث فى حالة الأساطيل الإقليمية الرومانية .

الأسطول العربى الأموى يسيطر على البحر المتوسط :

انقسم الأسطول العربى فى العصر الأموى إلى خمسة وحدات أسطول الشام ورئاسته فى اللاذقية ، وأسطول أفريقية (أى

---

(٢) القيروانى ص ١٢٠ ، اويس ص ١٠١

تونس) ، وأسطول مصر (وكانت الإسكندرية نقطة إبحاره) وأسطول النيل (ومقر رئاسته فى بابليون) ، وأسطول خاص لحراسة مداخل النيل من نزول الرومان على السواحل وكانت دور صناعة السفن الرئيسية فى مصر توجد فى بابليون والقازم[١]. وقامت دار صناعة تونس وحدها ببناء مائة سفينة فى عهد ولاية موسى بن نصير القصيرة الأمد . ونستطيع أن نأخذ فكرة عن ضخامة الأسطول العربى الإسلامى من الحقيقة التى تروى بأنه اشترك فى حصار القسطنطينية سنة ٧١٧ م أسطول عظيم مكوّن من ١٨٠٠ سفينة .

وانقسمت البحرية الإسلامية إلى قسمين منفصلين : أسطول البحر المتوسط ، وأسطول المحيط الهندى . وكانت نماذج السفن التى استخدمت فى البحر المتوسط تربط سويا بالمسامير أما فى المحيط الهندى فتخاط مع بعضها بعضاً . وكان هذا الاختلاف وليد التقاليد المتبعة ، وإن كان ينسب عدم استخدام المسامير إلى القول بأن الماء الملح يأكل المسامير . وكانت سفن البحر المتوسط أكبر من سفن البحر الأحمر والمحيط الهندى[٢]

تحدّى العرب الأمويون سيادة الرومان البحرية فى البحر المتوسط ثلاث مرات . الأولى ، وكانت بصفة أساسية دفاعية

Muir : The Caliphate p. 392 (١)

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٣٦٥ .

فى حقيقة أمرها ، وقد بدأت عام ٦٤٨ م وانتهت بانتهاء غير حاسم سنة ٦٥٥ م ، ولو أن العرب انتصروا انتصاراً باهراً فى تلك السنة . والثانية ، وهى غارات هجومية ، وبدأت عام ٦٦٩ واشتملت على حصار عظيم للقسطنطينية دام سبع سنوات ، والثالثة ، وهى أشد الموجات جدية ، وبدأت عام ٦٩٣ واستمرت قرابة ستين عاماً وانتهت عام ٧٥٢ ، وشهدت انتصار العرب وخاصة فى الجانب الغربى من حوض البحر المتوسط ، كما اشتملت على حصار ثان كبير للقسطنطينية .

قضى العرب الأمويون أثناء الموجة الثانية من هجومهم على مراكز دفاع أعدائهم البرية والبحرية فى المنطقة الوسطى من حوض البحر المتوسط، ويكونون بذلك قد طوقوا أحد أجنحة القسطنطينية البحرية ، كما أضافوا شمال أفريقية وإسبانيا إلى أملاكهم ، وخرجت من قواعدهم بشمال أفريقية فى القرن التالى ، وحدات بحرية للانتقام من هزيمة عام ٧٤٧ البحرية .

وثمة نتيجة أخرى خطيرة لذلك الصراع بالنسبة للدولة الرومانية تتلخص فى المصير الذى انتهت إليه فى إيطاليا . حقيقة بذل كثير من الحكام البيزنطيين جهوداً كبيرة لفرض مذهب الإرادة الواحدة ، ثم المذهب اللا أيقونى على الشعب الإيطالى والبابوية المتمنعة — مما يعتبر سبباً لما ضاع على الدولة الرومانية هناك — ولكن السبب الأكبر يرجع إلى اشتغال القسطنطينية بصراع بحرى وبرى مع العرب الأمويين .

كانت الأساطيل العربية الأموية تقابل الأساطيل الرومانية فأسطول الشام يقابل أسطول (كبيرهايوت) فى آسيا الصغرى وأسطول شمال أفريقية العربى يقابل أسطول صقلية الرومانى ، وأسطول مصر يقابل الأسطول الإمبراطورى فى القسطنطينية . وانعقد لواء كل واحد من هذه الأساطيل لأمير من أمراء البحر . وكان أسطول مصر ، من بين هذه الأساطيل الثلاثة ، أكثر أهمية وأضخم عدداً . والواضح أنه فى الحملات المشتركة مثل الحصارين اللذين فرضا على القسطنطينية ، وفى الاشتباكات الكثيرة ، لتلك التى حدثت فى ليديا عام ٦٥٥ م ، وعلى مقربة من قبرص عام ٧٤٧ م ، كان أمير البحرية المصرية هو القائد العام للجميع ، وغالباً ما اشترك الأسطولان المصرى والشامى فى عمليات واحدة ، على حين استقل أسطول شمال أفريقية بعملياته عنهما . وشاهد الحصار الثانى للقسطنطينية فقط ، الأساطيل العربية مجتمعة .

ونجد تشابهاً آخر بين التنظيمات العربيـــة والبيزنطية فى المغرب على حد سواء . فقد تمتع أسطول صقلية باستقلال مشابه لما تمتع به أسطول شمال أفريقية .

السيادة العربية التجارية فى البحر المتوسط :

كان القرن السابع الميلادى عصر تجارة غير مقيّدة فى البحر المتوسط وحرية التجارة هذه هى التى تفسّر لنا مقدار

مابلغته مصر من رخاء حتى عام ٧٠٥ م ، وهذا برغم الحروب والغارات البحرية . ويقول الرحالة الأوربى (آركولف) الذى زار مصر عام ٦٧٠ ، إن الإسكندرية أصبحت ملتقى تجارة العالم كله ، وتوافدت عليها أعداد غفيرة من التجار لشراء ما بها من بضائع . وهذا الرخاء الذى عم وادى النيل حوالى عام ٧٠٠ م ، جعل واليها يبعث إلى دمشق العاصمة الأموية يبلغها أن خزائنه لم تعد تتسع لقبول موارد جديدة ، ويطلب من الخليفة أن يدله على ما يفعل ، فجاءه الرد بأن ينفق الفائض فى بناء المساجد .

وعم المدن الساحلية والداخلية بالشام رخاء مماثل وانتفعت العاصمة دمشق بما تدفق فيها من أموال الغنائم والخراج على خزائن الخلفاء من ولا ياتهم فى الغرب وفى الشرق . وكانت المناطق الساحلية من الشام تمد الأسطول العربى بقوات بحرية كبيرة .

ظلت الصلات الاقتصادية قائمة بين إسبانيا وفرنسا من جهة وبين شرق البحر المتوسط من جهة أخرى . وكانت فرنسا الميدان الذى اختص به التجار السوريون أنفسهم . وظل جنوب فرنسا حتى عام ٧١٦ م يستورد البردى والتوابل وغيرهما من منتجات الشرق واحتفظت مرسيليا بمركزها كميناء هام . وكان من بين الوارد إليها زيت الزيتون من شمال أفريقية ، وكذا البضائع الشرقية . ونشطت كذلك موانئ إسبانيا فى تجارتها

مع شرق البحر المتوسط أواخر أيام القوط الغربيين.

تغيرت طبيعة الصراع بين الأمويين والرومان فى الفترة من ٦٩٣ حتى ٧٥٢ م . ذلك أن الموجتين الأوليين من الغزو العربى ، استخدمت فيهما أدوات القتال فقط أما الموجة الثالثة فقد تطرق إليها عنصر اقتصادى فأضيف إلى الصراع الحربى والبحرى صراع اقتصادى . وكان العرب البادئين بإشعال هذه الحرب الاقتصادية زمن الخليفة عبد الملك بن مروان . ففى عام ٦٩٢ ضرب الخليفة أول دينار ذهبى عربى ، كما أوقف تصدير ورق البردى من مصر إلى القسطنطينية والبلاد الغربية كما أزال من هذا الورق علامة الثالوث المسيحية البيزنطية وأحل محلها نصاً عربياً . وهدف الخليفة من ذلك أنه اراد أن يقيم سلطانه على أساس اقتصادى مستقل ، وأن ينزل بأعدائه نوعاً من الضغط الاقتصادى ، وكان هذا أيضاً بمثابة إعلان لاستقلاله الاقتصادى عن الدولة الرومانية .

حاول الرومان أن يشنوا على الدولة الأموية حرباً اقتصادية فى عام ٧١٥ يشد أزرها الأسطول ، فأغلقت البحر المتوسط فى وجه السفن والتجارة القادمة من البلاد العربية ما دامت هذه لم تسر فى المسالك البحرية التى رسمتها وتتبع التعليمات التى أصدرتها لكن الدولة الرومانية لم تكن تستطيع الاستغناء عن جميع منتجات العالم العربى ، فالتوابل والبضائع الشرقية التى يقوم العرب فى تجارتها بدور الوسيط ، هى موارد ضرورية

لسلامة الاقتصاد الرومانى . وعلى هذا فلم يحاول الروم فرض حصار شامل إطلاقاً ، فخصّصوا ميناء أو اثنين لاستقبال تلك التجارة وفرضوا عليهما الرقابة ، ومن هذه الموانى طرابيزون . وكانت هذه الرقابة التجارية تُنَفّذ على العرب والرعايا الرومان على حدّ السواء . وأثارت هذه الرقابة احتجاج الرومان أنفسهم ، لأن التجارة مع العرب عصب حياة التجار الرومان الاقتصادية .

اهتم العرب والروم بالمحافظة على الأوضاع الاقتصادية فى مناطق الشرق الأدنى المطلة على حوض البحر المتوسط الشرقى لما تقوم به تلك المنطقة من دور فعال في حركة التبادل التجاري بينهما . فكانت هذه المنطقة تتحكم فى أطراف الطرق التجارية الآتية من بلاد الشرق الأقصى سواء البحرية منها أو البرية ، واتجهت إليها دولة الروم لاستيراد المتاجر الشرقية . والمتتبع لانتشار الإسلام فى هذه البقعة التجارية الهامة يرى أن المسلمين جهدوا منذ أيامهم الأولى على تقوية أركان حياتها التجارية وبعث حياة جديدة فيها ، لا أن يهدموا أسسها ويقوّضوا أركانها على نحو ما توهّم كثير من أصحاب النظريات السطحية فى دراسة التاريخ الإسلامى[1] .

وأدرك أهالى البلاد المفتوحة أن العرب الفاتحين ليسوا شعباً متبربراً أو متغطرساً يضع العقبات فى سبيل الحياة

(١) العدوى ص ١٤٣

الاقتصادية تسير فى مجراها الطبيعى ، ويحوطونها بتشجيعهم ورعايتهم . فقد أدرك العرب ما للتجارة من أهمية فى حياة هذه البلاد التى ارتادتها قوافلهم مراراً قبل ظهور الإسلام . وجنى الروم فائدة عظيمة من الرواج الذى أصاب البلاد الإسلامية المطلة على البحر المتوسط الشرقى[١] .

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية

٣ـ السيادة العربية فى البحر المتوسط فى العصر العباسى

الصدام البحرى بين العرب والروم :

تكاتفت عدة عوامل داخلية على سقوط الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية فى بلاد العراق. ولاشك أن انتقال عاصمة الدولة العربية الإسلامية من دمشق بالشام القريبة من البحر المتوسط إلى بغداد ، وهى أكثر بعداً عن البحر المتوسط له أثره فى الأسطول العربى فى البحر المتوسط فقد أصبحت بغداد بعيدة أيضاً عن القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية . وبعد أن كانت الغارات العربية والرومانية فى العصر الأموى ترمى إلى الفتح والاستيلاء على المدن أصبحت الإغارات التى شنها الطرفان تهدف إلى الانتقام السريع والسلب والنهب وتخريب المدن والحصون ، وأدى هذا بالتالى إلى تحصين الحدود والموانى فقام فى الدولة الإسلامية ما نسميه بالعواصم والثغور .

بدأ الصدام البحرى بين العرب والروم منذ ظهور الدولة العباسية . فقد بدأ الروم بغارات بحرية ضيقة النطاق ، ولم تلبث أن تطورت إلى حركات بحرية منظمة ، منها ما قام به القائد المسلم ثمامة بن وقاص (الذى يسمّيه الرومان باناكيس) فقد قام بحملة برية بحرية سنة ١٥٧ هـ (٧٧٣ م) على شواطىء

إقليم إيسورة بآسيا الصغرى للإغارة على بعض المدن الساحلية فأرسل الإمبراطور قنسطين الخامس أوامره إلى الجيش والأسطول المقيم فى آسيا الصغرى بالتوجه إلى إقليم أيسورة وقطع خط الرجعة على ثمامة ، واستطاعت سفن الروم احتلال المياه الإقليمية لشاطىء أيسورة عند مدينة سيس (Syce) وقطعت الاتصال بين ثمامة وسفن الشام التى أبحرت معه . على حين ألقى جيش الروم الحصار على قوات ثمامة البرية . وإذا كان ثمامة استطاع أن يفلت من حلقة الحصار البرى والبحرى التى فرضت حوله فإنه الجدير بالملاحظة هنا هو ظهور نشاط أساطيل المسلمين والروم لشد أزر الحركات البرية[1].

الثغور والعواصم :

يُراد بالثغور والعواصم حدود الدولة العربية الإسلامية براً وبحراً . كان العرب حينما قدموا لفتح الشام بدأوا ببرّها من جهة حوران مما يلى الصحراء ، لأن قوات الروم كان معظمها فى مدن السواحل ، فجعلوا فتوحهم تمتد من البرّ نحو البحر ، وبعد أن فتحوا دمشق اتجهوا نحو السواحل بقيادة يزيد بن أبى سفيان وأخيه معاوية ، وكان الجيش الذى فتح دمشق بقيادة أبى عبيدة بن الجراح[2] . وفتح العرب بيروت

---

(١) العدوى ص ١٠٥ . (٢) جرجى زيدان جـ ١ ص ٢١١

وصيدا وجبيل بسهولة ، ولكن الروم استطاعوا أن يحشدوا أساطيلهم في البحر فاستردوا هذه المدن مرّة أخرى ، وظلت هذه المدن في أيدي الروم حتى تولى الخلافة عثمان بن عفان وتولى معاوية حكم الشام ، فنجح معاوية في فتح طرابلس وغيرها من مدن الشام وكان معاوية — كما رأينا — يهوى الغزو البحري ، فألح على عثمان في السماح له به ، ووافق عثمان ، ونجح معاوية في الاستيلاء على ثغور الشام ، وانتقل العرب وأهالي الشام إلى هذه الثغور فأصبحت مدناً كبيرة عامرة .

كانت أبرز ثغور الشام في عصر الخلفاء الراشدين أنطاكية فكان المسلمون يغزون ما وراءها . وكان للروم بقية في بعض المسالح فيما بين الإسكندرية وطرسوس ، فلمّا تولى بنو أمية أتموا فتحها ، وزادت عمراناً في العصر العباسي ، وجعلوا فيها الحامية والسلاح لدفع غارات الروم ، لأنهم كانوا مستمرين في مناوأة العرب . فبنى العرب حصوناً بها ، ورمّوا الحصون التي كان الروم قد بنوها ، وجعلوا لأهلها عطاءً كبيراً وأمروهم بالغزو .

وكما اهتم العباسيون بتحصين الحدود البحرية ، فقد اهتموا أيضاً بتحصين الحدود البرية ، فاتخذوا مدناً حصينة جعلوها ثغوراً يقيمون فيها الجند والسلاح في قلاع لدفع العدو أو لغزو بلاده . وكان هذا الخط الدفاعي البري يسير على امتداد جبال طوروس من الفرات الأعلى إلى حدود قليقيا .

كان آسطول الروم ينقسم إلى قسمين : الأول الأسطول الإمبراطورى ومقره مياه القسطنطينية ويعهد إليه بالدفاع عن العاصمة ، والقسم الثانى هو أسطول الأقاليم . وكان الأخير يضم أسطول أقليم (كبيرا) فى غرب آسيا الصغرى ، وأسطول جزر بحر إيجه وهذه الأساطيل الأخيرة هى التى وقفت بالمرصاد لنشاط السفن العربية واشتبكت معها مراراً .

كان للخليفة العباسي هارون الرشيد الفضل الأول فى تحصين العواصم والثغور من أجل حماية الحدود العربية الإسلامية فقد أسس إقليما مشابهاً لإقليم الأطراف عند الروم على حدود البلاد الإسلامية الشمالية وسماه إقليم العواصم والثغور، وعاصمته أنطاكية وجعل عليه ابنه المعتصم .

أطلق المسلمون أول الأمر اسم العواصم على الولايات المتاخمة للدولة البيزنطية شمالى العراق والشام ، والثغور هى المراكز العسكرية لهذه الولايات المتطرفة ، وكانت تقوم عادة على المداخل إلى بلاد الروم ، وعلى الموانى التى تصدر منها الأساطيل للغزو . ولم يستقر نظام العواصم والثغور إلا فى العصر العباسى ، وفى أيام هارون الرشيد بصفة خاصة ، والأغلب أن الذى حفز الرشيد على وضع نظام هذه الولايات هو تحويل الدولة البيزنطية — على أيام الأسرة المقدونية . لولاياتها المتاخمة للدولة الإسلامية إلى ولايات عسكرية تسمى واحدتها ثيما

ويسميها العرب البنود .

كان إقليم العواصم والثغور الجديدة وعاصمته أنطاكية ، قسما من أرض قنسرين فصله هارون الرشيد عنها تماماً ، وشمل حلب ومنبج وأنطاكية غرباً إلى الساحل .

يقصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية ، لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات الروم . وفى نفس الوقت للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة لحدود الروم . وهى الحصون التى سميت بإقليم الثغور لمواجهتها للثغرات أو المنافذ فى أرض العدو . وكان إقليم الثغور ينقسم قسمين : أحدهما فى الشمال الشرقى ويسمى بالثغور الجذرية التى تدافع عن شمال العراق ، ومن حصونها الهامة زبطرة وحصن منصور والحدث . والقسم الثانى يسمى بالثغور الشامية فى الجنوب الغربى حيث يقترب من ساحل خليج الإسكندرية ، ومن أهم حصون ذلك القسم المصيصة وأدنة وطرسوس[١] .

كانت العواصم ولايات عسكرية يحكمها قواد عسكريون ويسرى فيها القانون العسكرى لا المدنى . وتبعاً لذلك كانت الثغور قواعد عسكرية صرفة ، لا يقيم فيها غير الجنود والمجاهدون والمتطوعة ، الذى يطلق عليهم لفظ الصعاليك كما يقول البعض[٢] .

---

(١) العدوى ص ٩٠ .

(٢) جرجى زيدان جـ ١ ص ٢١٢ .

وبالإضافة إلى الثغور الشامية والجزرية المذكورة هنا ، كانت هناك ثغور السند فى أقصى المشرق ، والثغور الأندلسية وهى ثغور الأندلس الشمالية ، وكانت ثلاثة : الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة ، والثغر الأوسط وقاعدته مدينة سالم ، والثغر الأدنى وقاعدته الأشبونة .

أصبحت ثغور الشام ومصر هى الحدود البحرية . فإذا عددنا الثغور الشامية من الشمال كان أولها طرسوس فأدنة فالمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وإياس ونقابلس أما ثغور مصر فمنها رفح والعريش ودمياط والإسكندرية .

كان العرب المسلمون يخرجون من هذه الثغور كل سنة للغزو البحرى ، جهاداً فى سبيل الإسلام . فكانت السفن العربية تجتمع فى ثغور مصر والشام، ثم تلتقى فى جزيرة قبرص وكان عددها حوالى مائة سفينة يطلق عليها جميعاً لفظ (أسطول) وكان يتولى قيادة هذا الأسطول صاحب سفن الثغور الشامية ، وكانت مصروفات الأسطول مائة ألف دينار .

نشاط الأسطول العربى الحربى :

كان أعظم الأساطيل العربية فى العصر العباسى الأسطول العربى بالأندلس والأسطول العربى بالشام . وقد بدت عظمة أسطول الأندلس فى إغاراته على مارسيليا عام ٧٦٨ م ، كما هدد إيطاليا عام ٧٧٨ ، وغزا ناربون عام ٧٩٣ م . ووجه

الأمويون فى الأندلس هجماتهم البحرية ضد إمبراطورية الفرنجة ، وقام صراع عنيف بين هاتين القوتين حول السيطرة على إيطاليا ، بل كان الأمويون بالأندلس يتحالفون أحياناً مع الرومان البيزنطيين ضد الفرنجة .

أما الأسطول العربى بالشام فهو أسطول عباسى وجهوده دائماً ضد الدولة الرومانية ، وقام بغارات كثيرة ناجحة ، أبرزها غاراته المستمرة على جزر قبرص وكريت . وبينما كان الأسطول العربى العباسى يقوى يوماً بعد يوم بدأت الدولة الرومانية تهمل شأن قوتها البحرية منذ سنة ٨٠٠ م فى أوائل عهد الملكة إيرين ، حتى إذا تولى خليفتها (نقفور) كانت البحرية الرومانية فى أسوأ حال . بينما اهتمت أقاليم أربعة ، لا صلة لها بالدولة الرومانية ، بتقوية أساطيلها وتدعيم قواتها البحرية ، وهذه الأقاليم هى الأندلس ، والشام ، وشمال أفريقية ، والإمبراطورية الكارولنجية .

كانت غزوات الأسطول العربى تبعاً لفصول السنة ، فمنها غزوة صيفية تسمى صائفة ، أو شتوية تسمى شاتية ، أو ربيعية تقع من شهر مايو أى بعد أن يكون المسلمون قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم ، فيقيمون فى الغزوة ثلاثين يوماً ، أى إلى العاشر من يونيو ، فكأنهم يجدون الكلأ حينئذ فى بلاد الروم ، فترتبع دوابهم ربيعاً ثانياً ، ثم يعودون فيقيمون ٢٥ يوماً أى إلى ٥ يوليو حتى تقوى الخيول فيجتمعون

لغزو الصائفة أى الصيف . ثم يغزون لعشر تخلو من يوليو فيقيمون إلى وقت عودتهم ستين يوماً ، وكانوا فى بعض السنين يغزون صائفتين ، يسمونهما الصائفة اليمنى والصائفة اليسرى أما فى الشتاء فغزواتهم قليلة ولا يبعدون فيها أكثر من عشرين ليلة ، ويكون ذلك فى آخر فبراير ، فيقيم الغزاة إلى أوائل مارس ثم يرجعون ويربعون دوابهم[١].

كانت إغارات العرب المسلمين على سواحل وأراضى الروم فى عصر الخليفة العباسى هارون الرشيد منتظمة سنوياً ، الذى توغل فى إقليم آسيا الصغرى وفاز بغنائم كثيرة ، وبث الرعب فى قلوب الروم ، حتى إن إمبراطورتهم إيرينى (الوصية على ابنها القاصر قنسطين السادس) قبلت دفع جزية سنوية لتجنب غزوات العرب ، ولم يرض الجيش الرومانى عما فعلت إيرينى فأرغمها على التنازل ، وتولى بدلها (نقفور) الذى تهكم الرشيد عليه فسماه (كلب الروم)[٢] وأغار الرشيد على الدولة الرومانية مما اضطر نقفور إلى أن يوافق على دفع خمسين ألف دينار مقابل موافقة الرشيد على عقد الصلح .

وفى عصر الخليفة الرشيد وضع العرب والروم سياسة واحدة تنطوى على مراقبة سواحل العدو والهجوم عليها فجأة وإنزال أكبر خسارة ممكنة . فكان الأسطول الرومانى يراقب الشاطىء

---

(١) جرجى زيدان : تاريخ التمدن ج ١ ص ٢١٢

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٩٢

الشرقي للبحر المتوسط ، ونجح في سنة ٧٩٠ م في أسر بعض السفن العربية ، وهي في طريقها من مصر إلى الشام . ورد العرب على غارة الروم هذه ، فأغار الأسطول العربي على جزيرة قبرص ، ونزل العرب على أراضي الجزيرة ، وقدم الأسطول الروماني سريعاً لصد هجوم العرب ، ولكن الأسطول العربي أنزل بالروم هزيمة ساحقة وأسر أمير البحر الروماني الذي أمر هارون الرشيد بقتله لرفضه التعاون مع العرب ، ثم بعث هارون في سنة (١٩٠ هـ — ٨٠٦ م) حملة أخرى أغارت على قبرص وأنزلت بها كثيراً من التخريب وغنمت عديداً من الغنائم . وفي العام التالي أغار الأسطول العربي على جزيرة رودس وغنم العرب غنائم كثيرة أيضاً .

شهد عام ١٩٩ هـ (٨١٤م) غزواً بحرياً عربياً قام به عرب مهاجرون من الأندلس كانوا قد ثاروا على الخليفة الأموي بالأندلس وهاجروا بأسرهم وممتلكاتهم إلى مصر فأقاموا في الإسكندرية ، ولكن العباسيين أرغموهم على الرحيل عن الإسكندرية فخرجوا بسفنهم إلى جزيرة كريت فأغاروا عليها واستطاعوا الاستيلاء عليها منتهزين فرصة انشغال الدولة الرومانية ببعض المشاكل الداخلية ، ورحب أهالي الجزيرة بقدوم العرب الأندلسيين لما كانوا يعانونه من اضطهاد الرومان لهم نتيجة الاختلافات الدينية المذهبية ، وبدأ العربُ الأندلسيون يعملون على الاستقرار النهائي بجزيرة كريت ، فبنوا حصناً قوياً حفروا

حوله خندقاً عميقاً ، واتخذوا من هذا الحصن الكبير عاصمة لهم ، فأصبح اسم هذه العاصمة (الخندق) وقد تحرف هذا الاسم فأصبح الآن (Candia) وبعث الإمبراطور الرومانى ميخائيل الثانى أسطولا حاول استرداد جزيرة كريت من العرب الأندلسيين دون جدوى برغم تكرار المحاولات .

كان هؤلاء المسلمون الوافدون على الإسكندرية من الأندلس أول من كشف ضعف الدولة الرومانية ، فبعد أن طردهم العباسيون من الإسكندرية ، عبروا البحر إلى كريت ونزلوها دون مقاومة وسرعان ما دانت لهم الجزيرة وأقاموا لهم فى مدينة الخندق وكراً حصيناً من أوكار القرصنة وظلوا فى مركزهم ذاك مبعثاً للرعب والفزع لمنطقة بحر إيجه وللعرش البيزنطى مدة تبلغ قرناً ونصف قرن . ويبدو أن انعدام المقاومة أمامهم جاء نتيجة مباشرة لأحد أمرين : أولهما ما أصاب الأساطيل الإقليمية من دمار أثناء ثورة توماس قبل هذا الغزو بسنوات قلائل . والثانى عدم رضا سكان الجزيرة الإيجيين الميّالين لعبادة الصور عن سادتهم فى القسطنطينية المخالفين لهم فى هذا الموضوع ، ممّا زعزع إخلاص أهل كريت لحكامهم وحوّلهم إلى الترحيب بعرب الأندلس المنفيّين . ويحتمل أن يكون سبب انعدام المقاومة هو اجتماع الأمرين معاً .

وكانت جزيرة صقلية أيضاً مسرحاً لصدام الروم والعرب . فقد بعثت دولة الأغالبة فى شمال أفريقية سنة ٢١٢ هـ (٨٢٨ م)

فى عهد زيادة الله الأغلبى أسطولا عربيًّا قوامه سبعين سفينة عليها عشرة آلاف فارس لغزو جزيرة صقلية ، وكانت قد قامت فيها ثورة داخلية ضد الحكم الرومانى ، وكانت الدولة الرومانية تعانى كثيراً من المشاكل الداخلية ونجح العرب المسلمون فى السيطرة على معظم جزر اليونان وبحر إيجة ، وأصبح العرب على مقربة من العاصمة الرومانية القسطنطينية .

أغار أسطول الأغالبة على (البلوبونيز) وساعد السلاقيين فى حصارهم لمدينة (بتراس) ويحتمل أن تكون هذه الحملة جزءاً من خطة عباسيّة عامة مؤداها الضغط على القسطنطينية براً وبحراً . إذ انتهى ذلك الغزو بعقد اتفاقية مدتها عشر سنوات بين بطريق صقلية والأمير الأغلبى . ومع أن تلك الاتفاقية جُددت لعشر سنوات أخرى عام ٨١٣ ، إلا أنه يبدو أنها كانت معدومة الأثر ، ذلك أنها لم تمنع عرب شمال أفريقية من القيام بغارات على جزيرة سردينية عامى ٨١٢ و ٨١٣ ، كما هاجموا صقلية عام ٨٢٠ وعاودوا الهجوم على سردينية فى العام التالى .

لم يكن عمل الأغالبة عملا يسيراً ولا مجرّد غارة ، وإنما كان حملة قوية هدفها الاستيلاء على الجزيرة بأسرها . ونجحت الحملة إلى حد كبير بسبب ضعف أسطول صقلية البيزنطى ، ولأن قائده (إيوفيميوس) أسلمه للمسلمين بعد ثورة فاشلة . ومن الطريف أن نلاحظ أنه كان ثمة بعض التردد

بين المسئولين فى شمالى أفريقية حول القيام بهذه الحملة ، فلم يتخذوا القرار بالسير فيها إلا بعد عمل حساب لشتى العوامل . وبلغ عدد سفن الحملة . التى أبحرت من سوسة — بالإضافة إلى سفن إيوفيميوس — من سبعين إلى مائة سفينة ، جهزت بعدة آلاف من الرجال . وبهبوط الحملة أرض الجزيرة بدأت — كما حدث فى كريت — مرحلة جديدة فى تاريخها ، إذ انطوت صفحة السيادة البيزنطية ، وبدأت صفحة أخرى من النفوذ العربى الإسلامى على البحار ، وشعر عرب أفريقية وكريت — وهم حكام البحر المتوسط الجدد — أنهم ورثوا السلطان الذى تمتعت به القسطنطينية مدة طويلة — الذى سعى إليه الأمويون دائماً[١] .

السيادة العربية التجارية فى البحر المتوسط :

كان العرب فى العصر العباسى سادة البحر المتوسط ، فقد امتلكوا — إلى جانب الأسطول الحربى — أسطولا تجارياً ضخماً سيطر على التجارة فى البحر المتوسط ، وزاد النشاط التجارى العربى بعد سيطرة العرب على معظم الشواطئ والجزر .

---

(١) لويس ص ١٧٠ .

فى العصر العباسى ، رحل الأسطول العربى التجارى فى رحلات تجارية منتظمة بين أنطاكية فى بلاد الشام والمحيط الأطلسى ، وكانت الرحلة تستغرق ستة وثلاثين يوماً ، وكان ميناء أنطاكية هو (سلوقية) التى أصبحت فى العصر العباسى أهم مركز للتجارة فى الشام . ولقد حصنها الخليفة العباسى المعتصم . وكان من أهم الموانى التجارية فى الشام فى العصر العباسى ميناء طرابلس وكان يتسع لألف سفينة . أما الميناء الحربى فى بلاد الشام الذى خرجت منه الحملات الحربية ضد الدولة الرومانية فكان ميناء صور الذى كانت تحميه حصون هائلة . وامتدت المراكز التجارية ومخازن البضائع فى المدن الهامة على الساحل الشرقى للبحر المتوسط .

فكر هارون الرشيد فى حفر قناة فى برزخ السويس ، وقد أدرك مدى الفائدة التى يعود بها حفر القناة ، ولكن الرشيد عاد فرفض تلك الفكرة على أساس احتمال إبحار السفن الرومانية عبر تلك القناة للإغارة على المدينتين المقدستين مكة والمدينة [1] .

كان من نتيجة الظروف السياسية والحربية أن حيل دون وصول سفن التجار المصريين والسوريين إلى غرب البحر المتوسط . وربما كان لسياسة العباسيين ومواصلة إجراءات الدولة الأموية على بلوغه من إغلاق غربى البحر فى وجه العرب

---

(١) المسعودى : مروج الذهب .

المسلمين . واستمر حصر مرور التجارة الشرقية اللازمة لبيزنطة خاصة ، وبلاد الغرب عامة ، عبر ثغر طرابيزون على البحر الأسود وهذه التجارة هي المستوردة من الوسطاء العرب في بلاد فارس والعراق ، وربما سمح الروم لبعض التجارة أن تمر عبر مصر وسورية ، على أنه من المؤكد أن هذا كان يخضع لإشراف دقيق . وإلى جانب هذا فلابد أنهم اشترطوا أن تأتى السلع القسطنطينية أولا . وثمة بعض منتجات شرقية أخرى – مثل التوابل والمنسوجات الحريرية – وصلت الدولة الرومانية طريق بلاد الخزر .

أدت رقابة الدولة الرومانية على التجارة إلى الإضرار بمصالح جميع دول البحر المتوسط غير العربية ، مثل البندقية ونابلى وجنوه والخزر . وهذه الرقابة التجارية تفسر الصراع العنيف الطويل بين شرلمان والدولة الرومانية حتى عام ٨١٢ م . وفى أول الأمر تردد شرلمان فى مجاراة سياسة أبيه ، وهى التدخل فى شئون إيطاليا ، ولذا نراه لا يعبر الألب قبل سنة ٧٧٤ م ، ولكنه أخذ يدرك تدريجياً – ولا سيما أواخر حكمه – الأهمية الاقتصادية للتجارة بالنسبة لإمبراطوريته . وعلى هذا فلم يكن تأييده للبابوية العامل الوحيد فى تشكيل سياسته فى إيطاليا ، وفى موقف العداء الذى وقفه من القسطنطينية ، ولكنه رأى أيضاً ضرورة الإشراف على منابع الثروة التى يمكن أن تتدفق من البحر المتوسط على الشواطئ التابعة له كما أنه رأى أيضاً كيف

تسيطر بيزنطة على التجارة ، وحاول أن يحطم تلك السيطرة .

وما بناء شرلمان لأسطول فى البحر المتوسط ومد نفوذه فى جزر البليار وسردينية وجنوب إيطاليا ، ومحاولاته السيطرة على البندقية وايستريا ودالماشيا ، إلا جزء من خطة مدبرة تستهدف السيطرة على مصادر الثروة التجارية التى حرمت منها بلاده . وإلى هذا هدفت كل مباحثات شرلمان مع مبعوثى بطريق صقلية ، نائب الإمبراطور البيزنطى فى الغرب ، وكذلك خطبته للإمبراطورة إيرين ، ومفاوضاته مع الخلفاء العباسيين ، بل إن اتخاذه لقب إمبراطور عام ٨٠٠ يمكن أن نعتبره خطوة نحو ذلك الهدف ذاته .

كما أدت الرقابة الرومانية التجارية إلى تغيير الوسطاء الذين كانوا يقومون بالتبادل التجارى بين الشرق والغرب . وعلى الرغم من نشاط بعض التجار الوطنيين فى إيطاليا وشمال أفريقية ، فإن التجارة بين الشرق والغرب ظلت حتى عام ٧١٦ م فى يد السوريين والمصريين واليونانيين واليهود ، واستقر التجار المشارقة، جلابو البضائع الشرقية ، فى مستعمرات لهم فى الغرب ومنه كانوا يرسلون السفن إلى الشرق محملة بالبضائع الغربية.

ومن نتائج الرقابة التجارية الرومانية ، انتقال التجارة من أيدى الرومان إلى غيرهم ، ومنها أيضاً تدهور الأساطيل الحربية الرومانية فى بحر إيجة و (كبرهايوت) ، إذ كانت تلك الأساطيل تعتمد على من تجمعهم بالقوة من ملاحى السفن

التجارية . وهذا هو الذى يفسّر ضعف الرومان البحرى فى أوائل القرن التاسع الميلادى . أى إن ذلك الضعف يرجع إلى الرقابة التجارية أكثر مما يرجع إلى إهمال فعلى من جانب الحكومة الرومانية لشئون الأسطول .

انتهى نظام الرقابة التجارية إلى نوع من السلبيّة الاقتصادية داخل الدولة الرومانية ، وإلى ضعف بحرى صار من العسير إصلاحه ما لم تلجأ الدولة الرومانية إلى تغيير شامل فى أساليبها الاقتصادية والحربية والبحرية ، ومضت الدولة الرومانية فى طريق الركود الاقتصادى حقيقة كانت الدولة الرومانية لا تزال غنية ، ولا تزال قوية ، ولكنها لم تستطع أن تحافظ المحافظة الواجبة على نظام الرقابة على تجارة البحر المتوسط الذى أقامه ضد أعدائها[1] .

الأسطول العربى المصرى فى العصر العباسى :

اشتهرت مصر بصناعة السفن التى كان يحتاج إليها أسطول الخلافة ولعل أكبر صناعات الإسكندرية كانت صناعة بناء السفن .

تحدّث (سينيوس)[2] عن السفن المصنوعة فى مصر ، فذكر أنها كانت على نوعين ، أحدهما يمكن أن نسميه (البوارج) والآخر (الطرادات) . وكانت البوارج تحمل ألف رجل ، فى حين أن السفن الصغرى كانت تحمل كل منها مائة رجل ،

(١) لويس ص ١٨٧ .

(٢) المعارف البحرية ص ٤٥ .

وكانت تخصص للسير السريع واللّف حول السفن الكبرى ، ويذكر ذلك المؤرخ وصفاً مهماً عظيم القيمة لما كان فى سفن الحرب من الآلات والسلاح ، فكانت بها عدد القذف « مجانيق وآلات رمى الحجارة » . وكان فى بعضها صروح عالية فوق ظهرها حتى إذا ما جاءت السفينة بمحاذاة أسوار محصنة استطاع المهاجمون أن يكونوا هم والمدافعون على علوّ سواء ، وأمكنهم أن يثبوا من تلك الصروح إلى الأسوار أو أن يقيموا قنطرة على الفضاء القليل الذى بينها ويعبروا عليها إلى حصون الأسوار .

وصف (سيبيوس) ما شهده من تلك السفن الكبرى ، فذكر أنها كانت مجهزة بآلات تقذف النار ، وهى آلات ترمى بالنار المهلكة المعروفة بالنار الإغريقية ، وكانت مزيجاً قوياً من مواد سريعة الالتهاب وكانت تشتعل اشتعالا شديداً لا يمكن إطفاؤه ، ولعلها كانت فوق ذلك ذات قوة على النسف والتمزيق ، وكانت لذلك تحدث تخريباً كبيراً وخوفاً شديداً .

ومما يسترعى النظر فى كتاب (سيبيوس) ما ذكره من أن السفن التى بنيت فى مصر بأمر الدولة العربية كانت مجهزة بالمجانيق لقذف المواد الملتهبة ، وهى المواد التى قيل إن تجهيزها كان فى القرن السابع على الأقل سراً مكنوناً اختص به أهل بيزنطة . وقد جرت العادة أن يقولوا إن أوّل من اخترع النار الإغريقية رجل اسمه (قلينيكوس) وهو مهندس من مدينة

(هليوبوليس) ، ويقولون فى تسرّع إن (هليوبوليس) المقصودة هى التى بالشام وليست هى المدينة القديمة الشهيرة بمصر .

أما المؤرخ (جبون) فانه يعتمد على ما جاء في كتاب (قادرينوس) ويقول إن (فلينيكوس) كان مصرياً ولكنه يزعم خطأ أن (هليوبوليس) كانت عند ذلك أطلالا بالية . وإننا لا يمكن أن نتصور أنه كان من الممكن أن تبنى سفينة فى الإسكندرية بعد فتح العرب لمصر بما لا يزيد إلا قليلا على عشرين سنة ، ثم إن تجهز بتلك الآلات التى تقذف النار الإغريقية اللهم إلا إذا كان اختراع مزيج تلك النار وعلى آلاتها أصله فى مصر ذاتها .

ومهما كان من أمر هذه النار فإنه لاشك فى أن صناعة بناء السفن كانت عظيمة فى الإسكندرية فى النصف الأول من القرن السابع ، وأنها لم تضمحل عند ما انتهى أمر الدولة الرومانية فى مصر وفى هذا ما يدل على أن الصانع المصرى كان فى هذه الصناعة كما فى غيرها من الصناعات الكبرى فى وادى النيل مستقلا بنفسه بغير إرشاد ولا تسيير من الروم إذا لم نقل إنه كان فى الحقيقة الصانع المعلم .

وكانت المنارة «منارة فاروس» إحدى عجائب الدنيا السبع لاتزال إلى ذلك الوقت ماثلة مشرقة فيما بين مدينة الإسكندرية والبحر تكلل هامتها سحب من الدخان فى النهار ، ولهب من النيران بالليل [١] .

---

(١) المعارف البحرية ص ٤٦ .

كانت صناعة السفن فى مصر مزدهرة فى العصر العباسى فيذكر المؤرخ (المقريزى)[1] أنه بعد أن نزل الروم دمياط فى سنة ٢٣٨ هـ فى خلافة المتوكل وفى ولاية عنبسة بن إسحق على مصر «وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول وأنشئت الشوانى برسم الأسطول وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البرّ ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب هذا وللناس إذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء الله وإقامة دينه ، ولا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة، ولكل واحد من الناس رغبة فى أن يعد من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه . وكان غزو الأسطول بلاد العدو ما شحنت به كتب التواريخ ، فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالا ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ويأسر بعضهم بعضاً لكثرة هجوم أساطيل الإسلام على بلاد العدو فإنها كانت تسير من مصر والشام ومن أفريقية » . ويذكر المقريزى أيضاً أن الخدمة فى الأسطول كانت شرفاً عظيما يتمناه كل امرئ فى مصر .

---

(١) خطط المقريزى .

السيادة البحرية الحربية فى العصر العباسى الثانى :

كان استيلاء العرب على صقلية ثم كريت سنة ٨٢٧ فاتحة عهد جديد فى البحر المتوسط ، إذ أخذت السيطرة على البحر المتوسط تنتقل إلى العرب الذين انتشروا على الشواطئ الجنوبية لذلك البحر ، من جبال طوروس حتى جبال البرانس وكافح الرومان طويلا ، واستطاعوا أن يؤخروا إتمام فتح الأغالبة لجزيرة صقلية حتى عام ٩٠٢ ، وتمكنوا من أن يجمعوا من الأساطيل لحفظ نفوذهم فى جنوب إيطاليا والبحر الأدرياتى . وحاولوا استرداد كريت دون جدوى ، ولم يأت القرن العاشر إلا وانتقلت السيادة العاملة فى البحر المتوسط لأعدائهم العرب.

كان أبلغ الحملات أثراً على مصير سيادة الرومان الحربية تلك التى قامت بها أساطيل شمال أفريقية فى بحار صقلية وإيطاليا ، وتلك التى قامت بها أساطيل كريت الإسلامية فى بحر الأرخبيل والبحر اليونانى .

بدأ الهجوم فى الغرب بإنزال قوة من المغاربة على شاطئ صقلية الجنوبى عام ٨٢٧ م ، ثم حاصروا العاصمة سرقوسة ، براً وبحراً . وحاول الرومان رفع الحصار دون جدوى، فاستنجدوا بأسطول البندقية وتوسكانيا . وقدمت قوات عربية أندلسية لمساعدة المغاربة . وسقطت المدينة فى أيدى الأغالبة سنة ٨٣١ .

أدى استيلاء أسطول الأغالبة على جزيرة قوصرة سنة ٨٣٥ إلى القضاء على الخطر الذى كان يهدد المواصلات بين كل من صقلية وأفريقية كما أقبلت بعض مدن إيطاليا مثل نابلى على التحالف مع العرب فى صقلية .

بدأ العرب المسلمون هجومهم على المراكز البيزنطية فى كل من البحرين الأيونى والأدرياتى . وبدأت الهجمات بالاستيلاء على برنديزى عام ٨٣٨ بأسطول من مسلمى كريت أوشمال أفريقية أو منهما معاً . وقام من البندقية أسطول مكون من ستين قطعة حربية للدفاع عن ذلك الإقليم ، ولكن عانى أهوالا شداداً قرب كروتونى على خليج طارنت حيث حطمه المسلمون تماماً ثم صارت الأحوال المحلية فى جنوب إيطاليا مدعاة لتدخل أيسر شأناً ، وذلك حين قام صراع بين رجلين متنافسين يطالب كل منهما بالسيطرة على دوقية (بنثغنتم) اللمباردية . وفى عام ٨٤١ م استعان أحدهما ، وهو (رادليكس) بجنود غرب أفريقية وصقلية ، بينما استعان المنافس الآخر (سيكينولوف) بجند من عرب الأندلس . ونجح (رادليكس) فى الاستيلاء على مدينة (بارى) والأراضى المحيطة بها ، وتكونت دولة عربية إسلامية أكثر من ثلاثين سنة ، واعترفت بغداد بها .

كان من نتائج انهزام البندقية ، وتأسيس حكومة عربية إسلامية فى بارى ، واستيلاء عرب كريت على (طارنت) أن تعرّض البحر الأدرياتى لغارات الأساطيل العربية ، ثم استولى

العرب المسلمون علي جزيرة (كرسو) واستولوا على معظم سفن البندقية التجارية، ثم هزموا أسطولها البحرى فى خليج (كوارنيرو) وأنزل العرب قواتهم فى أراضى البابوية سنة ٨٤٦ وأغاروا على ضواحى روما . وطلب البابا العون البحرى من مدن (كمبانيا) ولولا أن عاصفة شديدة أغرقت كثيراً من السفن العربية لزاد توسعهم فى الأراضى الإيطالية .

وفى عام ٨٥٨ التقى الأسطول الرومانى بالأسطول العربى تجاه الساحل الشمالى لصقلية وكانت النتيجة انتصاراً عظيما للمسلمين ، وفقد البيزنطيون مائة سفينة وفقد الرومان معظم مدن صقلية ، وأصبح العرب يسيطرون على أكثر من ثلثى الجزيرة . وبعد سنوات ثمان بدأ العرب يسيطرون على باقى الجزيرة . وحاول لويس الثانى الكارولنجى بتأييد البابا إجلاء العرب عن (بارى) دون جدوى . ولم يمنع تقدم العرب سوى تحالف البندقية والقسطنطينية عام ٨٦٧ م على أن يعملوا معاً فى البحار الإيطالية ، وانتزعوا بارى من العرب ، ولكن الأسطول العربى أغار على البندقية سنة ٨٧٥ وأحرق ميناء (كوماتشو) على مصب نهر الپيبو . .

فى عام ٩٠٢ م قاد إبراهيم بن الأغلب حملة برية وبحرية كبيرة من بلزم ضد المواقع المملوكة للرومان فى صقلية فسقطت المنطقة كلها فى أيدى العرب ، ولكن وفاة ابن الأغلب الفجائية منعت العرب من التقدم ، فقد نشب النزاع بين الأغالبة

والفاطميين وإن كانت صقلية قد خضعت تماماً للعرب المسلمين.

ترجع أسباب ضعف الدولة الرومانية البحرى فى مياه إيطاليا وصقلية فى ذلك الحين ، إلى ما واجهه البيزنطيون فى الشرق من مشاكل ، وعلى الأخص فى مياه بحر إيجة المجاور لجزيرة كريت . إذ وجدت القسطنطينية أنه من العسير عليها أن تحارب أعداءها فى بحر إيجة وفى المياه القريبة فى وقت واحد[1] .

فى النصف الثانى من القرن التاسع شاهد البحر المتوسط قيام قوة بحرية عربية أكثر استقراراً ، وعلى الأخص عند حدود طرسوس . ويبدو أن تلك القوات كانت تحت إمرة الأمير العربى الذى عهد إليه فى نفس الوقت قيادة قوات الحدود البرية ، المستخدمة ضد الرومان ، وكان لهذا الأسطول العربى ، الذى دُعِّم بفرق مصرية وسوريّة من القوة ما مكّنه من الهجوم بغارة على القاعدة البحرية الرومانية الأناضولية فى أضالية عام ٨٦٠ م ، ورافق ذلك الهجوم هجوم عباسى آخر من البرّ على بلاد آسيا الصغرى ، ثم أغار أسطول سورى طرسوسى على جزيرة أيوبيا فى بحر إيجة عام ٨٧٣ وساعدته فرق كريتيّة .

كانت جزيرة قبرص نقطة تجمع الحملات الشامية المصرية على الأراضى البيزنطية ، وبلغت تكاليف إحدى الحملات

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٢٢ .

١٠٠,٠٠٠ دينار . ومن الأمور الهامة التي تتعلق بالأسطول العربي في ذلك الحين ، تجهيزها بالنار الإغريقية أو بمركب نفطي مشابه للنار الإغريقية ، فالحراقات التي استخدمها الأغالبة قرب صقلية عام ٨٣٥ م كانت سفناً من قاذفات اللهب ، تقذف مادة سريعة الاشتعال على سفن الأعداء . واستخدم ليو الطرابلسي قاذفات اللهب في هجومه على سالونيك عام ٩٠٤ م وبهذا السلاح أحرق الفاطميون السفن التي هاجموها في البحر التيراني عام ٩٣٥ . وإذن فلم تعد النار الإغريقية وقفاً على بيزنطة ، ولم تعد سلاحاً سرياً مخيفاً كما كانت فيما مضى وربما يوضح لنا هذا كله عجز البحرية الرومانية وافتقارها إلى النجاح المنشود معظم تلك الفترة . والواقع أنه كان من المستحيل على البيزنطيين الاحتفاظ بسيطرتهم على البحار ما لم تكن لهم وحدهم ميزة استخدام النار الإغريقية . ذلك لأن ما لديهم من أسلحة وما هم عليه من تنظيم لم يرتق عما كان عند منافسيهم المسلمين إلا قليلا جداً ، إن صح أنه كان أرقى .

جاء في كتاب (الخطط الحربية Tactica) الذي وضعه ليو ، أن أساطيل بيزنطية كانوا يدربونها على تجنيب ملاقاة العدو إلا في حالات الضرورة القصوى ، وأنها كانت تعتبر عضواً للقوات البرية لا سلاحاً قائماً بذاته . وهذا المسلك الدفاعي المملوء بالحذر ، والذي سيطر على قواد بحرية

القسطنطينية ، وربما يوضح أكثر من أى شيء آخر ، المظهر المزيل الذى ظهرت الدولة الرومانية به فى البحار معظم تلك الفترة [١].

السيادة العربية التجارية فى العصر العباسى الثانى :

توزعت الملاحة البحرية فى الدولة العربية الإسلامية فى بحرين منفصلين تماماً وهما : البحر المتوسط ، والمحيط الهندى ، وذلك لأن برزخ السويس كان حائلا دون اتصال هذين البحرين فكان من يريد أن يصل من البحر المتوسط إلى الهند أو شرق آسيا مضطراً إلى حمل بضائعه على الظهر عند الفرما ، ثم يسير فى الصحراء سبع مراحل حتى يصل إلى القلزم وهناك يستطيع حملها فى المراكب مرة أخرى .

اختلف نوع السفن التى تستعمل فى كل من البحرين ، فكانت نوع سفن البحر المتوسط ذات مسامير ، أما سفن البحر الأحمر والمحيط الهندى فكانت تخاط بحبال الليف [٢] . وكانت هذه هى الطريقة القديمة فى إنشاء السفن عند جميع الأمم . ويذكر ابن جبير فى القرن السادس الهجرى طريقة إنشاء السفن على هذا النحو ، فيقول إن سفن البحر الأحمر لا يستعمل فيها مسمار البتة « إنما هى مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل ، يدرسونه حتى يتخيط ، ويفتلون

---

(١) لويس ص ٢٤٥ .

(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٣ .

منه أمراساً ، يخيطون بها المراكب ، ويخللونها بدُسر من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء المركب على هذه الصنعة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش ، وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم فى البحر »[١] . ويعلل المؤرخ المسعودى[٢] عدم استعمال المسامير فى بناء السفن بالخوف من أن يأكلها ماء البحر بينما يذكر القزوينى[٣] أن الملاحين كانوا يخافون من جبال المغناطيس .

كانت سفن البحر المتوسط أكبر من سفن المحيط الهندى ، فقد روى مفتش الضرائب (تشاو — جو — كوا Cau-Ju-Kua) فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) ، مع كثير من التعجب ، كيف أن سفينة واحدة تحمل بضعة آلاف من الرجال ، وعلى ظهرها حوانيت لبيع الطعام وفيها مغازل ولم تكن السفن ذات الدفتين موجودة فى غير البحر المتوسط أما التى تجرى فى المحيط فلم يكن فيها أكثر من طبقة واحدة ، وكانت فى معظم الأحيان ذات سارية واحدة . وكانت أغلى أصناف الخشب الذى تصنع منه المراكب هو شجر اللبخ وكان اللوح الواحد يباع بخمسين ديناراً . وكانت البندقية فى القرن الرابع تمد العرب بالخشب لبناء السفن مما جعل الإمبراطور

(١) رحلة ابن جبير ص ٦٧ .

(٢) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٦٥ .

(٣) عجائب المخلوقات جـ ١ ص ١٧٢ .

البيزنطى يحتج لدى دوق البندقية ، فأمر الدوق بإيقاف بيع الخشب للعرب ، ولم يسمح إلا بإمدادهم بالخشب الذى لا يصلح لإنشاء السفن ، ولهذا شرط أن يكون من اللبخ أو السنديان ، على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف القدم .

وصف المؤرخ اليعقوبى [1] ميناء طرابلس الشام فى أواخر القرن الثالث الهجرى بأنه « عجيب يحتمل ألف مركب » ، كما تحدث عن ميناء صور فقال إنه « كان بها دار الصناعة ، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم ، وكانت حصينة جليلة » . وكانت تونس تلى طرابلس فى الأهمية ، وكانت مدينة القيروان على مقربة من موقع قرطاجنة التى كانت سيدة البحر قديماً .

كانت للعالم العربى الإسلامى فى تلك الفترة ثلاثة مراكز لثلاث قوات عربية إسلامية بحرية متميزة حوض البحر المتوسط : الأولى فى الغرب ، والثانية فى الوسط ، والثالثة فى الشرق : وأغلب الظن أن أهم هذه القوى الثلاث هى القوة المتوسطة التى ربطت صقلية بشمال أفريقية تحت حكم الأغالبة حتى عام ٩٠٩ م ، والتى انتقل الأشراف عليها إلى الفاطميين بعدهم ، إلى جانب الموانئ التى استولى العرب عليها ، مثل بارى وجاريليانو . وإلى غرب تلك القوة وجدت القوة البحرية

---

(١) كتاب البلدان ص ٣٢٧ .

الأموية فى الأندلس. وتكوّنت فى القرن التاسع من أسطول مرابط فى الثغور بقيادة أمير سرقسطة وفراكسينت ، ثم اتسعت دائرة سلطان هذه القوة فى القرن العاشر ، واشتملت على أسطول ممتاز حسن التنظيم ، خضعت لسلطانه مجموعة من جزر البليار . أما القوة الشرقية فكان نطاقها أكبر تلك القوى اتساعاً وأقلها تحديداً . وكانت تتكون من كريت المستقلة ومن أساطيل طرسوس وأساطيل الشام ومصر . وقد توحّدت هذه الإساطيل الثلاثة مرتين تحت حكم الطولونيين وتحت حكم الإخشيديين وكانت كريت وثيقة الصلة بمصر دائماً . وكثيراً ما كان يحدث ألا تكون تلك الأساطيل متّحدة ، وقد تعمل كل منها على انفراد .

كان لسيطرة العرب البحرية نتائج خطيرة على الحياة الاقتصادية والتجارية ، فى كل أقاليم البحرين المتوسط والأسود وربما كان أول المستفيدين من هذا التحول بل أكثرهم استفادة فى القرن التاسع الميلادى — من وجهة النظر الاقتصادية — هم سكان صقلية وسكان شمال أفريقية بصفة خاصة . ونتج عن سيطرة العرب على البحر المتوسط ، وبخاصة على طريق التجارة الدائرية فى الشمال ، الواصلة بين سورية ومصر عن طريق صقلية وكريت وقبرص، زيادة أهمية الدور الذى قام به سكان شمال أفريقية كوسطاء فى تجارة ذلك البحر . وهكذا تحكم الأفريقيون فى نقل التجارة بين الشرق والغرب ، وكانت

سفنهم دائبة الحركة إلى سورية ومصر لجلب التوابل والمنتجات الفاخرة من بلاد الشرقين الأدنى والأقصى إلى شمال أفريقية وسائر بلاد العرب والإسلام فى الغرب .

عمّ الرخاء البلاد العربية والإسلامية بفضل سيطرة العرب على البحر المتوسط فقد غدت تونس ، أواخر حكم الأغالبة ، بلداً زراعياً غنياً ، اكتست أقاليمه الجنوبية بأشجار الزيتون والكروم ، وفاقت سهوله الوسطى بالحبوب الوفيرة ، إلى جانب الصناعات ، مثل خامات المعادن فى قاعدة سوسة البحرية ، وصناعة الزجاج والخزف والنسيج فى القيروان . وكانت القيروان أعظم المراكز التجارية أهمية حيث صدر منها القمح إلى الإسكندرية ، وزيت الزيتون إلى صقلية وإيطاليا .كما كانت تونس مركزاً تجارياً هاماً إلى جانب قابس وصفاقس ، كما انتشر الرخاء فى مصر وأصبحت طريقاً للتجارة الدولية بين المنسوجات وامتد الرخاء إلى سوريا وفلسطين ، فانتعشت طرابلس وبيروت وصور وسائر الموانى الساحلية الأخرى بسبب إعادة فتح البحر أمام التجارة العربية . وعاد التجار السوريون إلى البحر المتوسط ثانية . ووصل الرخاء التجاري والصناعى إلى حلب ودمشق وبيت المقدس ، فنى عام ٩٠٨ م بلغ دخل سوريا ٣٨ مليون درهم (أى حوالى ٢ مليون دينار) بعد المصروفات العامة .

انتشر الدينار الذهبى شرقاً وغرباً وصارت بلاد العالم

العربى من المحيط الأطلسى غرباً إلى جزر الهند الشرقية شرقاً مرتبطة تجارياً داخل وحدة اقتصادية واحدة . فحوالى عام ٨٠٠م كان الدينار الذهبى لا يستخدم إلا فى شمال أفريقية وسورية ومصر وبعض أجزاء من إيطاليا ، ولكنه غدا حوالى عام ٩٥٠ م نقداً دولياً دون منازع ، واستخدم فى سائر بلاد العالم العربى ، وفى أوائل القرن العاشر سك عبد الرحمن الناصر ديناراً أندلسياً وانتشر الدينار الذهبى فى الشرق ، فاختفى الدرهم الفضى من العراق وإيران .

لم يكن لسيطرة العرب على البحر المتوسط أثر اقتصادى ضار بالأقاليم الرومانية فى الشمال [1] ولم تحاول الشعوب العربية عرقلة أو التحكم فى التجارة الذاهبة إلى الإمبراطورية الرومانية أو الخارجة منها حقيقة أن غارات العرب اندفعت بانتظام صوب الشواطئ الرومانية فى الشرق والغرب ، وانتزعت كريت وصقلية من أيدى حكام القسطنطينية ، ولكن فترات السلام الطويلة بين تلك الغارات سمحت بكثير من النشاط التجارى بين الطرفين . بدليل أن الإمبراطورية الرومانية لم تعان أى تدهور اقتصادى خلال تلك المدة .

عدّل أباطرة الروم أساليب الرقابة الموجهة ضدّ التجار المسلمين فى حوض البحر المتوسط إلى القسطنطينية . بل إن وكالتين أقيمتا بالقسطنطينية ، إحداهما لتجار الحرير الفاخر ، والأخرى لتجار التوابل والعطور ، ويرجع الفضل فى وجودهما

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٦٤ .

إلى التجارة العربية قبل غيرها .

أحدثت سيطرة الغرب على حوض البحر المتوسط (٨٢٧ — ٩٦٠) الكثير من التغييرات الاقتصادية فى تجارة ذلك البحر ، وشاهدت انتعاش كثير من طرق التجارة القديمة التى تدهورت زمن سيادة البحرية الرومانية ، وتحدد هذه السنوات كذلك ظهور شمال أفريقية وإسبانيا وصقلية باعتبارها مناطق صناعية هامة ، أخذت تنقب فى مناجمها وترقى بصناعتها وزراعاتها ، وتسيطر على تجارة البحر المتوسط القاصدة إلى الشرق ، والعابرة لطرق الصحراء إلى السودان ، وشاهدت هذه السنوات ذاتها عودة الرخاء إلى سورية ومصر وعودة التجارة إلى البحر الأحمر . يضاف إلى هذا أن العالم الإسلامى بأسره ، أصاب فى هذه المرحلة تقدماً كبيراً ، من حيث اندماجه فى وحدة اقتصادية واحدة وقيامه على التعامل بنقد ذهبى شائع ، مقبول للتعامل ما بين بلاد فارس والأندلس . ويعد هذا العصر من عصور الحيوية العارمة فى تاريخ البحر المتوسط . إذ تبدل النظام الاقتصادى القديم وتحولت الأقاليم العربية فى الغرب إلى بلاد صناعية مع سيطرتها بالاشتراك مع المدن الإيطالية ، على نقل التجارة فى البحر المتوسط . وكان هذا كله ، الخطوة الأولى نحو سيطرة الغرب وتسلطه على هذا الإقليم . وكانت هذه بداية لها ما بعدها ، بداية عصر ينتقل فيه التحكم فى شئون البحر المتوسط إلى أوربا الغربية :

٤ ـ مصر العربية الإسلامية سيدة البحر المتوسط

فى العصر الطولونى والأخشيدى :

أنشأ أحمد بن طولون (٢٥٤ ــ ٢٧٠ هـ) جيشاً ضخماً ، فكان أول جيش مستقل فى مصر فى العصور الوسطى . وبلغ جيش ابن طولون من القوة والكثرة مما جعل الخلافة العباسية تعترف بسلطة ابن طولون ، فقد زادعدد الجند على مائة ألف[١] واهتم ابن طولون أيضاً بالأسطول الحربى ، وجعل للسفن الحربية أحواضاً حول الروضة كانت تعرف باسم (صناعة الجزيرة) وزاد إهتمام ابن طولون بالأسطول بعد توسعه فى بلاد الشام ، واضطراره إلى حماية شواطئه ومواجهة الهجوم البيزنطى ، ثم زادت عناية ابن طولون بالأسطول بعد محاولات الموفق ، أخى الخليفة العباسى للقضاء عليه ، وتفكيره فى غزو مصر بحراً ، ولهذا دعم الأسطول بكثير من السفن[٢] .

تحدث المقريزى[٣] . عن أسطول ابن طولون فوصفه بقوله : « وبنى ــ ابن طولون ــ أسطولا يتألف من مائة مركب بحرية ،

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٣٥ .

(٢) حسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين ص ٢٧ .

(٣) الخطط جـ ١ ص ٣١٨ .

سوى ما يضاف إليها من العلابيات والحمائم والعشارات والسنابيك والزوارق وقوارب الخدمة» . أما البلوى [١] فقد وصف أسطول ابن طولون فذكر أنه ضم مائة مركب كباراً ، ومائة مركب حربية .

لما تولى الإخشيد إمارة مصر دخل البلاد ومعه أسطول ، ودخل هذا الأسطول ثغر دمياط وسارت سفنه فى النيل بعد أن هزمت السفن المصرية فى شعبان سنة ٣٢٣ هـ . واهتم الإخشيد بالجيش والأسطول ، فبلغ عدد جند جيشه ثمانية آلاف كما اهتم ببناء السفن ، ونقل دار الصناعة إلى الفسطاط وأطلق عليها اسم دار صناعة السفن .

الدولة الفاطمية سيدة البحر المتوسط :

اهتم الفاطميون بإنشاء أسطول قوى ، بعد تهديد البيزنطيين لبلاد الشام واستيلائهم على أنطاكية وحلب . فأنشأ المعز لدين الله الفاطمى ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين من السفن الحربية فى مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) وفى الإسكندرية ودمياط وكانت بعض وحداتها تسير للمرابطة فى الموانى الشامية مثل عكا وصور وعسقلان وفى عيذاب على البحر الأحمر ، وأنشأ المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بنى فيها ستمائة سفينة ،

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٧٨ .

وصفها المسيحى المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله : « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً وحسناً » .

قام الأسطول المصرى فى عصر الفاطميين بدور هام فى الحروب التى قامت بين القرامطة والفاطميين (٣٦٠ – ٣٦٧هـ) ، فقد استطاع أسطول القرامطة أن يصل إلى مصر و يهدد دلتا النيل ، كما استطاع أسطول الفاطميين أن يمدّ الحاميات الفاطمية المحاصرة فى الشام .

كان على رأس الأسطول الفاطمى العربى عشرة قواد ، عليهم رئيس يدعى قائد القواد أو أمير الأسطول ، وهؤلاء القواد كانوا يتناولون مرتبات تصل إلى العشرين ديناراً فى الشهر ، وأفرد للأسطول ميزانية ضخمة من خراج الإقطاعات المحبوسة عليها[1] واشتهرت الروضة والإسكندرية بصنع السفن الحربية والتجارية[2] .

تحدث ابن خلدون عما قام به الأسطول العربى من الأعمال المجيدة ضدّ الرومان البيزنطيين وسائر الشعوب الأوربية فى البحر المتوسط الذى أصبح بحق بحيرة عربية فقال : « وكانت أساطيل أفريقية والأندلس فى دولة العبيديين — أى الفاطميين — والأمويين تتعاقب إلى بلادهما فى سبيل الفتنة ، فتجوس خلال السواحل بالإفساد والتخريب . وانتهى أسطول

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٢٣ .

(٢) على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٧٩

الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتى مركب أو نحوها ، وأسطول أفريقية — أى أسطول الفاطميين بالمغرب — كذلك مثله أو قريباً منه . وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه . فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم . . . وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم . وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه . . . والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجير البحر فى الأساطيل، من صقلية إلى البرّ الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن فى ممالكهم ، كما وقع فى أيام بنى الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين ، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى منه ، من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرومان لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت فى طرقه سلماً وحرباً ، فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح » (مقدمه ابن خلدون ص ٢٢٠) .

كان الفاطميون يحتفلون بخروج الأسطول إلى الغزو احتفالا شائقاً يحضره الخليفة ، فيجلس فى منظرة معدة له على ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة لوداع الأسطول ، فيجىء

القواد بالسفن إلى هناك ، وهى مزينة بأسلحتها وأعلامها ، وفيها المنجنيقات ، فتقوم السفن ببعض المناورات ثم يحضر الرئيس والمقدم بين يدى الخليفة الفاطمى فيودعهما ويدعو لهما ، ويعطى المقدم ١٠٠ دينار والرئيس ٢٠ ديناراً . ويحتفلون مثل هذا الاحتفال عند عودتهم من الغزو .

كان الرومان البيزنطيون قبل قيام الدولة الفاطمية فى مصر والشام ، قد حازوا بعض الانتصارات ، فقد انتزعوا جزيرة كريت سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) برغم جهاد العرب العنيف فى الدفاع عنها ، كما انتزعوا حلب من سيف الدولة الحمدانى سنة ٣٥١ هـ ، كما استولوا على أنطاكية ، ولكن قيام الدولة الفاطمية كان بمثابة وضع حد لهذه الانتصارات الرومانية ، فقد بدأ الفاطميون باسترداد حلب وأنطاكية ، لتظهر الدولة الفاطمية بمظهر حامية العروبة والإسلام من دون الخلافة العباسية فى العراق .

أمر الخليفة الفاطمى العزيز ببناء أسطول حربى ضخم فى دار صناعة جديدة بالمقس عام ٩٩٥ م . وكان المشروع يرمى إلى بناء ستمائة سفينة جديدة بعضها كبير الحجم إلى درجة كبيرة[١] . ويصف (ناصرى خسرو) الرحال الفارسى إحدى سفن الخليفة المعز وكانت قد أخرجت إلى الشاطئ وقت

Lane-Poo e : Egyptx p. 112 (١)

فتح مصر عام ٩٦٩ بأنها تبلغ ٢٧٥ قدماً طولا ، و ١٠ أقدام عرضاً .

بعث الرومان البيزنطيون أسطولهم لمهاجمة الشام ، فهاجموا طرابلس وحمص وبعلبك ، لكن الأسطول الفاطمى قضى على هذه المحاولات ، ثم اتفق الطرفان على عقد صلح بينهما لمدة عشر سنوات . وفى هذا الصلح احتفظ الرومان بما تحت أيديهم من الأراضى السورية ، أما الشواطئ فتبقى فى قبضة الفاطميين وهكذا أجبر البيزنطيون على اقتسام السيطرة على مياه شرق البحر المتوسط مع البحرية المصرية القوية .

نقض البيزنطيون الصلح وعاودوا غاراتهم على سورية . ورد العرب بالهجوم سنة ١٠٣٢ م على شواطئ اليونان وجزرها وفى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم عقدت معاهدة مع الرومان كفلت حسن العلاقات . ولما تولى الخليفة الظاهر الفاطمى سنة ٤١١ هـ (١٠٢٠ م) استمرت العلاقات الودية بين الدولتين ، وعقدت بين الظاهر والإمبراطور البيزنطى اتفاقية سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) نصت على أن يخطب باسم الخليفة الفاطمى فى مسجد القسطنطينية ، ويعاد بناء هذا المسجد مقابل إعادة بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس التى كان الحاكم الخليفة الفاطمى قد هدمها .

ظلت العلاقات ودية بين الفاطميين والبيزنطيين إلى أن قامت الحروب الصليبية وأصبحت مملكة بيت المقدس تواجه

الأخطار من جرّاء ازدياد نفوذ نور الدين ببلاد الشام وطموحه إلى بسط سلطانه على مصر . فبعث أمورى ملك بيت المقدس يستنجد بملوك أوربا لوقف الخطر الذى يهدد الإمارات اللاتينية بالشام ، غير أنهم شغلوا عنه ، لذلك لم يجد بدًّا من الا ستعانة بالإمبراطور البيزنطى مانويل . وكان هذا الإمبراطور يؤيد (أمورى) فى تخوفه من توسع نور الدين ، فاتفق معه على السير بحراً إلى مصر ، وأنفذ إليه أسطولا يعاونه حملة من الفرسان والمشاة ، مزودة بالمؤن والآلات الحربية ونزلت هذه القوات على دمياط ، وأحاطت بها براً وبحراً سنة ٥٦٥هـ(١١٦٩ م)[١] لكنها اضطرت للجلاء بعد أن بلغها شروع نور الدين فى الإغارة على بعض بلاد الإمارات اللاتينية بالشام سنة ١١٧٠ م، وبذلك عجزت الحملة الصليبية التى عاونها البيزنطيون عن تحقيق أطماعها فى مصر .

تحدث المؤرخ الأمريكى المعاصر (أرشيبالدر. لويس)[٢] عن الموقف فى البحر المتوسط فى تلك الفترة فقال : يجب التسليم بأن البحر المتوسط بقى إلى حد كبير بحيرة عربية إسلامية حتى عام ١٠٤٣ ، برغم ما أصاب القوى العربية الإسلامية من ضعف وإن الأسطول المصرى زمن الفاطميين وغارات المسلمين الهجومية من صقلية وشمال أفريقية على جنوب إيطاليا بل وعلى أقليم

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٥ .

(٢) القوى البحرية والتجارية ص ٣٢٤ .

بحر إيجة ، وكذا حركات أسطول مجاهد من قواعده بجزر البليار كل ذلك مكّن العرب المسلمين من قدز كبير من السيطرة على البحر المتوسط .

السيادة البحرية التجارية فى العصر الفاطمى :

لم يكن استيلاء الأغالبة على صقلية (٨٢٧ م) وظهورهم فى جنوب إيطاليا (٨٤٢ م) سبباً فى اضمحلال نشاط غرب أوربا التجارى ،إذ دأب عمال الأغالبة هناك على جعل الطريق مفتوحاً لاتصال دول غرب أوربا بحوض البحر المتوسط الشرقى فمن ذلك أن مدينة (بارى) الإيطالية بعد أنسقطت فى أيدى الأغالبة (٨٤٢) غدت الميناء الرئيسى الذى أبحرت منه السفن إلى مصر والشام تنقل إليها الصادرات الغربية وتعود منها محملة بالتجارة الشرقية . وحفظ لنا الحجاج المسيحيون صورة عن نشاط هذا الطريق التجارى وعن تسهيل المسلمين لهم مهمة السفر إلى الأراضى المقدسة بفلسطين ، وتعتبر رحلة برنارد الرشيد الذى أبحر من بارى سنة ٨٦٧ م قاصداً الأراضى المقدسة مصدراً هاماً لمعرفة أحوال هذا الطريق ووسائل الانتقال عبره[١] .

حافظ الفاطميون فى مصر على استمرار إشراف الدولة على الحياة الاقتصادية وهذا الإشراف كان الطابع الملحوظ فى مصر

---

(١) العدوى ص ١٤٧ .

منذ عهد البطالمة من ذلك الاحتفاظ بنظام جوازات الانتقال والسفر ، والدقة فى جباية الضرائب ورقابة الأسواق حيث يجب أن تعرض جميع السلع ، وبحثوا عن الذهب فى النوبة يضاف إلى هذا اهتمامهم بالشئون البحرية . كما عملوا على زيادة قوة مصر الحربية فى البحر ، فإنهم كانوا يملكون ويديرون جانباً كبيراً من أسطول مصر التجاري . الذى كان يرسل لأغراض التجارة عبر مياه البحر المتوسط . وربما حاولوا الخروج بمصر عن سياستها السلبية السابقة فى ميدان التجارة الخارجية .

وإلى جانب رخاء مصر فى العصر الفاطمى ، امتد الرخاء أيضاً إلى سورية وفلسطين الواقعتين تحت النفوذ الفاطمى . وتقدمت بهما الزراعة والصناعة . .ونجحت تجارة الشام مع الشرق والجنوب . وازدهرت تجارة البحر المتوسط مع سورية ومصر ، وصارت للإسكندرية علاقات تجارية مع صقلية والقسطنطينية . وتردد على مدينة طرابلس كثير من التجار الأجانب الوافدين من بيزنطة والأندلس وصقلية وبلاد غرب أوربا . وأبحرت من ذلك الميناء الأساطيل التجارية الخاصة بالخليفة الفاطمى فى القاهرة ، قاصدة القسطنطينية وصقلية وشمال أفريقية للتجارة معها . وكان أكثر تجار غرب أوربا نشاطاً فى تجارتهم مع الفاطميين ، هم البنادقة وأهل أمالفى . وقد أمد البنادقة الفاطميين بالحديد والسلاح وخشب السفن ، وهى المواد التى احتاجت إليها بلادهم كثيراً ، وحملت سفنهم

من مصر التوابل والمنسوجات وسائر المنتجات الفاخرة .

إن العمائر الكثيرة الرائعة التى أنشأها خلفاء الفاطميين فى مصر ، والثروة المذهلة التى احتوتها خزائن الخليفة الفاطمى المستنصر ، كل ذلك يوضح عظم الثروة التى تمتعت بها فى ذلك الحين . وغدت القيروان من أهم المدن التجارية فى البحر المتوسط إلى جانب عظم أهميتها من الناحية الصناعية . وقد وضعها (المقدسى) بين عواصم العالم العربى الإسلامى مع برقة وسجلماسة . وزادت أهمية تونس وصفاقس وسوسة وقابس كمراكز تجارية . وشاركت صقلية حين ذاك فيما يتمتع به شمال أفريقية من ثراء ورخاء . ويذكر (المقدسى) جزيرة صقلية بين أهم مراكز التجارة فى العالم الإسلامى [١] .

بلغ النشاط التجارى بين الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم أوجه إبان القرن العاشر الميلادى ، وغدا مألوفاً ارتياد التجار المسلمين والروم أراضى الدولتين والإقامة فى المدن الهامة بهما . ويدل تنظيم الأسواق فى الدولتين الإسلامية والرومانية ، والإشراف على نشاط التجار بها والقوانين التى وضعت لها ، على ازدهار التبادل التجارى ، ومحاولة كل دولة أن ترعى مصالحها الاقتصادية .

شاركت الإمبراطورية الرومانية العالم الإسلامى فى رخائه فى هذا العصر مشاركة أكبر مما كان لها من قبل . ولا شك أن

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٤٧ .

هذا يرجع إلى توسعها فى الجنوب والشرق على حساب الإسلام . ففى ذلك الحين وقعت جزيرة كريت وقبرص فى قبضة الروم ، وبهذا عاد الروم إلى الموقف الذى يتيح لهم الأخذ بنصيب أوفر من أرباح الطريق الدائرية للتجارة العالمية بين سورية ومصر وبين الغرب ، وهى الطريق التى كانت تمر بهاتين الجزيرتين .

غدت مدينة حلب أحد المنافذ الرئيسية للتجارة الرومانية مع العالم العربى فى الشرق . وبلغ من أهميتها أن استثناها الإمبراطور باسيل الثانى من قرار تحريم الاتجار مع الخلافة الفاطمية فى مصر ، وقت اضطهادات الخليفة الحاكم للمسيحيين عام ١٠١٥ . وأصبحت حلب أهم قواعد التبادل التجارى مع فارس وبلاد الشرق بدلا من طرابيزون .

رجعت الدولة الرومانية أحياناً إلى سلبيتها الواضحة فى مجال التجارة الأجنبية ، فاستمرت فى الإشراف على التجارة الخارجية ، وحاولت منع الاتجار مع الفاطميين . ومع ذلك فلم ينقطع الاتجار مع العالم مدة طويلة ، وبقى بعض التجار البيزنطيين يترددون على موانى سورية ومصر ، ولكن أغلب التبادل التجارى كان يتم على يد التجار المسلمين ، فهم الذين كانوا ينقلون متاجرهم إلى القسطنطينية .

حرصت البندقية على استمرار علاقاتها التجارية مع الدول العربية الإسلامية المطلة على البحر المتوسط . فقد أرسل الدوق بطرس الثانى ، باعث نهضة البندقية أواخر القرن العاشر

مبعوثيه إلى جميع الأمراء العرب فى حوض البحر المتوسط ، وتاجرت البندقية مع مسلمى صقلية وشمال أفريقية ومصر وسورية.

السيادة السياسية الفاطمية فى البحر المتوسط :

قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ، أى فى الركن الجنوبى الغربى للبحر المتوسط ، ثم استطاعت أن تمدّ نفوذها على طول الساحل الأفريقى الشمالى ، وتوجت نصرها بفتح مصر وانتزاعها من الإخشيديين ، ثم بدأت الدولة الفاطمية فى سيطرتها على بلاد الشام لتملك الساحل الشرقى للبحر المتوسط كما ملكت الساحل الجنوبى لهذا البحر . وقاد جوهر الصقلى ، فاتح مصر ، جيشاً كبيراً زحف به إلى دمشق ، ثم قام الخليفة العزيز بحملة كبيرة شاركه فى قيادتها جوهر الصقلى ، ثم بدأ الصراع بين الفاطميين والصليبيين على بلاد الشام .

كانت العلاقات الطيبة التى استمر فترات طويلة من العصر الفاطمى بين الفاطميين والبيزنطيين سبباً فى سماح الأباطرة البيزنطيين بالخطبة للخليفة الفاطمى على منبر مسجد القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وغيره من مساجد الدولة .

وامتد النفوذ الفاطمى السياسى إلى إيطاليا : فكانت مدينة (أمالفى) أول المدن الإيطالية التى حرصت على إنشاء علاقات طيبة مع الفاطميين فى مصر والشام ، وكانت هذه المدينة تستعين بالفنانين والصناع من أهالى الإسكندرية كما

حرصت مدينة (بيزا) على صداقة الدولة الفاطمية ، فأرسلت سنة ١١٥٤ م سفيراً إلى بلاط الخليفة الظافر الفاطمى وامتنعت عن مساعدة الصليبيين فى الشام . ولما تولى طلائع بن رزيك الوزارة أرسلت بيزا وفداً لتهنئته .

نمت علاقات المودة بين الدولة الفاطمية ومدينة (جنوه) فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى ، فعقدت معاهدة تجارية مع الحكومة الفاطمية عام ١٠٦٣ م ، وأعلن الخلفاء الفاطميون حمايتهم لتجار جنوه . وكان هؤلاء التجار يتوافدون على الإسكندرية لاستيراد بعض السلع مثل الشب والنطرون التى احتكرت الدولة الفاطمية بيعه للروم[١] .

اهتمت البندقية بصداقة الدولة الفاطمية ، فكانت فى القرن العاشر تمد الفاطميين بالأخشاب اللازمة لبناء الأسطول الفاطمى ، وشعرت الدولة البيزنطية بخطورة ذلك فضغطت على البندقية لتمتنع عن تصدير الأخشاب للفاطميين . ولكن البندقية رأت ألا تضحى بمصالحها الخاصة فى سبيل إرضاء الأباطرة البيزنطيين ، فأرسلت بعثات إلى مصر حصلت على امتيازات لسفنها ، كما أن تجارها عملوا على تنمية العلاقات التجارية مع المسلمين ، وصارت سفنهم تنقل من موانى مصر منتجات آسيا إلى أسواق أوربا[٢] .

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) جمال سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ١٧٥ .

صلاح الدين الأيوبى بطل البحر المتوسط :

حينما سقطت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ، وقامت الدولة الأيوبية ، اهتم مؤسسها صلاح الدين الأيوبى بالأسطول اهتماماً واضحاً ، ليقاتل به الصليبيين الذين أخذوا يهددون به الشرق العربى ، وخصص للأسطول ديواناً كبيراً عرف باسم (ديوان الأسطول) وأفرد له ميزانية خاصة ، وعهد بهذا الديوان إلى أخيه العادل .

ترتب على اعتداء الصليبيين على العالم الإسلامى ، أن حدث تغيير شامل فى تنظيم البحرية بالبحر المتوسط ، ولاشك أن مصر كانت أكثر البلاد التى تأثرت بذلك . فالمعروف أن مصر والإمبراطورية البيزنطية اشتهرتا قبل الحروب الصليبية بأنهما أقوى دولتين بحريتين فى البحر المتوسط على أن سيطرة الأسطول المصرى على مياه البحر المتوسط تعرضت أثناء الحروب الصليبية لتحدى القوى الصليبية . ومع أن صلاح الدين اشتهر بما أنزله من هزائم ساحقة بالصليبيين براً ، فإن ما قام به من أعمال بحرية جعلت له مكانة بارزة فى التاريخ البحرى فى شرق البحر المتوسط [١] .

أدرك صلاح الدين أهمية الدفاع البحرى، وما تسديه المساعدة

---

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ١٦٦

البحرية من فائدة للأعمال البحرية فى المناطق الساحلية ، وكانت دواعى الحرب ضد الصليبيين تتطلب قوات بحرية فعالة . وأبدى الصليبيون مخاوفهم من الأسطول العربى على لسان (وليم الصورى) الذى قال : إن نور الدين يستطيع أن يوقف نمو مملكتنا بما يرسله من سفن عديدة من مصر ، يضاف إلى ذلك أنه يستطيع بهذه السفن أن يحول دون قدوم الحجاج إلينا .

حاول الصليبيون الاتفاق مع البيزنطيين ضد صلاح الدين ، واتفقوا على القيام بهجوم مشترك على دمياط . وبعث صلاح الدين جانباً من الأسطول ليرتاد المسالك التى يجتازها المهاجمون وتوجهت قوة بحرية بيزنطية من القسطنطينية إلى فلسطين ، والتقت فى أثناء سيرها بأربع سفن من الأسطول المصرى تجاه قبرص ، غير أن السفن المصرية استطاعت أن تفلت من البيزنطيين وتنقل أخبار القوة البحرية إلى مصر ، وبذلك تحققت أول رسالة لأسطول صلاح الدين .

فشلت المفاوضات بين البيزنطيين والصليبيين ، وتأجل رحيل الحملة البرية البحرية لغزو مصر . ولما ظهر الأسطول تجاه دمياط ، اكتشف أن الطريق المؤدى إلى ميناء دمياط ، أغلقته سلسلة ضخمة ، فترتب على ذلك أن أصبح من العسير مهاجمة الميناء من جهة البحر .

حاول النورمان الهجوم على مصر ، مما جعل صلاح الدين

يضاعف اهتمامه بالأسطول ، ففى سنة ١١٧٢ رفع راتب البحارة وبلغت الزيادة نحو ٢٠ ٪ إذ ارتفع من ⅝ دينار إلى ¾ دينار[١]. مما شجع الناس على الخدمة بالأسطول كما جمع صلاح الدين المواد اللازمة لبناء السفن ولهذا الغرض عقد معاهدات تجارية مع الجمهوريات الإيطالية ، حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع .

بعث صلاح الدين حملة اتجهت غربا وفتحت القيروان وكان امتداد نفوذ القوة العربية المصرية على ساحل البحر المتوسط مما أدى إلى اتساع منطقة السلام ، ولم تعد مصر تخشى ما قد يتأتى من خطر مفاجئ من جهة الغرب ، وهيأ لمصر وتجارها سبيلا مباشراً للوصول إلى الغابات التى اشتهر بها شمال أفريقية والحصول على الأخشاب اللازمة للأسطول ، ومد الأسطول بالملاحين المهرة من أهالى شمال أفريقية .

لم تحل سنة ١١٧٩ (٥٧٥ هـ) حتى صارت البحرية المصرية على أتم استعداد للعمل ، فقد تزايد عدد السفن إلى الضعف إذ أصبح ٨٠ سفينة منها ستون شينى أى السفن ذات المائة وأربعين مجدافاً ، وعشرون طرادة . وانقسم الأسطول إلى قسمين ، قسم يتألف من خمسين سفينة تعهدت بحماية السواحل المصرية ، وقسم يتألف من ٣٠ سفينة تقوم بالهجوم على الصليبيين

---

(١) المقريزى : السلوك ج.١ ص ٥٦ ، العرينى ، ص ١٧١ .

وبدأ الأسطول عملياته البحرية فى ربيع سنة ١١٧٩ ، فتوغل المسلمون فى البحر ووصلوا إلى أطراف بيزنطة ، وإلى قبرص وكريت وجنوب آسيا الصغرى ثم عكا ، واستولوا على بعض السفن الصليبية وأسروا كثيراً من الصليبيين ، واستقبل الأهالى الأسطول المصرى استقبالا حافلا . ووصف المؤرخ أبو شامة غزو عكا فقال : « إن ما قام به هذا الأسطول من العمل لم يقم به أسطول إسلامى فى سالف الدهر ، لا فى حالة قوة الإسلام ولا ضعف كفره »[1] .

عقد صلاح الدين هدنة مع ملك بيت المقدس سنة ١١٨٠ وقضى صلاح الدين فترة الهدنة فى تدعيم الأسطول العربى ، فأعاد عمارة القواعد البحرية فى مصر ، وقوّى تحصينات دمياط وبرجيها والسلسلة الممتدة بين البرجين ، وأكمل بناء برج السويس ، وأرسل أسطولا إلى اليمن لتأديب أحد الولاة الثائرين ، وأنشأ ديواناً للأسطول .

نقض الصليبيون الهدنة ، فقرر صلاح الدين أن يقوم الأسطول والجيش معاً بالهجوم على بيروت سنة ١١٨٢ . وكان لفتح بيروت أهمية استراتيجية بحرية ، فأصبح الأسطول العربى قاعدة ضخمة فى شرق البحر المتوسط ، فاتسعت بذلك أعمال السفن المصرية ، التى سوف تعتمد على قاعدة بيروت فيما

---

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ٢ ص ١٣ ، العرينى ص ١٧٣ .

تحصل عليه من مؤن بدلا من أن تعود إلى مصر للتزود بها .

استولى الأسطول الأيوبى سنة ١١٨٣ على عدد كبير من السفن الصليبية منها سفينة نقل كبيرة (بطشة) بها ثلاثمائة وخمسة وسبعون من الفرسان بسلاحهم وتجار ، ومنها سفينة تحمل كميات كبيرة من الأخشاب كان الأسطول المصرى فى حاجة إليها . ساعد الأسطول صلاح الدين فى عملياته الحربية البرية التى انتهت بتدمير الجيوش الصليبية فى موقعة حطين ، ثم ضيق الحصار البرى براً وبحراً على مدينة صور ثم عكا ، وتألف الأسطول المحاصر لعكا من خمسين سفينة بقيادة حسام الدين لؤلؤ سنة ١١٨٩ .

كان السبب فى بقاء الدولة العربية الإسلامية رابضة فى ميدان التجارة العالمية بعد زوال مجد الروم إبان الحروب الصليبية هو سيطرة المسلمين على الطرق التجارية الرئيسية التى تحمل متاجر الشرق الأقصى إلى شواطئ البحر المتوسط الشرقى . فلم تستطع قوى الصليبيين الناشئة منافسة المسلمين فى تلك الطرق . التى جدت فى بلاد معظمها تابعة لدول إسلامية . كما أن الحكام المسلمين حرصوا على تسهيل حركة الانتقال عبرها بتأسيس الفنادق للتجارة وتأمينهم وإكرامهم ، وضمنوا الأسواق التى تنتهى عندها الطرق التجارية . فلم تخرج الشام على الرغم من مجهودات الصليبيين من أيدى المسلمين نهائياً ،

وإنما وقف الصليبيون فى شريط ساحلى ضيق ، أسسوا به ممالك لهم لا مقومات اقتصادية لها ، على حين تقف خلفها امتداد شاسع من أراضى عربية إسلامية بمتاجرها وقوتها ، إذ كانت شرايين الطرق التجارية تصب فى بلاد عربية إسلامية تجعلها المسيطر الوحيد على متاجر الشرق[1] .

الأسطول المملوكى فى البحر المتوسط :

نجح الأيوبيون فى صد الهجوم الصليبى ، ولكن المماليك وجهوا الضربات القاضية إلى الصليبيين ، وكان الأسطول عمادهم فى هذا النجاح الحربى . وبدأت أمجاد المماليك البحرية منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٩ م) الذى أعد قوة بحرية يستعين بها فى صد أعدائه الذين كانوا يغيرون على بلاده من جهة البحر ، فاهتم بأمر الأسطول ومنع الناس من أن يتصرفوا فى أخشاب السفن ، كما أمر بإنشاء السفن الحربية المعروفة بالشوانى فى ثغرى الإسكندرية ودمياط ، وكان يذهب بنفسه إلى دار الصناعة بالجزيرة ، ويشرف على تجهيز هذه الشوانى ، واستطاع بذلك أن يعد أسطولا مكوناً من أربعين قطعة بحرية ، سيرها إلى جزيرة قبرص عام ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) ولكن هذا الأسطول تحطم قرب هذه الجزيرة ، فشرع بيبرس

---

(١) العدوى ص ١٥٩ .

فى إنشاء أسطول آخر ، وظل يتردد على دار الصناعة بمصر حتى تم إعداده .

ومن السلاطين المماليك الذين اهتموا بالأسطول ، السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، الذى أنشأ أسطولا مكوناً من ستين مركباً جهزها بالآلات الحربية والرجال ، وقام باستعراض الأسطول فى دار الصناعة بجزيرة الروضة فى احتفال رائع استمر ثلاثة أيام ، وخرج الجميع لحضوره ، وازدحمت الطرق والميادين وأقام الأهالى الزينات . ومن السلاطين المماليك المهتمين بالبحرية أيضاً السلطان الناصر محمد الذى أصبح لمصر فى عهده أسطول كبير[1] .

كان الأسطول المصرى فى العصر المملوكى يتكون من أنواع مختلفة من السفن منها الشوانى ، وهى سفن حربية ذات أبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، ومنها الحراريق أو الحراقات وهى سفن حربية كبيرة تقل فى الحجم عن الشوانى ، وتستخدم فى حمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية وبها مواضع خاصة تلقى منها النيران . ومن قطع الأسطول الهامة ، الطرادات أو الطرائد وهى سفن حربية صغيرة الحجم ، سريعة الحركة ، تستخدم فى حمل الخيول ، وتسع عدداً يتراوح بين أربعين وثمانين فرساً ومنها أيضاً الأغربة وهى من السفن الحربية القديمة

---

(١) على إبراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٤١٦ .

التى أخذها المماليك عن القرطاجنيين والرومان ، وقد سميت بهذا الاسم لأن رأسها يشبه رأس الغراب أو الطائر ، وتمثل فى الماء الطير فى الهواء . ومن السفن نوع يسمى البطس وهى التى أخذها المماليك من الصليبيين تستعمل لحمل المجانيق . ومنها أيضاً القراقر وتستعمل فى تموين الأسطول بالزاد والمتاع وأنواع السلاح وكان يطلق على رجال الأسطول (المجاهدين فى سبيل الله) و (الغزاة فى أعداء الله) وكان الجند البحريون موضع تبجيل واحترام سائر الناس ، حتى إنهم كانوا يتبركون بدعائهم .

استعملت هذه السفن فى أوائل عهد السلطان الناصر محمد فى غزو جزيرة رودس ، ففى سنة ٧٠٢ هـ جهزت الشوانى بالسلاح والنفط وعين عليها أمير الأسطول سيف الدين كهرداش الرازق المنصورى . وقد سار ذلك الأسطول إلى ميناء طرابلس ، حيث انضمت إليه السفن الحربية الراسية فيه وهاجم الأسطول المصرى جزيرة رودس واستولى عليها وهدم أسوارها .

وفى عام ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) تولى عرش مصر السلطان برسباى وفى عهده ساءت العلاقات بين المماليك وقبرص بسبب هجوم القراصنة القبارصة على الشواطئ المصرية والسورية فأمر السلطان برسباى ببناء السفن فى دار صناعة بولاق وعين أميراً على الجنود أمير البحر (جرباش القريمى) فى أبريل ١٤٢٥ م ، وسافرت الحملة فى يونية ، وقد انضم إليها بعض السفن من بيروت وطرابلس الشام ، وانتصر على الأسطول

القبرصى فى موقعة بيلا Pyla واستولى المصريون على (ليماسول) وتدخلت الدول الأوربية لعقد الصلح ، فعادت القوات المصرية بسفنها وغنائمها.

ولكن برسباي كان يرى إخضاع جزيرة قبرص للنفوذ المصرى . فجهز حملة عربية أخرى وقلد إمارة الأسطول للأمير (إينال الجمق) . وفى أول يونيو أقلعت سفن الأسطول من الإسكندرية إلى قبرص مباشرة وقامت خطة مشتركة بين رجال الجيش والأسطول ، وانتصرت القوات المصريه فى موقعه (شيروكيتا) وأسر ملك قبرص وتسلمه قائد الأسطول والتحم الأسطول المصرى بالأسطول القبرصى تجاه (لارناكا) انتهت المعركة بانتصار المصريين وخسارة الأسطول القبرصى معظم قطعه وأصبحت قبرص جزيرة عربية مصرية تدفع الجزية لمصر إلى نهاية حكم المماليك ١٥١٧ م .

حاول سلاطين المماليك الاستيلاء على جزيرة رودس أثناء القرن الخامس عشر ، فقد كانت تعاون زميلتها قبرص فى أعمال القرصنة ، كما كانت الجزيرتان آخر معقل للصليبيين ولذا رأى السلطان جقمق فتح رودس ، وبعث الحملة البحرية الأولى التى أبحرت من بولاق فى أغسطس ١٤٤٠ م بقيادة الأميرين (تغرى برمش) السلاح دار ، ويونس المحمودى أمير خور ونجح المصريون فى القضاء على القراصنة ، فلم يعودوا بعد ذلك للهجوم على السواحل المصرية ، ثم عقدت معاهدة بين الطرفين ، واستمرت العلاقات ودية إلى الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ م .

٥ـ سيطرة عرب الأندلس على غربى البحر المتوسط

دولة بحرية فى الأندلس :

بعد سقوط الدولة الأموية بالشام ، وقيام الدولة العباسية فى العراق ، بدأ سلطان العباسيين يتقلص عن بلاد الأندلس . ونجح بعض أفراد البيت الأموى أن ينجوا من قبضة العباسيين ويقيموا دولة أموية فى بلاد الأندلس ، التى قام بإنشائها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك وحاول العباسيون بكل وسيلة القضاء على هذه الدولة الأموية دون جدوى .

كانت طبيعة بلاد الأندلس تحتم أن تصبح الدولة الأموية دولة بحرية من الطراز الأول ، فهى تطل على البحر المتوسط من الشرق والجنوب ، كما تطل على المحيط الأطلسى من الغرب والجنوب أيضاً ، وتسيطر على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، كما أنها هي همزة الوصل بين قارتى أوربا وأفريقية.

السيادة الحربية الأندلسية فى البحر المتوسط :

قام الأمويون فى الأندلس بإنشاء أسطول قوى فى مطلع القرن التاسع الميلادى لصد غارات أهل الشمال Norse والفيكنج Viking . وقام الأسطول الأندلسى سنة ٨٧٩ م بغزو بحرى كبير

فقد هاجم (جليقية) المسيحية ، وأصبح الأسطول الأندلسى فى أوجه فى عصر عبد الرحمن الثالث فى القرن العاشر الميلادى

فى القرن العاشر الميلادى ، بدأ البيزنطيون فى الشرق ، والأمويون فى الغرب يوسعون سلطانهم البحرى ويخلون بميزان القوى البحرية فى البحر المتوسط . فقد اهتم كل من (رومانوس ليكابينوس) فى القسطنطينية وعبد الرحمن الأموى فى الأندلس بنواحى النشاط البحرى ووصلوا إلى نتائج هامة . وكان نشاط الأسطول الفاطمى سبباً لنشاط القوى البحرية البيزنطية فى غرب البحر المتوسط فقد أغار الأسطول الفاطمى على سردينية وكورسيكا وجنوه وأحرق كثيراً من السفن ، وعجز البيزنطيون عن مقاومتهم .

كان تقدم الأندلس البحرى راجعاً إلى عدم اطمئنان عبد الرحمن الثالث إلى نوايا جيرانه الفاطميين فى شمال أفريقية فعقائدهم الشيعية وطموحهم إلى الاستيلاء على أملاك الأدارسة والرستميين فى الجزائر والمغرب الأقصى — وهى الجهات التى كانت تخضع للنفوذ الأموى عادة — كل ذلك كان تهديداً لأمن الأسرة الأموية فى الأندلس . ولذا شيد عبد الرحمن الثالث أسطولا كامل الإعداد والتنسيق ، اتخذ مراكزه على طول سواحل إسبانيا ، واستولى عام ٩٣١ م على سبته الواقعة على الشاطئ الأفريقى قبالة جبل طارق وفى عام ٩٤٤ م أثبت هذا الأسطول قوته عندما التقى بأسطول الفيكنج قرب الأندلس

فقضى الأندلسيون تماماً على أسطول أعدائهم .

استقرت أقدام العرب فى إسبانيا وفى صقلية وغيرها من جزائر البحر المتوسط ، وحاولوا الاستقرار على سواحل البحر المتوسط فى إيطاليا وفرنسا ، واستطاعوا أن يؤسسوا إمارة مستقلة على سواحل إقليم بروفانس الأسفل ، وازدادت قوتهم بما كانت تصل إليهم من الإمدادات من بلاد الأندلس وأفريقية وجزيرة صقلية . وتمكنوا بذلك من إقامة المعاقل والحصون فوق المرتفعات المشرفة على خليج غريمو جنوبى إقليم بروفانس وفى غابة (فراكسينت) ومن ثم أطلق على الدولة العربية الفراكسينية . ولم يلبث هؤلاء العرب الذين ألفوا سكنى الجبال والغابات والسير ، فى الأدغال والأحراش . ومما ساعد على ازدياد قوتهم قيام النزاع بين أمراء الإقطاع المجاورين الذين كانوا يطلبون منهم مساعدة بعضهم على بعض .

ولم يكتف هؤلاء العرب بما بلغوه من قوة وما حازوه من ثروة ، بل اعتبروا أنفسهم سادة هذه البلاد وأصحاب النفوذ المطلق فيها ، واستطاعوا فى خلال القرن العاشر الميلادى أن يهددوا تورينو ويخربوا بعض الأديرة وينتشروا فى نواحى مونت فرانت وبيدمنت ويستقروا فى سهول نهر البو وتقدموا فى سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٥ م) إلى حدود ليجوريا ، ودخلوا مدينة جنوة ، ووقعت فى أيديهم ممار جبال الألب الشاهقة ، وخاصة ممر سان برنار ، وفرضوا الضرائب على المسافرين .

لم يقف نشاط العرب عند هذا الحد ، بل اجتازوا جبال الألب الشمالية ودخلوا سويسرا ، وامتد نفوذهم من شواطئ بحيرة كنستانس شمالا إلى جنوه ومرسيليا ونيس جنوباً ، وعملوا على نشر الإسلام فى هذه الجهات ، حتى إننا لا نزال نرى اسم الحى العربى Caton de Sarazins فى أحد أحياء مدينة نيس.

وعلى الرغم من ضعف الدولة الأموية فى الأندلس فى عهد الحكم الثانى والمنصور بن أبى عامر ، فقد احتفظ الأسطول الأندلسى بقوته . وعندما اختبر قراصنة الفيكنج الشماليون قوة دفاع البحرية الأموية عامى ٩٦٦ و ٩٧١ وجدوا أنها لا تزال ذات بأس شديد . ولما أغار الفيكنج لأول مرة على مدينة (شلب) استطاع الأمويون تبديد شملهم دون عناء كبير . بل هاجم الأسطول الأندلسى شواطئ بحر إيجة سنة ٩٧٢ ، كما فعل الأسطول فى عهد المنصور بن أبى عامر نشاطه إلى المحيط الأطلسى .

كما إهتم الأمير مجاهد بن يوسف بالأسطول ، ونجح فى ضم جزر البليار إلى أملاكه عام ١٠١٤ م[١] . ومن هذه الإمارة أطلق مجاهداً أسطوله للغزو فى غرب البحر المتوسط ففى عام ١٠١٥ سار على رأس ١٢٠ سفينة لمهاجمة جزيرة سردينية ومحاولة احتلالها ، ثم عاد الأسطول بعد أن استولى

---

(١) النويرى جـ ١ ص ١١٠

على غنائم عظيمة . وسار أيضاً إلى سواحل إيطاليا حيث أغار على مدينة لونى وما حولها من المناطق الساحلية . وتعاون أهل جنوه وأهل بيزا ضده وانتصروا عليه قرب سردينية . وفى العام الثانى أخذوا يعملون على إجلائه عن الجزيرة . على أن أسطول الأمير مجاهد ظل يهدد شواطىء المسيحيين ، فقد أغار عام ١٠١٨ على إقليم برشلونة ، وبقى الأمير مجاهد قويًّا مرهوب الجانب إلى أن مات عام ١٠٤٤ .

سيادة الأندلس التجارية فى البحر المتوسط :

حدثتنا المصادر التاريخية عن أساطيل الأندلس ، وتنظيماتها البحرية وخاصة فى القرن العاشر الميلادى . كان أمير البحر فى الدولة الأموية بالأندلس أحد الأربعة الكبار الذين تعتمد عليهم الخلافة . وكان يقال عنه أنه كان قسيم الخليفة الأندلسى فى السلطان ، فهذا يحكم البرّ وذاك البحر . وكانت (المرية) القاعدة البحرية الرئيسية وفيها تجمعت معظم دور الصناعة الهامة . وفى هذه المدينة كانت تجهز السفن التى كونت البحرية النظامية وعددها مائتا سفينة . وكانت هناك قواعد أخرى فى سلبيس والجزيرة وبجاية وطرطوشة ويابسة ، واليقنت . ومن الطبيعى أن عدداً من السفن كان يرابط فى كل من هذه القواعد أيام السلم ، ولكن فى وقت الحرب كانت كلها تتجمع فى مكان واحد ، إلا أن أغلب السفن كان

فى المرية وبجاية ، ولكل سفينة من تلك السفن قبطان أو قائد مسئول عن الأسلحة وعن المحاربين وكبير للبحارة أورئيس يتولى إدارة الشرع والمجاديف . وللحملة البحرية قائد من الأمراء أو من أصحاب المناصب العليا ، ما لم يتولى القيادة كبير أمراء البحر بنفسه .

كانت الدولة البيزنطية تحاول دائماً — كما رأينا — أن تفرض رقابتها التجارية فى البحر المتوسط . ولكن بلاد الأندلس العربية كانت بعيدة عن الخضوع للإشراف التجارى لبيزنطة ، بل كانت الدولة البيزنطية تنشد صداقة الأندلس ، ولذا سمح البيزنطيون للأندلس بالاتجار مباشرة مع الشرق دون أى تدخل بيزنطى وثمت حقيقتان تؤيدان هذا الرأى : أولاهما ما جاء من أن اليهود قاموا من مدينة مرسيليا وعن طريق الأندلس بالتجارة مباشرة مع مصر والشرق أوائل القرن التاسع . والحقيقة الثانية أن إبحار المنفيين المسلمين من ثوار قرطبة إلى الإسكندرية رأساً دون معارضة بيزنطة ، يدل على وجود صلات تجارية دقيقة بين هاتين الجهتين . ويبدو من هذا كله أن الأندلس كانت الدولة الوحيدة فى غرب البحر المتوسط ، التى لم تخضع لمراقبة القسطنطينية التجارية فى ذلك البحر .

تمتعت بلاد الأندلس أواخر القرن التاسع الميلادى وطوال القرن العاشر بازدهار زراعى وتجارى وصناعى كبير وهذه حال تختلف اختلافاً كبيراً بالنسبة لما كانت عليه البلاد من

كساد أواخر عهد القوط الغربيين . وأصبحت قرطبة زمن عبد الرحمن الثالث من أكبر مدن العالم العربى الإسلامى واشتهرت بالثقافة والعلم والثروة . وكانت الجهات الأكثر أهمية والأكثر تقدماً من بلاد الأندلس هى الركن الجنوبى الشرقى ، أى الجزء المواجه للبحر المتوسط ، وهذا يبين أهمية تجارة البحر بالنسبة للأندلس .

كان لسيادة الأساطيل العربية على البحر المتوسط فى القرن العاشر الميلادى أثر كبير على إنعاش التجارة الدولية على طول طرق التجارة الدولية القديمة بين شرق البحر المتوسط وغربه ، بل جددت حيوية كل من سورية ومصر ، وجلبت الرخاء للأندلس وصقلية وشمال أفريقية ، وأفاضت خيراً كثيراً على تلك البلاد من تجارة البحر .

ظلت بلاد الأندلس تتمتع بالرخاء بعد وفاة عبد الرحمن الثالث ، حتى لقد بلغ دخل الحكم الثانى ضعف دخل أبيه[1]. وغدت تجارة الأندلس مع شواطىء أفريقية وشرق البحر المتوسط على جانب كبير من الأهمية . ومن الناحية الاقتصادية لم يتأثر الأندلس كثيراً بسبب الاضطرابات السياسية التى صاحبت سقوط خلافة قرطبة أوائل القرن الحادى عشر الميلادى إذ ظل ملوك الطوائف على جانب كبير من الثراء والحضارة ،

---

(١) ليفى بروفنسال : أسبانيا المسلمة فى القرن العاشر ص ٧٢ .

وتأثر المغرب الأقصى بحضارة الأندلس إلى حد كبير وأصبحت بلاد الأندلس مثلا يحتذى فى شمال أفريقية ، ويشهد بذلك ما كان بقرطبة من خزائن الكتب ، ونشاط الحركة العقلية على يد العلماء الأندلسيين .

وعلى الرغم من الضعف السياسى الذى لحق ببعض الدول العربية الإسلامية ، ورغم انتعاش الأساطيل الرومانية البيزنطية وبعض مدن غرب أوربا ، فإن الجزء الغربى من البحر المتوسط شهد رخاء لم يعهده حتى فى العهد الرومانى . وبصرف النظر عن الغيوم الكثيفة التى تجمعت فى أفق العالم الإسلامى وقتذاك فإن حركة التصنيع المتزايدة فى شمال أفريقية وصقلية والأندلس وقتذاك ، والتوسع فى زراعة الحاصلات الشرقية ، وازدياد حركة التجارة ، وانتشار استخدام الدينار الذهبى ، كل ذلك جعل تلك المرحلة عصراً ذهبياً للإسلام والعروبة هناك ، الأمر الذى جعل نفس ابن خلدون تهفو إليه عند أفول القرن الرابع عشر[1].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ح ٣ ، اويس : القوى البحرية والتجارية .

٦ ـ الصراع بين العرب وأوربا
حول السيادة فى البحر المتوسط

فى القرن الحادى عشر الميلادى :

شهد البحر المتوسط فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى صراعاً عنيفاً بين ثلاث أساطيل ، الأسطول العربى ، وأسطول غرب أوربا الإيطالى ، والأسطول البيزنطى ، وحاول الأوربيون الغربيون السيطرة على جزر كوريسكا وسردينية وصقلية وجنوب إيطاليا والأقاليم الساحلية فى الشام وفلسطين ، منتهزين فرصة المشاكل الداخلية التى سادت الدول العربية والدولة البيزنطية . فقد كان البيزنطيون يعانون من هجوم السلاجقة ابتداء من عام ١٠٧١ م . كما كانت مصر تعانى طوال عشرين عاماً ثورات الجند المرتزقة السودانيين والأتراك والبربر . كما انشقت دولة الزيريين فى شمال أفريقية على الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، كما تعرضت الدولة الفاطمية أيضاً لإغارات قبائل بنى هلال البدوية كما تعرضت دولة الأندلس للضغط المسيحى من الشمال . وحاول غرب أوربا انتزاع السيادة من العرب والبيزنطيين فى البحر المتوسط .

فى عام ١٠٨٧ عظمت قوة بيزا وجنوه البحرية حتى إنهما

قامتا وقتها بأكبر هجوم بحرى لهما ، فخرج أسطول يتألف من ٤٠٠ سفينة هاجم المهدية معقل الزبيريين على ساحل تونس واستولوا عليها ، واضطر الأمير تميم بن باديس أن يدفع مبلغاً كبيراً ثمناً لانسحاب هذه القوات من بلاده ووعد بعدم التعرض لسفن المدن الإيطالية فى المياه الأفريقية .

أخذت جزيرة صقلية تفقد بعض أهميتها باعتبارها حصن عربى فى البحر المتوسط بسبب الخلافات الداخلية بين السكان العرب والمسلمين البربر ، ولكن عرب صقلية ، رغم ذلك ، استطاعوا أن يصدوا غارات بيزنطية ، وأن يحدوا من خطورة النورمان فى جنوب إيطاليا .

نجح (روجر) فى إقامة دولة نورماندية فى جنوب إيطاليا واعترف البابا بها ، وبدأ ينتزع جزيرة صقلية من العرب المسلمين ، وهاجم بست وخمسين سفينة مدينة بالرمو براً وبحراً واستولى عليها . ثم بدأ النورمنديون هجومهم على جزيرة مالطة وفتحوها . وبسقوط مالطة كسب غرب أوربا السيطرة على المضايق الحيوية بين أفريقية وبين صقلية .

إن اعتداءات النورمان على إيطاليا وصقلية وشواطئ الأدرياتى وهجمات جنوه وبيزا فى المياه الغربية للبحر المتوسط وتحرشات المغامرين الإقطاعيين الفرنسيين فى الأندلس ، وحركات البنادقة فى المياه البيزنطية ، بالإضافة إلى التشجيع القوى الذى بذلته البابوية للقيام بهجوم عام على العرب المسلمين من أجل

دوافع دينية ، أدت هذه العوامل كلها إلى نتيجة واحده هي ما نسميه الحرب الصليبية الأولى. ويمكن القول بعبارة أخرى ، أن الحرب الصليبية الأولى تمثل خليطاً مركباً من عدة عناصر تعمل منذ أمد بعيد فى أحداث غرب البحر المتوسط ، تتلخص فى العاطفة الدينية ، وجشع البحارة الإيطاليين والمغامرين الإقطاعيين للحصول على السلب والنهب ، والرغبة فى كسب الامتيازات فى ميدانى النقل والتجارة فى البحر المتوسط[١] .

يرى المؤرخ (أرشيبالدر لويس) أن نجاح الصليبيين لم يكن راجعاً إلى كفاية قوادهم وبسالة جنودهم بقدر رجوعه إلى عاملين آخرين هامين هما أولا قدوم حملة بحرية إيطالية إلى شواطئ سورية حاملة معها العون والمساعدات البحرية اللازمة لإخضاع المدن العربية الساحلية . والثانى ، هو فشل أسطول الفاطميين فى الوصول إلى المياه السورية للعمل ضد الصليبيين . ويعتبر ظهور الأساطيل الإيطالية أمام شواطىء سورية وفلسطين العامل الأكبر أهمية . وكان ظهور الأسطول الجنوي أمام أنطاكية هو الذى حقق للصليبيين هناك ما أحرزوه من نجاح .

ولكن برغم ذلك ، كان الأسطول الفاطمى له شأنه وقتئذ فقد كان فى أواخر القرن الحادي عشر يشتمل على عدد كبير

---

(١) Munro: The Kingdom of the Crusades. p. 30-36

من السفن الحربية ، وكان للأسطول قواعد حصينة فى الإسكندرية ودمياط وعسقلان وثغور أخرى فى الشام . ولكن يبدو أن ضعف الخلفاء الأواخر الفاطميين انعكس على الأسطول مما جعل الفاطميون لا يستخدمون أسطولهم فى صد الصليبيين عن سواحل الشام .

ولكن انتصار غرب أوربا عام ١١٠٠ لم يكن كاملا ونهائياً ، فقد شاهد القرن التالى ثلاث صحوات أو ثلاث انتفاضات أكيدة ، فى ثلاثة من مراكز القوى البحرية والاقتصادية السابقة فى عالم البحر المتوسط فقد استجمع العرب المسلمون فى الغرب قواهم من جديد وأنشأوا دولة أفريقية أندلسية عربية إسلامية ، هى دولة المرابطين ، ثم دولة الموحدين . وفى عهد هاتين الدولتين أعاد الأندلس والمغرب والجزائر بناء الأساطيل ، وتخلص شمال أفريقية وجزر البليار من النفوذ الأوربى ، وحصلت هذه الأقطار جميعاً من جديد على قدر كبير من الرخاء الاقتصادى . وبلغت الحضارة فى هذا الوقت بالذات أرفع مستوياتها فى الأندلس . وشبيه بهذا ما حدث فى مصر وسورية اللتين اتحدتا تحت زعامة صلاح الدين وأصبحتا دولة عظيمة الرخاء قوية السلطان ، وأصبح جيشها قادراً على طرد الصليبيين من الداخل وحصرهم فى سواحل فلسطين وسورية .

الصراع بين الصليبيين والمماليك حول قبرص ورودس :

استولى رتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا على جزيرة قبرص سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) وهو فى طريقه إلى الشام لتصبح قاعدة لمد الصليبيين فى الشام بالمساعدات الحربية . وبعد إجلاء الصليبيين من الشام سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) تجمعت كافة القوى الصليبية الباقية فى الشرق فى جزيرة قبرص واتخذتها مقراً لها ، كما أصبحت شواطئ قبرص ملجأ للقراصنة ، مما سبب المتاعب لدولة المماليك فى مصر والشام ، فقد تعرضت السفن القبرصية لتجارة المماليك فى البحر المتوسط وهاجمت سواحل مصر والشام[١] . فقد وصلت حملة إلى الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) بقيادة بطرس الأول ملك قبرص واستولت عليها ، ولكن المماليك أجلوا القبرصيين بعد ثلاثة أيام . ووصف المؤرخ النويرى ما فعله الملك بطرس فى الإسكندرية فقال عنه إنه « دخلها لصاً وخرج منها لصاً »[٢] .

استمرت العلاقات العدائية بين دولة المماليك والغرب المسيحى بعد هذه المحاولة الفاشلة لغزو الإسكندرية ، حتى عقد الصلح بين القيارصة والمماليك (ديسمبر ١٣٧٠ م) وعندئذ أخذت التجارة تعود إلى ما كانت عليه بين قبرص وجمهوريتى

---

(١) على إبراهيم ص ٣٣٩ . (٢) النويرى جـ ١ ص ٣٦٦ .

البندقية وجنوه من ناحية ، ومصر والشام من ناحية أخرى ، فعادت سفن الفرنجة تفد إلى الإسكندرية بكثرة . . .

وفى عصر السلطان المملوكى برسباى بدأ المصريون حملاتهم لفتح قبرص . فكانت الحملة الأولى سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م) من خمس سفن لاختبار قوة الجزيرة ، فأحرق ميناء ليماسول ومابه من سفن وعادت الحملة إلى مصر محملة بالأقمشة والأثاث والمواد الغذائية والأسرى . وكانت الحملة الثانية سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٥م) من أربعين سفينة عادت ومعها ألف أسير . وكانت الحملة الثالثة سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٦ م) وهدفها فتح الجزيرة ، وانتهى القتال بأسر جيمس لوزينيان ملك قبرص وحمله إلى القاهرة مع كثير من الأسرى ، وأحضر الملك لمقابلة السلطان برسباى فلما وصل إلى القلعة كان بلاط السلطان حافلا بممثلى الدولة العثمانية وأمراء التركمان بآسيا الصغرى ، وممثلى القبائل العربية وشريف مكة وملك تونس ، ودخل ملك قبرص وسط هذا الجمع مكبلا بالأغلال وأجبر على تقبيل الأرض فأغمى عليه . وأقيمت فى القاهرة احتفالات رائعة [١].

كذلك أراد المماليك فتح جزيرة رودس ، فقد أرسل السلطان المملوكى جقمق ثلاث حملات لغزوها : الأولى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) وكانت مكونة من خمس عشرة

---

(١) Lane-Poole: Egypt p. 337 ، على إبراهيم ص ٣٤٠ .

سفينة ، إلا أن الصليبيين تمكنوا من صدها لأنهم علموا بقيامها بواسطة جواسيسهم فى مصر فاستعدوا لقتالها وانسحب المماليك واستعد جقمق للحملة الثانية فجمع المعدات الحربية وبنى السفن ، وسارت تلك الحملة إلى رودس سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣) إلا أن اشتداد الزوابع والأعاصير فى الشتاء اضطر الحملة إلى العودة إلى مصر . وكانت حملة جقمق الثالثة سنة ٨٤٨ هـ ، ونجحت فى تخريب الجزيرة ، ولكن كلا من المماليك وفرسان الصليبيين كانوا قد ملوا القتال فعقدوا الصلح ، وظل الفرسان مسيطرين على رودس حتى سنة ٩٢٩ هـ (١٥٢٢) حين استولى عليها الأتراك العثمانيون ، فرحل الفرسان من رودس إلى مالطة فأقاموا بها حتى استولى نابليون عليها فى طريقه إلى مصر

الصراع بين البرتغال ودولة المماليك :

فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ، وما كادت الحروب الصليبية الغربية تضع أوزارها فى الأندلس بانكماش الإسلام والعروبة فى ذلك الجزء من أوربا ، حتى عزم البرتغاليون على القيام بحرب أخرى فى الشرق ، وستتخذ هذه المرة صبغة اقتصادية ، يحرمون بها العرب والمسلمين من مصدر أساسى من مصادر ثروتهم ، وهو النصيب الكبير الذى كانوا يقومون به فى تجارة الشرق ونقلها ، وذلك بأن يصلوا عن طريق بحرى مباشر إلى الهند والشرق الأقصى ، فيتنكبوا طرق التجارة البرية

البحرية التى تجتاز البلاد العربية ، ويضربوا حصاراً عنيفاً على البحار العربية الداخلية حتى لو اقتضاهم الأمر أن ينزلوا بأطراف البلاد العربية ، على البحر الأحمر والبحر العربى والخليج الفارسى ليملكوا قواعد حصينة لتنفيذ سياسة الحصار .

وتحققت محاولة البرتغاليين ، فتحولت أكثر التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وقاسى العرب من الحصار العسكرى والاقتصادى الذى فرضه البرتغاليون .

أدى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أواخر القرن ١٥ م إلى نضوب موارد الدولة المملوكية فى مصر ، فقد بدأ البرتغاليون يحتكرون تجارة الشرق ، وينتزعونها من أيدى العرب ويحطمون قوة العرب وتجارتهم فى البحار الشرقية ويحصرونهم فى البحار الداخلية ، فاستولوا على قواعد حصينة عند مداخل هذه البحار ليشرفوا منها على حصر العرب وإبعادهم عن ميدان التجارة الشرقية ، كجزيرة سقطرة قرب مدخل البحر الأحمر وجزيرة هرمز ومسقط عند مدخل الخليج الفارسى .

ولما كانت مصر من أكثر الدول إفادة من طرق التجارة القديمة ، فقد كانت أشدها تأثراً بالتحول التجارى الجديد ، الذى قضى على السيادة العربية فى البحر المتوسط ، وقضى على الدول التجارية فى حوض هذا البحر مثل مصر والبندقية وجنوه ، وعمل البرتغاليون على تحطيم القوى الإسلامية فى الهند ، وسعوا إلى النفوذ إلى البحر الأحمر للنزول فى الحجاز وانتهاك

حرماته ، بالتحالف مع الحبشة ونهضت مصر المملوكية للعمل ضد البرتغاليين فى البحار الشرقية ، فأنفذوا الأساطيل إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبعثوا بالجيوش لفتح اليمن تأميناً لها من الضغط البرتغالى .

فشلت المساعى الودية التى بذلت لجمع السلطان قنصوة الغورى المملوكى والسلطان سليم العثمانى لمواجهة الخطر البرتغالى ، واشتعلت الحرب بين الدولتين ، فكانت موقعة (مرج دابق) شمالى حلب سنة ١٥١٦ م وهزيمة القوات المملوكية ، وفتح العثمانيين للشام ومصر . ونهض العثمانيون لمدافعة البرتغاليين عن البحار الشرقية ، واقتضى هذا أن يبسط العثمانيون سلطانهم فى البحر الأحمر بجانبه الأسيوى بضم الحجاز واليمن ، وبجانبه الأفريقى بضم الإمارات العربية ،فى سواكن ومصوع وهزر تحت سلطانها ومحاولة إخضاع الحبشة ومن البحر الأحمر بدأت الأساطيل العثمانية تخرج لمقاتلة البرتغاليين فى المحيط الهندى والخليج الفارسى لفك الحصار الذى ضربه البرتغاليون على التجار العرب والمسلمين فى تلك الأصقاع [١] .

الصراع بين إسبانيا والمغرب العربى :

وإذا كان التوسع العثمانى فى الشرق العربى قد ارتبط — إلى حد كبير — بالحرب الدينية الاقتصادية التى شنها البرتغاليون

---

(١) العالم العربى فى العصر الحديث ص ١٧ .

على العرب والمسلمين فى البحار الشرقية وأطراف الجزيرة العربية ، فقد ارتبط التوسع العثمانى فى الجناح الغربى من العالم العربى — وهو المغرب العربى — بالحروب التى شنها الإسبانيون على العرب والمسلمين فى شمال أفريقية .

وقد عاصرت المحنة الكبرى التى أصابت العرب فى المشرق فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى بسقوط الخلافة العباسية على أيدى المغول (١٢٥٨) محنة أخرى أصابت العرب فى المغرب بسقوط دولة الموحدين (١٢٦١) التى كانت تنتظم بلاد المغرب كلها من حدود برقة إلى المحيط الأطلسى ، وكانت تجمع عرب المغرب جميعاً فى وحدة سياسية واقتصادية واحدة .

وعلى أنقاض الموحدين قامت دول صغيرة تقاسمت فيما بينها ملك المغرب فى تونس والجزائر ومراكش ، وبدأ ذلك الانقسام والتنازع الذى طال بينها حتى أودى بها جميعاً ، فقد طمعت فيها الدول المسيحية المواجهة لهم على الجانب الآخر من البحر المتوسط كجنوه والبندقية ومالطة والإمارات المسيحية فى الأندلس التى كانت تزحف على ما بقى من المسلمين من ملك فى شبه الجزيرة . وبسقوط غرناطة انتهى ملك العرب والمسلمين فى الأندلس وبدأ الإسبان يوجهون حربهم نحو شمال أفريقية . وعجزت الإمارات العربية المغربية عن الصمود للإسبان ، فلجأوا إلى أكبر قوة إسلامية ، وهى قوة السلاطين العثمانيين وكانوا قد فتحوا أكثر بلاد الشرق العربى وبسطوا

سلطانهم فى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط وكانت لهم قوة بحرية قوية ، فتطلعوا إلى ضم الجزء الغربى من ذلك الحوض ، وباسم الإسلام ونصرة الإسلام تقدموا لمساعدة العرب فى شمال أفريقية فى كفاحهم ضد الإسبان ، وتقاضوا ثمن المساعدة ، وكان دخول بلاد المغرب العربى فى حوزة السلطنة العثمانية .

والحق أن اتجاه الإسبانيين إلى الاستيلاء على ثغور الساحل الأفريقى يرجع إلى القرن الثالث عشر ، ثم اشتدت أطماعهم فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر حين تم لهم استئصال الإمارات الإسلامية بالأندلس وأصبحت لهم دولة واحدة كانت إذ ذاك تعد أقوى دول أوربا وأوسعها أملاكاً فى أوربا وفيما وراء البحار . واستولى الإسبانيون على أكثر ثغور طرابلس وتونس والجزائر ، بينما استولى البرتغاليون على موانى كثيرة من المغرب الأقصى (مراكش) .

أصبحت القرصنة فى البحر المتوسط مهنة يفخر بها المغاربة لأنها وسيلة للانتقام من أعدائهم الأوربيين . وظهر من بين القراصنة أخوان شقيقان هما (عروج) وأخوه (خير الدين) المعروف باسم (باربروس) أى ذو اللحية الحمراء ، وذاع صيتهما فى البحر المتوسط ، وكان اسماهما يرعب أهل الملاحة الأوربية من مضيق جبل طارق إلى بوغاز الدردنيل . ولما ضاق أهل الجزائر بضغط الإسبان ، دعوا (عروج) وأخاه (خير الدين)

إلى إنقاذهم وتحرير بلادهم . وكان الأخوان معروفين لأهل المغرب العربى ، فقد كانا يذهبان بما يستوليان عليه أثناء عمليات القرصنة على سواحل إيطاليا وإسبانيا إلى موانى شمال أفريقية .

ولبى الأخوان نداء أهل الجزائر . وبعد موت عروج انفرد خير الدين بالبطولة فقام بمهاجمة فلول الإسبان التى تحصنت ببعض القلاع فى الجزائر فاستولى عليه ثم أخذ يمد ملكه شرقاً وغرباً فى شمالى أفريقية[(١)]

العرب يدافعون عن السيادة البحرية فى العصر العثمانى :

لم يكد القرن السادس عشر ينتهى حتى كانت هذه الرقعة المتوسطة من الأرض التى يسكنها العرب على جانب البحر المتوسط والبحر الأحمر قد فقدت أهميتها فى دنيا التجارة والسياسة ، وتحول النشاط العالمى إلى المحيطات الواسعة والعوالم الجديدة .

وضع العثمانيون سياسة فى حكم العالم العربى تقضى بعزل البلاد العربية عن التيارات الفكرية والسياسية والاقتصادية التى ظهرت فى أوربا فى ذلك الحين ، فقد بدأ عصر النهضة الأوربية ، وتوهم السلاطين العثمانيون أن هذه العزلة كفيلة بأن تجنب الولايات التابعة لها أطماع الدول الأوربية .

ولكن فى الحقيقة أن أوربا نفسها كانت منذ تحولت التجارة

---

(١) البطريق : الأمة العربية ص ١٤ .

بين الشرق والغرب إلى طريق رأس الرجاء الصالح قد انصرفت عن الاهتمام بالشرق الأوسط حيث تجرى طرق التجارة البرية بين الشرق والغرب ، وبعد أن وقع هذا الشرق فى قبضة الأتراك العثمانيين ، وراح الأوربيون يروجون للطريق الجديد ، كما فتح لهم الكشف عن العالم الجديد آفاقاً واسعة للتجارة والاستعمار.

وتحت الحكم العثمانى رضى العرب بالعزلة التى فرضت عليهم ، وقبلوا أن يتركوا مهمة حراستهم والدفاع عنهم للأتراك ، ولكن العرب ظلوا — مع هذا كله — مستمسكين بمقومات ثقافتهم العربية الإسلامية يعتصمون بها من بطش الترك ، فكانت أهم عامل فى المحافظة على القومية العربية .

كان للجزائر قوة مرهوبة فى البحر المتوسط ، وكان على الدول الغربية الأوربية التى تريد لسفنها فى ذلك البحر أماناً أن ترتبط مع داى الجزائر بمعاهدة صداقة .وأن ترسل قنصلا لها يقيم فى مدينة الجزائر وتدفع للداى قدراً من المال معلوماً فى كل عام ، فى مقابل تأمين سفنها التجارية فى البحر المتوسط وهكذا أصبحت الجزائر دولة كبرى تخطب الدول ودها وأصبح الداى أميراً مستقلا يمارس علاقاته الخارجية مع الدول الأجنبية .

قامت فى المغرب الأقصى ، أى مراكش ، فى أوائل القرن السادس عشر دولة عربية قوية استطاعت أن تصمد لاعتداء البرتغاليين والإسبان ومطامع الأتراك والعثمانيين ، وهى دولة الأشراف السعديين وقد استطاعوا أن يثيروا الحماسة الدينية

والقومية عند الشعب المراكشى ضدّ البرتغاليين ، وفى معركة وادى المخازن قرب القصر (١٥٧٨) قضى السلطان منصور السعدى قضاء مبرماً على الجيش البرتغالى ولقى ملك البرتغال حتفه فى هذه المعركة ، وفقدت البرتغال بعدها أكثر القواعد التى كانت تحتلها على ساحل مراكش .

وهكذا استطاعت مراكش أن تعزز مكانتها كدولة مستقلة، وراحت الدول الكبرى تخطب ودها ، واضطرت إسبانيا أن تنزل عن أكثر الموانى المراكشية التى كانت تحتلها . ولم يجد العثمانيون سبيلا إلى تنفيذ مطامعهم فى مراكش ، فقنعوا معها بحسن الجوار ، ووجد سلطان مراكش منصور السعدى فسحة من الوقت والقوة ليفتح بلاد السودان والصحراء (١٥٩١) ويشق لقوافل التجارة طرقها من داخل أفريقية إلى ساحل البحر المتوسط.

وخلفت دولة السعديين فى مراكش ، دولة أخرى أسسها العلويون واستطاع السلطان المولى إسماعيل أن ينتزع طنجة من الإنجليز ، كما انتزع من الإسبان أكثر ما بقى بأيديهم من ثغور مراكش وأصبحت لمراكش فى عهده شخصية دولية مرموقة ودخل فى علاقات مع الدول الكبرى ، وتبادل الهدايا والرسل مع بلاط لويس الرابع عشر ملك فرنسا .

حتى إذا كان القرن التاسع عشر ، بدأت تعود لهذه الرقعة المتوسطة من الأرض التى يسكنها العرب أهميتها السابقة فعادت الأساطيل الكبيرة ، أساطيل الحرب وأساطيل التجارة .

تشق طريقها فى البحار العربية ، وبدأت وفود من الغرب ترد إلى ديار العرب ، من أهل الحرب ، ورجال الاقتصاد ، وأصحاب المطامع والمكتشفين والمغامرين ، وبدأ أمراء وحكام فى البلاد العربية يعقدون الصلات ويدخلون فى علاقات متنوعة مع الحكومات الأوربية وبدأ وفود من العرب ، من مصر وسورية ولبنان وغيرها تذهب إلى ديار الغرب لتتزود منها بأسرار قوتها[1]

السيادة المصرية العربية فى شرق البحر المتوسط فى القرن ١٩ :

اهتمت مصر بإنشاء أسطول لها بعد استنجاد الدولة العثمانية بالجيش المصرى للقضاء على الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية . فبدأ ظهور الأسطول المصرى الحديث أوائل سنة ١٨١٠ ، وأنشئت العمارة البحرية الأولى فى ترسانة بولاق ، وهى الترسانة التى اعتمد عليها محمد على فى صنع السفن الكبيرة إلى أن أسس ترسانة الإسكندرية . وأنشئت فى ترسانة بولاق السفن التى استخدمتها مصر فى الحملة الوهابية ، وأنشئت بها أيضاً السفن التجارية التى استخدمتها الحكومة المصرية لنقل المتاجر والمهمات على النيل وعلى شواطئ البحر المتوسط .

كانت قوة مصر الحربية غير كافية للدفاع عن استقلال مصر وبسط نفوذها فى الخارج إلا إذا عاونها على ظهر البحار أسطول حربى قوى ، لذلك جاء إنشاء الأسطول المصرى

---

(١) تاريخ العالم العربى ، العصر الحديث ص ٤٨ .

بعد تشكيل الجيش المصرى النظامى بزمن يسير .

كان بالإسكندرية ترسانة قديمة تبنى فيها بعض السفن على الطراز القديم وقد عهد برئاسة الهندسة فيها إلى رجل يدعى شاكر أفندى الإسكندرانى يعاونه فى ذلك مهندس بارع من أهالى الإسكندرية يدعى (الحاج عمر) ، وهو من مشاهير المعلمين فى فن بناء السفن ، فجعلته الحكومة المصرية رئيساً للإنشاء وعمارة السفن ، وجعلت الحكومة على مناظرة بناء السفن موظفاً يدعى الحاج أحمد أغا . وتولى إدارة الأساطيل المصرية محرم بك محافظ مدينة الإسكندرية ، واشترك هذا الأسطول فى قتال اليونانيين فى جنوب المورة .

لما استفحل أمر السفن اليونانية فى البحر المتوسط ، أرسل السلطان محمود إلى محمد على يعهد إليه أن يجرد أسطوله لتطهير البحر من قرصنة هذه السفن ، وكان ذلك فى سنة ١٨٢١ ، أى قبل الحملة المصرية على المورة .

ذكر (مانجان) [1] أن محمد على أعد الأسطول فى الإسكندرية حيث أقلع منها فى ١٠ يوليو ١٨٢١ بقيادة الأميرال إسماعيل جبل طارق (أو إسماعيل الجبل الأخضر كما تسميه بعض المصادر الفرنسية) وكان مؤلفاً من ١٦ سفينة كاملة السلاح والعتاد ، وبها ٨٠٠ مقاتل ، فاتجه الأسطول إلى مياه

---

(١) انظر (عصر محمد على) لعبد الرحمن الرافعى

رودس لمطاردة السفن اليونانية ، والتقى بالأسطول التركى فى الدردنيل ثم عاد إلى الإسكندرية فى مارس سنة ١٨٢٢ ليتأهب لنقل الحملة إلى جزيرة كريت .

عجز السلطان العثمانى عن إخضاع ثورة المورة فاستنجد بالجيش والأسطول المصرى . وتألف الأسطول المصري فى حرب المورة من ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل ، وشبه المؤرخ (دريو) (١) هذا الأسطول بالأرمادا وهو الأسطول الإسبانى الضخم الذى أعده الملك فيليب الثانى ملك إسبانيا لغزو إنجلترا فى القرن ١٦ ، ويذكر (دريو) أيضاً أن الشرق لم ير حملة تدانيها فى ضخامتها منذ حملة بونابرت ، فكأن الشرق أراد أن يغزو الغرب جواباً على حملة أوربا عليه ، وهكذا تنقلب الأطوار فى سير التاريخ .

أقلعت العمارة المصرية من ثغر الإسكندرية فى يوليو ١٨٢٤ ، ولم تقصد إلى المورة رأساً ، بل اتجهت إلى مياه رودس ، ومنها إلى خليج (ماكرى) على شاطىء الأناضول لتلتقى بالأسطول التركى . وكان الأسطول المصرى مثالا لحسن النظام ، بينما كان الأسطول التركى مثالا للفوضى ولذا ألحق اليونانيون به كثيراً من الخسائر .

هاجمت السفن اليونانية الأسطولين المصرى والتركى بالقرب

(١) تاريخ اليونان السياسي ج ١ ص ٢٥٧ .

من بودروم ، فلاذ الأسطول التركى بالفرار من الميدان، بينما صمد الأسطول المصرى ، ولم يخسر سوى سفينتين .

انتصر الجيش المصرى على الثوار اليونانيين فى عدة معارك برية ، ثم حاصر ميناء نافارين براً و بحراً واستولوا عليها ، مما نجعل اليأس يدب فى قلوب اليونانيين .

قدم أسطول مصرى جديد لتعزيز الأسطول المصرى الأول فى أغسطس ١٩٢٧ بقيادة الأميرال محرم بك ، وتألف من ١٨ سفينة حربية مصرية ، وأربع سفن تونسية ، وست حراقات وأربعين مركباً لنقل الجنود وعددهم ٤٦٠٠ مقاتل . ورسى الأسطول فى ميناء نافارين فى ٩ سبتمبر ١٨٢٧ .

تجمع أسطول الحلفاء لقتال الأسطول المصرى . فقد غضبت الدول الأوربية من التدخل المصرى فى القارة الأوربية وسيادة الأسطول المصرى العربى فى شرق البحر المتوسط ، وأبدت إنجلترا وفرنسا وروسيا استياءها ، وعقد مؤتمر لندن (يوليو١٨٢٦) وتقرر فيه إرسال أسطول دولى تكون القيادة العامة فيه للقائد الإنجليزى (كودرنجتون) . وفوجىء الأسطول المصرى بهجوم أساطيل إنجلترا وفرنسا وروسيا وإطلاق مدافعها على السفن المصرية بدون سابق إنذار ، ونشبت معركة (نافارين) وصمد الأسطول المصرى الناهض ضد أساطيل الدول الكبرى مجتمعة مدة ثلاث ساعات مستمرة بشجاعة فائقة وانتهت المعركة بتحطيم معظم السفن المصرية

بدأ المصريون يعيدون إنشاء أسطول جديد بأيد مصرية ، لكيلا تكون مصر عالة على البلاد الأوربية فى إنشاء تلك السفن فأقام المصريون دار صناعة (ترسانة) كبرى بالإسكندرية لبناء السفن الحربية . وساهم فى إنشاء الأسطول المصرى الجديد ، مهندس مصري هو (الحاج عمر) من أهالى الإسكندرية ، تصفه جميع المصادر التاريخية بأنه كان مهندساً بارعاً فى فن بناء السفن ووصفته جريده الوقائع المصرية(١) بقولها : « الحاج عمر يوزباشى من أهالى الإسكندرية رئيس المعماريين فى ترسانة الإسكندرية ، لم يكن له نصيب من علم الهندسة ، ومع ذلك زاول أعمال سفن التجارة مدة ، وصار كأنه مهندس رياضى بكثرة المزاولة فى الأعمال ، وبسبب قوة ذكائه وفطانته » .

فى سنة ١٨٢٧ تقاعد محرم بك وخلفه فى قيادة الأسطول المصرى أمير البحر عثمان نور الدين باشا الذى أبحر بالأسطول لحماية نقل الجيوش المصرية ومعاونتها فى الحملة على سوريا بضرب سواحلها وحصارها ومطاردة الأسطول العثمانى إذا ما دنا منها .

وبينما كانت السفن المصرية تجوس فى المياه العثمانية إذ أبصرت بالسفن التركية ، فلم تتوان عن مطاردتها وحصرها فى ميناء (مرمريس) مضيقة عليها الخناق حتى دفعتها إلى مضيق الدردنيل ، وكان فى استطاعة الأسطول المصرى أن

---

(١) عدد ١١٢ (فبراير ١٨٣٠) .

يقتحمه فيلحق بها ويفنيها لولا تدخل الدول الأوربية .

كان الجيش المصرى يلقى نجاحاً وانتصارات باهرة فى الشام على الجيش العثمانى . بينما كان قائد الأسطول العثمانى (أمير البحر أحمد فوزى باشا) فى طريقه إلى مصر للانضمام إلى الأسطول المصرى ، فوصل إلى ميناء الإسكندرية وسلم سفنه إلى المصريين فى ١٣ يوليو ١٨٣٩ ، واستقبله الضباط المصريون استقبالا حافلا ، وكان الأسطول العثمانى مؤلفاً من ٢٢ قطعة ، وكان الأسطول المصرى مؤلفاً من ٢٧ قطعة ، فكونا أسطولا ضخماً من ٤٩ سفينة حربية عليها ٣٠,٠٠٠ بحاراً وجندى و ٣٠٠ مدفع .

امتاز المصريون على سائر الشعوب فى فن بناء السفن بإدخال السطح المتواصل فى السفن المصرية ، فأصبحت فسيحة مع زيادتها فى الحمولة مما جعلها وافية بالغرض الذى أنشئت من أجله ، فقد وجد المصريون أنه من السهل الالتحام مع سفينة العدو من المقدم أو المؤخر بدلا من الالتحام معها جنباً إلى جنب ، السبب الذى من أجله ضحت الدول الأجنبية بالميزة التى ابتدعها المصريون ، فجعلوا السطح العلوى أضيق من السطح الأوسط لترك مكان كاف عند الالتحام بالجنب (١)

وكان الأسطول المصرى فى ذلك الوقت دائب الحركة

(١) المعارف البحرية ص ٦٣

مستمراً في القيام بمناوراته في كل بقعة من المياه الصعبة في شرق البحر المتوسط مؤكداً تفوقه على الأسطول التركي من جميع الوجوه . وقد بنيت منارة الإسكندرية حوالى ذلك الوقت لإرشاد الملاحة وتوطيد الثقة والسلامة لحركة السفن المستمرة في الازدياد في ميناء الإسكندرية .

وفي سنة ١٨٤٠ كانت مصر تملك أسطولا ضخماً أثار إعجاب العالم وبلغ عدد سفنه الحربية ٧٠ سفينة بها حوالى ٣٠٠٠ مدفع ، و ١٠ سفن سريعة للمخابرات ، و ١٤٥ سفينة نقل . وبلغ عدد رجال الأسطول أكثر من ٢٠ ألفاً مضافاً إليهم ٢٥٠ طالباً بحرياً في الكلية البحرية .

الأساطيل الأجنبية والثورة العرابية :

قام أحمد عرابى ثائراً على النفوذ الأجنبي والفساد الداخلى ، وبدأ يعيد تنظيم الجيش وتعمير الطوابى ، وربما اتجهت العناية بعد ذلك إلى إنشاء أسطول جديد يكون خير عون لحماية مصر من الأطماع الأجنبية ، فإن الأسطول ركن أساسى بدونه لا تكتمل وسائل الدفاع . . .

لم تكن هذه اليقظة التي أبدتها البلاد مما يرضى الدول الأوربية التي ما زالت تتطلع إلى مصر ، فراحت هذه الدول تلتمس لنفسها سبباً للتدخل وأخيراً تحت ستار حماية حقوق الأقليات الأجنبية اكتظت ميناء الإسكندرية بأساطيل بريطانيا وفرنسا

وإيطاليا ، ولم يكن غرضها الحقيقى إلا منع التضحيات والتجهيزات العسكرية لتقليل المقاومة عند سنوح الفرصة .

هذا التحدى بل هذا التعدى لم تكن لتجرؤ دولة أن تواجه به مصر ، ولم تكن مصر لتقف أمامه مكتوفة الأيدى لو كان قد بقى لها أسطولها القوى الذى بفضله كان الجميع يوماً يسعون إلى خطب ودها . والآن يريدون فرض إرادتهم ، فتأبى مصر وتفشل المفاوضات وينفرد الأسطول البريطانى بقيادة الأميرال سيمور بضرب الإسكندرية عند فجر يوم ١١ يوليو ١٨٨٢[١] .

تحدث أحمد عرابى فى مذكراته[٢] عن هذا الحادث فقال : (وجاء تلغراف من الصدر الأعظم إلى الخديو توفيق باشا يذكر به أن « باشكاتب السفارة الإنجليزية حضر إلى الباب العالى وأخبره أن الجهادية المصرية تهدد الأساطيل الإنجليزية فى ثغر الإسكندرية بتحصين القلاع وإقامة الحصون وفى ذلك تهديد للدونانمة الإنجليزية ، فإن لم تكف الجهادية عن تقوية الاستحكامات وتمسك عن تعزيز حصونها من غير إبطاء اضطر الأميرال سيمور إلى إطلاق مدافعه على الإسكندرية فيدكها دكاً ويهدمها عن آخرها » ... وفى صباح يوم ١٠ يوليو سنة ١٨٨٢ انعقد مجلس فوق العادة من النظار . . ولما تلى كتاب الأميرال سيمور المرسل إلى طلبة باشا قومندان المدينة تقرر

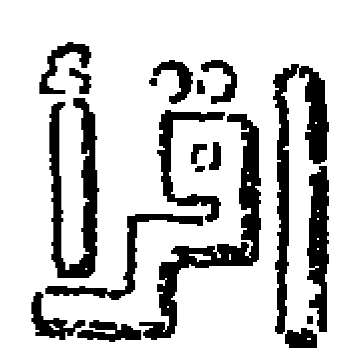
---

(١) المعارف البحرية ٧٦ . (٢) طبعة دار الهلال ١٦٨

بالمجلس المذكور بأنه لا يمكن إجابة طلب الأميرال سيمور ، لما فى ذلك من الخزى والعار الذى يلحق بالمصريين إلى الأبد ، حيث إن الاستحكامات والطوابى المذكورة ما أنشئت إلا لحفظ الثغور ، والعساكر ما وجدت إلا للدفاع عن الوطن العزيز والذود عن حياضه ، فلا يجوز لهم أن يخربوا معاقلهم بأيديهم لمجرد طلب العدو الطامع فى بلادهم ، بل الواجب عليهم أن يدافعوا عن بلادهم ويقوموا بما تحتمه عليهم واجباتهم الجريئة إلى آخر رمق من حياتهم دفاعاً عن شرف الوطن . . . » .

لم تكن طوابى الإسكندرية كافية لمقاومة الأساطيل الأوربية الحديثة ، فالطوابى ثابتة وقوس نيرانها محدود ، وكانت سبل وقاية أفراد حامياتها غير مكفولة . وقد ركز الأسطول البريطانى نيرانه على الطوابى كل منها على حدة إلى أن سقطت الواحدة تلو الأخرى بخسائر جسيمة فى الأرواح والمعدات مع أن خسائر الأسطول لم تكن إلا محدودة .

وهكذا لو أن هناك أسطولا مصرياً يذود عن البلاد ويدفع عنها العدوان لما تعرضت الإسكندرية لهذا العدوان الغادر . ولذا اهتمت مصر فى نهضتها الأخيرة أن تبنى أسطولا عربياً كبيراً يذود عن الشواطئ المصرية والعربية ، وأثبت هذا الأسطول العظيم وجوده وقوته خلال العدوان الثلاثى الغادر فى أكتوبر ١٩٥٦ ، مما يبشر بعودة السيادة العربية للبحر المتوسط ، فيصبح هذا البحر بحيرة عربية من جديد .



علي شلش

من الأدب الأفريقي



من الأدب الإفريقي

علي شلش

من الأدب الإفريقي

اقرأ ٢٤٨

دار المعارف

اقرأ ٢٤٨ – أغسطس ١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م

كلمة فى البدء

« إن الثورة الأفريقية أكثر من هائلة ، فهى ثورة لا تكف عن النمو والتغير والتطور أمام أبصارنا . فلقد حطمت أغلالها مراراً ، حتى فى أثناء إعداد هذه الفصول القصيرة ، ولم تخضع لتعريف نهائى » .

جيمس كاميرون

قبل ثورة ١٩٥٢ ، كانت أفريقيا بالنسبة للكثرة من أبنائها الناطقين بالعربية فى الشمال سراً مغلقاً لا يدرى أحد ما مداه وما حقيقته ، بل إنها كانت مجرد خريطة صماء ، يستعان بها فى شرح طبيعة المناطق الحارة ، ونباتاتها ، وحيواناتها ، وتضاريسها.

وظللنا ، نحن أبناء الشمال ، على جهل تام — أو نكاد أن نكون كذلك — بما يدور داخل قارتنا الشاسعة ، التى تبلغ مساحتها ⅕ مساحة الرقعة اليابسة من الكرة الأرضية . فتارة يقال لنا إننا لا ننتمى إلى أفريقيا بقدر ما ننتمى إلى مجموعة شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وتارة أخرى يسدل الستار نهائياً على نسبتنا للقارة أمام دعاوى عنصرية ووطنية باطلة . . كل ذلك وسواه قد أدى على مدار الزمن وبتأثير الأفكار الاستعمارية إلى طغيان الخرافة التى خطط لها الاستعمار ، ودعمها بالحجج والأسانيد الزائفة : أفريقيا الحقيقية تبدأ بعد الصحراء الكبرى .

« أثمن هدية على وجه الأرض » :

والحق أن أفريقيا منذ أن سقطت فريسة للمنافسة الاستعمارية فى القرن الماضى قد تعرضت لزيف كثير كتب عنها بأقلام الأوربيين المستعمرين أنفسهم . ولعل المتتبع لهذه الكتابات لا يعدم فى النهاية — بالملاحظة والقياس — الوصول إلى حقيقة الهدف الذى أنشئت من أجله ، والنتيجة التى خلصت إليها . يكفى ، مثلا ، أن نتأمل النهايات والأحكام والأوصاف التى استهوتهم . فهى « القارة السوداء البكر » وهى « الأرض التى لا أصحاب لها » . . وهى كذلك « قديمة قدم أبى الهول ، جديدة جدة اليورانيوم » وهى أخيراً — وليس آخراً — « أثمن هدية على وجه الأرض » .

تكفينا إذن هذه النهايات التى تفضح النوايا الحقيقية ، وتفصح عن الحقيقة التى طالما تاهت فى غمار الأكاذيب والافتراءات ، مثلما تاه المستعمر فى الأدغال والأحراش ، تكفينا دون حاجة إلى الاستغراق فى الاستقصاء والإحصاء ، مما لا مجال له فى هذه الدراسة .

لقد اقتحم الاستعمار القارة بنية خالصة مبيتة : أن يستولى على كنوزها المدفونة ، وأن يستغل أرضها البكر ، وأن يجعل منها سوقاً رائجة لمنتجاته ، وأن يضمن لنفسه فى النهاية ملجأ

وملاذاً يحن إليه كلما جاع أو عطش أو تعرى .

ولقد كان الضمان لذلك هو التمادى فى ابتكار وتطبيق سياسة بربرية ذات شعب عديدة ، تختلف باختلاف القائم على تطبيقها ، لكنها تجتمع فى النهاية عند نقطة واحـــدة مؤداها : « ضمان السيطرة ». فقد اتبعت فرنسا والبرتغال وبلجيكا شعبة التذويب أو التمثيل Assimilation وطبقتها فى الجزائر وأنجولا والكونغو ، بغرض قتل الروح والكيان الأفريقيين فى فى الإنسان الأفريقى ، تمهيداً لطلائه باللون الأبيض . بينما نجد حكومة اتحاد جنوب أفريقيا تتبع شعبة التفرقة العنصرية ، أى الجمع بين التذويب والعزل Apartheid بغرض القضاء على الإنسان الأفريقى وعزله فى مكانة يظل فيها دون الأبيض دائماً . أما بريطانيا فقد اختارت شعبة أكثر مرونة ، وهى شعبة المشاركة فى الحكم Multiracial Policy بغرض بقاء السيطرة تحت ستار منح الحكم الذاتى للمستعمرة .

أفريقيا الجديدة :

ورغم ماتنتج عن ذلك كله من أضرار وضحايا لم تسكن روح المقاومة لدى الإنسان الأفريقى ، على طول القارة وعرضها ، من البحر الأبيض المتوسط فى الشمال إلى رأس الرجاء الصالح فى الجنوب ، ومن المحيط الهندى فى الشرق إلى المحيط الأطلسى

فى الغرب . وكانت الفترة بين الحربين الماضيتين بمثابة مرحلة التكوين والاختمار للوعى القومى والإحساس بالوطن . . وما لبثت هذه المرحلة أن نضجت فى أعقاب الحرب الثانية ، لتبدأ مرحلة أخرى هى مرحلة التحرير واستعادة حرية القارة .

على أن الإحساس الشديد بالوطن الأفريقى لم يكن يوماً ، يعنى معاداة الرجل الأبيض فى ذاته ، وإنما كان ــ ولا يزال ــ يعنى معاداة سياسته فى التسلط والسيطرة ، معاداة تصل إلى الاحتكام للسلاح والدم .

ومن خلال ذلك كله أيضاً ولدت أفريقيا الجديدة تنبض بالحرارة والرغبة فى الحرية ، وبرزت فيها قيادات جديدة تؤمن بقضايا سكانها الذين يربون على مائتى مليون نسمة. وهكذا لم تعد أفريقيا « أرضاً بلا أصحاب » .

دور ثورة ٢٣ يوليو :

لقد كانت ثورة يوليو ١٩٥٢ فى مصر فاتحة ثورات التحرير الأفريقية بعد الحرب الثانية . وكان لهذه الثورة أهمية بالغة فى تاريخ أفريقيا الحديث ، وهى أهمية ذات شقين بالغى الدلالة : الشق الأول ، خاص بعلاقتنا نحن أبناء الشمال ببقية القارة ، وكان مظهره اعتبار القارة بأسرها كلا غير قابل للتقسيم .

أو التجزئة ، وتصحيح وضعنا فى القارة ، ذلك لأنه لم يحدث فى تاريخنا الحديث أن ارتبطت سياستنا — نتيجة للاستعمار — بالقارة ارتباط اللحم بالدم ، إلى أن جاءت الثورة فصححت هذا الوضع الخاطئ . فقد كتب الرئيس جمال عبد الناصر فى « فلسفة الثورة » : « إننا لا نستطيع بحال من الأحوال — حتى لو أردنا — أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الأفريقيين . لا نستطيع لسبب هام وبديهى ، هو أننا فى أفريقيا . ويبقى بعد ذلك سبب هام هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة . ويبقى أيضاً أن السودان الشقيق الحبيب — تمتد حدوده إلى أعماق أفريقيا ، ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة فى وسطها » .

وكان معنى ذلك أن محاولة فصلنا عن القارة ، محاولة واهية مدسوسة ، وأننا « نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة » لا نستطيع أن ننفصل عنها ، حتى لو أردنا .

ولقد كان من جراء ذلك أن ازداد ارتباط الإنسان الأفريقى فى مصر بأرضه الأم ، فشرع — لأول مرة فى تاريخنا — يفكر فى قضاياها ومشاكلها باعتبارها قضاياه ومشاكله ، وكنتيجة لازدياد وعيه بالقارة ازداد طلبه على معرفة تاريخها الحقيقى ووجهها الحقيقى الذى أخفته أقنعة الأكاذيب طويلا ، والتقى — لأول مرة أيضاً — بأخيه فى غانا والكونغو وغيرهما ، فتصافحا وتعاهدا

على مواصلة الكفاح المشترك من أجل حرية القارة ورفاهية شعوبها ، وكانت سبيل ذلك هى المؤتمرات : فى باندونج وأكرا والقاهرة ومونروفيا ، والدار البيضاء . وأصبحت القاهرة كعبة يؤمها أحرار القارة من كل مكان ومصدر الإشعاع والمساندة .
أما الشق الثانى لهذه الأهمية فخاص بعلاقة بقية القارة بنا . فقد أوضح الرئيس عبد الناصر أيضاً حقيقة هذه العلاقة بقوله :

« ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله . ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع فى نشر النور والحضارة حتى أعماق القارة العذراء . والمؤكد أن أفريقيا الآ ن مسرح لفوران عجيب مثير ، وأن الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوربية يحاول الآ ن إعادة تقسيم خريطتها ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذى يجرى فى أفريقيا ونتصور أن ذلك لا يمسنا ولا يعنينا » .

ففى هذه الفقرات توضيح للصلة وتأكيد لها بصورة عملية فعالة ، اتخذت سبيلها إلى التطبيق العملى منذ سنوات ، مما جعل مظهر هذا الشق الثانى من أهمية ثورة يوليو بالنسبة للقارة فى مجموعها يتخذ صورة التفاف شعوب القارة حول القاهرة وتضامنها معها ، وبالتالى اتضحت خطورة الدور الذى ألقى على عاتق الجمهورية العربية المتحدة إزاء أشقائها وشقيقاتها

من شعوب القارة . وبفضل هذا التضامن والمشاركة اجتاحت القارة موجة جبارة من النضال فى سبيل الحرية والاستقلال ، كان من نتائجها حصول معظم دولها على استقلالها وحريتها فنى عام ١٩٥٦ إستقلت السودان ومراكش وتونس ، وفى العام التالى استقلت غانا ، وفى عام ١٩٥٩ استقلت غينيا ، بل إن عام ١٩٦٠ قد سجل ظاهرة فريدة فى التاريخ الحديث ، واستحق بجدارة لقب « عام أفريقيا » إذ استقلت فى ذلك العام نحو ١٨ دولة أفريقية فى شرق القارة ووسطها وغربها .

فثورة يوليو ١٩٥٢ هى ، إذن ، رائدة الثورات التحريرية التى اجتاحت القارة وحطمت أغلال السيطرة فى أقل من عشر سنوات . وهى أيضاً المشعل الذى أضاء لنا فى الشمال ، طريق رؤية القارة بأسرها ، والاعتزاز بماضيها والإيمان بمستقبلها . وكان لنا من ذلك كله اهتمام لا نظير له بأفريقيا — الكل الذى لا يتجزأ — على الصعيد الرسمى الشعبى ، اهتمام بتاريخها ، وكفاحها وثقافتها ، وآدابها وفنونها . .

كان لابد لنا من هذه المقدمة التى قد تبدو فى ظاهرها خارجة عن مجال الدراسة الأدبية التى نحن بصددها فيما سيأتى . لكن يغفر لنا إن كل الحركات الأدبية أو الفنية فى أقطار أفريقيا المستقلة حديثاً قد ارتبطت بالنضال السياسى والقومى ، بل إننا لانعدو الحقيقة إذا قلنا إن هذه الحركات قد ولدت ولادة سياسية يظللها مناخ الشعور القومى المتزايد بالدرجة الأولى .

وبالمثل لا يمكن التعرف على هذه الحركات دون دراسة الواقع التاريخى والسياسى الذى نبتت داخله .

وموضوع هذه الدراسة التى نحن بصددها يقتصر على تتبع الظواهر والسمات الجديدة التى طالعتنا بها آداب الدول الأفريقية المستقلة حديثاً ، والتى لا تكتب أو تتكلم باللغة العربية بوجه خاص باستثناء الجزائر .

فثمة قضية هامة تشغل حيزاً — منذ سنوات — فى أذهان الكثرة من المثقفين فى أوربا وأمريكا . وتلك هى قضية الأدب الأفريقى ، الذى شرعت براعمه فى التفتح والازدهار عقب الحرب الأخيرة بصفة أساسية .

ذلك أن دور النشر الإنجليزية — وبالمثل فى فرنسا وأمريكا وروسيا — قد اهتمت بما ينتجه أبناء أفريقيا من أدب وفن ، وراحت تلح عليه ، وتهتم بنشره وإذاعته .. لكن ما قصة هذا الأدب ؟ أو بالأحرى ، ما قصة هذه القضية التى شغلت الأذهان فى السنوات الأخيرة ؟ وهى قضية « لا نستطيع بحال من الأحوال أن نتصور أنها لا تمسنا ولا تعنينا » ، تماماً كما هى الحال حين نبه على ذلك الرئيس عبد الناصر فى مجال الأحداث الوطنية والسياسية .

إن المتتبع لتاريخ القارة الأفريقية لابد أن يصل إلى إدراك حقيقة التطور الهائل الذى شملها فى أعقاب الحرب الأخيرة كما أشرنا . ذلك لأن الفترة التالية لهذه الحرب قد سجلت

للأفريقيين تطورات باهرة فى شتى الميادين السياسية والثقافية والاجتماعية .

ولعل أهم ظاهرة تستحق التأمل فى الميدان الثقافى ، هى ازدياد النشاط الإبداعى من أدب وفن — ازدياداً لم تشهده السنوات السابقة على الإطلاق .

على أننا يجب أن نحدد بداءة ميدان هذا النشاط الجديد الذى انبثق داخل القارة الشاسعة ونعنى به على وجه التحديد : جنوب القارة ، فيما وراء الصحراء الكبرى .

لماذا ؟

لأن هذا الجزء الضخم من القارة قد شهد منذ نهاية الحرب الأخيرة نمواً ملحوظاً فى الأدب والفن ، بدرجة لامثيل لها ، كذلك لأن هذا الجزء — أيضاً — لم نعرفه نحن قراء العربية معرفة حقيقية ، مثلما عرفنا الجزء الشمالى من القارة الذى يكتب ويفكر بالعربية فى الغالب . ومن جهة ثالثة ينبغ اهتمامنا به دفعاً لمغالطة كبيرة ألح عليها المستعمرون كثيراً ، كى يفصلوا بين شمال القارة وجنوبها ، إذ نجد مصطلحاً خاصاً لدى الأوربيين — فى الغالب — لدعم هذه التفرقة الخطيرة ، فهم حين يتحدثون عن الأدب الأفريقى يقصدون به — على وجه التحديد — أدب الأقطار الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى . ثم يتبعون ذلك بمصطلح آخر أطلقوا عليه : أدب الكتاب السود . Negro Writers وتلك فى الحقيقة مغالطة خطيرة ، يجب أن ندفعها

عن القارة حين نتناول أدبها أو نتعرف إليه . ذلك لأننا نجد ، حسب تحديدهم هذا ، أن الأدب الذى ينتجه الأفريقيون فى ليبيا أو الجمهورية العربية المتحدة أو السودان ، أو الجزائر ، أو غيرها من الأقطار التى تكتب أو تفكر بالعربية منذ مئات السنين ، ليس أفريقياً ، ومن ثمة يعزلونه عن القارة حين يتناولون أدبها .

ومع ذلك نجد أن مهمتنا إزاء تعريف الناطقين بالضاد بهذا الأدب هى مهمة على مجانب عظيم من الأهمية والضرورة . ولقد بذلنا فى هذا الصدد جهوداً مشكورة ، إن فى المؤتمرات التى اشتركنا فيها مع كتاب القارة وبحثنا فيها وسائل التعاون الأدبى ، وكان آخرها المؤتمر الثانى لكتاب آسيا وأفريقيا الذى شهدته القاهرة فى فبراير سنة ١٩٦٢ ، وإن فى التعريف عن طريق الترجمة والنشر فى الدوريات والصحف والإذاعة . ونشير هنا بوجه خاص إلى مجلة « نهضة أفريقيا » التى صدرت فى القاهرة فى عام ١٩٥٧ ، بغرض « تنمية الوعى القومى الأفريقى والتعارف بين الأفريقيين فى مختلف بيئاتهم » . وهذه الجهود التى تتبنى الدولة معظمها لا ينقصها السداد والتوفيق ، مما يدفعنا إلى المطالبة بتنميتها ، وتشجيع المحاولات الطيبة فى هذا المجال ، والعمل على توثيق الروابط بين الكتاب فى الشمال وزملائهم فى الوسط والجنوب .

والحق أننا ظللنا زمناً طويلا ، نعيش عالة على ما يكتبه

الأوربيون والأمريكيون عن أفريقيا فى مجال الأدب ودراساته .
ويمكن تقسيم هذه الكتابات إلى قسمين :

أولهما يتخذ القارة مسرحاً وميداناً له كما فعل الكثيرون ، ومثالهم – بعيداً عن الحصر – دكتور جونسون و س . فورستر وجويس كارى ، وهمنجواى ، من الناطقين بالإنجليزية ، أو فيكتور هيجو ، وألفونس دوديه ، وبيير لوتى ، وألبير كامى وسارتر فى الأدب الفرنسى ، وهؤلاء وغيرهم اتخذوا القارة مسرحاً لأعمالهم المنظومة والمنثورة على السواء . غير أن معظمهم نظر إلى القارة بنظرة السائح الذى لا يستلفت نظره إلا كل غريب غير مألوف له فى بلاده .

أما القسم الثانى من هذه الكتابات فقد عالجه الأوربيون والأمريكيون أيضاً ، خلال النصف الأول من هذا القرن ، حين راحوا يسجلون القصص والأغانى الشعبية ، التى يتداولها الأفريقيون فى أسمارهم وحياتهم اليومية .

ومن الطبيعى هنا أن نجد فى الكثير من هذه الكتابات مغالطات وأخطاء ، مقصودة أو غير مقصودة . ومن ثمة لم يكن غريباً إذن أن نحتفل بهذا الجديد الطارئ على القارة ، القادم إلينا بأقلام أفريقية خالصة ، وأن نرحب به متذوقين ودارسين ، وأن نكتشف فيه وجه القارة الحقيقى بعد طول غياب .

وأحسب بعد هذه العجالة التى تقدمت ، أن الهدف من

هذه الدراسة قد اتضح ، ويبقى بعد ذلك أن نحدد خطة الدراسة ذاتها ، وأبادر فأقول إننى فكرت بادئ ذى بدء أن أقصر الموضوع على النماذج فقط ، أى ما قدمته لنا أقطار أفريقيا التى عرفناها حديثاً من قصة إلى قصيدة إلى حكاية أو مثل شعبى ، إلى غير ذلك من أنماط الأدب المعروفة . لكننى آثرت أن تكون هذه النماذج مسبوقة بدراسة تؤدى دور الكشاف أو الدليل ، أو المدخل — سمه ما شئت — بالنسبة للإبداع ذاته .

وقد اعتمدت فى ذلك على ما كتبه أبناء القارة أنفسهم بالدرجة الأولى ، فضلا عما كتبه الدارسون الآخرون من غير أبناء القارة ، ولجأت إلى تقسيم الدراسة — عن قصد — إلى فصول اتخذت فى معالجتها سبيل الإيجاز حتى أدع للقارئ فرصة التذوق بنفسه ، أما أولى هذه الفصول فقد خصصته للحديث عن العوامل التى أثرت فى ظهور هذه النماذج الأدبية ، كالبيئة والتعليم وطبيعة اللغة . وأتبعت ذلك بحديث آخر عن قيمة التراث الشعبى فى الآداب الأفريقية ومكانته باعتباره حجر الأساس فى البناء الأدبى لدى معظم أقطار القارة ، ويأتى بعد ذلك فصل ثالث ، خصصته للحديث عن تأثير الكفاح الوطنى فى الأدب ومظاهر هذا التأثير . ثم حديث عن الأنماط الأدبية كل على حدة . وأخيراً يأتى دور النماذج ذاتها .

وقد حرصت فى اختيارها – قبل ترجمتها – [1] على أن تكون فى مستوى طيب من ناحية المقاييس الأدبية المعروفة ، وكذلك أن تكون من الجودة والإصالة بحيث تدل على البيئة التى أنتجتها . ولم أشأ أن أنهى الموضوع عند حدود النماذج فقط ، وإنما اخترت أن ألحقها بخاتمة للحديث عن خصائص هذه الألوان الجديدة من أدب القارة ومستقبلها .

أما المراجع فقد آثرت أن أثبتها فى نهاية الكتاب ، توفيراً على القارئ مشقة البحث فى الهوامش ، وحصراً لها فى النهاية رغم أننى لجأت أحياناً إلى إثبات بعض المصادر الثانوية فى حينها ، وهذه ليست مما يدور عليه البحث فى مجموعه . كما أننى آثرت – بقدر الاستطاعة – أن أستعين بالمترجم إلى لغتنا العربية من مقالات وأبحاث تدور حول موضوعنا ، مفضلا إياها على أصولها الإنجليزية ، حتى يتيسر للقارئ العربى الرجوع إليها .

---

(١) باستثناء خمسة أقوال مأثورة منقولة من ترجمة الأستاذ خيرى حماد لكتاب « كيف تفكر أفريقيا » ، مع شىء من التعديل فى الشكل لا فى الجوهر .

مأساة وأدب

« إن المناظر الاستوائية ، والطبول ، والأفكار والمرددات الشعبية ، تكون أجنبية غريبة ، إذا ما قدمت على أنها السمات السائدة وحدها ، منفصلة عن مأساة الإنسان فى ظل الظروف الاستعمارية » .

(رينيه مينيل)

لو أننا حاولنا أن نرسم لوحة خلفية لهذه الآداب الناشئة فى الأقطار الأفريقية التى استقلت حديثاً ونالت حريتها بعد الحرب الأخيرة[1] ، أو على الأصح ، لو أننا حاولنا أن نرد هذه الآداب إلى الظروف الاجتماعية التى أحاطت بها وولدتها ، فإنه ينبغى علينا — بداءة — أن نطرح من أذهاننا

---

(١) لعل من المستحسن أن نشير إلى مجموعة الدول الإفريقية التى استقلت حديثاً فيما وراء الصحراء الكبرى ، وكذلك تواريخ استقلالها فيما يلى مع ملاحظة أن بعضها نال الحكم الذاتى والبعض نال وعداً فقط . غانا (١٩٥٦) ، غينيا (١٩٥٧) ، الكاميرون الفرنسى ، توجو الفرنسية ، ماجنيا (مدغشقر) الكونغو ، الصومال الإيطالى والبرتغالى ، داهومى ، النيجر ، فولتا ، ساحل العاج تشاد ، أفريقيا الوسطى ، الكونغو الفرنسى ، جابون ، موريتانيا ، السنغال (حكم ذاتى) مالى ، نيجيريا ، تنجانيقا (حكم ذاتى) ، كينيا (وعد بالاستقلال) ... وكلها استقلت أو نالت الحكم الذاتى أو الوعد بالاستقلال فى عام ١٩٦٠ .

فكرة الفن أو الأدب الخالص ، أو ما يسمى فى مجال النقد الأدبى بمبدأ « الفن للفن » .

ذلك لأننا فى أفريقيا بإزاء مأساة بشرية مكتملة العناصر الدرامية . وليس تاريخ الاستعمار فى القارة إلا تاريخ هذه المأساة ذاتها . ومن ثمة فمن غير المعقول أو المنطقى أن نعالج ظاهرة أدبية معينة أو وضعاً أدبياً معيناً ، وخاصة فى أفريقيا ، دون الإشارة ، بل التركيز على السيطرة الاستعمارية وآثارها الجسيمة . وليس معنى ذلك على الإطلاق أنه لو لم يكن الاستعمار فى القارة لما كان هناك أدب أو فن . فمثل هذه الدعوى الباطلة التى جاهر بها المستعمرون حين رفعوا شعارات مثل « عبء الرجل الأبيض » و « رسالة التحضير » يفندها سجل نشاطهم فى القارة وسياستهم ذاتها .

على أنه من الأفضل ، كى تكتمل الصورة ، أن نرجئ الحديث عن هذه القضية ، وأن نقدم عليها عنصرين هامين من عناصر الإبداع الأدبى وتشكيله ، وهما : البيئة واللغة .

سحر أم حقيقة ؟

والحق أن البيئة فى هذا الجزء الضخم من القارة الذى جعلناه موضوعاً للدراسة تنفرد بخصائص وسمات تتجمع فتكون شلالا من الغرابة والسحر ، هو الحقيقة فى النهاية . وليس من همنا

هنا أن نخوض في بحث دقائق البيئة وتفاصيلها ، بقدر ما يهمنا أن نوضح تأثيرها على الإبداع الأدبي وتشكيله .

ولعل الشخصية الرئيسية في هذه البيئة — بعد الإنسان — هي الغابة . ذلك لأنها تتمتع بنصيب الأسد في طبيعة القارة ، وتضفي عليها نوعاً من المهابة والغموض قلما نجده في بيئات الشمال الصحراوية والمعتدلة . ففي الغابة الاستوائية تشتد كثافة الأشجار والنباتات ، وتتشابك أغصانها وتلتحم حتى تؤدي إلى تعذر الرؤية والاختراق . بينما في الغابة المدارية يقل هذا التشابك والالتحام رويداً رويداً ، ويحل محله التناثر والاتساق فنجد الشجيرات والأعشاب تتخلل الغابة التي تعمرها الحيوانات وتجري وسطها نهيرات وغدران ماء ، يختلط خريرها بحفيف الأشجار وزقزقات الطيور ..

وكثيراً ما وقف الإنسان حائراً أمام هذا السحر والغموض ، وكثيراً ما لجأ إلى تقديس الغابة باعتبارها رمز الأمومة أو الخصب أو القوة الخارقة ، وكثيراً ما لجأ إليها أيضاً كمصدر للإلهام والإرشاد .

وفي الغابة أيضاً ، كما في البرازي وعلى سفوح وقمم الجبال تتجلى ظاهرة غاية في الأهمية بالنسبة للإبداع الأدبي ، وهي ظاهرة استلفتت أنظار معظم الباحثين الأوربيين الذين عنوا بالدراسات الأنثروبولوجية بصفة خاصة . ذلك لأن الصوت واللون كعنصرين هامين من عناصر التشكيل الأدبي والفني

يلتقيان فى الغابة ، بل يحلان فيها ويمتزجان بها .

فالصوت يصدر – بشكل طبيعى للغابة لادخل للإنسان فيه – عن حفيف الأوراق ، وخرير المياه وهدير الشلالات ، كما يصدر عن الحيوانات والطيور فيكون زئيراً وعواء ومواء وفحيحاً ، ونقيقاً وزقزقة . . . إلخ . وكذلك اللون يتعدد ، ويتشكل فى الغابة ومكوناتها . وتتراوح درجات الصوت واللون وتتدرج طبقاتهما ، بل تلتحم وتتحد أحياناً ، فيكون منها إيقاعات وأنغام منتظمة وتشكيلات لونية متناسقة . وبالتالى يتاح للإنسان – عن غير قصد – عالم حافل يدعوه للتأمل والمشاركة ، تمهيداً للتقليد والمحاكاة .

ولقد وقف الإنسان الأفريقى من الطبيعة أو الغابة موقف الابن من الأم : احترمها ، ومجدها ، بل وقدسها ، وأكثر من ذلك حل فيها وامتزج بها ، كما انتفع بمكوناتها وتعلم منها ، وأخذ عنها الكثير من شئون الحياة والسلوك . وكان التعبير بالصوت (ومنه الإيقاع والنغم) واللون على رأس الدروس التى تعلمها من أمه ، ومربيته الغابة فى مجال الأدب والفن .

والمرجح ، بل الثابت ، أن الأفريقى حين قصد البيئة والغابة للتزود بالخبرة ، كان عليه أن يحل فيها ، وأن يمتزج بها ، تماماً كما حل فيها الصوت واللون وامتزجا بها .

وفى مجال التزود والخبرة الفنية قدمت الطبيعة والبيئة للأفريقى مساحة عريضة من الأدوات الفنية وعلى رأسها الإيقاع واللون ،

فلا غرابة إذن أن نجد الطبول تستخدم لدى قبائل كثيرة ، فى تبادل الرسائل وإذاعة الأنباء ، إلى جوار كونها أداة فنية تعلق فى الرقاب أو توضع على الأرض لإنتاج الأنغام والإيقاعات التى تتنوع تنوعاً هائلا ، يبدأ من إشارات الأعلام وينتهى عند الشكل الأوركسترالى ، الكامل .

ومن المرجح أيضاً أن الطبلة ابتكار أفريقى خالص ، ولئن كان الدف يشاركها وظيفتها ، إلا أنهما يساهمان معاً فى تجسيد عواطف الإنسان فى تلك المناطق إزاء الخير والشر ، فنجد لاستجلاب المطر والخير إيقاعات ورقصات خاصة ، وبالمثل فى الطقوس الدينية التى تؤدى طلباً لرفع عوارض الشر والغضب التى تسببها الطبيعة ، وتستتر وراءها روح مقدسة يخشاها الإنسان ويؤمن بسطوتها .

وهكذا يشكل الإيقاع والنغم جانباً حيوياً من جوانب الحياة فى القارة . يقول الكاتب الغانى ج . كوابينا نكيتا : « إن الموسيقى التقليدية فى أفريقيا هى فى الأساس موسيقى شعبية تنظم وتمارس باعتبارها شأناً متكاملا من شئون الحياة اليومية . فالمرء يسمع موسيقى أينما ذهب : فالأم تغنى حين تجلب الماء من البئر ، أو حين تطحن الأذرة ، أوحين تهدهد طفلها ، كذلك البائع الجائل يجذب انتباه زبائنه بالأغنية . كما يمارس الرجال الموسيقى بأنفسهم فى الحانات أو يستمعون إليها من الموسيقيين الجائلين » .

فإذا تساءلنا بعد هذا : من أين جاءت هذه الموسيقى ؟ لكان الجواب واضحاً وضوح الطبيعة الأفريقية. ذلك لأن هذه الموسيقى التى استمع إليها العالم واعترف منها هى بنت الحس الإيقاعى الفطرى الذى أنشأته الطبيعة والغابة فى الإنسان الأفريقى ، وامتزج به على مر العصور .

وكذلك الحال مع اللون كعنصر تشكيلى فى الفن . فقد استلفت نظر الإنسان الأفريقى بوفرته وسخائه الطبيعى فى الحيوانات والطيور والنباتات ، وحاكاه فى عمارته وملابسه وزينته ، واستخدمه فى التعبير عن انفعالاته . ولعل ما نجده من اهتمام لدى كثير من القبائل بالألوان الفاقعة والزاهية والمزركشة هو اهتمام فطرى مرده فى النهاية إلى البيئة ذاتها ، كما أنه انعكاس حقيقى لمظاهرها التى نجد من أمثلتها لون الطاووس أو قوس قزح أو جلد النمر وغير ذلك من مكونات البيئة .

وليس أدل على ذلك من إجماع الدارسين لفن النحت الأفريقى على سخاء هذا الفن بأشكال الألوان الفاقعة أو الزاهية كالأحمر والأصفر والأبيض .

والغابة باعتبارها الشخصية الرئيسية فى هذه البيئة هى المادة الخام للفن والأدب . . يستعين بها المثال فى صنع تماثيله من الخشب كما هو مطرد الحدوث ، أو من سن الفيل كما هى الحال فى الكونغو ، أو من تطعيم هذا بذاك ، كما هو متوافر فى جهات كثيرة .

وكذلك يستعين القاص بالغابة فى نسج قصصه وحكاياته . فنجده يختار شخوصه من الحيوان أو الطير أو النبات — كما سيأتى عند الحديث عن الحكاية ونماذجها — وينطقها بما يشاء من تعاليم وأقوال .

كما يبدو تأثير البيئة واضحاً فى تلك المظاهر التى تعكسها فنون الأدب من حكاية إلى قصة إلى قصيدة ، حين تغترف من البيئة كثيراً من سماتها المميزة ، كالبساطة ، والأناقة ، والدعوة إلى العمل ونبذ التكاسل وإثارة ملكة التخيل ، وإشاعة الخوف فى بعض الأحيان ، والإيمان بالقوى الخفية والسحر وغير ذلك من سمات وخصائص تتميز بها البيئة وتنعكس على الأدب .

والحق أن تأثير البيئة على الإبداع الأدبى وتشكيله فى هذه المناطق من القارة بالذات ، بعد ما قدمنا من إشارات ولمسات سريعة ، هو — فى رأيى — أعمق دليل على تأثر الأدب — أى أدب — بالبيئة وارتباطه بها ، ذلك الارتباط الوثيق الذى دلت عليه الدراسات المقارنة فى النقد الحديث .

٧٠٠ لغة :

ليس من شك أن اللغة ظاهرة اجتماعية مكتسبة على جانب كبير من التعقيد . وليست وظيفتها التعبير عن الفكر فحسب ، وإنما هى — كأداة للتفاهم — وسيلة للتوصيل الأدبى أيضاً ، أى نقل المعانى والأفكار إلى المتلقى بعد صياغتها فى ألفاظ تنسق

تبعاً لقواعد معينة ، ويتم هذا النقل عن طريق المشافهة أو الكتابة . وهى بهذا المعنى عنصر هام ، لاغنى عنه ، من عناصر التشكيل الأدبى .

وأولى الحقائق التى تواجهنا عند الحديث عن اللغة فى أفريقيا هى كثرة اللغات وتعددها بصورة عجيبة . إذ يقدر العلماء عدد اللغات الأفريقية بما يربو على ٧٠٠ لغة ، يتحدث بها ما يربو أيضاً على مائتى مليون نسمة . يقول أندا بانتجى سيتهول ، وهو أحد أبناء القارة المتخصصين فى تاريخها :

« قبل مجىء الإرساليات التبشيرية إلى أفريقيا لم يكن بها من اللغات المكتوبة سوى أربع لغات فقط ضمن أكثر من ٧٠٠ لغة مختلفة . وهذه اللغات الأربع هى : الأمهرية ، العربية ، التماشيكية البربرية ، والسواحيلية . أما اللغات الأفريقية الأخرى فعلى الرغم من ثرائها فى قواعد النحو والصرف لم تكن إلا لغات تخاطب ومشافهة فقط » .

على أنه يمكن إرجاع هذا التعدد والكثرة فى لغات القارة إلى طبيعة النظام القبلى السائد فيها ، ذلك لأن عدداً كبيراً من القبائل يقطنها . وتتفرق هذه القبائل ، فى جهات معينة كالوسط والجنوب إلى بطون وعشائر ، لكل بطن أو عشيرة لغة خاصة . بل إن بعض القبائل ، كما فى غانا ، لها لغتان أو أكثر ، وفى نيجيريا نحو ٢٥٠ لغة تتحدث بها نحو ٢٥٠ قبيلة ، أى أن لكل منها لغة خاصة . هذا بينما فى ليبيريا التى يبلغ سكانها

مليونى نسمة نحو ٢٠ لغة وطنية .

ولقد كان هذا الاختلاف والتعدد فى اللغات — كما يقول سيتهول — من أهم العوامل التى أدت إلى وجود التقسيمات التى لا حصر لها فى أفريقيا . فقد كانت كل قبيلة تعيش منعزلة عن الأخرى لا بسبب الحدود الجغرافية فقط ، بل بسبب الاختلافات اللغوية بينها ، ومن ناحية أخرى كانت هذه الانقسامات التى أحدثتها فروق اللغة سبباً هاماً من أسباب نجاح المستعمرين فى السيطرة على القارة .

كما تتضح من هذه الكثرة أيضاً حقيقة ثانية تتصل بالحقيقة الأولى ، ومفادها أن هذه اللغات جميعاً باستثناء أربع ، هى « لغات تخاطب ومشافهة » .

ولقد لقيت معظم هذه اللغات اهتمام علماء اللغة المحدثين الذين أولوها عنايتهم ، واشتق منها بعضهم نظرية فى أصل اللغة تعرف باسم : Bow-Wow وتقضى بأن أول لغة عرفها الإنسان نشأت عن تقليده للأصوات الطبيعية لدى الحيوان والطير والنبات .

ولئن كانت مثل هذه النظرية تحمل فى ظاهرها معنى تأثير البيئة والغابة على اللغة إلا أنها لم تجد رواجاً لدى الكثيرين مما جعل بعضهم يستخف بها ويتهمها بمحاولة سجن اللغة داخل حظيرة للحيوان[1] .

---

(١) راجع : الدكتور إبراهيم أنيس فى « دلالة الألفاظ » ، الدكتور على عبد الواحد وافى فى « علم اللغة » .

ومن الحقائق الأخرى الجديرة بالانتباه أن كثيراً من هذه اللغات غير المكتوبة، وخاصة فى وسط أفريقيا، تتميز فيما تتميز بخلوها من فكرة التجريد التى تقوم عليها معظم اللغات المكتوبة تقريباً . ذلك لأن ظاهرة التطير التى تسيطر على الإنسان فى تلك المناطق ، والاعتقاد بسحر اللفظ وقوته ، يؤديان إلى التحرز فى استعمال الألفاظ مخافة التورط والعقاب ، كما يؤديان إلى تعدد الألفاظ بمعنى واحد ، وقلما نجد فيها لفظاً للأخ مثلا وإنما نجد لفظاً للأخ الأكبر ، وآخر للأصغر ، وهكذا . ومن ثمة يمكن فى تلك اللغات طرح عدد كبير من الألفاظ دون استعمال . فكثرة الألفاظ ذات المعانى المتقاربة هى فى الواقع نتيجة طبيعية لهجر ألفاظ واستعمال أخرى[1] .

ولعل اهتمام هذه اللغات بالتعبير عما هو محسوس ، أو منفرد بذاته ، هو نتاج البيئة ووليد الطبيعة التى طبعت على اللغة تسمية الشىء بذاته .

وثمة ظاهرة أخرى واضحة فى كثير من اللغات الأفريقية تلك هى التقارب الواضح بينها . فاللفظة تجدها فى لغة قريبة من نظيرتها فى لغة أخرى ، مما يجعل فكرة تقسيم هذه اللغات إلى أسر لغوية واحدة أمراً

(١) راجع تفصيل ذلك فى « دلالة الألفاظ » : الفصل الخامس تحت عنوان « اكتساب الدلالة » .

معقولا . ونمثل لذلك بثلاثة ألفاظ فى ثلاث لغات مختلفة تعيش فى منطقة تكاد تكون مشتركة فى العادات والتقاليد والجنس القبلى ، وهى منطقة جنوب أفريقيا وروديسيا الجنوبية . والألفاظ الثلاثة هى على التوالى : حرية ، رق ، ديمقراطية . اما اللغات فهى على التوالى أيضاً : الزولا ، الأكسهوسا ، الأنيدبيلى . ونوضح ذلك بالجدول التالى ، وقد استخرجناه من جداول أخرى مشابهة سجلها الأستاذ سينهول فى كتابه عن الوعى القومى فى أفريقيا :

حرية : Inkululeko, Inkulululeko, Inkululeko.

رق : Ulnqgili, Ulvqgili, Ulrqgili.

ديموقراطية : Ihandla, Ihunga, Ihandla.

فى هذه الألفاظ الثلاثة نجد التقارب الواضح ، بل يكاد يكون اللفظ واحداً إلا من تغيير فى أحد المقاطع بالحذف أو بالإضافة .

ولقد خرج العلماء من دراساتهم للغات أفريقيا بظاهرة هامة فى مجال الأدب . إذ قرر أكثر من واحد أن اللغات فى المناطق السوداء تتميز بطاقة خيال وتصور خصبة ، تجعلها فى النهاية ذات طابع أدبى . وقد أشار إلى ذلك الدكتور لويس عوض فى مقال قيم عن الأدب الأفريقى بقوله : « إنها تعبر عن المحسوسات أولا وقبل كل شىء ، ثم إنها تخاطب الخيال وهذا ما يجعلها لغات أدبية فى المرتبة الأولى ، مهما كانت ناقصة

فى مقومات التعبير الفلسفى أو التعبير المجرد بوجه عام » .

ولقد نجم عن ذلك كله أخيراً أن عاشت القارة — وخاصة الجزء الجنوبى منها — وهى لا تكاد تعرف الكلمة المكتوبة ، وإنما انصب كل النشاط التعبيرى والإبداعى على الشفاه : تنقله من مكان لآخر ومن جيل لآخر ، أغان وأنغاماً وحكايات .

مكانة الفنان والأديب :

ولعلنا نتساءل الآن : ما مكانة الفنان والأديب فى الجماعة الأفريقية ؟ وما دوره إن صح التعبير ، بعد أن أوجزنا القول فى البيئة واللغة ؟

والحق أن الفنان والأديب يتمتعان بمكانة كبيرة فى نفوس الأفريقيين ، ويعدان قوة طليعية فى الجماعة ، ولا غرو فلديهما أسرار التعبير فى بيئة تغرس الإحساس بالفن فى الإنسان وتشجعه على التعبير والانطلاق ، لتتلقى منه فى آخر الأمر الحكمة والهداية والإرشاد إلى جوار المتعة والتسلية .

يذكر العلامة سيجى فى كتابه عن « النحت الأفريقى » أن قبائل أتوتو التى تعيش فى غرب أفريقيا تقدر الفنان وتحترمه بل إنها تتيح له إمكانيات التفرغ لفنه ، حتى إن سكان القرية

إذا دعوا للأشغال العامة ، كإصلاح الطرق ، نجدهم يستثنون الفنانين من المساهمة فى مثل هذه الأشغال .

ولقد بلغ تقديرهم للفن حداً كبيراً ، إذ اعتادوا فى أيام الأعياد أن يعرضوا ما لديهم من تماثيل أمام دورهم على هيئة معارض صغيرة تنال إعجاب روادها من الأهالى أنفسهم .

وليس فن النحت هو وحده الذى يتمتع دون غيره من الفنون بالحظوة . ذلك لأن التقدير والاحترام يلحقان بباقى الفنون كالرقص والموسيقى ، بل أنهما يمتدان فنرى آثارهما واضحة فى مجال آخر كاللغة والأدب ، أى التعبير بالكلمة . فقلما نجد قبيلة تخلو من متحدث باسمها ، يختار على أساس توافر شروط معينة أهمها امتلاكه ناصية اللغة والبيان ومعرفته بالتواريخ والأخبار . ويقوم هذا الرجل ـ الذى يطلق عليه اسم « اللغوى » بجميع المهام التى تستلزم التعبير بالكلمة ، كالخطابة وبذل النصح والمجادلة ، وهو يتمتع بمكانة بالغة فى القبيلة ، وغالباً ما يأتى مقامه بعد مقام ملك القبيلة مباشرة .

غير أن اللغوى وغيره من مستشارى ملوك القبائل الأفريقية لا يستأثرون بمهمة التعبير بالكلمة ، وإنما يشاركهم فيها آخرون ممن أهلوا أنفسهم بالاستعداد والخبرة ، وهؤلاء يقومون بمهمة التربية والتعليم فى القبيلة ، ويتدرجون فى سلك التثقيف إلى أن نجد من بينهم من تخصص فى الإمتاع والتثقيف معاً ، فيعرف باسم « الراوى » أو « القصاص » .

ولعل أحداً فى القبيلة لا يملك القدرة على التصور والابتكار مثلما يملكها القصاص . ولعل أحداً لا يجاريه فى قدرته على امتلاك آذان سامعيه . فغالباً ما يتخذ مجلسه بعد الغروب ومن حوله حلقة من السامعين وطلاب المتعة والتسلية ، يجلسون فى وقار، وآذانهم مسلطة على ما يقول ، وما ينطق . فتراه يسرد الحادثة تلو الحادثة فى براعة وذكاء يجعلان السامع يعيش بكيانه معه . وتراه يمسك عن سرد حادثة لينتقل إلى أخرى فيتلهف السامع على تتبعه ومعرفة المزيد .

وهكذا الشاعر أيضاً فى هذه المناطق لا يقل دوره عن دور زملائه من الذين يملكون سر الكلمة ، فهم جميعاً يقفون فى خط القتال ضد كل من تسول له نفسه الاعتداء على مقدسات الجماعة ومعارفها . وهم أيضاً خط الدفاع وقت السلم، وطبول الحرب فى وقت الحرب .

عبء الرجل الأبيض :

للكاتب الأمريكى الساخر مارك توين كتيب بعنوان : « مناجاة الملك ليو بولد دفاعاً عن حكمه فى الكونغو» تهكم فيه على السياسة الاستعمارية ، ودلل على ذلك بأسلوبه الساخر قائلا إن دم الضحايا الأبرياء الذى أراقه الملك ليوبولد فى الكونغو لو صب فى دلاء ، ولو صفت هذه الدلاء لامتد الصف ألفى ميل ، ولو قدر للهياكل العظمية للملايين العشرة الذين قتلوا أو ماتوا جوعاً أن تنهض وتمشى فى خط واحد ،

لاستغرق مرورها من نقطة واحدة سبعة أشهر وأربعة أيام !

وليست هذه الصورة الساخرة سوى بعض من كل الحقائق المرة التى عاشتها القارة طوال تاريخ السيطرة الاستعمارية . . تلك السيطرة التى كان من أهم نتائجها :

● انعدام العدالة الاجتماعية فى الدخل والتوزيع .

● التفاوت الجسيم فى مستوى المعيشة بين المستعمرين والأفريقيين :

● الفقر والتخلف الشديدان .

● المرض وانعدام الرعاية الصحية .

● الجهل ومحاولة القضاء على اللغات الوطنية .

وحسبنا هنا أن نكتفى بالنتيجة الأخيرة ، مؤثرين مناقشتها بشىء من التفصيل ، يعكس فى الوقت نفسه مدى خطورة باقى النتائج الأخرى مما لا مجال لمناقشتها تفصيلا .

ولعل عبارة « جوبلز » وزير دعاية هتلر المعروفة « كلما سمعت كلمة الثقافة ، تحسست مسدسى » هى المفتاح لفهم مشكلة التعليم والثقافة بأفريقيا . وهى مشكلة مرتبطة أوثق الارتباط بالسياسة الاستعمارية وخاصة تلك الشعبة المعروفة بالتفرقة العنصرية .

ومن ثمة نراها بشكل حاد فى جنوب أفريقيا ونيجيريا وأوغندة ، أكثر مما نراها فى غيرها من الأقطار ، . وتهدف السياسات التعليمية التى وضعها المستعمرون ، على اختلاف

جنسياتهم ، إلى تربية الوطنيين فى القارة تربية تضمن تنشئتهم على الطاعة العمياء والتبعية ، كما ترسم هذه السياسات على أساس بث روح الخضوع والاستسلام للرجل الأبيض الذى يصور فى المناهج التعليمية بصورة المنقذ الفذ الذى ادخرته العناية الإلهية للأخذ بيد الأفريقيين ومعاونتهم وتحضيرهم . وتتفاوت حدة هذه السياسات كلما تفاوتت نظرة المستعمر . فالإنجليز مثلا يحددون سبل التعليم فى الأقطار التى يستعمرونها ، بحيث يضمنون مستوى معيناً من صغار الموظفين التابعين للإدارة الإنجليزية ، كما حدث فى مصر وغانا ، بينما الفرنسيون يشجعون التعليم ويفرضون لغتهم بحيث يقضون على اللغة الوطنية كما حدث فى الجزائر والكميرون الفرنسى ، حتى إذا توغلنا جنوباً نجد حكومة اتحاد جنوب أفريقيا المؤمنة بالتفرقة العنصرية ، لا تعترف بتعليم الوطنيين .

يقول أحد تقارير اللجنة المشتركة لتعليم الوطنيين فى حكومة الاتحاد (ويلاحظ أن الحكومة لم تعترف بحق الإفريقيين فى التعليم إلا مؤخراً) .

« إن الهدف من تعليم الوطنيين فى أفريقيا ، ينبغى أن يختلف تماماً عن الهدف من تعليم الأوربيين ، فإننا نعلم الطفل الأبيض لنعده للحياة فى بيئة مترفعة مسيطرة ، بينما نعلم الطفل الأسود لنعده للرضى بالحياة فى بيئة خاضعة مستسلمة » . ومن ثمة فإن ٤ من كل ٥ لا يتعلمون شيئاً على الإطلاق .

كذلك ذكر وزير شئون الوطنيين بحكومة الاتحاد فى عبارة كتبها عام ١٩٥٣ قوله :

« إنه لا جدوى من تدريس الرياضيات لأبناء قبائل البانتو ، طالما هم لا يستطيعون استخدامها فى الحياة » ثم يستطرد بعد ذلك قائلا :

« وعلى كل حال لا ينبغى المبالغة فى مسائل التعليم ، بل ينبغى أن يتاح التعليم للناس حسب الإمكانيات المتاحة لهم فى الحياة » !

ومعنى ذلك كله أن المستعمرين ، حتى لو أخذتهم الرأفة فإنهم يعتبرون التعليم منة كبيرة لا يستحقها إلا من يقع عليهم الاختيار الدقيق .

ولقد كان من جراء هذه السياسات المجحفة أن أربعة أخماس الشباب فى اتحاد جنوب أفريقيا ، على سبيل المثال ، لا يتعلمون شيئاً على الإطلاق ، وأن نسبة الطلبة الإفريقيين فى الجامعات والمعاهد العليا فى الاتحاد لا تتعدى ٣ ٪ . وليس من الغريب إذن أن تذكر إحصاءات اليونسكو أن ٩٠ ٪ من سكان الجنوب أميون تماماً ، تقف القوانين أمام تعليمهم ، وأن نحو ٦٧ ٪ من سكان غانا اميون تماماً كذلك حتى عام ١٩٥٧ .

لكن لماذا يلجأ الاستعمار إلى هذه الوسائل ؟ وماذا يفيده الحجر على التعليم ؟

الواقع أن اتباع هذه السياسات الخرقاء ومهاجمة الثقافة

والحجر عليها وإطلاق مسدسات جوبلز باستمرار، كل ذلك راجع إلى عدة أسباب نجملها فيما يلى :

* يخشى المستعمرون على اختلافهم أن يعطل التعليم الإنتاج داخل المستعمرات ، فهم فى حاجة إلى أيد عاملة باستمرار لامتصاص كنوز الأرض ، وبالتالى يكون من العسير إيجاد هؤلاء العمال فى حالة التوسع فى التعليم .

* يخشى المستعمرون تعليم الأفريقيين ، ويعدون ذلك إيذاناً لهم بالرحيل ، وهم يخشون التعليم الجامعى والعالى أشد الخشية. ومن ثمة نجد الأفريقيين الذين يلتحقون بالجامعات قلة محدودة .

ولقد عرفت أفريقيا ، فيما عرفت من نظم تعليمية نظاماً غريباً دعم الاستعمار وسانده . وهو نظام الإرساليات أو « إرساليات الحضارة » كما يسمونها . عرفته أفريقيا قبل أن تحس بوطأة الاستعمار ذاته . فقد دخلت أول بعثة تبشيرية غانا فى عام ١٧٥٢ ، أى قبل أن تسيطر عليها بريطانيا . ثم توالت البعثات من فرنسا وبلجيكا ، وأخيراً أمريكا التى يبلغ عدد إرسالياتها — حسب آخر إحصاء — نحو ٤٥٠٠ إرسالية فقط !

وتقوم هذه الإرساليات بدور خطير يتمثل فى محاربتها للغات الوطنية وإعلاء شأن اللغات الأوربية وكذلك تشويه رسالة الدين المسيحى للتأثير على عقول الأفريقيين ، حتى يتخلوا عن أراضيهم ، ويعتبروا أنفسهم ضيوفاً عليها . يقول أندا بانتجى سيتهول :

« عندما وصلت الإرساليات التبشيرية إلى أفريقيا ، وأرادت أن تنشر أهداف السياسة الاستعمارية عمدت إلى ترجمة كتبها إلى بعض اللغات الأفريقية ، حتى تستطيع أن تلون عقول الأفريقيين بأفكارها ، بطريقة أكثر فاعلية ، كما نشطت نشاطاً ملحوظاً بعد ذلك فى نشر اللغات الأوربية ، لا لكى تثقف الشباب الأفريقى بالتطورات الحضارية المعاصرة ؛ بل لكى تسهل على نفسها مهمة نشر الأفكار الاستعمارية عن طريق جذب عقول الأفريقيين إلى ثقافة البيض ، وإحساسهم بأنها الثقافة الحقة التى يجب الاتجاه إليها » .

وهكذا لم تتورع الإرساليات ذات الطابع الدينى السمح فى جوهره عن تشويه رسالتها ، مأخوذة بمبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » .

مشكلة اللغة مرة أخرى :

ولعلنا لمسنا فى تجربتنا مع الاستعمار الإنجليزى شيئاً كبيراً من هذا العسف والاضطهاد التعليمى والثقافى . . فقد حاول الإنجليز أن يقتلوا اللغة العربية بفرض لغتهم على المناهج التعليمية . وأقرب مثل لنا الآن هو ما فعلته فرنسا فى عربية الجزائر حين نجحت إلى حد ما فى عزلها وإحلال الفرنسية مكانها ، لدرجة أن كتاب الجزائر اتخذوا الفرنسية لغة لهم فى مؤلفاتهم وإبداعاتهم .

وشبيه بهذا وذاك ما فعله الإنجليز أيضاً فى شرق أفريقيا حين حاربوا اللغة السواحيلية وهى لغة مكتوبة كالعربية ، بل إنها تستخدم الأبجدية العربية فى الكتابة . ذلك أن الإنجليز قاموا بأحياء السواحيلية كى يوقفوا تيار العربية ، حتى إذا نجحوا فى ذلك فرضوا الحروف اللاتينية على السواحيلية ، حتى يتيسر لهم فى النهاية نشر الإنجليزية .

والواقع أنه قد نجم عن محاربة الاستعمار للغات الوطنية فى معظم أقطار القارة آثار خطيرة ، لعل من أهمها أن اللغات الوطنية ، التى قدرت بسبعمائة ، قد بقيت على حالها بلا كتابة ، وأن قليلا منها قد فرضت عليه الأبجدية اللاتينية ، وأن اللغات ذات الأصل اللاتينى قد أفادت فى النهاية واستأثرت باهتمام المثقفين والكتاب ، لا لشىء سوى أنها تربطهم بالعالم الخارجى .

ومن ثمة كان تعدد لغات القارة وكثرتها عاملا معوقاً لتطور الأدب وانتشاره ،لا لأن هذه اللغات قاصرة عن الوفاء بالتزامات الأدب ، وإنما لأن اللغات الأوربية الجاهزة كانت فى متناول أيدى الكتاب والمثقفين بحيث وفرت عليهم مؤنة تسجيل اللغات غير المكتوبة ومحاولة تنظيم قواعدها ، وهى مهمة التفتت إليها الحكومات الجديدة إثر القضاء على السيطرة الاستعمارية . ففى غانة تحاول الحكومة الأخذ بلغة وطنية واحدة ، فأنشأت مكتباً خاصاً للغات مهمته دراسة اللغات الوطنية السائدة ،

كما أصدرت سبع صحف بلغات غانا السبع الكبرى حتى يتيسر لها أن تصل إلى مختلف القبائل، التى تملك بعضها أكثر من لغة .

الصحافة والإذاعة :

وليست الصحافة والإذاعة فى الأقطار الأفريقية الحديثة أحسن حالا من غيرها من مظاهر التركة المثقلة التى خلفها الاستعمار وراءه . ذلك لأنه من الطبيعى أن تحارب الصحافة وغيرها من أجهزة الأعلام وصنع الرأى العام ، فى بيئات يحارب فيها التعليم والثقافة ، ويضرب عليهما بيد من حديد .

ولقد ظلت الحال كذلك حتى انتهاء الحرب الأخيرة ، إلا من بضع نشرات تصدرها الحكومات الاستعمارية أو إرسالياتها ، فى الوقت الذى سمح فيه بدخول الصحف الأوربية الكبيرة التى تقرأ فى لندن وباريس ونيويورك .

وبعد الحرب الأخيرة شهدت الأقطار الأفريقية جنوبى الصحراء حركة صحفية نشطة تبناها الأوربيون المستعمرون وغيرهم من الأجناس المستوطنة . ونشأت شركات ضخمة تولت إصدار عدد من الصحف باللغات الأوربية وبعض اللغات المحلية كالسواحيلية ولغة الكيكويو فى كينيا . ومن هذه الشركات شركة « إيست أفريكا ستاندرد » التى تصدر خمس صحف فى شرق أفريقيا ، وقد أسسها أغا خان فى عام ١٩٥٩ ، حيث يتمتع هناك بعدد وفير من الأتباع والمريدين .

ومن الغريب أنه فى منطقة شاسعة كغرب أفريقيا لم نكن لنجد ـ قبل سنوات قلائل ـ صحافة أفريقية خالصة إلا فى دولتين هما غانا ونيجيريا . أما باقى الأقطار فلم تكن تعرف الصحافة الأصيلة ، باستثناء حالات نادرة فى الكونغو ، وكينيا والصومال ، تبناها زعماء الحركة الوطنية بأنفسهم . وحتى هذه الصحافة الأصيلة لا تتمتع بمعدل توزيع معقول نتيجة للجهل والأمية . ذلك لأن معدل توزيع الصحف الأفريقية يتراوح بين ألفى نسخة و ١٢ ألفاً ، وهو معدل غاية فى الضآلة .

وهكذا كانت حال الإذاعة أيضاً ، وهى أحدث وسيلة إعلامية عرفتها أقطار القارة الحديثة العهد بالاستقلال . ولولا جهود بعض الأقطار لما سمعنا صوتاً أفريقياً أصيلا بعد القاهرة أو الخرطوم ، أو دول الشمال . فالإذاعة فى غانا مثلا إذاعة متقدمة ، تذيع براجها بعدة لغات وطنية . وقد كان من جهودها ـ على حداثتها ـ أن أنشأت جيلا جديداً من الكتاب ارتبط إنتاجه وإبداعه بالميكروفون .

تلك هى أهم مكونات اللوحة التى تقف خلف آداب أفريقيا الجديدة ، عرضناها بإيجاز ، متوخين ـ فى الوقت نفسه ـ إبراز العناصر المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأدب والإبداع الأدبى . ذلك لأنه من العسير أن نتذوق أدباً دون إلمام بطبيعة الأرض التى أنتجته . فما بالنا بأرض صنعت عليها مأساة احتوت الإنسان الأفريقى قرابة قرنين أو أكثر من الزمان .

التراث الشعبي

« إن الأساطير والقصص الشعبية فى أفريقيا السوداء
تقوم بدور التراث الكلاسيكى بالنسبة للآداب الأوربية »
(أفيجينيا كالبرينا)

من الثابت أن ظاهرة التراث الشعبي غير المكتوب أقدم بكثير من الأدب المكتوب ذاته . ذلك لأن الإنسان حاول منذ فجر الخليقة أن يعبر عما يجول فى نفسه من شئون وخواطر ، فاتخذ هذا التعبير اللغة وسيلة للإيصال والنقل ، وظل على تلك الحال طويلا إلى أن اكتشف الإنسان الكتابة ، فنشأت اللغات المكتوبة ، وبالتالى نشأ التراث المكتوب ، سواء تردد قبل ذلك على الشفاه ، أو سجلته الحروف والألفاظ على الحجر أو الورق وغيرهما من أدوات الكتابة .

ومن الطبيعى والمنطقى فى بيئة لا تعرف اللغات المكتوبة ، أن تنشأ آدابها منطوقة فقط ، لا تعرف الكتابة وسيلة للنقل . وإنما وسيلتها الشفاه . . وتلك هى حال الرقعة الأفريقية الفسيحة الممتدة فى أعقاب الصحراء الكبرى حتى شواطئ المحيطين : الهندى والأطلسى ، خارج مجال اللغات الأربع وعلى رأسها العربية .

ولقد اهتم علماء الأجناس الأوربيون بهذا التراث الشعبى

الأفريقى ، وسجلوا بعضه ونقلوه إلى لغاتهم وحاولوا أن يستخرجوا منه دلالات ونتائج فى الدراسات البشرية . لكن بغض النظر عن قيمة هذه الدلالات أو آثارها مما تختلف فيه الآراء ، يبقى لهم فضل تعريفنا بهذا التراث فى وقت مبكر ، قبل أن نعرفه عن طريق أصحابه أنفسهم .

والحق أن هذا التراث يتميز بصفتين أساسيتين ، هما :

العراقة ، والغزارة ، فضلا عما تتمتعان به من بساطة . وهما صفتان نابعتان من عراقة القارة وغزارة بيئتها .

ونحن إذا لجأنا إلى تصنيف أجناس هذا التراث وأشكاله فإننا نجد تحت أيدينا ثلاثة أشكال محددة نرتبها — حسب أهميتها وقيمتها — فيما يلى :

* الحكاية .
* المثل والقول المأثور .
* الأغنية .

الحكاية مدرسة الشعب :

من العسير أن يجيب باحث فى مجال التأريخ لأصل الحكاية الشعبية ، على سؤال مثل : من أنشأها ؟ ومتى ؟ . . ذلك لأن الإجابة هنا ، ترتبط بطبيعة الحكاية ذاتها ، وهى أنها لا تنتمى لفرد معين بقدر ما تنتمى لجماعة بأسرها ، وأنها لا تملك وسيلة

للذيوع ، فى أصولها ، بقدر ما تملك الألسن والشفاه ، فتاريخ نشأتها إذن يرجع إلى فجر الإنسانية ، شئنا أو لم نشأ .

ولقد حاول الكثيرون من علماء الفولكلور — رغم حداثة عهدنا بهذا النوع من العلوم — أن يبحثوا فى مصدر هذه الحكايات والقصص الشعبية ، لكنهم لم ينتهوا إلى قرار جامع شامل كما يقولون ، بل اختلفوا فيما بينهم . فمن قائل إنها — أى الحكاية — نشأت على أيدى رواة متأدبين ثم قل شأنها حين تناقلها رواة الشعوب البدائية . ومن قائل إنها رد الفعل الطبيعى لدى الإنسان إزاء الظواهر الطبيعية ، وإنها محاولة منه لتفسير هذه الظواهر . ومن قائل أخيراً — وليس آخراً — إن مصدرها الأحلام ، كما يقول أتباع مدرسة التحليل النفسى فى الأدب والنقد .

وأيا كان الأمر فى شأن تاريخ هذا اللون من الإبداع الأدبى فإنه يتصف فى النهاية بخاصيتين أساسيتين هما : اللازمن والعالمية ، بمعنى أنه لا يعرف زمناً محدداً ولا مكاناً محدداً لولادته ومسقط رأسه .

ولئن كان كثيرون من دارسى الآداب الشعبية يتفقون على أن آسيا هى الينبوع الذى تفجرت منه القصص الشعبية والحكايات ، وأن الهند هى الرحم الحقيقى للحكاية والقصة ، وعلى الأخص تلك المبنية على الأسطورة أو الخرافة ، فإن أفريقيا ينبوع ثر للحكاية والقصة أيضاً ، لا فى الكم فحسب

وإنما فى الكيف أيضاً .

لقد حاول نفر من دارسى الفولكلور أن يحصوا الحكايات الأفريقية فقدروها فى النهاية بنحو ربع مليون حكاية . ومع أن هذا التقدير متواضع فى حسابه إلا أنه يكشف عن حقيقة هامة فى دراستنا وتذوقنا للحكاية الشعبية الأفريقية . ذلك أن الشعوب الأفريقية فى مناطق الوسط والغرب والجنوب فى القارة تعتد — كما سبق أن أشرنا — بالحكاية كوسيلة للتثقيف والإمتاع وكغاية للتعبير عن موقف الإنسان إزاء مظاهر البيئة والمجتمع . يقول ملتون روجف فى تقديمه لمجموعة من هذه الحكايات والأقاصيص :

« إن القصص التى يحكيها رجال القبائل الأفريقيون خارج القرية بعد الغروب عادة ذات قيمة بالنسبة للمشتغل بعلم الأنثروبولوجيا أكثر من قيمتها بالنسبة للقارئ العام ، هذا فضلا عن كونها أمراً يرجع إلى التقاليد ، إذ أن هذا هو الوقت الوحيد المناسب لروايتها » .

ولعل أهم ألوان الحكاية الشعبية الأفريقية هو اللون الخرافى Fable أى الذى يستند إلى الخرافة والأسطورة ، فيعكسها أو يدعو إليها . فالأفريقى ، كما يقول و . ف. بيرتون ، هو « أمير الحكاية الخرافية بلا منازع » ولم يأت تربعه على عرش إمارة كهذه اختياراً أو عفواً ، ذلك لأن البيئة والطبيعة تمدانه بهالة ساحرة من الغرابة والهول معاً ، وتجعلانه يقف فى أحيان

كثيرة موقف الخاشع الذى لا يملك سوى طلب المغفرة والعون .
ومن ثمة كانت الخرافة والأسطورة بالنسبة له رد الفعل الطبيعى لما يراه أو يلمسه من ألوان الغموض أو الهول أو الغرابة ، التى كثيراً ما يعجز ويحار أمام تفسيرها . وبالإضافة إلى هذا اللون نجد ألواناً أخرى من الحكايات أهمها : حكايات الطير والحيوان والحكايات ذات المغزى الأخلاقى البحت .

لكن كيف ينسج الراوى الأفريقى حكايته ، وكيف يصنعها ؟ . إن الدارس لطائفة من حكايات وسط أو غرب أفريقيا لا يلبث أن يكتشف فيها عدداً من السمات أو مفردات التشكيل القصصى ، بمعنى أصح .

وأولى هذه المفردات هى شخصيات الحكاية التى ترتبط — كما يرتبط اختيارها — ارتباطاً وثيقاً بالبيئة . فنجد الأشجار والأدغال ، والأسماك والحيوانات ، والطيور ، والصحارى والجبال . وغير ذلك من عناصر البيئة . ويستعين بها صانع الحكاية وراويها ، فيلبسها ما يشاء من المعانى والدلالات . لكنه لا يكتفى بذلك ، وإنما يضفى عليها الخيال ، وهو عنصر بالغ الأهمية فى تشكيل الحكايات الشعبية بوجه خاص ، لكننا نراه لدى الراوى الأفريقى ثرياً وخصباً ، بدرجة غير معقولة إذا نظرنا إليه بمقياس الأدب المكتوب ، فالشجرة تتكلم ، والطريق تنفتح فجأة وتختفى فجأة ، والرجل يدخل فاها يظهر له فجأة فيعود بالخير تارة وبالشقاء تارة ، والسمكة تنطق الحكمة كما لا ينطقها فيلسوف .

يصنع الراوى كل ذلك وغيره مستخدماً مهارته وقدرته على التأثير ، فهو ينتقل من حادثة إلى أخرى ومن مغامرة إلى أخرى بطاقة لا يحدها سوى قدرته على الخلق والإبتكار من ناحية وصبر مستمعيه واهتمامهم من ناحية أخرى . كما يلجأ إلى الحيل الفنية التى تضفى على عمله المهارة والذكاء ، ومنها على سبيل المثال : التكرار ، وهو حيلة فنية بالغة الأهمية فى الأعمال المنطوقة كاستجابة طبيعية للحاجة إلى التأكيد وربط المتذوق — الذى يستخدم حاسة السمع — بما يسمع ويرى من تجسيد للحكاية يتخذ — فى أحيان كثيرة — شكل التمثيل على خشبة المسرح . كما أن منها التكاثر ، أى توليد الأحداث وتوليفها ، وكذلك استخدام المؤثرات الصوتية وأسلوبى الاعتراض والاستدراك وغير ذلك مما يحقق عنصر الإثارة أو التوتر Suspense الذى نراه فى القصص الحديثة المكتوبة .

وطبيعى أن كل ذلك مرده إلى أن وسيلة إذاعة هذه الحكايات هى الشفاه فقط . ولذلك نرى كثيرين ممن سجلوها من الأوربيين يعترفون بعجزهم إزاء نقلها إلى لغاتهم المكتوبة . ومن ذلك مايقوله بيرتون : « والشىء الوحيد الذى أسفت له ، هو أننى لم أستطع أن أعبر — عن طريق الأسلوب الإنجليزى المقتضب الجاف — عن كل ما فى هذه الحكايات من جمال كما يرويها الرجل الأفريقى . وهى لا تحتفظ برونقها إلا إذا قام بروايتها « البامفومى » العجوز ، وهو نصف عريان ، وسط أعمدة

الدخان المتصاعدة من النيران حيث تمثل أشجار الغابة المظلمة خلفية الصورة ، وحيث صرير الحشرات ، ونقيق الضفادع فى الجداول وصرخات ابن آوى تأتى من بعيد » .

ولا شك أن هذه الحكايات الشعبية تشكل جانباً هاماً من جوانب الحصيلة الفكرية للجماعات المنتجة لها ، وتتغلغل فى حياة هذه الجماعات – عن طريق مبدعيها – مؤدية إلى تكثيف قيمها ومثلها ، وتقطيرهما فى مدلولات مركزة . وهى لا تؤكد هذه القيم والمثل فحسب ، وإنما تدعو إلى الصالح منها أيضاً . ومن هذه القيم طائفة نسوقها هنا – على سبيل المثال لا الحصر – وقد خرجنا بها من مطالعتنا لنحو ١٥٠ حكاية شعبية من وسط وغرب القارة :

الوفاء بالوعد ، تقديس العمل ونبذ الكسل ، احترام الغير مهما صغر شأنه وعدم التدخل فى شئونه ، احترام الأبوة والأمومة والأخوة وغيرها من روابط الدم ، الاعتزاز بالنفس ، تقديس الحرية والديمقراطية، نبذ الجدل ، القناعة لا الطمع ، العدالة لا الظلم ، البساطة لا التبرج ، الحب والتعاطف والعطف .

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى ما تقوم به الحكاية من دور إزاء الظواهر الطبيعية والبشرية . ذلك لأنها تلجأ إلى تفسير هذه الظواهر وإيجاد دلالات لها . فإحداها مثلا ، تفسر لون الحرباء ونقص أصابعها وتردهما إلى حادثة وقعت بين الحرباء وصديقين

حين حاولت الحرباء أن توقع بينهما ، لكنهما ما لبثا أن اكتشفا أمرها ، وأسرع أحدهما بفأسه ليقتلها ، وإذا بها تلجأ إلى تغيير لونها من الأحمر إلى البنى إلى الأخضر ، وتنجو بنفسها . لكن الصديقين قررا أن يشعلا النار فى الشجرة التى اختفت فيها الحرباء . وعندئذ ظهرت ، فأمسك بها أحدهما وألقى بها فى النار ، لكنها تمكنت من الفرار بعد أن أتت النار على بعض أصابعها . وهذا سر نقص أصابع يديها وقدميها ، وقدرتها على التلون .

وحكاية ثانية تلقى الضوء على الفيل وصراعه مع الإنسان إلى أن قررا إعلان مبدأ التعايش السلمى فى النهاية ، وظلا على تلك الحال إلى الآن ، كما نرى ذلك فى حكاية « تاكيس » حيث نجد أن فرس النهر وسلحفاة الماء ، كانا ملكا وملكة فى القديم ، ثم مسخا .

والحق أن رصيد قارتنا من الحكايات الشعبية ضخم ، خصب ، ويتمتع فى مجال الدراسات المقارنة بمكانة طيبة جديرة به . وفى ذلك يقول ملتون روجف :

« فى الحقيقة أن كثيراً من قصص الحيوان الأفريقية عالمى ، وهذا القصص ابن عم لقصص رواه رينارد فى أوربا ، وكويوت فى جنوب غربى أمريكا . غير أن هذه الروابط العائلية قلما تؤثر فى معالم شخصيته المستقلة » .

وفوق ذلك كله فالقصص والحكايات مدرسة للشعب ، يتلقى فيها أصول الحكمة والثقافة والقدرة على التصور والإدراك .

الأمثال دعامة الحديث العادى :

لا شك أن المثل الشعبي أو القول المأثور هو خلاصة مركزة لتجربة كبيرة فى حياة الجماعة المنتجة له . ومن ثمة فهو يأتى فى كلمات قليلة ، لكنها غنية المضمون ، تحمل معنى كبيراً ، لو انفسح المجال أمام صياغته لانفردت به قصة أو حكاية بأسرها .

ولئن كانت الأمثال فى آداب كثيرة ، وحتى فى شمال قارتنا ، تميل إلى التجريد دون التخصيص باستعمال مفردات خاصة معينة ، إلا أنها تزداد ارتباطاً بالبيئة — كما هى الحال فى الحكاية — كلما اتجهنا جنوباً بعد الصحراء الكبرى . ولو أننا حاولنا أن نستخرج مثل هذه الالفاظ الخاصة الدالة على البيئة فى ثلاثة أمثال فقط — على سبيل المثال — مما نجده فى غير هذا المكان لكانت على النحو التالى :

نهر ، مصب ، ديك البردى ، الشجر ، تمساح ، الرجل لأبيض ، الأنجيل ، الأرض . ومعنى ذلك أن معظم أمثال شعوب القارة خارج نطاق الصحراء تميل إلى التخصيص باستعمال مفردات لها دلالتها الخاصة المتصلة بالبيئة .

وتعتمد الحكايات الشعبية على المثل والحكمة مثلما تعتمد على عناصر البيئة . فنجدها حافلة بالتعبيرات التى تجرى مجرى الحكمة ؛ بل إنها فى كثير من الأحوال ، لا تعدو أن تكون تفسيراً وبياناً لهذه الحكمة وذلك المثل ، وخاصة حين تلتزم الوجهة التعليمية . مثال ذلك دوران الحكاية على حكم أو أفكار ، مثل : لا تقرض ولا تقترض ، تعدد الزوجات معناه تعدد المشاكل ، المرء الذى لا يقدر على ضبط شئون نفسه لا يقدر على ضبط شئون الغير ، دخول المرأة الغريبة البيت خطر ، الكلب كلب ولو شاء غير ذلك .

والواقع أن الأمثال والحكم والأقوال المأثورة تلعب دوراً رئيسيًّا فى حياة الجماعات والشعوب الأفريقية حتى إنها لتبدو لدى بعضهم — كما يقول بيرتون — جزءاً لا يتجزأ من الحديث الدارج . بل إنها تكون — أحيانا — محوراً تدور عليه مسابقات فى الذكاء والمعرفة . إذ يطرح المعلم الشعبى أو الراوى الفقرة الأولى من المثل ثم يطلب إلى أحد مستمعيه إكماله فتكون من ذلك مطارحات ومناظرات تحظى باهتمام جمهور المستمعين وشغفهم .

الأغنية أساس الشعر :

من المعروف أن الشعر قد نشأ من الأغنية ، لدى الجماعات القديمة كالإغريق والعرب . ولما كانت الأغنية هى أساس الشعر ، فقد اقترنت منذ نشأتها بالموسيقى ، نتيجة عدم

ارتباطها بالتدوين واعتمادها على الارتجال من ناحية ، ومصاحبتها لفن الرقص من ناحية أخرى .

لكن لماذا يغنى الإنسان ؟

لقد اخترع الإنسان الأدوات فى مرحلة مبكرة من تاريخه ثم اخترع الحديث ، ومن ثمة ارتبطت اليد بالعقل ، كمنظم لحركاتها ، ومحلك لفاعليتها . وهكذا نشأ الكلام والحديث كجزء متمم لفن الإنتاج داخل الجماعة البدائية . وبدأ ، فى أولى صوره ملازماً لاستخدام الأدوات ملازمة مباشرة ، ثم تطور فأصبح لغة ذات قواعد ومعجم ألفاظ .

وفى تلك المرحلة المتقدمة من تاريخ الإنسان نشأت الحاجة إلى الغناء ، نتيجة لعدة دوافع أهمها : حاجة الإنسان إلى تصريف طاقته الوجدانية ، وتأثير الإيقاع والنغم والخيال عليه باحتكاكه بالطبيعة ومكوناتها ، ورغبته الملحة فى التطلع والطموح . لكن الأغنية رغم ذلك ظلت ملازمة لعملية الإنتاج يقصدها الإنسان لتخفف عنه بجفاف الحياة من حوله ، أو لينشد رجاء معيناً ، أو ليجعلها عوناً له فى إنجاز المهام والأمور . وهو فى أغلب الأحوال لا يؤدى الأغنية منفرداً ، وإنما يؤديها بشكل جماعى . مثال ذلك ما عرفته اليونان القديمة من أغانى العمل ، وما عرفه العرب أيضاً حين كانت الأغنية تستخدم

كعامل مساعد فى الإنتاج مثل حداء الإبل ، وأراجيز السقى من الآبار . وكذلك ما عرفته شعوب أفريقيا — وما تعرفه إلى اليوم — من أغان جماعية تؤدى استجلاباً للخير أو المطر ، أو رجاء دفع الكوارث .

فالأصل فى الغناء إذن أنه كان جماعياً ، لكنه أخذ يتطور بفعل المدنية ، إلى أن أصبح يؤدى فى أحيان كثيرة ، على لسان فرد واحد ، وحتى هذا الفرد الواحد نجد أغانيه — مثلها مثل الأغانى الجماعية — تدور حول ثلاثة أقطاب فى الغالب : إما لأنه سعيد بأمل تحقق ، وإما لأنه متألم لفقد شيء عما عزيز عليه ، وإما لأنه يرجو تحقيق أمل ما . وفى هذه الأحوال الثلاث تلعب الأغنية دوراً هاماً فى تشكيل حياة الإنسان وعواطفه .

وفى قارتنا ينفسح المجال للأغنية ، ويعظم فيها الجانب الجماعى فى الأداء ، وتزداد الأغنية من ناحية الكم ازدياداً كبيراً ، حتى تكون رصيداً من الأغانى لا حصر له . ففى غانا وحدها نجد رصيداً هائلا متنوعاً من هذه الأغانى ، وأبرزها أغانى « الكلاما » التى يقدر الباحثون عددها بما يزيد على ستين ألف أغنية ، تؤدى بشكل جماعى أو فردى أثناء احتفالاتهم ومهرجاناتهم الدينية والاجتماعية .

كما ينتشر فى غرب القارة نوع من الغناء القريب من الملاحم ، يؤديه متخصصون من الشعراء الشعبيين يعرفون باسم

Griots وهو نوع شبيه بما كان يؤديه فريق التروبادور إبان العصور الوسطى فى أوربا . ويطوف هؤلاء الشعراء الشعبيون بالقرى والقبائل ، يحكون قصص الكفاح الوطنى والبطولات بمصاحبة الموسيقى .

الأغنية والسحر :

ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نشير إلى ظاهرة السحر ، وهى ظاهرة اجتماعية تسود فى المجتمعات البدائية ، وتلعب دوراً هاماً فى تفكيرها وفى نشأة فنونها وآدابها . ذلك لأننا نجد لدى معظم شعوب القارة جنوب الصحراء أن السحر والطقوس الدينية يمثلان تقليداً لما ترغب فيه الجماعة . ومن ثمة يكون السحر هو فن الإنتاج الحقيقى فى مظهره الذاتى .

ومعنى ذلك أن الرغبات والمطامح لا تتأتى إلا عن طريق المحاكاة الخيالية لها . وهى محاكاة وهمية فى الحقيقة لكنها تتمتع باحترام الجماعة ، ذلك لأن وظيفة السحر لدى الجماعات البدائية هى نشدان المستحيل أو غير الممكن . وكذلك الأغنية تقوم بهذا الدور فتلجأ إلى أن تبث فى الجماعة الرغبة فيما يرجى تحققه وإن يكن لم يتحقق بعد .

فبعض قبائل وسط أفريقيا حين تدهمها كارثة مثل انقطاع المطر أو عاصفة تقتلع المحاصيل ، تلجأ إلى الأغنية والرقص .

فتتجمع الفتيات والفتية ، وينتظم الجميع فى دائرة كبيرة ثم ينشدون أغنية بمصاحبة الدفوف والطبول ، يقصدون بها أن يعود المطر أو أن تهدأ العاصفة . بل إنهم يجسدون أثناء الغناء حركات سقوط المطر أو هدوء العاصفة قاصدين أن يستجيب لهم المطر والعاصفة فيسقط الأول وتهدأ الثانية . وطبيعى أنهم يدركون بل ويؤمنون أن أغنيتهم ليست نداء فحسب وإنما هى وسيلة وعامل يساعد على تحقيق الرجاء .

وهكذا الحال أيضاً فى فنون الأدب الشعبى الأخرى ، وعلى رأسها الحكاية . فنجد للسحر فى الحكاية الشعبية قيمة كبيرة ، إذ تلجأ إليه كوسيلة للخلاص إن خيراً أو شراً .

فالبشر يتحولون بقدرة السحر إلى حيوانات ، إن هم أخلفوا وعداً أو أتوا جرماً . وكذلك تعطى لهم مفاتيح للسعادة والخير إن هم صلحوا وأثمروا . ومن ثمة فإن عملية التحويل المستمرة فى الكيان أو الهيئة التى تواجهنا بكثرة فى الحكايات الشعبية فى أفريقيا — كما فى غيرها من القارات — هى وسيلة للخلاص بالدرجة الأولى: الخلاص عن طريق السحر فحسب .

* * *

إن التراث الشعبى فى أفريقيا هو فى الحقيقة نتاج طويل خصب لبيئة خصبة بكنوزها المادية والمعنوية . ولا جدال فى أنه الدعامة الأساسية التى يقوم عليها الأدب المكتوب الناشىء

٥٤

في معظم الأقطار التى استقلت حديثاً . وليس من الغرابة إذن أن يؤدى بالنسبة للآداب المكتوبة ذات الدور الذى أداه التراث الإغريقى واللاتينى بالنسبة للآداب الأوربية المكتوبة التى استقلت بلغاتها منذ عصر النهضة .

الأدب للحياة

« فى عصرنا هذا الذى يشهد انهيار النظام الاستعمارى تحت ضغط القوى الشعبية ، بينما يحتضر المارد الإمبريالى نفسه فى انتفاضاته اليائسة الدامية ، فى عصرنا نحن أكثر من أى عصر الآن ، فإن الكاتب الذى يقبل نظرية الفن للفن ، إنما يلعب – فى الحقيقة – بمواهبه ، ويصبح شريكاً فى اغتيال شعوبنا وثقافاتنا »

(أوسندى أفانا)

عود على بدء :

فى كلمة ألقاها ليوبولد سنغور ، شاعر السنغال ورئيس جمهوريتها الحالى ، بالمؤتمر الأول للكتاب والفنانين السود ، قال يصف الإنسان الإفريقى ، ويحدد موقفه من الإحساس والإبداع الفنيين :

« إن الرجل الأسود هو إنسان الطبيعة كما قال الكثيرون فهو يعيش مع أرضه ومن أرضه بشكل تقليدى . . . إنه إنسان حسى متفتح الحواس ، لا يقبل الوساطة بين الذات والموضوع .. لكنه يقبل كل شىء أنغاماً وروائح ، وإيقاعات ، وأشكالا وألواناً . . . إنه يحس الأشياء أكثر مما يراها » .

ففى هذه العبارة القصيرة تأكيد لما سبق أن بيناه فى الصفحات السابقة ، لكننا نسوقها هنا لتفسير سلوك الإنسان

الأفريقى إزاء السيطرة الاستعمارية التى واجهها فى العصر الحديث ، وما طبعته على وجه الحياة الأفريقية من آثار سيئة ما تزال الجهود تبذل، حتى اليوم، لمحو بقاياها . فقد أحس الإفريقى بالسيطرة وعاناها ، واكتوى بآلامها ، أكثر مما رآها مجسدة فى بشر مثله ، لا يتمتعون سوى باللون الأبيض، كما أحس بها تتفشى فى كل ذرة من ذرات الطبيعة وما فيها ومن عليها :

فقد استولوا على أرضه وامتصوا كنوزها ، وقطعوا أشجارها وسرقوا حيواناتها لتتمتع بمشاهدتها بلادهم ، وعزلوه وساقوه إلى السخرة وباعوا ملايين من أبنائه فى سوق الرقيق ، وحرموه من حقوقه الطبيعية فى التعلم والتطوير والحرية ، وفرضوا عليه لغاتهم وأبجدياتهم ، واستباحوا حرماته ، وبالجملة دفنوا كل رغبة لديه فى الحياة الحرة الكريمة .

ولئن كانت السيطرة الاستعمارية قد نجحت بقليل أو كثير فى تحقيق هذه المظاهر السابقة التى تشكل الصورة العامة لمأساة الإنسان الأفريقى جنوب الصحراء الكبرى بوجه خاص ، إلا أنها فى الحقيقة قد فشلت ، بل عجزت تماماً عن قهر حرية التعبير التقليدية التى عاش عليها طوال تاريخه ، ومارسها بلا أبجدية مكتوبة .

ذلك لأن التراث الشعبى قد تولى طوال فترة السيطرة ، مهمة التعبير عن إحساس الإنسان بالمأساة واكتوائه بها ، داخل

قوالب متنوعة من موسيقى ورقص وأغان وحكايات .

ولقد لمسنا فيما سقناه من أمثلة كيف مارس الإنسان الأفريقى حقه فى التعلم فى ظل السيطرة التى أعطته إياه بمقدار ، وحسب تشخيص أطبائها من المتخصصين فى القهر والاستعباد . بل إن هذه الجرعات اليسيرة لم تسلم من السموم ، فقد جاءت جميعها بلغات المستعمرين ومادتهم ، قلباً وقالباً .

وليس أبلغ فى هذا الشأن مما كتب رئيس غينيا وبطل كفاحها « سيكوتورى » حين قال :

« إن الكتب المدرسية فى مدارس المستعمرات كانت تتحدث عن حروب فرنسا وحياة جان دارك وانتصارات نابليون وقصائد لامرتين ومسرح موليير . . . أى عن كل شىء خلا أفريقيا ، وكأن لم يكن لها أبداً تاريخها وجغرافيتها ولا حياتها الثقافية . » .

غير أن عملية محو الشخصية الأفريقية هذه لم تخل من رد فعل ذى أهمية بالغة بالنسبة لانتصارات كفاح القارة . ذلك لأن الخطة التى وضعها المستعمرون للقضاء على الكيان والروح الأفريقية عن طريق فرض اللغات والثقافات الأجنبية قد أثمرت فى غير صالح أصحابها . إذ ما لبث الأفريقيون أن أقبلوا على ما أتيح لهم من فرص التعلم المحدودة بغير لغاتهم ، وما لبثوا أيضاً أن وضعوا أيديهم بقوة إحساسهم على الجوانب المضيئة فى هذه اللغات والثقافات .

وهكذا أصبحت ثورات فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وروسيا ، وكفاح كرومويل ولنكولن ، وحياة جان دارك وتراث شكسبير ، وفولتير وهيجو . . . أصبح كل ذلك وغيره نبعاً ينهل منه الأفريقيون ، ومبعثاً لشعار «من فمكم ندينكم» وعلامة مضيئة على طريق استعادة العزة والحرية السليبتين .

السيف والقلم يتحدان :

وليس من الغريب إذن أن تنزل الثقافة إلى المعركة سلاحاً للوعى بالمأساة ، والدعوة إلى تصفيتها بل ليس من الغريب أيضاً أن ترتبط الثقافة بالكفاح الوطنى الذى ساد معظم أقطار القارة فيما بين الحربين وفى أعقاب الحرب الثانية بصفة خاصة . ومن ثمة ولدت أشكال الأدب المكتوب فى حضن النضال الوطنى ضد السيطرة ، وبتأثير الجوانب المضيئة فى الثقافات والآداب الأجنبية .

وثمة حقيقة على جانب كبير من الأهمية — هنا — فى مجال التأريخ والنقد الأدبى بالنسبة لأقطار القارة الأفريقية التى تخلصت من السيطرة حديثاً ، وهى حقيقة تتجمع عناصرها من استقراء تاريخ حياة زعماء حركات التحرير فى أفريقيا بعد الحرب الأخيرة ، وتؤكدها فى الوقت نفسه الشواهد الملموسة

وتلك أن معظم هؤلاء الزعماء — إن لم يكن جميعهم

من المثقفين الذين ارتبط مفهوم النضال الوطنى لديهم بسلاح الثقافة والكلمة ارتباط اللحم بالدم فى الجسم الحى . فهم قد مارسوا النشاط الفكرى والأدبى بوجه خاص ، إما بطريقة نظرية تتخذ صورة التثقيف الذاتى دون التعبير الأدبى ، وإما بطريقة عملية تتخذ صورة التعبير الأدبى — وتلك هى الصورة الغالبة — من مقال ، إلى قصة ، إلى قصيدة ، متدرجة فى النهاية حتى تصل إلى الخطبة السياسية أو الاجتماعية .

نرى ذلك فى اللغة العربية متمثلا فى شخصية الرئيس جمال عبد الناصر ، وقد كتب فى مطلع شبابه قصة « فى سبيل الحرية » ، كما نراه خارج نطاق اللغة العربية واضحاً لدى كوامى نكروما رئيس غانا ، الذى ألف فى الاقتصاد والسياسة ، كما ترجم لحياته وكفاحه ترجمة ذاتية Autobiograhpy لم تخل من عذوبة الأسلوب وذكاء الملاحظة ، ولدى سيكوتورى رئيس غينيا الذى أسهم بقدر كبير فى الحركة الثقافية والأدبية فى غينيا ، وكذلك فى تعريف العالم بآداب القارة حين اشترك فى المؤتمر الثانى للكتاب والفنانين السود بروما . ولدى بطل كفاح كينيا الدكتور جوموكينياتا ، وله اهتمام معروف بالتراث الشعبى ضمنه كثيراً من قصصه المؤلفة . ولدى ليوبولد سنغور رئيس السنغال ، وهو شاعر معروف تقدره أوربا ، كما أن له دوراً كبيراً فى تجميع أدباء القارة والتقائهم فى أول مؤتمر لهم

بباريس . وأخيراً — وليس آخراً — نرى ذلك لدى شهيد الكونغو وشاعرها الوطنى الرقيق باتريس لومومبا ، الذى توارى صوت الشعر لديه حين دفعته ظروف الحركة الوطنية فى بلاده إلى الاستغراق فى العمل السياسى فى نهاية الخمسينيات تماماً، كما هى الحال لدى زملائه وأقرانه زعماء حركات التحرير فى القارة، الذين دفعتهم ظروف النضال الوطنى إلى الاستغراق فى العمل السياسى .

والحق أن هؤلاء الزعماء والقادة لم ينصرفوا تماماً عن التعبير الأدبى ، وإنما اتخذ لديهم قوالب أخرى ، أهمها : التخطيط لبلادهم وتطويرها وحراسة حريتها ، والمساهمة الإيجابية فى بعث الثورة فى النفوس ، إيماناً بأن الإبداع عملية تأتى تلقائية بعد الوعى والتسليح الوطنى والثقافى . وهذا ما عبر عنه سيكوتورى بحق ، فى قوله بخطبة ألقاها فى مؤتمر روما :

« إنه لا يكفى أن نكتب أغنية ثورية ، بل إنه من الضرورى لكى نسهم فى ثورة أفريقيا أن نبعث هذه الثورة ، وأن نسهم مع الشعب فى خلقها ، وحينئذ سنرى كيف تأتى هذه الأغانى تلقائياً ».

وهكذا ، وفى ظل هذه الظروف مجتمعة ، ولد الأدب الوطنى المكتوب ، رغم شهادة ميلاده المسجلة بأبجديات أجنبية ، وتفتحت براعمه فى فترة ما بين الحربين ، واستقام عوده بعد حصول معظم أقطار القارة على استقلالها بعد الحرب الأخيرة .

باندونج فى السياسة وأخرى فى الأدب :

لقد شهدت فترة ما بعد الحرب الأخيرة ، وخاصة الستينيات ، احتدام معركة الشعوب ضد الاستعمار لا فى أفريقيا فحسب ، وإنما فى آسيا أيضاً ، وهما القارتان اللتان كانتا مسرح السيطرة الاستعمارية ، وميدان سباقها . ولأول مرة فى تاريخ القارتين المناضلتين التقت شعوبهما المتحررة وكان ذلك فى مدينة باندونج الأندونيسية فى أبريل سنة ١٩٥٥ ، حيث تصافحت آسيا وأفريقيا الجديدتان اللتان «ولدتا ولادة جديدة» ، كما قال الرئيس سوكارنو .

والحق أن لقاء باندونج كان فاتحة مثمرة لعديد من اللقاءات بعد ذلك على المستوى النضالى والسياسى والأدبى ، فلأول مرة فى تاريخ آداب أفريقيا التقى كتابها وفنانوها ، جنوبى الصحراء بباريس فى أول مؤتمر لهم فى سبتمبر سنة ١٩٥٦ . وفى هذا المؤتمر وقف أليون ديوب ، الذى يصدر مجلة « الحضارة الأفريقية » بباريس ، والتى نظمت المؤتمر ، فقال فى خطبة الافتتاح :

« إن هذا اليوم هو من أيام التاريخ المنشودة . . . إنه أهم حدث عالمى — فى السنوات العشر الأخيرة — بعد مؤتمر باندونج » .

وقد قام هذا المؤتمر ، الأول من نوعه ، بالكشف عن

التراث الأفريقى وارتباطاته بالظروف العالمية والسيطرة ، كما بحث أوضاع الشعوب الأفريقية وكتابها وفنونها وآدابها . ودعا فى بيانه « الفنانين والكتاب ورجال الدين والمفكرين والعلماء والإخصائيين إلى الاشتراك فى هذا العمل التاريخى ، الذى يهدف إلى بعث هذه الثقافات وإعادتها إلى المكان اللائق بها ، وتنسيقها ، وذلك بقصد تسهيل إدماجها فى الثقافة الإنسانية » .

وفى الشهر التالى ، أى فى ديسمبر سنة ١٩٥٦ التقى كتاب آسيا لأول مرة فى تاريخهم أيضاً فى مؤتمر شهدته العاصمة الهندية حيث تدارسوا مشاكل القارة وآدابها وطرق تطويرها .

ومن هذا المؤتمر انبثقت فكرة الالتقاء بين كتاب القارتين كما التقى زعماؤها فى باندونج. وشهدت مدينة طشقند أول مؤتمر لكتاب آسيا وأفريقيا فى أكتوبر سنة ١٩٥٨ حيث التقت وفود ٤٢ دولة آسيوية وأفريقية . وأطلق على المؤتمر بحق « باندونج الأدبية » .

وفى العام التالى شهدت العاصمة الإيطالية ثانى مؤتمر للكتاب والفنانين الأفريقيين جنوبى الصحراء ، وكان فى مارس ١٩٥٩ .

وفى فبراير سنة ١٩٦٢ شهدت القاهرة ثانى مؤتمر لكتاب آسيا وأفريقيا . . وهكذا انعقدت فى الفترة من١٩٥٦ إلى١٩٦٢ خمسة مؤتمرات : ثلاثة لكل من كتاب القارتين على حدة ، واثنان لهما مجتمعتين .

والحق أن هذه المؤتمرات قد أخذت على عاتقها — دون غيرها من جهود — مهمة تعريف العالم بالجديد فى القارتين ، على كل المستويات . فكان لها فى مجال الأدب فضل تعريف العالم بآداب أفريقيا وتراثها المنطوق والمكتوب ، كما كان لها ، فوق هذا وذلك ، فضل تأكيد عدد من القيم لا غنى عنها ، لدارسي هذه الآداب ومتذوقيها ، وهى قيم أشرنا إلى بعضها فى الصفحات السابقة ، لكننا نعود فنجملها من واقع بيانات هذه المؤتمرات ومحاضر جلساتها وقراراتها — فيما يلى :

* لا ثقافة بلا حرية ، ولا حضارة ولا تقدم بلا استقلال .

* قضية الأدب مرتبطة كل الارتباط بمصائر الشعوب ، ولا يمكن ازدهار الأدب إلا فى ظروف الحرية والاستقلال وسيادة الشعوب. والشرط الأول للازدهار الأدبى هو تصفية الاستعمار والقضاء على التمييز العنصرى .

* الكاتب مسئول أمام شعبه ، وهو مطالب بتصوير وتطوير حياة وآمال هذا الشعب ، الذى طالما شوهت صورته وحرفت أفكاره فى عهد السيطرة الاستعمارية .

* الكتاب والأدباء مطالبون بتقوية الثقافات القومية والعمل على تصحيح تاريخ حضارات قارتهم وثقافاتها وتطوير لغاتها الوطنية وتسجيلها .

* * *

ومن كل ما تقدم يتضح لنا بجلاء كيف كان مبدأ الأدب

للحياة بديلا ضروريًّا وموضوعيًّا للدعوات الأخرى التى تقلل من شأن دور الأدب فى المجتمع والنهوض به . فلقد ولدت معظم آداب القارة المكتوبة فى ظل مأساة الإنسان الأفريقى . وهى بالتالى آداب ملتزمة بطبيعتها ، وليست مهمتها تفسير الواقع من حولها فحسب ، وإنما « تغييره وتحويله نحو التحرير الكامل للإنسان » كما عبر عن ذلك بحق « أوسندى آفانا » رئيس وفد كتاب الكاميرون فى المؤتمر الثانى لكتاب أفريقيا وآسيا .

كتابات جديدة

« إن كل عمل هام للكتاب أو الفنانين الأفريقيين إنما هو شهادة ضد العنصرية ، وضد الاستعمار الغربي ».

(أليون ديوب)

« إن جزءاً كبيراً من روائع الأدب الفرنسي يرجع إلى إنتاج الأفريقيين والكاريبيين ، وليس هناك ثمة شك في أن المؤلفين السود هم أهم العناصر التي تهتف بالشعر في القرن العشرين » .

(جان بول سارتر)

كان لاشتعال الحركة الوطنية وسريانها في معظم أقطار القارة جنوبي الصحراء في أعقاب الحرب الأخيرة فضل كبير في نشأة الأدب المكتوب ونموه في هذا الجزء الضخم من القارة الذي يطلق عليه علماء الدراسات البشرية اسم « أفريقيا السوداء » .

فقد ارتبط الأدب المكتوب بالكفاح الوطني ، وكان سلاحاً قوياً من أسلحته ، رغم كل الظروف المعوقة لنشأة الأدب وتطوره ، وعلى رأسها الأمية الفادحة والتخلف الثقافي اللذان سببتهما السيطرة الاستعمارية .

وليس من الغريب أن تنشأ هذه الآداب المكتوبة في

حضن اللغات الأجنبية التي فرضها الاستعمار واتخذها المثقفون الأفريقيون وسيلة لنشر الوعي وتعريف العالم بأقطارهم وآدابها ، بل والنهوض بهذه الأقطار ذاتها .

ولقد أدت ظاهرة اطراد الأدب المكتوب ونموه فى أقطار عديدة من القارة — تبدأ من مدغشقر وكينيا فى الشرق وتصل إلى الكاميرون والسنغال فى الغرب ، ومن الروديسيات فى الوسط إلى أقصى الجنوب — إلى جذب الأنظار إليها واهتمام العالم بها . ذلك لأن الإنسان فى هذه المناطق عرف لأول مرة فى تاريخه كيف يعبر عن نفسه بالكلمة المكتوبة ، وبذات النسق الذى يعبر به الإنسان خارج القارة عن نفسه .

ونشأت أجيال جديدة تبدع مختلف الأجناس الأدبية المعروفة ، مرتكزة إلى تراث شعبي غزير أصيل ، منتفعة فى الوقت ذاته بما حققه التراث الإنسانى من مستويات فى فن الأدب والكتابة .

لغتان وألوان من الشعر والنثر :

ولقد ظهرت هذه الأعمال الجديدة المكتوبة بلغات أوربية وكانت اللغتان الإنجليزية والفرنسية على رأس هذه اللغات ، التى سجلت ميلاد ألوان من الشعر والنثر لشعراء وكتاب من أبناء القارة . بل إن التراث الشعبي فى هذه الأقطار لم يصلنا إلا

عن طريق هاتين اللغتين بعد أن جمعه وسجله الأوربيون أنفسهم .

ولقد فطن الكتاب الأفريقيون الجدد إلى أهمية هذا التراث الشعبي ، إذ أكدوا فى جميع مؤتمراتهم على أهمية جمعه وتنسيقه وتصحيح ما نحله الأوربيون وزيفوه منه. كما شرعوا – بالفعل – فى الانتفاع به . ففى نيجيريا حاول كثيرون وعلى رأسهم الكاتب القصصى آموس توتولا توظيف هذا التراث المنطوق فى الأدب المكتوب ، كما ألح توتولا على القصص والحكايات الشعبية ، وأعاد كتابة بعضها من جديد ، وغير دلالات البعض الآخر ، لدرجة أن ناقداً انجليزيا – هو جيرالد مور – وصف أعماله بأنها « تطوير للأسطورة البطولية ذات الموضوع الواحد » . ولا يقتصر دور التراث الشعبي على النثر المكتوب فقط ، وإنما يتسع فيشمل الشعر أيضاً .

غير أن المتتبع للحركات الأدبية الناشئة فى الأقطار الواقعة جنوب الصحراء ، يجد فى السنوات الأخيرة ، اهتماماً كبيراً بالقصة والرواية والأقصوصة . كما يلحظ أن هذه الحركات تزداد فى أقطار مثل الكميرون والسنغال ونيجيريا وغانا ، أكثر مما هى عليه فى أقطار أخرى ، كغينيا وكينيا والصومال واتحاد الجنوب .

ومن بين الكتاب الذين لمعوا فى السنوات الأخيرة كاتب شاب من الكاميرون يدعى « مونجو بيتى » وقد نجح فى تصوير

مجتمعه والأخطار المحدقة به . فقد تناول فى إنتاجه عدداً من مشاكل بلاده وعلى رأسها : إرساليات التبشير ووجهها الحقيقى الذى تخفيه خلف سماحة الدين ، والتقاليد القديمة واصطدامها بالأفكار والمعتقدات الحديثة .

وفى الكميرون أيضاً جيل كامل من الكتاب ، يقف على رأسه — إلى جوار مونجوبيتى — فرديناند أيونو وبنيامين ماتيب . كما نجد فى السنغال عبد الله سادجى ، وعثمان سمبين ، وكذلك شاعرها ليو بولد سنغور . وكل هؤلاء يكتبون بالفرنسية .

أما الكتاب الذين يستعينون باللغة الإنجليزية فأكثرهم فى غانا ونيجيريا . ومن بينهم أندرو أوبوك وتيودورا سوثرلاند ، ودى أنانج فى غانا ، وآموس توتولا ، وشنوا أشيب فى نيجيريا ، ووليام كونتون فى الغرب .

على أن هذا النشاط الأدبى الذى تستأثر به القصة والشعر لم يتسع للمسرحية . ولعل ذلك راجع إلى طبيعة المسرحية ذاتها ، باعتبارها لوناً أدبياً يتطلب قدراً من الثقافة والمهارة الفنية ، إن فى كتابتها ، وإن فى تذوقها . ولعله راجع أيضاً إلى حداثة عهد هذه الأقطار بالاستقلال وانصرافها إلى التنمية الاقتصادية ورفع مستوى معيشة أبنائها .

خصائص وسمات :

وقد يكون من المفيد أن نلقى بعض الضوء على خصائص هذه الآداب الناشئة وسماتها واتجاهاتها . وأولى الحقائق التى تواجه متذوق هذه الأعمال من قصة إلى قصيدة ، أنها تحتفل بقضايا القارة احتفالا كبيراً ، وتلح على تفهم الواقع الأفريقى وتصويره ، والكشف عن أعماقه ، التى لا يزال بها أثر — بل آثار — من رواسب السيطرة الاستعمارية . ومن ثمة نجد أن أن معظم الأعمال المكتوبة تشكل دعوة صريحة أو ضمنية للنضال والتطور . . النضال ضد كافة المظاهر التى أعاقت الحضارة الأفريقية عن الازدهار والنمو والتطور إلى أشكال المجتمعات الحديثة الآخذة بأسباب المدنية والتقدم .

لكن تبقى بعد ذلك أهم قضية تشغل هؤلاء الكتاب الجدد ، وهى قضية لاتفتأ تطاردهم وتطالبهم بالحلول والنهايات . ذلك لأن الاستقلال الذى حصلت عليه أقطار القارة مؤخراً لم يكن وليد منحة من المستغل والمستعمر . وإنما جاء مقابل البذل والنضال ، وبحد السيف إن شئنا الدقة . وقد كان من العسير على أبناء القارة الذين عانوا الأمرين طويلا من السيطرة الاستعمارية أن يواجهوا حياتهم الجديدة بلا مبالاة أو سلبية . ومن ثمة نشأ صراع حاد بين الماضى المغلق والحاضر المتفتح بلانهاية.

وعم التساؤل : كيف نصل الماضى المتخلف بالحاضر ؟ كيف نحل التناقض بين البيئة الأفريقية البسيطة المتواضعة وبديلتها

الأوربية المتحضرة بدرجات متطرفة أحياناً ؟ كيف يتم التوفيق بين المعتقدات القديمة ذات الطابع الأسطورى وبديلتها العملية التى جاءت نتيجة الاحتكاك بأوربا ؟ . . إلى غير ذلك من مظاهر التساؤل التى أحسها الكتاب الجدد ، وعنوا بالبحث عن إجاباتها الشافية المقنعة .

ومن السمات الجديرة بالاعتبار يضاً فى مجال النقد وفن الكتابة القصصية أن معظم القصص والروايات الجديدة تجرى أحداثها على لسان بطلها ، أو كاتبها بمعنى آخر . ولئن كانت هذه الوسيلة الفنية فى البناء القصصى شائعة فى التراجم الذاتية بوجه خاص ، إلا أنها لا تجد قبولا كبيراً فى القصة والرواية الحديثة ، لدى الكتاب العالميين ، باستثناء قلة منهم وعلى الأخص الروائى الإيطالى البرتومورافيا والكاتب الإنجليزى سومرست موم ، والحق أن هذه الوسيلة تصاحب الكاتب فى مطلع حياته الأدبية لما توحيه من بساطة ويسر ظاهرين ، لكنها قلما تصاحبه فى كل إنتاجه . ولعل فى ذلك ما يجعلنا نغفر لمعظم هذه الأعمال الأفريقية الجديدة إلحاحها على « الأنا » والأسلوب الذاتى اللذين قد يكونا أثراً من آثار غلبة الذات على الموضوع لدى الإنسان الأفريقى فى تلك المناطق .

* * *

لقد تلقى العالم — وخاصة فى أوربا وأمريكا — هذه الكتابات الجديدة باهتمام كبير ، وشرع الناس يتذوقونها ،

ويحسون فيها جدة وطرافة وغرابة ، كما حظيت باهتمام النقاد والدارسين الذين أولوها عناية لا بأس بها ، وخصصوا لها صفحات ومؤلفات بأكملها ، معترفين بموهبة أصحابها .

ومع ذلك لم تسلم هذه الأعمال من الانتقادات التى يهمنا منها جانبها الفنى بغض النظر عن الجوانب الأخرى الدعائية . فقد عيب على الروايات والقصص الجديدة ضعف شخصياتها وضحالتها ، وميلها إلى الخطابة والوعظ ، كما عيب على كتابها المظهر الأحادى فى رسم الشخصيات التى تخلو من تعدد الأبعاد وإنسانية الصورة ، وكذلك حصرهم الصراع الدرامى فى دائرة ضيقة لا تخرج به عن السياسة كثيراً .

وأيا كان الأمر فى شأن هذه الانتقادات ، فأكثرها لا يخلو من الصحة ، وليس مما يضير الكتاب الأفريقيين الجدد أن يقعوا تحت طائلة النقد ، فهم حديثوا العهد — نسبيًّا — بالكتابة والتأليف ، بعد تلك السنوات الطويلة التى انسلخت من تاريخ القارة إبان السيطرة الاستعمارية .

وأحسب أن الطريق ستنفتح رويداً رويداً أمام هؤلاء الكتاب والشعراء الجدد يوم أن تستقر الأوضاع فى أقطارهم ، وعندئذ سوف يثرون التراث الإنسانى ، ويمدونه بشريان قوى جديد .

نماذج من التراث الشعبي والأدب الجديد

حزن كوديو

« أغنية من ساحل العاج »

كنا فى طريقنا إلى العمل
بالمدينة :
ثلاث نسوة ،
ورجال ثلاثة ،
وأنا ، كوديو أنجو
وفى الطريق افتقدت زوجتى نانانا ،
لقد افتقدتها وحدى دون الآخرين
ولحقت بى تلك التعاسة دون الآخرين
لحقت بى تلك التعاسة دون الآخرين ، أنا كوديو ،
أبهى الرجال الثلاثة طلعة ، وأحلاهم .
وعبثاً ناديت زوجتى ،
فقد ماتت فى الطريق كما يموت فرخ دجاجة طليق ،
كيف لى أن أخبر أمها ،
كيف لى أن أقص عليها ما حدث ، أنا كوديو ،

حين يكون من العسير على ،
أن أكبح ألمي أنا !

ضغينة

« أغنية من موزمبيق »

أيها الجمال ،
اجعل كل ما أبتغيه منك حراماً على ،
حرم على كيانك ما شاء لك هواك ،
ارفضه !
إن الأذرة الذى يأكله شعبك هو عيون بشرية
والأقداح التى يشرب فيها شعبك هى جماجم بشرية
والبطاطس التى يشويها على النار شعبك هى أصابع بشرية
ارفضني ما شاء لك هواك ،
اجعل كل ما أبتغيه منك حراماً على ، ما شاءت لك إرادتك .
فلا أحد سواى سيتطلع إلى الحصول عليك !

فرحة المخدوع

« أغنية من أفريقيا الأستوائية »

زوجتى قالت لى :
إننى ذاهبة إلى السوق
فرحت بدورى إلى السوق
حيث لم . . .
حيث لم أعثر على زوجتى
صديقى قال لى :
إننى ذاهب إلى دكانى
فرحت بدورى إلى الدكان
حيث لم . . .
حيث لم أعثر على صديقى
وبينا كنت أسير على الشاطىء ،
عند الغروب ،
إذا بى أرى الصديق
يخوننى مع زوجتى
يخوننى . . .
وتعطشت سكينى :
حقيقة كان بوسعى

نعم ، كان بوسعى أن أسفك دمه
ما لم يكن فى الوقت المناسب
ما لم يكن قد استيقظ فى الوقت المناسب . .
ليمنحنى خمسة جنيهات ،
أخذتها ،
ومضيت ،
بزوجتى . . .
لأن الماء يزيل الرائحة ،
رائحة الحب . .
ولأن النقود لا رائحة لها !

كلام

« حكاية من لغة الأشانتى »

حدث ذات مرة بالقرب من مدينة أكرا على خليج غينيا ، أن خرج فلاح إلى بستانه ، كى يجمع شيئاً من ثمار البطاطا لبيعه فى السوق . وبينما كان يحفر الأرض ليقتلع الثمار ، إذا بثمرة من ثمار البطاطا تقول له :

« حسن ، ها أنت تجىء أخيراً ، إنك لم تعتن بى ، ولم تشذب الطفيليات من حولى قط ، ومع ذلك أقبلت الآن

بفأسك ، فاغرب عن وجهي ، ودعني وشأني » .

واستدار الفلاح ونظر حواليه ، ثم تحول ببصره صوب بقرته والدهشة تعلو وجهه . وكانت البقرة تجتر طعامها وتمضغه على مهل وهي تنظر إليه .

سألها قائلا : أما رأيت شيئاً ؟ لكن البقرة استمرت تمضغ طعامها دون أن تنطق ، وإذا بكلب الرجل يقول :

« ليست البقرة هي التي حدثتك ، وإنما هي البطاطا ، وقد قالت : دعني وشأني » .

وغضب الرجل لأن كلبه لم يحدث قط أن تكلم ، وفوق هذا لم يكن راضياً عن الطريقة التي تكلم بها الكلب . ومن ثمة استل سكينه واندفع إلى نخلة قريبة ، فانتزع عوداً منها قاصداً أن يعاقب به كلبه . وعندئذ قالت النخلة : « الق بهذا العود » .

وكاد الرجل أن يفقد صوابه للطريقة التي كانت تجري عليها الأمور . وما إن هم بإلقاء العود بعيداً حتى قال الأخير : « أيها الرجل الق بي برفق» . ووضع الرجل العود برفق على حجر قريب وعندئذ قال الحجر : « ماذا حدث ، ارفع هذا الشيء عني ! »

وإلى هنا كان الأمر كافياً ، إذ شرع الفلاح المذعور في العدو تجاه قريته .

وفي الطريق قابل صياداً كان يسير في الاتجاه الآخر وقد وضع على رأسه شبكة الصيد .

وسأله صياد السمك : « ماذا فى الأمر؟» ، فأجاب الفلاح :
« لقد قالت لى البطاطا دعنى وشأنى ، وعند ما رحت لأضرب كلبى بعود من شجرة النخيل قالت النخلة : الق بالعود ، وعندئذ قال العود افعل ذلك برفق ، ثم قال الحجر ارفع هذا الشىء عنى ! »

وعندئذ قالت شبكة الصيد : « حسناً وهل رفع العود عن الحجر؟ » وصاح الصياد : « ماذا ؟ !»

ثم ألقى بالشبكة على الأرض وشرع يعدو مع الفلاح . وفى الطريق قابلا نساجاً يحمل على رأسه ربطة من القماش . فسألهما النساج : « لماذا تهرولان ؟ » قال الفلاح :

لقد قالت لى البطاطا : « دعنى وشأنى » ، وقال الكلب : « اصغ لما تقوله البطاطا! » وقالت النخلة : «الق بهذا العود» ، وقال العود « افعل ذلك برفق » ، ثم قال الحجر : « ارفع هذا عنى » .

ثم واصل الصياد الكلام قائلا : وقالت شبكة الصيد : « ليس هناك ما يسبب الذعر مطلقاً » . وعندئذ قالت ربطة القماش التى وضعها النساج فوق رأسه :

«حقاً ، فلو أن هذا قد حدث لك لما توانيت عن العدو أيضاً »

وصاح النساج : « ماذا ؟ ! » ثم ألقى بربطة القماش فى الطريق وشرع يعدو مع الرجلين الآخرين . . وأقبلوا وهم يلهثون على مخاضة فى النهر ، فوجدوا رجلا يستحم . وسألهم الرجل قائلا :

« أراكم مسرعين ، أتطاردون غزالا؟ » فقال الرجل الأول وهو يلهث :

لقد تحدثت البطاطا إلى ، وقالت : دعنى وشأنى ، وقال كلبى اصغ إلى البطاطا ، وعند ما قطعت بنفسى عوداً من النخلة قالت التى بهذا العود ، وقال العود افعل ذلك برفق ! وقال الحجر ارفع هذا الشيء عنى . » وقال الصياد وهو يلهث : « وقالت شبكتى هل فعل الرجل ما طلبه الحجر منه ؟ وتمالك النساج نفسه وتمتم قائلا : وقالت ربطة القماش التى أحملها لقد عدوت أيضاً . وعندئذ سألهم الرجل الواقف فى النهر : « أهذا هو سبب عدوكم ؟ » فرد النهر قائلا :

« حسناً أما كنت تعدو لو أنك كنت فى مثل موقفهم ؟ »

وعندئذ قفز الرجل من الماء وشرع يعدو مع الآخرين ، مخترقين الشارع الرئيسى فى القرية ، المؤدى إلى بيت العمدة ، وأتى خادم العمدة بأريكة ليجلس عليها العمدة الذى راح يصغى لشكواهم .

وأخذ الرجال الأربعة يعيدون سرد ما حدث لهم .

قال الفلاح ، وهو يطوح بذراعيه :

« خرجت إلى بستانى لأقتلع شيئاً من البطاطا . وعندئذ بدأ كل شيء يتحدث ! فقالت البطاطا دعنى وشأنى ، وقال كلبى اصغ إلى البطاطا ، وقالت النخلة التى بهذا العود ، وقال العود افعل ذلك برفق ، وقال الحجر ارفعه عنى ! »

وقال الصياد : « وقالت شبكة الصيد التى كنت أحملها : حسناً ، وهل قام الرجل بذلك ؟ »

وقال النساج : « وقال قماشى إنك ستعدو أيضاً ! »

وقال الرجل الذى كان يستحم وعيناه متوهجتان ، والألفاظ تخرج من بين شفتيه بخشونة : « وقال النهر مثل هذا » .

وأصغى العمدة إليهم على مضض ، ولكنه لم يستطع أن يمنع الغيظ والانفعال من أن يتسربا إلى وجهه ، وقال وهو يقطب حاجبيه ويضيق من فتحة عينيه :

« والآن ، إن هذه القصة فى الحقيقة قصة وحشية ، ومن الأفضل لكم أن تعودوا إلى أعمالكم قبل أن أشرع فى عقابكم بسبب تعكيركم للأمن والسلام » .

ومن ثمة مضى الرجال الأربعة فى النهاية عائدين ، وهز العمدة رأسه وأخذ يتمتم قائلا :

« إن هراء كهذا كفيل بقلب كيان المجتمع » .

وعندئذ قالت الأريكة التى كان يجلس عليها :

« يا لها من حكاية مثيرة ، أليس كذلك ؟ . . تصور ، بطاطا تتكلم ! » .

تاكيس

« حكاية من لغة الهوسا »

ضلت بقرة كان يقتنيها أحد رعاة إقليم بيهل حين أوشكت على الوضع ، وحطت رحالها فى مكان مهجور . ولما عادت إلى حظيرة صاحبها التف حولها الثيران . وما إن عرفوا أنها ولدت عجلها حتى شرعوا يبحثون عنه فى الحال . لكنهم لم يعثروا له على أثر ، رغم أنهم ذرعوا الأرض المفروشة بالعشب طولا وعرضاً . ثم عادوا آسفين إلى المرعى ، قائلين إن العجل لابد أن يكون قد راح ضحية للحيوانات المفترسة .

وذهبت امرأة عجوز إلى المكان المهجور ، كى تحضر أوراق السلق التى تستخدمها فى إعداد الكسكس [1] ، فوقعت عيناها على العجل أسفل شجيرة ، وهو واقف محنى الظهر . فاصطحبته إلى منزلها حيث أطعمته من العشب والتبن .

وكبر العجل، وأصبح ثوراً ضخماً بديع التكوين .

وذات يوم أقبل على القرية أحد الجزارين وطلب من المرأة العجوز أن تبيعه ثورها ، لكنها أبت ورفضت قائلة :

---

(١) طعام شعبى لكثير من أهالى وسط وغرب أفريقيا .

« إن تاكيس (وهو الاسم الذى خلعته على حيوانها بالتبنى) ليس للبيع . »

ولما بلغ الضيق بالجزار كل مبلغ ، مضى إلى الملك وقال له :

إن زينيبو العجوز تقتنى ثوراً ضخماً ، لا يجب أن يتمتع بلحمه أحد سواك ، إنه غاية فى الروعة .

وبعث السارتى[1] بالجزار وبصحبته ستة آخرون من الرجال تحت إمرة واحد من رسله كى يحضروا ثور المرأة العجوز . وعند ما بلغ الركب الصغير دار زينيبو[2] قال لها كبير الرسل :

— لقد أرسلنا السارتى إليك ،كى نحضر له ثورك ليذبح غداً فأجابت :

— ليس من شأنى أن أعارض رغبات الملك . لكن لى مطلباً واحداً أرجو أن تحققوه لى ، وهو أن تتركوا تاكيس حتى صباح الغد ، وحينئذ خذوه معكم .

وفى الصباح التالى ، عند الفجر ، أقبل الدانساما[3] والجزارون السبعة على دار المرأة العجوز واقتربوا من المزود الذى ربط إليه تاكيس .

---

(١) الملك بلغة الهوسا .

(٢) العجوز بلغة الهوسا .

(٣) الرسول ، أو كبير القوم بلغة الهوسا

وأقبل الثور تجاههم ، خافض الرأس ، وقرناه منكسان ، بينما هو يشخب بصوت مسموع . وفزع الرجال الثمانية من منظر الثور ، وتراجعوا إلى الوراء ، ونادى الدانساما على المرأة العجوز قائلا : « أيتها العجوز ، قولى لثورك أن يدعنا نضع الحبل حول عنقه . » ومضت المرأة العجوز إلى الثور وقالت له :

— تاكيس يا عزيزى ، دعهم يضعون الحبل حول عنقك .

عندئذ أطاع الثور ، فوضعوا أنشوطة حول عنقه وربطوا إحدى قائمتيه الخلفيتين بحبل ، ثم قادوه إلى السارتى .

وما إن ضمتهم حضرة الملك حتى ألقى الجزارون بالثور أرضاً ، وأرقدوه على جنبه ، وربطوا قوائمه الأربع ، ثم دنا منه أحدهم بسكين . وهم بذبحه . غير أن السكين لم تتحرك قيد شعرة على عنقه ولم تتمكن من لحمه ، إذ كان تاكيس يتمتع بقوة تفل الحديد ، وتحول بينه وبين أن يحك جلده أو يخدشه .

وطلب كبير الجزارين من الملك أن يأمر بإحضار المرأة العجوز . وأعلن أنه من المستحيل أن يذبح تاكيس بدونها ، إذ أنه محصن بلا شك ضد الحديد .

وبعث السارتى فى طلب المرأة العجوز ، وقال لها :

« إن لم يتمكنوا من ذبح ثورك بلا أدنى تأخير ، فسوف أجز عنقك » .

ومضت المرأة العجوز إلى تاكيس الذى كان ما يزال مقيداً وملقى على الأرض . وقالت له :

— تاكيس ، يا عزيزى ، دعهم يذبحونك . فكل شىء الآن من أجل الرئيس .

عندئذ ذبح كبير الجزارين الثور بلا أدنى مشقة وسلخ الجزارون الجثة وقطعوها وأخذوا اللحم إلى السارتى ، الذى أمر بمنح الدهن والأمعاء للمرأة العجوز ، كنصيب لها .

ووضعت العجوز كل شىء فى سلة قديمة، ومضت بها إلى دارها ، حيث وضعت الدهن والأمعاء فى إناء كبير . ذلك لأن قلبها لم يطاوعها على أكل الحيوان الذى ربته وأطعمته وأغرمت به .

ولم يكن لدى المرأة العجوز طفل أو عبد . لذا كان عليها أن ترعى شئون دارها بنفسها ، ولكن حدث بعد أن وضعت مخلفات تاكيس فى الإناء أن وجدت كوخها يكنس كل يوم ، كما وجدت جرار الماء تملأ به إلى حوافها . وكان ذلك يحدث كلما تغيبت خارج الدار لحظة . ذلك أن الأمعاء والدهن كانا يتحولان كل صباح إلى فتاتين جميلتين ، كانتا تقومان بالعمل فى الدار بدلا من المرأة .

وذات صباح قالت المرأة الطيبة لنفسها :

— اليوم سوف أكشف النقاب عن شخصية الذى يكنس الأرض ويملأ جرار الماء .

وغادرت الكوخ ، وأغلقت مدخله بحصير ، ثم جلست ، مستترة خلفه ، وأخذت تنظر من خلال الثقوب كى تتبين

ما يحدث فى الداخل .

وما كادت تجلس حتى ترامت إلى سمعها ضجة داخل الكوخ ، فراحت تصغى دون أن تفزع أو تنزعج وكان الصوت ناشئاً عن حفيف مكنسة على الأرض .

وأنزلت الحصير دفعة واحدة . وعندئذ شاهدت فتاتين جميلتين ، أخذتا تعدوان بأقصى ما استطاعتا من سرعة ، كى تختبئا فى الجرة ، فصاحت فيهما :

ـ على رسلكما . ليس لدى أطفال كما تعرفان . وسنعيش ثلاثتنا ، سوياً هنا .

وعندئذ توقفت الفتاتان عن العدو ، ثم اقتربتا من المرأة العجوز ، فما كان منها إلا أن خلعت على أجملهما اسم « تاكيس » أما الأخرى فقد أطلقت عليها اسم « أيزا » .

وعاشت الفتاتان مع المرأة العجوز طويلا دون أن يعلم بسرهما أحد ، إذ أنهما بقيتا بالدار ولم يغادراها قط .

وذات يوم أقبل على الكوخ جامبارى[1] وطلب جرعة ماء فأحضرتها له تاكيس . لكن الرجل الغريب دهش لما رأته عيناه وصعقه جمالها حتى أنساه الماء .

وعند ما زار الرجل الملك أبلغه بما رأى . وأضاف قائلا :

---

(١) رجل بلغة الهوسا .

– إن هذه الفتاة لا تليق إلا بسارتى .

وفى الحال أمر السارتى رجاله بالذهاب إلى بيت الفتاة وإحضارها ، وأقبلت بصحبة المرأة العجوز فقال لها السارتى :

– إن ابنتك رائعة الحسن ، وسوف أتزوجها . !

فأجابت المرأة العجوز :

– يسرنى أن أزوجك إياها ، لكن لى شرطاً واحداً هو ألا تقع عليها الشمس ، أو أن تقترب من نار ، ذلك لأنها سوف تذوب حينئذ فى الحال ، كما تذوب قطعة الدهن .

ووعد السارتى المرأة العجوز بأنه لن يعرض تاكيس إلى ضوء قط . ولن تقوم قط بعمل من أعمال المطبخ . وهكذا فلن يكون هناك خوف من أن تتعرض للحرارة التى تشكل خطراً على حياتها .

وهكذا اقترنت تاكيس بالملك ، الذى أحلها مكان الزوجة المصطفاة من بين زوجاته الأخريات ، وأصبحت الأخيرة زوجة عادية بعد أن أنزلت عن مكانها ، ولم يكن يسمح لها بالمثول بين يدى زوجها إلا بإذن خاص .

ومرت سبعة من الشهور . ثم خرج السارتى فى رحلة . وفى اليوم الذى بدأ فيه رحلته تجمعت النساء والتففن حول تاكيس قائلات :

– إن الزوجة المصطفاة لابد أن تعمل ، وأنت لا تعملين

قط . وإذا لم تقومى فى الحال بإعداد هذا السمسم من أجلنا على النار ، فسوف نقتلك ونلقى بجسدك فى الزيت المغلى .

وفزعت تاكيس من هذا التهديد وخشيت عواقبه ، فدنت من النار ، كي تعد السمسم فى إناء ، وما إن انحنت على المقلاة حتى بدأ جسمها فى الذوبان ، مثلما تذوب الزبد إذا تعرضت للشمس . وتحولت إلى سائل دهنى أعقبه نهير كبير اختط مجراه على الأرض . ولاحظت الزوجات الأخريات هذا التحول دون أن يحركن ساكناً . وما إن انتهى كل شيء حتى قالت الزوجة المصطفاة سابقاً :

ـــ لقد انتهينا الآن فتمعن فى كلماتى ، وخذن حذركن ، ذلك لأن السارتى عند ما يعود من رحلته سوف يقطع رؤوسنا . إنه لن يغفر لنا ، لأننا أدينا بعمله المصطفى إلى النار حتى ذابت . وسوف أكون أنا أول من تقطع رأسها .

وعاشت زوجات الملك فى ذعر وهلع داما إلى أن عاد الملك من رحلته بعد أيام . لكنه قبل أن يشرب الماء الذى قدم له نادى على زوجته المصطفاة بقوله :

ـــ تاكيس . . . تاكيس .

وعندئذ أقبلت الزوجة التى كان قد اصطفاها قبل أن تحل تاكيس ، وقالت :

ـــ أيها السارتى والزوج ، لن أخفى عليك شيئاً . إذ بينما كنت بالخارج ، قامت الزوجات الصغيرات (تقصد الزوجات

الأخريات) بتكليف تاكيس بالعمل بجوار النار . فذابت كما يذوب الزبد ، وهذا المجرى الذى تراه هناك من بعيد هو المجرى الذى نشأ عن ذوبانها . .

وصرخ السارتى :

— لابد أن تعود لى تاكيس . . لابد أن تعود لى تاكسيس .

ثم جرى فى الحال إلى مجرى الماء تتبعه الزوجة المصطفاة الأولى .

وما إن بلغا حافة دلتا المجرى ، حتى تحول الملك إلى فرس من أفراس النهر ، ثم قفز إلى الماء وراء تاكيس .

أما الزوجة المصطفاة السابقة التى كانت تحب زوجها حباً عميقاً ، فقد اتخذت هيئة سلحفاة الماء وغاصت فى الماء أيضاً ، حتى لا تترك السارتى وحده .

ومنذ ذلك الزمن ، يعيش فرس النهر وسلحفاة الماء فى دلتا الأنهار دائماً .

أمثال وأقوال مأثورة

النهر لا يمكن أبداً أن يتراجع إلى مصبه

« الكونغو »

ديك البردى لا يغير لونه

« كينيا »

إذا ألقيت غصن شجرة فى الماء فإنه لن يتحول إلى تمساح »

« مالى »

الثمار الناضجة توجد دائماً بأعالى الشجر .

« نيجيريا »

عند ما أقبل علينا الرجل الأبيض كان يمتلك الإنجيل ، وكنا نملك الأرض .

ثم دارت الأيام فأصبح هو يمتلك الأرض بينما نحن نمتلك الإنجيل .

« روديسيا الجنوبية »

٨٩

المال أمضى من السيف .

الفقر هو الجنون .

المال كالخادم : إن أسأت معاملته فر منك .

الحاجة تجعل الأشراف عبيداً أذلاء .

الأحمق هو من يبيعه الناس الطماطم التى يملكها .

« غانا »

طائر الأسنيانديند

« حكاية من الجنوب »

ذات يوم قرر ولد وبنت أن يسرقا عش طائر الأسنياندیند فقال الولد :

— ينبغي أن نحذر عند ما نقترب من العش ، ذلك لأن طائر الأسنياندیند طائر جارح ، وهو لو رآنا فسوف يمسك بنا ويقتلنا بالتأكيد ، لأنه سريع العدو للغاية رغم عجزه عن الطيران .

وشرع الإثنان فى مهمتهما ، وأخذا معهما ثلاث بيضات من بيض الدجاج لتكون بديلا لما قد يكون فى العش من بيض وإذ هما فى طريقهما التفت الولد خلفه ، فرأى الطائر يقف على مقربة منهما . فانطلق الطفلان يعدوان بأقصى سرعة ، لكن الطائر تفوق عليهما . وما إن أصبح على وشك الانقضاض عليهما حتى ألقت البنت — وكانت تحمل البيض — بيضة على الأرض فكسرتها ، وفى الحال نشأ بين الطفلين والطائر غور سحيق . وبينما كان الطائر يملأ الغور تمكن الطفلان من الفرار .

وما إن أتم الطائر حشو الفجوة العميقة حتى استأنف مطاردته ، وسرعان ما شرع فى التفوق عليهما . فما إن أصبح على قيد أنملة منهما حتى ألقت البنت بيضة أخرى على الأرض .

وللمرة الثانية غارت الأرض وأبانت عن فجوة واسعة ، فتأخر الطائر مرة أخرى .

وقال الولد للبنت إذ هما يهربان :

ــ لو لحق بنا الأسنياندينـد فالقى بالبيضة الأخيرة على أم رأسه . فهذا كفيل بتخليصنا منه والإنهاء عليه .

وواصل الولد والبنت سيرهما حتى بلغا ترعة ، تقع على جانبها البعيد قرية يحوطها سور ، فقالت البنت :

« سأمكث هنا حتى تذهب أنت إلى القرية » . وبقيت الفتاة عند الترعة ، وتسلقت شجرة تظل على الماء . أما الولد فقد مضى إلى القرية .

وفى الصباح التالى أقبلت على النهر عجوز كانت تعيش بالقرية ومعها جرة من الفخار تبغى ماء . وبلغت نقطة أسفل الشجرة التى تسلقتها الفتاة . ووضعت الجرة على الأرض . ثم نظرت إلى الماء كى تتبين صفاءه من عدمه . وتملكتها الدهشة والفرحة إذ رأت على صفحة الماء وجه فتاة جميلة تنظر إليها . لكنها اعتبرت الموقف فى النهاية ناشئاً من انعكاس وجهها هى على الماء ، فتركت الجرة بجانب الترعة ، وأسرعت إلى القرية . وحين بلغتها سئلت عن سبب عودتها بلا ماء .

وتهللت أسارير وجهها بالرضا ، وأشعت الفرحة فى عينيها ، وهى تجيب على السؤال بقولها :

« لماذا تغضبون من شأنى أيها الناس ، وترونى عجوزاً ،

ولا تقولون لى إننى ما زلت شابة جميلة ؟ » وسألها الناس وهم يضحكون :

— من الذى خدعك أيتها الشيء العجوز المحنى الذابل ؟

وما إن سمعت ذلك حتى عادت إلى الترعة لتملأ جرتها بالماء . واصطحبت معها أحد معارفها وكانت بدورها عجوزاً مغضنة الوجه مثلها تماماً .

وعند الترعة وجدتا جرة الماء ، ولما نظرت المرأة العجوز الثانية فى الماء طالعها وجه جميل غض . فأسرعت المرأتان إلى القرية ، وهما ترقصان طرباً . وقالتا :

« انظروا إلينا ، إننا شابتان جميلتان . وقد دلنا على ذلك انعكاس وجهينا فى الماء» .

لكنهما لم تكونا تعرفان أن الانعكاس الذى رأتاه كان لفتاة فى مقتبل العمر تسلقت الشجرة عقب مطاردة طائر الأسنياندیند .

أفريقيا

« إلى أمى »

شعر : دافيد ديوب

أفريقيا يا وطنى ،
يا وطن المقاتلين الأباة فى مراعى الأجداد .
جدتى أفريقيا تترنم ،
على شاطئ نهرها الممتد إلى بعيد .
أنا لم أعرفك قط يا جدتى ،
لكنما نظرتى المتفرسة مليئة بدمك ،
دمك الأسود الطيب الذى شربته الحقول ،
دم عرقك ،
عرق عملك ،
عمل العبودية ،
عبودية فلذات كبدك ،
أفريقيا ، خبرينى يا أفريقيا
ألست أنت إذن التى ينحنى ظهرك
ويتداعى تحت وطأة الذل ،

ويرتجف ، متشحاً بخطوط حمراء ،
ويستجيب للسوط ، بالطرقات ، فى رائعة النهار .
عندئذ يجيبنى صوت جلله الوقار ،
أيها الابن المندفع ،
إن هذه الشجرة الغضة النابضة ،
التى تنتصب هناك إلى أسفل ،
وحيدة ، شماء ، بين أزهار بيض ذابلة ،
هى أفريقيا ، وطنك الذى يترعرع من جديد
ويستعيد نضارته فى عناد وصبر
وثماره ، تكتسب شيئاً فشيئاً ،
مذاق الحرية المر .

عسى أن ينتصر شعبنا

شعر : باتريس إمري لومومبا

ابك ، أى أخى الأسود الحبيب
المدفون فى أعماق ليل بهيم أبدى
أنت ، يا من عمت الأرض الفسيحة سمومك[١] وأعاصيرك
المحملة بالغبار ،
أنت ، يا من شيدت على يديك الأهرامات ،
لتكون تذكاراً يمثل السفاحين من الملوك ،
أنت ، يا من سيق فى الإغارات ، أنت ، يا من هزمت
مرات لا عدد لها ولا حصر ، فى كل المعارك ،
التى كسبتها القوة الوحشية .
أنت ، يا من كنت لا تتلقى إلا درساً متصلا لا ينقطع
تعيه وتتعلمه ،
كان شعاراً واحداً : إما الرق ، وإما الموت .
أنت ، يا من ترقد مخبوءا فى أدغال لا يمكن النفاذ إليها .
وترزح صامتاً تحت وطأة صنوف من الموت ،
لا عدد لها ولا حصر ،

---

(١) نسبة إلى رياح السموم – بفتح السين – المعروفة بأفريقيا .

تلق حتفك فى الإهاب القبيح الذى تتسربل به حمى الدغل
أو تتمزق بين فكى النمر المشئومين المهلكين ،
أو فى الحضن الكريه للمستنقع .
الذى يضيق الخناق شيئاً فشيئاً ، مثلما تلتف الأفعى
حول الجسد .

* * *

ثم أهل يوم بجاء معه بالأبيض ،
أكثر خبثاً وتشبعاً بالضغن ،
من أى صنف من صنوف الموت .
وقايض ذهبك بخرزاته وعصيه التى لا تساوى شيئاً
واستباح حرمات أخواتك وزوجاتك واعتدى عليهن
وسمم بشرابه أبناءك وأخوتك .
وساق أطفالك إلى ظهور السفن ،
وعند ذاك دوت الطبول من قرية إلى قرية ،
وأعلنت إلى الناس أن سفينة أجنبية أخرى ،
تحمل الرقيق على ظهرها ،
قد أبحرت فى طريقها إلى شطآن بعيدة ، بعيدة ،
حيث الاله هو القطن ، وحيث الدولار متربع على
دست الملك .
وهناك ، كان يحكم عليهم بالشغل المميت ، الذى لا ينتهى
ويشقون من الفجر إلى الغسق تحت الشمس التى لا ترحم

لقد علموك أن تمجد فى مزاميرك الهم ،
بينما أنت نفسك كنت مصلوباً إلى تسابيح ،
تعد بالسعادة فى العالم الآخر ،
بينما أنت — كنت تستجدى منهم معروفاً واحداً :
أن يدعوك تحيا — تحيا ، نعم ، تحيا مجرد حياة .

* * *

وبالقرب من النيران كانت أحلامك الوهمية المعتمة ،
تتدافع وتضج بصوت مسموع
مجهدة ، سوداوية ، حزينة
أولية ، وبكماء ، كضيقك وشدتك .
وكان لك أن تلهو ، أن تمرح ،
أن ترقص ، بفيض من الروح بهيج .
وعند ذلك يضج كل سنا رجولتك وجلالها
ورغبات الشباب الحلوة ،
كل ذلك يضج بوحشية وقوة على أوتار من النحاس
فى دفوف ملتهبة .
ومن تلك الموسيقى العظيمة نشأت بداية الجاز ،
صاخبة ، مهتاجة ،
معلنة للبيض بنبرات مسموعة ،
أن الأرض لم تكن بأسرها وقفاً عليهم .
أيتها الموسيقى العظيمة ، أنت التى أذنت لنا ،

أن نرفع وجهنا ، وأن نحملق ،
فى عيون الحرية المستقبلة ، التى ستكون يوماً ملكنا .
فلتكن شطآن الأنهار العظيمة المتجهة بأمواجها الحية
نحو المستقبل المشع ،
أى أخى ، لتكن لك ، ولتكن سيدها !
فلتلهب حزنك الحرارة القاتلة ،
لشمس الظهيرة التى لا ترحم !
فلتتبخر فى حرارة الشمس الأبدية ،
تلك الدموع التى ذرفها أبوك وجدك ،
اللذان عذبا حتى الموت فوق هذه الأراضى المبكية ،
عسى أن يعيش شعبنا حراً ،
ومبتهجاً إلى الأبد ،
وعسى أن ينتصر ، ويفلح فى سلام ،
فى وطننا هذا ، الكونغو ،
هنا فى قلب قارتنا العظيمة ،
أفريقيا !

أجابى والساحر الطبيب

قصة : أموس توتولا

عاش بإحدى القرى شاب يدعى أجابى ، كان يعاون والده فى حقله . وعندما تقدم والده فى العمر وأصبح عاجزاً عن العمل ، استمر أجابى فى رعاية الحقل إلى أن أصبح يافعاً فى سن الزواج .

وفكر أجابى فى الزواج ، غير أن المال وقف عقبة فى سبيله . فماذا يفعل ؟

لقد استقر رأيه على أن يتقدم بنفسه إلى أحد المرابين ليقترض منه مالا يفى بنفقات زواجه على أن يقوم بالعمل لدى المرابى حتى يوفيه دينه .

وبعد مضى عدة أشهر من زواجه مرض أبوه ، وثقل عليه المرض ، ولم تمض أيام حتى أسلم الروح ، وواجه أجابى مشكلة أخرى هى نفقات الجنازة . وفى النهاية لجأ إلى مراب آخر ، تعهد بالعمل لديه لقاء مبلغ من المال أنفقه على جنازة أبيه .

وأصبح أجابى مديناً لاثنين من المرابين . وكان يعمل لدى الأول من الصباح حتى الساعة الثانية عشر ظهراً ، ثم

يستأنف العمل لدى الآخر فى الساعة الثانية بعد الظهر حتى غروب الشمس .

وساءت حاله وأصبح عاجزاً عن توفير القوت الضرورى لنفسه وزوجته ، وأشفق جيرانه عليه ورثوا لحاله .

وذات يوم نصحه أحد جيرانه بالذهاب إلى طبيب يشتغل بالسحر ، علّه يدله على حل لمشكلة الفقر التى يعانيها .

وعمل أجاني بالنصيحة ، فذهب إلى الطبيب ، وشرح له متاعبه وجلس الطبيب يستمع له ، ثم أجابه قائلاً :

« إذا كنت تبغى أن تتغلب على فقرك ، فعليك أن تشترى تسع نعجات وتسعة جوالات فارغة ، ثم تضع فى كل جوال واحدة من النعاج التسع وهى حية .

وبعد ذلك تذهب إلى قبر أبيك فى منتصف الليل ومعك حملك . وهناك تضعها جميعاً — فوق القبر .

وعند ما تعود فى الصباح إلى المقبرة سوف تتملكك الدهشة إذ تجد الجوالات فارغة فوق القبر ، وهذا يعنى أن أباك قد أخذ النعجات التسع .

وعليك عندئذ أن تعود إلى بيتك ومعك الجوالات الفارغة حيث تضعها فى حجرة وتنتظر أياماً ، تجد بعدها الجوالات التسعة مملوءة بالمال الذى يضعه أبوك بدلا من النعاج . ويبدو لى أن سبب فقرك هو أنك لم تقدم نعاجاً قرباناً من أجل أبيك منذ توفى . ولكن ينبغى عليك أيضاً أن تطلعنى على الميعاد

الذى تضع فيه النعاج فوق القبر » .

وانتهى الطبيب من إجابته فشكره أجابى ومضى . وفور وصوله إلى بيته ابتدرته زوجته قائلة :

« ماذا قال لك الطبيب الساحر عن علاج فقرك ؟ » .

وراح أجابى يشرح لها ما حدث فى شىء من الاضطراب . وأجابت زوجته رداً على تساؤله :

« كيف يأتى بثمن النعاج ؟ » قائلة : « معنى هذا أننا سنموت جوعاً ؟ على أننى أرى أنك إذا حاولت اللجوء مرة ثالثة إلى أحد المرابين ، فلن تستطيع أن ترضيهم جميعاً . ولذلك سوف أذهب أنا هذه المرة ، وبذلك نتمكن من الحصول على المال اللازم لشراء النعاج التسع والجوالات . إننى أريد أن نقضى على فقرنا بأسرع وقت ممكن » .

وعاد يسألها وقد سيطر عليه حزن ممض : ومن إذن يوفر لنا قوتنا عندما تعملين لدى مراب آخر ؟

فأجابت : « غير مهم ، فإننا سوف نعيش معتمدين على أى شىء نحصل عليه » .

وفى اليوم التالى ذهبت إلى أحد المرابين ، فاقترضت عشرة جنيهات . وصحبت زوجها إلى السوق . غير أن سوء الحظ لازمها فلم تكف الجنيهات العشرة لشراء أكثر من ست نعجات وستة جوالات فارغة .

ووقعت هذه الحقيقة على أجابى وقع الصاعقة ، وأصابته

بالحيرة والارتباك ، فقرر أن يعود مع زوجته بالمال إلى بيتهما .

غير أن الزوجة أجابته قائلة : -

« يا زوجى ، لنشتر أكبر قدر من النعاج والجوالات بهذه الجنيهات . وعند ذلك تأخذها إلى قبر والدك كدفعة أولى . ثم ترجوه أن يقبلها إلى أن تأتى له بالثلاث الباقيات وقتما يتوافر لديك المال لشرائها . ذلك لأننى أعتقد أننا سننفقها فى أمور أخرى ، إذا عدنا بها . وبذلك نظل أسرى للفقر » .

وسر أجابى بنصيحة زوجته . فاشتريا ست نعجات ومثلها من الجوالات .

وعند انتصاف الليل وضع أجابى كل نعجة داخل جوال . ثم حملها الواحدة تلو الأخرى إلى قبر والده الذى يقع على مقربة من القرية .

ووقف أمام القبر يعتذر عن النقص الذى أصاب القربان ويعد بإحضار النعاج الثلاث الباقية وقتما يتوافر لديه المال . . !

وفى الصباح الباكر أسرع مع زوجته إلى المقبرة . وطغى البشر على وجهيهما ، إذ وجدا الجوالات فارغة بلا نعاج ، فظنا أن الأب الميت قد أخذها قبل طلوع النهار ، وعاد ثانية بالجوالات الفارغة فى انتظار نهاية الفقر .

وظلا ينتظران ، وينتظران ، وينتظران حتى مر شهر ، ثم ثم عادا من جديد ينتظران ، وينتظران ، وينتظران ، حتى أصبحت الشهور عاماً ، دون أن ينخفض منسوب الفقر

بل تحول من سيئ إلى أسوأ ، وأصبحا يجدان مشقة فى الحصول على وجبتين من الطعام خلال الأسبوع الواحد .

وراح أجابي إلى زوجته قائلا : « لقد أشرت فى ذلك اليوم بالعودة إلى بيتنا بالجنيهات العشرة بدلا من الوقوع فى هذا المأزق » .. وكان الألم يأكله أثناء حديثه مع زوجته التى أجابته بقولها : « لا تدع اليأس يتطرق إلينا . إن نصيحتى الآن هى أن تذهب إلى الطبيب الساحر وتسأله عن سبب استفحال الفقر بدلا من انتهائه . . . » .

ومن ثمة عمل بنصيحتها ، وذهب إلى الطبيب الساحر . وشرح له كيف قدم النعجات قربانا لأبيه دون أن ينتهى فقره . وعندئذ صاح به الطبيب الساحر : «ها ، إن فقرك لن ينتهى إلا إذا قدمت النعاج الثلاث الباقية » .

وعاد أجابي بما سمع . فقال لزوجته : « إننا لا نملك قرشاً كما تعرفين . فكيف نحصل على ثمن باقى النعاج ؟ إن فى نيتى الآن أن أذهب إلى قبر أبى عند انتصاف الليل لأذكره بأنه كان يعرف أننى فقير فى حياته ، فكيف يطالبنى بعد وفاته بتسع نعجات . وسوف أقول له أيضاً إننى بذلت ما فى وسعى وأعطيتك ست نعجات من تسع غير أن الساحر أبلغنى أنك تصر على أخذ الباقى . فإذا أجابنى بالإيجاب ، فسوف أقطع رأسه عندئذ وأحاول الخروج من القبر بقدر الإمكان » .

وانتصف الليل ، وغادر أجابي بيته وقد حمل معه ثلاثة

بجوالات خالية ومدية طويلة . . وسار إلى قبر والده حيث ملأ جوالين بالطين والتراب بطريقة ماهرة حتى بديا كما لو كانا محشوين بالنعاج ، ثم وضع نفسه داخل الجوال الثالث . وبقى فى انتظار والده الميت ليأخذ الجوالات .

وانتصف الليل تماماً . لكن أباه لم يأت . ثم لاحت أخيراً ثلاثة أشباح . . كانت تمثل الطبيب الساحر ومعه خادماه الذين أقبلوا على الجوالات الثلاثة فحملوها ومضوا بها .

ووضعوا الجوالات فور وصولهم فى حجرة الطبيب الساحر الذى أقبل عليها وشرع يفك أربطتها بقصد إخراج النعاج وذبحها ثم تسليم الجوالات فارغة إلى خادميه لإعادتها إلى المقبرة قبل طلوع الشمس .

وما إن فتح الطبيب الجوالين الأول والثانى حتى فغر فاه دهشة ، إذ وجد بهما طيناً يابساً وتراباً . ثم اتجه إلى الثالث وراح يفك أربطته . وفجأة قفز أجابى من داخله والمدية فى يده ، وأوثق أجابى الطبيب بينما شرع المدية يصوبها إلى رأسه بطريقة أثارت الرعب والفزع فى نفس الطبيب .

وحاول الطبيب الصياح مستنجداً ، لكن أجابى عاجله بإغلاق فمه ، ثم سأله فى شغف :

« أتعتقد أن الفقر سيجانبنى عند ما استوليت على النعاج الست لنفسك ؟ »

وتمتم الطبيب الساحر قائلا :

« إنك لا تستطيع التحرر منه . ولذا فإننى أنا الذى أخذت نعجاتك وليس والدك . . »

وبادره أجابى ، وقد طغى عليه الفرح ، بقوله :

« ولكننى أعتقد أنك أبى الميت . ولما كنت قد استوليت على نعاجى ، فإنى آمرك بتحريرى من الفقر هذه الليلة . . »

— لا ، لست أنا والدك الميت بأى حال . . !

فصاح أجابى مزمجراً باعثاً الذعر فى نفس الطبيب :

« أؤكد لك أنك أنت أبى الميت الذى يملك قوة تحريرى من الفقر . ولذا فإننى جد مبتهج لأننى سوف أتحرر منه الليلة »

وعندئذ أطلق أجابى سراح الطبيب لكى يريه المكان الذى يحتفظ فيه بماله ، وأذعن الطبيب لأمر أجابى على كره منه . وتقدم يرشده إلى المكان بعد أن هدده أجابى بقطع رأسه .

واستولى أجابى على المال كله ومضى به إلى منزله . وسألته زوجته فور وصوله :

« آه ، عدت يا أجابى ؟ ماذا قال لك أبوك عند ما زرته بالمقبرة ؟ »

فأجابها : « سوف نخلص أنفسنا من كل ديوننا صباح غد . لأن الطبيب الساحر قد تحول إلى أبى الميت الليلة وتقمص شخصيته وارتأى أن يحررنا من الفقر وأن يستولى على نعاجنا بادعاء زائف » .

وسألته متعجبة : « كيف حررنا الطبيب الساحر ؟ »

فأجاب أجابي :

ـ لقد استوليت على كل ثروته بالقوة . وها هي ذي .

وعندئذ راح الاثنان يعدان النقود التي بلغت ستمائة من الجنيهات .

وفي اليوم التالي قاما بتسديد ديونهما وتحرير نفسيهما . وعاشا بعد ذلك معاً في سعادة ووئام .

القربان

قصة : شنوا أشيب

جلس جوليو أوبى يحملق فى آلته الكاتبة بينما رئيسه الباشكاتب يغط فى النوم فوق مكتبه وفى الخارج كان البواب بسترته الخضراء نائماً بدوره فى كابينه . فلم يكن قد ولج البوابة أحد من الزبائن قرابة أسبوع . وكانت ثمة سلة خالية موضوعة فوق الميزان الضخم الذى انتثر حوله نوى بلح تبعثر فى التراب .

ونهض جوليو إلى النافذة التى تطل على السوق الكبيرة القائمة على ضفة نهر النيجر . وكانت هذه السوق تقام كغيرها من أسواق مدينة « أيبو » خلال أيام الأسبوع الأربعة المقدسة غير أنها تحولت إلى سوق يومية بمجىء الرجل الأبيض ، ونمو مدينة « أومورو » وتحولها إلى ميناء كبير لتصدير زيت النخيل .

إلا أن السوق بالرغم من هذا ظلت تدب فيها الحركة يوم « نكو » المقدس .

وكان الناس يرددون أساطير عجيبة عن السوق . منها أن الآلهة التى تهيمن على الفضاء تتبدى يوم انعقاد السوق فى صورة امرأة عجوز ، وتقف فى منتصفها ، وتحرك مروحتها السحرية ، فى سائر الجهات الأربع لكى تجذب إلى السوق الرجال والنساء من العشائر البعيدة .

وكانوا يأتون ومعهم منتجاتهم مثل زيت النخيل وثمار الكولا والكاسافا والحصر والسلال والأوانى الفخارية . ثم يعودون إلى بيوتهم بكثير من الملابس الملونة والأسماك المشوية والأوانى المعدنية والأطباق .

وكان يأتى آخرون عن طريق النهر الكبير جالبين معهم البطاطا والسمك فى قواربهم ، وعندما ترسو القوارب يغادرونها فيقومون ببيع أسماكهم بعد كثير من المساومات والعناء .

وكانت المرأة القادمة عن طريق النهر إلى السوق تقوم بشراء الملح والزيت والقماش إذا كانت المعروضات من صنف جيد ، كما تشترى لأطفالها أقراص الطعمية أو الأكارا والماى ماى التى يطهوها النساء فى إيجارا .

وعندما يحل المساء يستقل القادمون قواربهم ويمضون بها عائدين . وتبتعد القوارب بينما الماء تنعكس عليه أشعة الغروب فيتلألأ ويتحول إلى القوارب وراكبيها فيجذبها رويداً رويداً حتى تبدو للعين نقطاً سوداء سرعان ما تختفى .

ولم يكن جوليو من أهالى « أومورو » . فقد قدم من قرية صغيرة تبعد نحو عشرين ميلا ، بغرض العمل فى شركة النيجر ، بعد أن تخرج من إحدى مدارس التبشير عام ١٩٢٠ .

وكانت مكاتب الشركة تجاور سوق أومورو المعروفة ، ولذلك كان على جوليو فى بداية عهده بالعمل أن يألف ضجة السوق من خلفه .

وكان يتجه صوب النافذة كلما ابتعد الباشكاتب أو غرق في النوم، حيث يقف يتأمل النشاط والحركة الدائبة في السوق. وفي هذه المرة وقف طويلا يتأمل ويفكر. وجال بخاطره حديث أم خطيبته « جانيت » وكلامها الغريب ، حين قالت له إنه ليس كل من أتى إلى السوق الكبيرة شخص حقيقي، كما أن بعض الشابات الجميلات اللاتي رأيتهن يخترقن الزحام لسن بشرا ، وإنما هن جنيات يعشن في النهر..

ورغم عدم إيمانه بالخرافات فقد سألها وقتئذ :

« وكيف يعرف المرء ذلك ؟ »

وجاء هذا السؤال بمثابة ترضية لمعتقدات أم جانيت التي تعتبر مخالفة مثل هذه المسائل أمرا غير محمود .

ولقد أجابت على سؤاله بقولها : «إن جمالهن ليس كهذا الجمال الذي عهدناه في عالمنا .. وهن ينتقلن بسرعة، ولا يتحن لك التفرس فيهن ، إذ يبتلعهن الزحام ما إن تلقي عليهن نظرة خاطفة بطرف عينك » .

دارت كل هذه الأمور بخاطر جوليو في جلسته الآن إلى النافذة . وراح يقارن بين زحام السوق قبل الآن وخلوها اليوم . وهو لا يصدق أن السوق الكبيرة يمكن أن تخلو بهذا الشكل . غير أنه انتقل بتفكيره إلى الكيتيكا أو مرض الجدري الذي سبب كل هذا الخراب .

لقد كانت أومورو قرية صغيرة من قبل ، ينظفها سكانها

ويكنسونها . أما اليوم فقد أصبحت ميناء نهرياً كبيراً يحفل بالقذارة والضجيج والازدحام .

وأقبل مرض الجدرى الذى لا يخشى شعب الإيبو مرضاً قدر خشيتهم له . إذ كان يمثل بالنسبة لهم إلهاً من آلهة الشر : ضحاياه لا ينوحون ولا يتألمون خشية أن يسيئوا إليه أو يزعجونه وعندما كانوا يقولون : إن الجدرى أو الكيتيكا ، كما يسمونه ، موجود فى تلك القرية ، يكون هو قد سبقهم إلى قرية أخرى مجاورة .

وهذا ما أدى بجوليو إلى القلق . فقد مضى نحو أسبوع منذ أن رأى خطيبته جانيت فى المرة الأخيرة . ويومها شرحت له أمها فى أدب كيف أنه لا ينبغى عليه أن يزورهم فى هذه الأيام وأن عليه أن يمتنع عن هذه الزيارة حتى يرفع المسيح هذه البلوى عنا .

وكان لإيمان الأم بالمسيحية وإخلاصها لتعاليمها أثر فى قبولها فكرة زواج جوليو من ابنتها إذ رأته يشترك فى تراتيل الكنيسة .

وإنه يذكر حديثها عندما قالت له :

« يجب ألا تغادر بيتك ، فلن تعرف أحداً فى الشوارع . انظر إلى هذا المنزل القائم عبر الطريق ، لقد أصيبت الأسرة التى تقطنه بجميعها . وذلك ما يفسر وجود سعف النخيل الأصفر فى مدخل المنزل . . . لقد نقلت الأسرة بجميعها اليوم فى عربة النقل الحكومية الكبيرة . . . »

ويومها أيضاً سارت معه بجانيت قليلا ، ثم افترقا وتصافحا وثمة غرابة ترين على يديهما .

ولم يعد بجوليو إلى منزله مباشرة ، بل ذهب فى تلك الليلة إلى ضفة النهر ، حيث أخذ يتجول على قدميه هنا وهناك . غيرأنه أحس بعد قليل أن إلهة الليل التى يقولون عنها فى طريقها إلى الظهور وفى الحال شرع فى طريقه عائداً إلى بيته ، يسير آنا ويعدو آناً أخرى .

وفى طريقه إلى المنزل مسرعاً اصطدمت قدمه بشىء تكسر تحتها مصدراً صوت انفجار مكتوم .

ووقف ، وراح يحملق فى موضع قدمه . ولم يكن القمر القمر ساعتها قد ارتفع إلى السماء ، وساعد الضوء الخافت على رؤية هذا الشىء الذى حطمته قدمه .. ولشد ما كانت دهشته عند ما اكتشف أنه وطأ بيضة من بيض القرابين وكان يحوطها سياج من السعف الأخضر .

وأحس بالمعتقدات تطفو إلى تفكيره . إذ يقولون إن من اعترضه قربان مريض وحطمه ، فإن المرض ينتقل إليه . غير أنه أزاح عن نفسه هذه الخرافات وقال لنفسه وهو يحث الخطى : « هراء ! » .

وكان الوقت قد تأخر به . وقد ظهرت إلهة الليل منذ قليل وارتفع صوتها عالياً مجلجلا فى الهواء الساكن المغبر

وكانت لا تزال أمامه مسافة طويلة ، لكنه كان يعرف أن المسافات والابتعاد أو القرب لا ينطبق على هذه الكائنات . ومن ثمة اتجه مباشرة إلى مزرعة للبطاطا بجوار الطريق ، وانبطح على بطنه، وترامت إلى سمعه جلجلة الأجراس والهمهمات الصاخبة .

وعندئذ ارتعد كيانه كله ، وأقبلت الأصوات تتدافع نحوه . واستطاع أن يميز بينها أصوات أقدام تقترب وهي تعدو ، وقد بدا له أنها لنحو عشرين رجلاً .

وأخيراً مرت الأصوات وعبرت المكان واختفت على الجانب الآخر من النهر . .

. . تمثل جوليو تلك الليلة أمام ناظريه . . وعاش فيها من جديد وهو ينظر إلى السوق الكبيرة . لقد كان ذلك منذ أسبوع فقط ، ولكنه يبدو له الآن كما لو كان قد انفصل عن الحاضر . . فصله خلاء فسيح تعمق بمضى الزمن .

فى جانب جلس جوليو وحيداً ، وفى الجانب الآخر كانت جانيت وأمها اللتان قضى عليهما الجدرى .

كلمة فى الختام

« لا حرية بلا كرامة ، ولا كرامة بلا عدالة ، ولا أحرار بلا استقلال » . (باتريس لومومبا)

« بالأمس ناديت أرضى ، فاستيقظت من كراها
استيقظت تحجب الشمس أوجها وجباها »

(محمد الفيتورى)

استعرضنا فى الصفحات السابقة صورة موجزة للظروف التى أحاطت بنشأة ما عرفته قارتنا — بعد الصحراء الكبرى من ألوان وظواهر أدبية ، كما طالعنا بعض هذه الألوان التى تتخذ الشفاه والكتابة وسيلة للنقل والتعبير . وقد لمسنا تأثير التراث الشعبى فى الأدب الجديد المكتوب واتخاذ كتابه رموزهم ودلالاتهم من هذا التراث .

والحق أنه رغم قلة الموجود باليد من هذه الحصيلة الضخمة المتناثرة عبر الأدغال والرمال ، إلا أننا نلمس فيها أصالة ورباط دم يربط كل هذه النماذج الشعبية بمثيلات لها عندنا ، نحن الذين فصلنا عنها تاريخ طويل من السيطرة الاستعمارية ، ، مما يؤكد صلة الشعوب الأفريقية على اختلاف نحلها وأجناسها وهى صلة أشد ما تكون نصاعة ووضوحاً فى القصص والإغانى الشعبية ، التى تتداول ابتداء من القاهرة فى أقصى الشمال إلى كيب تاون فى أدنى الجنوب .

وليس يفصل قصة عن أخرى أو أغنية عن أخرى — إذا فصلهما شيء — إلا اختلاف الأسماء والأزياء، وليس يفصل مثلا شعبياً عن آخر — إذا فصله شيء — إلا اختلاف اللغة التي كتب بها هذا المثل أو ذاك .

إن الأغنيات الثلاث التي نقلناها هي ، في الواقع ، صورة مصغرة ، للوحة الكبيرة التي تبدو عليها حصيلة الأغاني في أفريقيا . وينعكس عليها كل ما يعتمل في نفوس مبدعيها ومتذوقيها من مرارة وسخط على السيطرة ومخلفاتها .

فالشقاء والفقر هما سبب الحزن الذي سيطر على كوديو ، الأفريقي ، البسيط الكادح . وهما اللذان اغتالا زوجته ، الكادحة مثله ، وجعلاه يكتوي بنار الألم والوحدة . . تلك النار التي يخشى أن تصيب حماته ، بعد أن أحرقت قدرته على كبح الألم وحجب التعاسة . وكذلك حال الأفريقي بالنسبة للجمال فهو يتوسل إليه أن يتنكر له ، وأن يزداد عداء له ، فلا شيء يرغبه فيه ، بعد الآثام التي اقترفها رعاياه من البيض . أما فرحة المخدوع بالمال ، بعد اكتشافه خيانة زوجته مع صديقه فليست إلا مظهراً صارخاً من مظاهر انهيار القيم النبيلة التي أهدرها المستعمر ، وداسها من أجل أهوائه ونزواته حين استباح حرمات الأفريقيات ، وبث الذلة في نفوس أزواجهن ، واشترى صمتهم بالمال . . يتغنى الأفريقي بكل ذلك في بساطة وعفوية نادرتين.

وفي الحكايات الشعبية ، طالعنا الطابع الأسطوري أو

الخرافى ، الذى ينطبع على معظم هذه الحصيلة الضخمة من الحكايات والأقاصيص ، وهو طابع اتخذ وجهة تفسير الظواهر الطبيعية ومكونات البيئة ، كما فى « تاكيس » ، مشتملا فى الوقت ذاته على تصوير لفكرة « مصرع الباغى وخيم » ، التى انتهت عندها الحكاية ، أو وجهة الإمتاع والتسلية مع الحث على قيم معينة مثل التواضع والاعتراف بالحق ، كما فى الحكايتين الأخيرتين . وهكذا الحال أيضاً بالنسبة للأمثال ، وأقوال المأثورة التى قدمت لنا خلاصة مركزة لعدد من القيم السائدة فى مختلف المجتمعات الأفريقية.

ولقد لمسنا كذلك طابع النضال الوطنى فى القصيدتين السابقتين . وأولاهما — كما رأينا — تصور إحساس الشاعر بقارته التى تولد أمامه من جديد ، نابضة شماء ، رغم السياط والدم ، بينما تذبل من حولها الزهور البيضاء ، دلالة على أفول نجم المستعمرين البيض . أما قصيدة الشهيد لومومبا فهى أقرب إلى البناء القصصى الدرامى ، إذ يصب فيها مأساة القارة ويذكر الأفريقى بما لاقاه من عسف وموت على مر العصور ، ثم يعرج على قصة الرجل الأبيض فى القارة فيكثفها فى سطور قليلة مشعة غنية المحتوى ، ويلقى الضوء على الآثام التى ارتكبها فى حق أصحاب البلاد ، وخرقه لسماجة دينه ، وسرقته للفن والموسيقى الوطنيين . وفى النهاية يدعو إلى الجلد والنضال والبذل فى سبيل استعادة الحرية .

أما القصتان القصيرتان ، وهما لكاتبين من نيجيريا يعدهما

النقاد الأوربيون فى طليعة كتاب القارة الجدد ، فإنهما يوضحان قيمة التراث الشعبى بالنسبة للأدب المكتوب . إذ نجد فى قصة آموس توتولا صياغة جديدة لحكاية شعبية معروفة فى نيجيريا — هذبها الكاتب ، وأضفى عليها دلالة جديدة تدعو إلى الثورة على المستعمر سارق الثروة ومنشئ الفقر . وعلى خلاف ذلك جاءت قصة شنوا أشيب أكثر نضجاً والتزاماً لقواعد القصة القصيرة المعروفة . ، لكنها لم تخل من المساس بالمعتقدات الشعبية التى تبلغ حد الخرافة ، وتجعل لها نصيباً فى تشكيل أحداثها . وهى — بالمثل — تدين السيطرة الاستعمارية التى جاءت بالوبال على الأهالى .

والحق أن نمو النشاط الأدبى المكتوب وازدياده فيما وراء الصحراء الكبرى ، إن دل على شىء فإنما يدل على إيمان هذا الجزء الضخم من القارة بالكلمة المكتوبة وضرورتها فى معركة التحرر التى خاضتها — وما تزال تخوضها — أقطار متعددة فى الوسط والجنوب والشرق والغرب ، كما يؤكد وحدة الوسائل والغايات بين الشمال والجنوب . . بين الشمال الذى أخذ بأسباب المدنية والحضارة والجنوب الذى شرع فى الأخذ بها .

لقد بذل الأدباء والشعراء فى هذه الأقطار مجهوداً جباراً فى إنهاض آداب بلادهم وتعريف العالم بها . وهم جد مطالبون أيضاً ، بمضاعفة المجهود والبذل فى سبيل إزالة كل أثر من آثار السيطرة التى لقيت القارة أهوالا من جرائها .

مراجع

كيف تفكر آفريقيا – و. ا. أبراهام – ترجمة خيرى حماد اخترنا لك (١٦٧)

القومية الأفريقية – اندبانجي سيتهول – ترجمة عبد الواحد الإمبابى – سلسلة الفكر العالمى (٢٨)

من الفولكلور الأفريقى – و . ف .. بيرتون – ترجمة لمعى المطيعى – سلسلة الفكر العالمى (١١)

الواقعية والتجديد فى الأدب الأفريقى – أفيجنيا كالبرينا – ترجمة سامى خشبة – نهضة أفريقيا (٣٦)

الأدب الأفريقى – دكتور لويس عوض – بجريدة الأهرام ، عدد الجمعة ٩ فبراير سنة ١٩٦٢ .

الشعر الأفريقى بعد الصحراء الكبرى – عبده بدوى – نهضة أفريقيا . (٢٥)

فن النحت فى غرب أفريقيا – حلمى شعراوى – نهضة أفريقيا . (٢٥) .

الثقافة السوداء ضد الاستعمار – أنور عبد الملك – الرسالة الجديدة (٣٤)

تقرير المكتب الدائم للكتاب الأفريقيين والأسيويين إلى المؤتمر الثانى للكتاب الأفريقيين والأسيويين .

كلمات رؤساء وفود النيجر ، الكاميرون ، الاتحاد السوفيتى ،
في المؤتمر الثانى للكتاب الأفريقيين الأسيويين .
لماذا تستهويهم آفريقيا – على شلش – نهضة أفريقيا (٢٦)
إلى أين تسير التفرقة العنصرية – نهضة أفريقيا (١٠)
أثر السياسة الاستعمارية فى التعليم – نهضة أفريقيا (٢٤)
قضية الأدب فى آفريقيا – مجلة كتابى (٩٣)

A History Of Civilization—Brinton and Others— Vol.: 2 New York 1955.

A Harvest Of World Folk tales — Milton Rugoff. New York 1950.

The African Saga — Margery Bianco — New York 1927.

Lion And Jackal With Other Native Folk tales of South Africa — Frank Bronlee — London 1938.

Atlantic (Monthly Review). April 1959.

Patrice Lumumba (Documents & Letters) Moscow 1961.

The Hero — R.C. Kamanga — Cairo 1962.

African Revolution — James Cameron — London 1961.

المحتوى

صفحة

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف
سنة ١٩٦٣

أغسطس ١٩٦٣

الثمن ٣٠ مليماً

اقرأ

الدكتور جورج وهبه العفي

عصر الطاقة الشمسية

دار المعارف

عصر الطاقة الشمسية

الدكتور جورج وهبه العفى

عصر الطاقة الشمسية

اقرأ ٢٤٩

دار المعارف

اقرأ ٢٤٩ – سبتمبر ١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

طاقة جديدة لعصر جديد

يبلغ عدد سكان العالم الآن نحو ثلاثة آلاف مليون نسمة تقريباً؛ وهم يزيدون فى سرعة واطراد ، حتى ليقال إنهم سيصبحون فى نهاية هذا القرن قريباً من أربعة آلاف مليون .

وفى الجمهورية العربية المتحدة بلغ عدد السكان — حسب تعداد عام ١٩٦٠ — ستة وعشرين مليوناً ، وينتظر أن يصل هذا الرقم إلى أربعين مليوناً فى عام ٢٠٠٠ .

وفى بلاد أخرى كثيرة كالهند والصين وغيرها يزيد السكان زيادة رهيبة تنذر بالمجاعة والأخطار الجمة ، مما دعا الناس إلى تذكر نظرية « مالتوس » الاقتصادية التى أذاعها فى أواخر القرن الثامن عشر ، وقال فيها إن أقل نسبة من الزيادة المئوية تتضاعف تضاعفاً هندسياً سوف يأتى وقت تزيد فيه على كل زيادة ممكنة فى مساحات الأرض المنزرعة ، مما يهدد البشرية بالمجاعات والفناء .

لقد كان « مالتوس» الراهب والعالم الاقتصادى محقاً فى نظريته التى تنذر بسوء المصير ، إن لم يدبر العالم مستقبله ، ويحدّد النسل ، ويعمل على زيادة الأراضى المنزرعة، مع أنه كان يجهل ما حققه العلم فى جميع أقطار العالم من تقدم مذهل خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، فحقق للبشرية ما كفل

لها الحياة المطمئنة مئات أخرى من الأعوام ، تختفى فيها أمراض وأوبئة كثيرة ، ويزيد فيها متوسط الأعمار .

ولكن المشكلة لا تزال تهدد العالم إن استمرت هذه الزيادة المطردة فى عدد السكان ، دون زيادة الرقعة المنزرعة ، وغزو الصحراء الجدباء ، وتحويلها إلى أراض منزرعة ومدن وقرى ومصانع جديدة .

والإنسان المسلح بسلاح العلم والتكنولوجيا الحديثة فى استطاعته أن يتغلب على عقبات لم يكن بالأمس يفكر فيها . وبفضل العلم أصبحت الأرض قادرة على استيعاب ملايين أخرى كثيرة بالرغم من المتشائمين أمثال « مالتوس » .

لقد عاون العلم فى الكشف عن طرق استغلال الأراضى الصحراوية وتحويلها إلى رقعة زراعية خصبة ؛ وإن غزواته لتحررنا من الفقر ، ومن الاعتماد على الغير والخضوع لسيطرته واستغلاله . وإن انتصارات العلم الرائعة لتجعلنا نتغلب على ما نلقاه فى طريقنا من عقبات ومصاعب . وإن ما كان بالأمس حلماً مستحيلاً هو اليوم — أو غداً — حقيقة واقعة ملموسة ، بفضل إيماننا بالعلم وبأثره العميق فى مستقبل الوطن . فزيادة المعرفة توسع الآفاق أمام أعيننا ، وتجعلنا نقف على موارد جديدة للثروة والطاقة ما كنا لنكشف عنها لولا الدراسة والبحث والجرى وراء المعرفة .

هناك طاقات معروفة للبشرية منذ أقدم العصور ، مثل

الشمس والماء والريح ، ولكن الشعوب جهلت قيمتها الحقيقية ، وكانت الآفاق ضيقة أمامها ، مغلقة بجهلها بالعلوم والتطبيقات التكنولوجية التى نعرفها اليوم ، والتى نفتح بها كل يوم باباً جديداً يؤدى بنا إلى أبواب جديدة أخرى تكشف عن الكنوز والثروات المخبوءة ؛ وهكذا يضع العلم فى أيدينا هذه القوة السحرية التى تهيئ للبشرية حياة لا نكاد نحلم بها اليوم ، ولكنا نستطيع أن نتخيلها على أساس علمى محض ، ولا نشك فى أنها — على هذا الأساس — سوف تصبح حقيقة مؤكدة واقعة بعد حين يطول أو يقصر حسب جهود العلماء وحماستهم وكشوفهم واختراعاتهم .

إن ثورة زراعيه وصناعية عارمة فى الجمهورية العربية المتحدة قد بدأت منذ أعوام معدودات ، بفضل إيمان الشعب وقادته بالعلم والعمل السريع ، لزيادة رقعة الأراضى المنزرعة ، وتعمير الصحراء ، واستغلال ثرواتها المعدنية والبترولية ، وإقامة المصانع حيث توجد المناجم وينابيع البترول ، والكشف عن معادن جديدة لم نكن نعرف شيئاً عن قيمتها الصناعية والاقتصادية أو الكشف عن مواد لم تعرفها الطبيعة ولكنها تُخلق فى المعامل خلقاً ، كما يحدث فى الحصول من مادة البترول — بتنقيته والحصول على مشتقاته الخاصة بالوقود أو تحضير المواد البتروكيميائية منه — على اللدائن التى اتسع — وما زال يتسع — مدى استعمالها ، حتى أصبحت تدخل فى صناعة المنازل وهياكل السيارات

والمطاط والملابس والعقاقير الطبية والراديو والتلفزيون ومواد البناء والطلاء والتشحيم والأثاث ، ومئات الألوف من الأدوات التى تدخل فى حياة الإنسان اليومية .

ومما يهم هذه الدراسة تلك اللدائن المستعملة فى تقطير الماء بالطاقة الشمسية ، ومواد أخرى تدخل فى تركيب بطاريات السليكون لتحويلها إلى كهربا ، وبذلك نتحول تدريجاً عن اتخاذ البترول والفحم مصادر للطاقة ، ونلجأ إلى مصادر كيميائية جديدة لا نهاية لعددها .

إن طاقات الشمس والرياح والمياه ستكون فى المستقبل القريب مصادر لطاقاتنا المحركة . فالعلماء يفتحون كل يوم أبواباً جديدة للثروة بفضل بحوثهم ، وإن لم يعثروا على بغيتهم فى باطن الأرض أو فى أعماق البحار ، فإن لهم طرقهم الرائعة فى خلقها خلقاً من الهواء أو الماء . ومن مواد ما كان الإنسان ليظن أن لها نفعاً ، أو أنها ستصبح يوماً ينبوعاً لثروات جديدة وحياة رخية هنيئة .

وليست هذه الكشوف الجديدة بالأمر الهين السهل . فلم تكن الأبواب مفتحة أمام العلماء والباحثين ، فيعثروا عليها فى يسر ، ولكنها كانت فى الماضى ، وما زالت فى الحاضر ، وستبقى كذلك فى عالم الغد ، ثمرة جهود جبارة وكفاح مر وصبر وعناد وتضحيات تصورها قصص بطولات رائعة نعجب بها وتلذ لنا معرفتها وقراءتها .

هل كان تعمير الوادى الجديد ، والكشف عن النهر الجوفى ، وقياس مياهه ، ومدى كفايته ، ثم مستقبله البعيد — هل كان هذا كله أمراً ليناً سهلاً ؟ . . . وهذه مديرية التحرير تمتد وتتسع بسرعة . . .

وهذا السد العالى قد أصبح مشروعاً جباراً يسير بخطى حثيثة ثابتة نحو التنفيذ ، بعد أن كان حلماً يراود الأفكار . . .

هل من السهل الكشف عن البترول والفحم والمعادن المخبوءة فى باطن الأرض ، والتى ربما كان على مقربة منها جماعات من البدو يعيشون فى فقر مدقع فى إحدى الواحات ، أو فى قرى مبعثرة بالقرب من سواحل البحار؟... إن تلك الثروات قد خفيت عنهم لجهلهم بالطرق العلمية للعثور عليها والاستفادة منها .

لقد كان شعب الجمهورية العربية المتحدة مهدداً — بعد عشرين أو ثلاثين سنة — بالفقر والجوع الذى تشتد وطأته كلما مرت الأعوام وتكاثف السكان ؛ لولا أن أنعم الله على هذا البلد الطيب بقادة مخلصين وعلى رأسهم الزعيم البطل جمال عبد الناصر ، الذى اخترق بنظراته الصائبة وفكره النير حجب المستقبل المظلمة ، وتطلع إلى الأمام عشرات ، بل مئات الأعوام ، فأخذ يجد ويسعى ليهيئ لبنى وطنه مستقبلاً يسوده الشبع والرخاء ، ويدأ يبنى هذا المستقبل على أساس متين من العلم والإيمان بمستقبل هذا الوطن ، وعلى الجرأة والشجاعة والبحث والتقصى والكفاح والعمل المضنى الذى يجعل للرمال فى النهاية قيمة الذهب .

إن ازدياد عدد السكان لن يخيفنا بعد ، فأجيال الغد الذين يضعون أقدامهم على عتبة العصر الجديد لتطبيقات العلم الرائعة سيكونون علماء يمهدون بعقولهم وأيديهم سبل حياتهم وحياة من يليهم ، عبر القرون والأجيال .

وإن الشرارة الأولى التى أطلقتها الثورة فى النواحى العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وسائر مناحى الحياة ، جعلتنا ننظر إلى الغد بمنظار التفاؤل والاطمئنان .

لقد خلد التاريخ سير عدد من القادة والعظماء والمحررين ، ولاشك أنه سيضع فى المقدمة أولئك الذين حرروا بلادهم سياسياً واقتصادياً ، وأعدوا للمستقبل عدته ، فدرسوا حاجات بلادهم ، وقاموا بتنفيذها فى حزم وعزم وسرعة ونشاط وذكاء وعلم .

وهذه الحياة الجديدة تحتاج إلى طاقات جديدة ، وإلى مياه عذبة ، للشرب ولرى الأراضى التى لا بد من زراعتها ، وغرس الغابات حولها ، لصد الرمال عنها ، وتثبيت أرضها ، وتخفيف حرارتها الشديدة ؛ كما تحتاج إلى كميات ضخمة من المياه لسد حاجة المصانع فى عملياتها المختلفة .

إنها معركة كبيرة ، وسوف نكسبها بإذن الله !

معركة تعمير الصحراء ! . . .

والمعركة بيننا وبين الصحراء عنيفة جبارة . . . إنها معركة حياة أو موت ؛ فإما أن نقهر الصحراء ونزرعها ، وتمتد رقعة العمران فيها شيئاً فشيئاً ؛ وإما أن تطغى الصحراء علينا

قليلا قليلا ، وتدفن الأرض والمدن والقرى وطرق المواصلات تحت الرمال . . . إنها تزحف كل عام بضعة أمتار لا نكاد نشعر بها ، ولكنها عملية هدامة مستمرة شديدة الوطأة ؛ وعلينا أن ندفعها ونجاهد فيها بكل قوانا ، لأن النصر في معركة الصحراء انتصار لغدنا ، وغد أولادنا ، ورفاهيتهم ورفاهيتنا .

إن عدداً كبيراً من المدن والقرى سوف يظهر بين الرمال ، ليعيش فيها الألوف والملايين من أصحاب العزائم القوية المسلحين بالإيمان والخلق والعلم ، ليصلوا بين الواديين القديم والجديد . وسيمتد عمرانهم من البحر المتوسط شمالاً ، إلى بحيرة ناصر جنوباً ؛ وسيغطون رمال الصحراء بالمراعي والحقول والحدائق والمصانع . . .

وإن جوّ الصحراء سيلطف ويعتدل ، وإن التقارب والتآخي سيزداد بين سكان الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية السودانية ، وستنتشر الأراضي الخصبة الجديدة ، والمدن الصناعية ، والموانى السياحية والتجارية ، تضيئها وتدير مصانعها قوى الكهربا من السد العالى .

ولن يقف الأمر عند هذا الحد ، فستتجه العزائم إلى الناحية الشرقية من وادى النيل حتى شواطئ البحر الأحمر وأوديته الغنية بثرواتها المعدنية والبترولية ، وتعبرها إلى شبه جزيرة سيناء ، فتحولها إلى جنات وارفة الظلال . . . .

ولقد بدأت هذه المعجزة التى حققها الزعيم البطل بعزيمته

وتصميمه على قهر الصحراء وتعمير تلك المناطق المنعزلة النائية ، فاختفت الطرق العتيقة الخطرة وحلت مكانها طرق كبيرة مرصوفة ، تحميها من الرمال حواجز من أشجار الغابات زرعت حديثاً ؛ وأخذت تنشط فى هذه المناطق البعيدة حركة الانتقال بسيارات « الأوتوبيس » المنتظمة والسيارات الخاصة وسيارات النقل ؛ ونمت مدن ساحلية سوف تجذب إليها السائحين من مختلف أقطار العالم .

وهذه طائرات الهليكوبتر وغيرها تتنقل بين أرجاء هذه المناطق النائية باحثة منقبة عن مناطق التعدين والمياه الجوفية والأراضى الصالحة للزراعة التى يمكن تعميرها قبل غيرها ، فضلاً عن أن هذه الطائرات تستخدم للنقل السريع والاتصال المستمر بهذه المناطق ، وتموينها بالأغذية وسائر حاجياتها .

إن مشاريع وبحوثاً علمية كانت قد أثيرت فى أوقات مختلفة ثم أغفلت ، ومضت عليها الأعوام الكثيرة حتى كادت تنسى ، فجاءت الثورة فبعثت فيها الحياة من جديد ونهضت بدراستها على ضوء احتياجاتنا الجديدة وتطوراتنا العلمية والفنية والاجتماعية ، مثل منخفض القطارة وغيره من المشروعات التى تدرس الآن وتجرى عليها البحوث والاختبارات .

وعصر الثورة العلمية أساسه الطاقة . وكلما ازدادت ثروتنا من الطاقة قوي ساعدنا وأصبح فى إمكاننا السير فى مقدمة الركب .

إنه عصر الطاقة الشمسية الجبارة . . .

عصر الطاقة الكهربية من السد العالى . . .

عصر طاقة الرياح التى كنا نستهين بها، فى حين نستطيع الحصول منها على كميات هائلة من الطاقة للإضاءة بالكهربا ، وإدارة الآلات ، واستخراج المياه الجوفية لرى الأراضى القاحلة . وسيحصل على الطاقة فى وقت قريب من الفرق بين حرارة البحار السطحية التى تكتسبها من الشمس، وحرارة مياه الأعماق المنخفضة ، وهو فرق كبير ، ولاسيما على شواطئ بحار المناطق المتوسطة الحرارة كالبحر الأحمر ، والمناطق الاستوائية ، حتى يمكن الإفادة منها فى تحويل المياه الملحة إلى مياه عذبة للشرب وزراعة الأراضى وفى إدارة الآلات وإضاءة المدن الساحلية بالكهربا .

إن فلاحنا اليوم على أبواب عصر جديد، فزراعة الأرض قد أصبحت ترتكز على أسس علمية واجتماعية جديدة ... سيختفى الفأس والمحراث ، وستتطور طرق الرى والزراعة والحصاد العتيقة التى تناقلها الأبناء عن الآباء . . . إن فلاح اليوم يتحول إلى فلاح جديد تكشف عنه الأعوام القادمة ، ففلاح الغد له صوته المسموع فى المؤتمر الوطنى ، وجمعيات التعاون ، ومجالس القرى ؛ وهو مثقف متعلم ، يعرف كل شىء عن البذور المنتقاة ، وعن آلات الحرث والحصاد ورى الأرض ،

فيديرها ويصلحها . وهو خبير بأحدث الطرق وأكثرها اقتصاداً ونظافة لتربية الدواجن والحيوانات وتسويق منتجاتها ، وسيكون فى متناول يده جميع آلات الحرث والحصاد والرى والأسمدة الجيدة وأجهزة حلب اللبن وتعقيمه وصناعة الجبن والزبدة ، وتجفيف الخضر والفاكهة وطرق تغليفها وتصديرها ، وصناعة أنواع الشراب والمربى ، وستدخل الكهربا بيته لإضاءته وإدارة آلاته الصغيرة . والأمل كبير فى أن تكون هذه الأجهزة رخيصة تخرجها إلى حيز الوجود عقول شبابنا الباحث عن طاقة الشمس أو الرياح .

إن العلماء فى الوطن العزيز ، وفى كثير من بلاد العالم ، يعملون ويدرسون ويقفون جهودهم على البحث والكشف ، ليعثروا على وسائل جديدة أقل نفقة وأكثر نفعاً .

وفى معاهد البحوث بدأت تباشير عصر جديد بتلك الطاقات الجديدة ، من أجل التعمير والبناء ، من أجل الرخاء ، من أجل الوطن الاشتراكى الديمقراطى التعاونى الذى نعده لسعادة الأجيال الحاضرة والمستقبلة ، حتى نقف على أقدامنا وسط تلك المنافسة المريرة فى الأسواق التجارية والصناعية العالمية .

إن لنا — بالعلم والعمل والجهد والمثابرة والتعاون الوثيق ، وبإرادة الشعب — أن نحلم بحياة كريمة قوية ، قد تبدو الآن ضرباً من الخيال ... ولكن الغد سيحقق تلك الآمال جميعاً ، بل أكثر منها .

بعون الله وتوفيقه الدكتور جورج وهبة العفى

استغلال الطاقة الشمسية

الشمس . . . أعظم نعم الله . . . ترسل أشعتها الدافئة إلى الأرض فتبعث فيها الحياة .

وقد عرف الإنسان منذ أقدم العصور أن الشمس مصدر الحياة والقوة ، فاتخذ منها إلهاً يتعبد إليه . فى مصر كانوا يرمزون إليها بالإله « رع » ، وفى الدولة الرومانية القديمة يرمزون إليها بالإله « ميترا » .

وكان سكان أمريكا الجنوبية — خلال مدنياتها القديمة — يضعون المرايا فوق قمم الجبال لتجميع أشعة الشمس وإشعال النيران ، لإضاءة سفوح الجبال فى الليل.وتبادل الإشارات الضوئية، عبر المسافات البعيدة .

ولم تكن فكرة استغلال حرارة الشمس شيئاً مجهولاً عند قدماء المصريين ، منذ آلاف السنين ، فقد ظل تمثالا ممنون الموسيقيان — حتى بضع عشرات من الأعوام — تصدر عنهما أصوات موسيقية جميلة تحية لشروق الشمس فى الصباح كل يوم . والطريقة التى اتبعها الفراعنة قد كشف عن سرها العثور على حجرة صغيرة داخل التمثال منقسمة إلى جزئين بينهما ثقب صغير ، وقد امتلأ أحدهما بالهواء والآخر بالماء المتجمع من قطرات الندى . فعندما تشرق الشمس يتمدد الهواء بتأثير

الحرارة ، ويضغط على الماء ، فيدفعه إلى التدفق فى الجزء الثانى من الحجرة ؛ ويضغط الماء بدوره على الهواء فيخرج عبر ثقوب ، فيحدث هذا الصوت الموسيقى الجميل . فإذا ما غربت الشمس تقلص الهواء ثانية ، وبدأت قطرات الندى تتجمع فى الجزء الخاص بها من الحجرة ، قبل شروق شمس اليوم التالى .

واستعمل العالم الإغريقى « أرخميدس » المرايا الحارقة للدفاع عن بلاده ، ونجح بواسطتها فى إحراق أسطول العدو الرومانى عندما رآوه يقترب من أسوار « سيراكوز » . وهذه المرايا التى كشف عنها قد وضعت بشكل خاص ، لتركيز الأشعة فى بؤراتها ، ثم توجيهها صوب الهدف .

وفى القرن السابع عشر قام العالم « بوفون » بعمل تجربة أمام لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، فجمع أشعة الشمس المنعكسة من مائة وأربع وأربعين مرآة فى بورة واحدة تبعد ستين متراً عن المرايا ، وكان قد وضع كوماً كبيراً من الأخشاب فى هذه البورة ، فأحرقها عن آخرها .

ووضع « كاسينى » قضباناً من الفضة والحديد فى بوتقة كبيرة صوب إليها طاقة حرارية عظيمة تنعكس من مجموعة من المرايا المقعرة ، فانصهرت هذه القضبان فى ثوانٍ معدودات .

وجاء « لافوازييه » العالم المشهور خلال الثورة الفرنسية ، فاخترع جهازه المصنوع من عدد كبير من العدسات ووضع فى عدسة كبيرة فى مقدمة الجهاز كحولا ، ليجعل

انحراف أشعة الشمس خلالها على أشدّ ما يكون ، وبواسطة هذا الجهاز المصنوع من العدسات بدل المرايا استطاع الحصول على درجات حرارة عالية كانت كافية لصهر الحديد والبلاتين .

وفى عام ١٨٧٥ اخترع « موشو » آلة بخارية تتكون من غلاية أسطوانية من النحاس طليت باللون الأسود ، تسع مائة لتر ، وتحيط بها مرآة معدنية مخروطية الشكل ، مساحة سطحها الذى يعكس أشعة الشمس على الغلاية ٢٠ متراً مربعاً ، فترفع حرارة الماء إلى درجة الغليان . واستعمل البخار فى إدارة آلات صغيرة .

وأقام « شومان » جهازاً لتوليد القوى الشمسية فى عام ١٩١١ فى فيلادلفيا ، وهو مكوّن من أحواض معدنية يجرى فيها الماء ، وقد غطيت بألواح من الزجاج لحفظ الحرارة ؛ وثبتت على جوانب الأحواض مرايا مستوية . وتبلغ مساحة الأحواض جميعاً أربعمائة وخمسة وستين متراً مربعاً . وفى استطاعة هذا الجهاز أن يحوّل مائتى لتر من الماء بخاراً فى الساعة الواحدة . وعيب هذا الجهاز أنه مثبت فى مكانه ، فلا يستطيع متابعة الشمس فى حركتها طول النهار ، وبذلك تقل كفايته الإنتاجية فى أغلب ساعات النهار .

وبعد ذلك بعامين أقام جهازاً آخر فى مصر ، بالقرب من المعادى ، بعد أن أدخل عليه بعض التحسينات الطفيفة ، إذ كانت المرايا الموضوعة على جوانب الأحواض مقعرة ، ويتبع

الشمس فى دورانها . واستعمل البخار الناتج من هذا الجهاز فى إدارة آلات قوتها قوة مائة حصان ، لرفع المياه وري الأراضى .

ثم انصرفت دول العالم إلى استغلال الفحم والبترول ، واكتشفت القوى البخارية والكهربية . . . ومرت الأعوام وشهد العالم حروباً استنفذ فيها الكثير من رصيد الفحم والبترول ، فأخذ يفكر فى قلق : ماذا يكون المصير إن نفد يوماً هذان الوقودان اللذان تعتمد عليهما المصانع والتقدم الراهن ؟

سوف يتجه العالم إلى الطاقة الذرية ، ولكنها طاقة محدودة ، باهظة النفقات ، لن تفيد إلا فى الصناعات الضخمة والإضاءة بالكهربا ، وقد تنفد سريعاً ، إذ أن خامات اليورانيوم والثوريوم والعناصر المشعة الأخرى التى عثر عليها حتى الآن فى العالم قليلة لا تكفى غير بضع مئات من الأعوام .

لذلك بدأت الأنظار تتجه نحو الطاقة الطبيعية الكبرى التى لا تنفد : طاقة الشمس .

يقول : « فارنجتون دانيلز » فى مقدمة كتابه « بحوث الطاقة الشمسية » : « لو وجه إلى السؤال التالى فى عام ١٩٣٨ : أيهما يسبق استعماله فى غير أوجه الزراعة : الطاقة الذرية أم الطاقة الشمسية ؟ لكان جوابى حينذاك دون شك : الطاقة الشمسية ! . . ولكن الكشف عن انشطار الذرة فى عام ١٩٣٩ ، والتقدم السريع فى ميدان الطاقة الذرية ، جعلنى أعترف بأننى أخطأت التقدير » .

ويرجع ذلك التقدم السريع في ميدان الطاقة الذرية إلى ما أنفق على بحوث الذرة من بلايين الدولارات ، في حين أن ما أنفق لاستغلال الطاقة الشمسية لا يكاد يذكر .

إن الطاقة التي في كل من الغذاء والوقود يرجع أصلها إلى الطاقة الشمسية ، بواسطة التمثيل الضوئي في النبات ؛ فبهذه الطريقة يتحد ثاني أكسيد الكربون بالماء ، مع وجود مادة الكلوروفيل الخضراء كعامل مساعد للحصول على كربوهيدرات ومواد عضوية أخرى .

وتعتبر الأشعة الشمسية أكبر مصدر للقوة ؛ وقد أصبح في الإمكان قياسها ، عند وصولها إلى سطح الأرض ، بواسطة أجهزة خاصة دقيقة . وفي العالم الآن ثلاث محطات لإجراء هذه المقاييس ، أولها في « شيلي » على ارتفاع ثلاثة آلاف متر ، والثانية في صحراء « موجاف » في كاليفورنيا ، والثالثة في شبه جزيرة سيناء ؛ وقد اختيرت سيناء لصفاء جوها وندرة أمطارها ، مما يتيح أدق قياس لدراسة الأشعة التي تصل إلى الأرض ، والتي تنعكس ثانية خلال طبقات الجو إلى الفضاء فتمتصها هذه الطبقات . كما تجرى التجارب لدراسة التأثيرات البيولوجية والطبية والزراعية والصناعية التي تحدثها الإشعاعات .

وفي الأعوام الأخيرة أخذت تدور حول الأرض الأقمار الصناعية التي أطلقتها كل من أمريكا وروسيا إلى الفضاء ، وترسل إلى المحطات الأرضية الإشارات والتقارير التي تسجلها

الأجهزة الألكترونية التى تغذيها بالكهربا بطاريات شمسية . ومما يدعو إلى الإعجاب أن قوة تلك البطاريات التى تحول أشعة الشمس إلى كهربا لم تضعف حتى اليوم .

وفى روسيا والهند والمكسيك قرى تستعمل الآن الطاقة الشمسية فى تسخين المياه والطهى والتدفئة . وقد ركبت أجهزة فوق أسطح مبانى المدينة الأزهرية لتسخين المياه ، وتجرى تجارب عملية فى معهد البحوث القومى للاستفادة العملية من الطاقة الشمسية فى التسخين والطهى والتدفئة والتبريد وتكييف الهواء وتحويل الماء الملح إلى عذب . وتقام فى الوقت الحاضر محطات تجريبية للحصول على الماء العذب بالقرب من السويس ومرسى مطروح وشبه جزيرة سيناء .

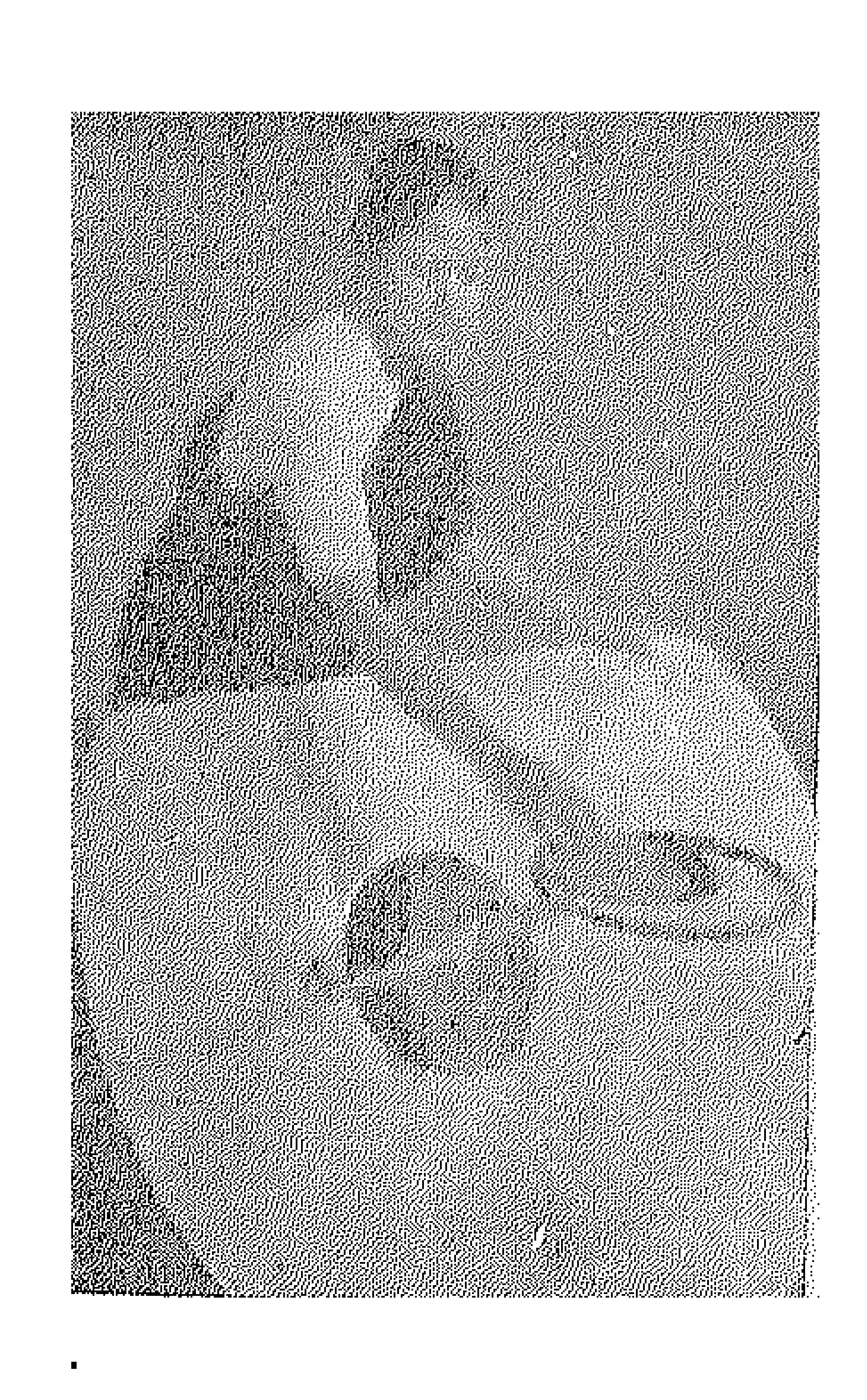
ومن الطريف أن نذكر فى هذا المقام قصة النائب الأمريكى « جولد واتز » الذى يستغل الطاقة الشمسية فى الاستعمالات المنزلية المختلفة فى بيته ، فى أريزونا . ومن بينها جهاز آلى تحركه القوة الشمسية يرفع العلم الأمريكى فوق منزله كل صباح وينزله فى المساء .

ويواصل المهندسون والعلماء فى عدد كبير من الأقطار بحوثهم وتجاربهم لاستغلال الطاقة الشمسية بأجهزة تجمع بين الاقتصاد فى النفقات والحصول على أكبر قدر ممكن من الطاقة .

وفى عام ١٩٥٣ عقد أول مؤتمر دولى هام فى ولاية أريزونا الأمريكية ، ثم كان مؤتمر روما فى شهر أغسطس من السنة

الماضية ، وقد جمع أكثر من أربعمائة عالم ومهندس جاءوا من إحدى وسبعين دولة ، لا ليقفوا على أحدث طرق استغلال الطاقة الشمسية وطاقة الرياح والحرارة الجوفية للأرض والأجهزة الجديدة التي اخترعت ، ولكن ليتدارسوا فى أحسن الوسائل للحصول على الطاقة من هذا الكنز المخبوء فى أشعة الشمس ، واستغلالها فى خير البشرية ورفاهيتها ، وتعمير المناطق المنعزلة القفرة ، لمواجهة اطراد زيادة عدد السكان ، ولتوسيع رقعة الأراضى المنزرعة ، وتحويل الثروة المعدنية إلى صناعات تزدهر بها البلاد وتهيئ لها الثراء والاستقلال الاقتصادى .

وهذه المناطق ليست فى حاجة إلى إقامة المصانع الكبيرة التى تديرها التوربينات الضخمة ، وإنما هى فى حاجة إلى أجهزة صغيرة ورخيصة تمدها الشمس والرياح بطاقات صغيرة تكفى لإضاءة المنازل وإدارة مضخات المياه الجوفية أو الآلات الصغيرة للاحتياجات المحدودة لأهل البلدة الناشئة ، ثم ما يحتاج إليه أهلها من أفران لطهى الطعام وتسخين الماء ،



موقد شمسى للطهى

وآلات لطحن الحبوب وعصر الزيوت ، وأجهزة لتحويل المياه المالحة إلى مياه عذبة إن كانت مناطق التعمير بالقرب من شواطئ البحار ، أو فى بقع تكون مياهها الجوفية مالحة بعض الملوحة ، ولتكييف الهواء والتبريد وحفظ الأطعمة ، وتجفيف الفاكهة والخضر واللحوم ، إذا أتيح لنا التوسع فى المراعى بالقرب من ساحل البحر المتوسط ، وللتدفئة فى ليالى الشتاء ، وفى أغراض الصناعة المحدودة كصهر الخامات وتركيزها وتنقيتها . . .

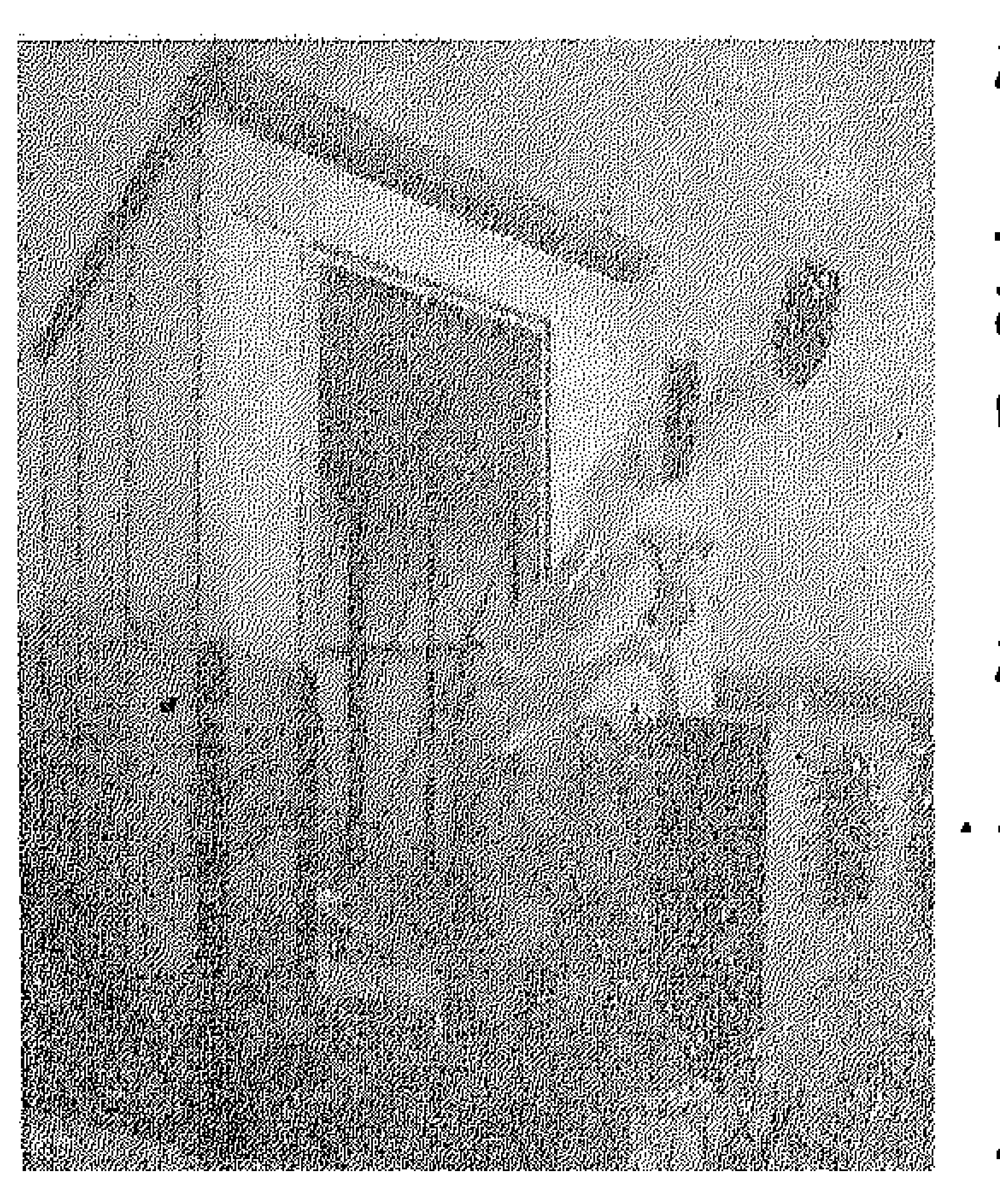
هذه — وغيرها كثير — آفاق جديدة تبشر بمستقبل سعيد سوف يرفع من مستوى المعيشة ويوفر العمل والحياة المستقرة المطمئنة للرواد الأوائل لتعمير الصحراء .

ليطمئن شباب اليوم على مستقبله ، فالغد من صنع يديه وكفاحه وإعداده منذ صباه الأول بالدرس والصبر والعمل الشاق من أجل غد ليس بالبعيد تتوفر له فيه حياة الطمأنينة والرفاهية .

قياس الأشعة وامتصاصها

دلت المقاييس المختلفة للطيف على أن درجة حرارة السطح الخارجى للشمس تبلغ ٦٠٠٠° مئوية فى حين تبلغ فى داخلها حوالى ٢٠ مليون درجة . ويقدر ما يصيب المتر المكعب على سطح الأرض من حرارة الشمس بكيلووات واحد ، وهذا القدر ضئيل جداً ، لبعد الشمس عنا نحو مائة وتسعة وأربعين مليون كيلومتر ، ولما تمتصه طبقات الفضاء المختلفة .

وتختلف درجة امتصاص العناصر المختلفة فى الكون لحرارة الشمس ، فبعضها شفاف تمر من خلاله ، وبعضها يعكس الأشعة ثانية ، وبعضها الآخر له خاصية الامتصاص ؛ فالزجاج والكوارتز والبلورات مواد شفافة تمر منها الأشعة ومن



جهاز لدراسة الإشعاعات الشمسية

المواد العاكسة بعض المعادن كالذهب والفضة والألومنيوم والسبائك ، وهى تعكس أكثر الإشعاعات التى تصل إليها دون أن ترتفع حرارتها إلا قليلا ، فالفضة تعكس الأشعة بنسبة ٩٢٪ والألومنيوم يعكسها بنسبة ٨٢٪ ؛ ولذا تستخدم المواد الشفافة والعاكسة فى صنع الأجهزة والآلات الشمسية . أما المواد التى تصنع منها الأجزاء الماصة للحرارة فما زالت فى حاجة إلى كثير من الدراسة للتعرف على أكثرها فائدة واقتصاداً ، وهى التى تهمنا ، لامتصاصها الحرارة واختزانها .

ويعتبر الجسم الأسود أكثرها امتصاصاً للأشعة ، فالمفروض أنه يمتصها بأكملها . ويعتبر الجرافيت وأكسيد النحاس وأكسيد الحديد أقرب المواد من الجسم الأسود لامتصاصها كل الإشعاعات الساقطة عليها تقريباً .

تركيز الطاقة الشمسية

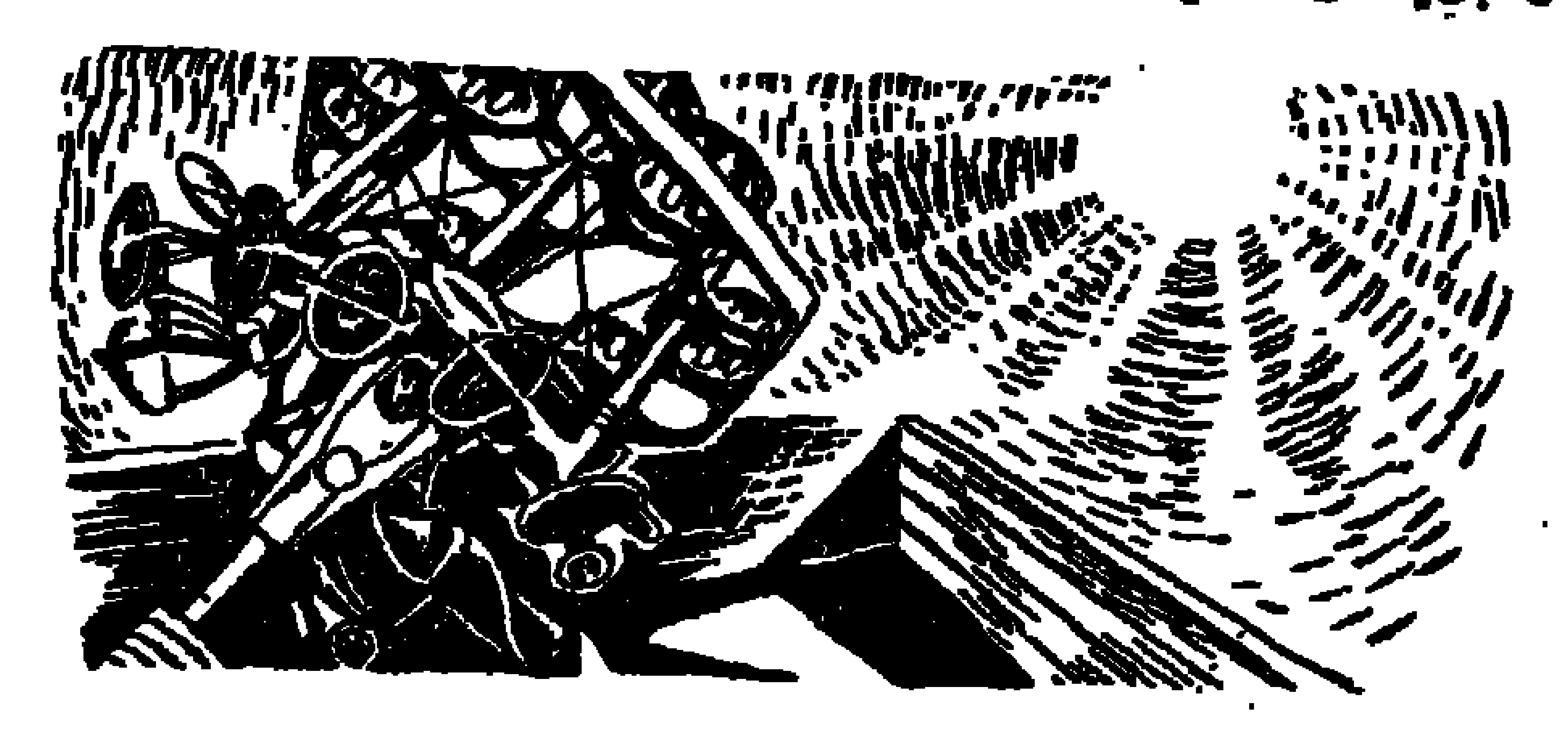
أولا : بطريقة « الصندوق الزجاجي »

عندما تخترق أشعة الشمس ألواح الزجاج التى تغطى صندوقاً أو حوضاً مملوءاً بالماء أو بأحد السوائل الأخرى أو الغازات ترتفع درجة حرارة هذه المادة التى بالصندوق ، ولا سبيل إلى خروج الأشعة ثانية، إذ تمنعها الألواح الزجاجية . ويلاحظ أن الفرق يكاد يكون الضعف بين الحرارة داخل الصندوق ، وحرارة نفس الغاز أو السائل أو الماء إذا كان موضوعاً فى المكان نفسه وفى الظروف نفسها ، دون وجود الصندوق الزجاجى ، فهى تصل فى الصندوق إلى مائة وخمسين درجة مئوية ، على حين لا تزيد فى خارجه عن ٦٠ مئوية .

ثانياً : التركيز بالمرايا

تروح الحرارة التى يمكن تركيزها بالمرايا بين ثلثمائة درجة وثلاثة آلاف درجة مئوية . فالمرايا المسطحة — وهى أبسطها — تزداد قدرتها العاكسة بزيادة عدد المرايا توضع على هيئة قطاع متكافئ . وقد أدخل العلماء على طرق التركيز هذه كثيراً من التحسينات ، لتلافى ضياع جزء كبير من الأشعة المنعكسة ، ولتتابع حركة الشمس أثناء ساعات النهار بين الشروق والغروب وفى فصول السنة المختلفة فالأفران الشمسية مثلا التى يمكن

بواسطتها الحصول على درجات مرتفعة من الحرارة للأغراض الصناعية والتجارب العلمية ، قد أعدت بطريقة تجعل محور القطاع المتكافئ متجهاً دائماً نحو الشمس . وهناك مرايا لا تزيد درجة الحرارة التي تركزها على بضع مئات ، ولكنها قليلة التكاليف ، وتكفي لأغراض التدفئة وتسخين الماء والطهي وتكييف الهواء والتبريد والتجفيف وغير ذلك من الاحتياجات المنزلية . والمرايا



فرن شمس

الخاصة بهذه الأغراض أسطوانية وذات قطاع متكافئ ، وتصنع عادة من سبائك الألومنيوم ، فتتركز الحرارة على محور يكون بمثابة البؤرة التي يوضع فيها الإناء أو المادة المراد تسخينها بدلا من البؤرة المركزية في جهاز القطاع المتكافئ . ويفضل استعمال المرايا ذات القطاع الأسطواني المتكافئ ، إذ يمكن جعل محورها البؤري موازياً لمحور الأرض ، ويمكن توجيه السطح العاكس للمرآة بحيث يتبع حركة الشمس منذ الصباح الباكر حتى الغروب .

حرارة الشمس فى خدمة الأسرة

تعتبر الاستعمالات المنزلية أولى التطبيقات العملية التى يمكن استخدامها وانتشارها بتركيبات بسيطة ونفقات زهيدة ، مثل التدفئة وتسخين الماء وتكييف الهواء والتبريد فى ثلاجات شمسية والتقطير ، وتكون فى الغالب بطريقة الصندوق الزجاجى ، فى حين يستعمل تركيز المرايا فى طهى الطعام وتجفيف الفاكهة والخضر والحصول على القوى المحركة ودرجات الحرارة العالية للصناعة . كما أن عملية اختزان الحرارة فى المنزل أصبحت فى حيز الإمكان بطرق كيميائية وفيزيائية بسيطة للإفادة منها فى أثناء الليل أو بعد أيام وأسابيع من اختزانها .

التدفئة

تصل درجة الحرارة فى الليل وفى الساعات الأولى من النهار ، خلال فصل الشتاء ، فى جزء من بلادنا ، إلى حد يحتاج إلى التدفئة . وباستخدام هذه الحرارة الطبيعية التى أنعم الله بها على الإنسانية خلال النهار ، يستغنى عن استهلاك كميات من الوقود أو الكهربا يمكن الإفادة منها فى نواح أخرى من الاقتصاد الوطنى .

وجهاز التدفئة هو صندوق أو حوض غطاؤه من الزجاج

أو البلاستيك الشفاف . أما حجمه فيتوقف على المساحة المراد تدفئتها.

تمر بالصندوق أنابيب قد طليت من الخارج بلون أسود معتم حتى تمتص أكبر كمية من حرارة الشمس . وتمتد هذه الأنابيب المعدنية ناقلة الهواء أو الماء الساخن إلى غرف المنزل، ويتحكم فى مرورها جهاز يستطيع تحويلها إلى حوض الاختزان. ولا يزيد ارتفاع الحرارة بهذه الوسائل عن عشرين درجة يمكن توفير جزء منها على الأقل باستخدام الماء الساخن فى أغراض منزلية ، وذلك بتعميم المنازل الحديثة بحيث تدخلها أشعة الشمس أكبر وقت من النهار من نوافذ واسعة صحية ذات ألواح زجاجية شفافة تمر منها أشعة الشمس إلى الداخل ولا تتمكن من الخروج ثانية . وقد أنشئت فعلاً فى الولايات المتحدة عدة منازل أطلق عليها اسم « المنازل الشمسية » صممت بطريقة تستغنى عن أجهزة التدفئة بالحرارة الشمسية أو الاختزان .

تسخين الماء

استخدمت حرارة الشمس منذ أعوام فى تسخين الماء فى المدينة الجامعية الأزهرية ، كما تجرى التجارب لإمداد عدد كبير من المنازل فى البلاد الصغيرة والقرى المنعزلة بكفايتها من الماء الساخن بحرارة الشمس .

ويتكون الجهاز عادة من صندوق أو حوض موضوع وضعاً

مائلاً ليوازى محور الأرض ، وتطلى جوانبه بمادة عازلة حتى لا يفقد الحرارة المكتسبة ، كما يصنع غالباً من الأسمنت أو أنواع من الخشب التى تقاوم التأثيرات الجوية ، ويغطى الحوض بعدد من الألواح الزجاجية الشفافة أو ألواح البلاستيك ، قد تكون ثلاثة أو أربعة ، تترك بين كل منها والآخر مسافة عدة سنتيمترات لاصطياد أكبر قدر من أشعة الشمس داخل الصندوق . وفى قاع الصندوق أنابيب الماء المنثنية على شكل حلزونى . والأنابيب وقاع الصندوق مغطاة بمادة سوداء لزيادة امتصاص الحرارة .

تكييف الهواء والتبريد

تزداد حرارة الشمس وتشتد وطأتها فى فصل الصيف؛ إنها ترسل إلينا أكبر قدر من الحرارة فى الوقت الذى نبحث فيه عن وسيلة لتلطيف الجو ، وعن جرعة من الماء المثلج المنعش . وهنا معجزة المعجزات ؛ فهذه الحرارة الخانقة التى تبعث الخمول والكسل والضيق ، وتحلل الأطعمة وتفسدها بسرعة ، تتحول إلى هواء منعش جميل باعث على النشاط والقدرة على العمل المنتج ، وإلى ماء مثلج من ثلاجات تديرها الطاقة الشمسية؛ وتحفظ الأطعمة أياماً وأسابيع. فلننظر إلى قدرة الخالق الذى جعل لنا من العلم منقذاً وباعثاً لحياة جديدة ممكنة وسط الصحراء التى ستصبح جنات تملؤها الحياة والعمران

تكييف الهواء

الطريقة الأولى : تمتص الرطوبة بواسطة محلول برومور الليثيوم أو بمحلول ثالث إثيل الجليكول ، ويرسل المحلول لتركيزه ثانية فى جهاز تسخين يستمد حرارته من الشمس ، ثم يعاد المحلول المركز إلى الغرف ثانية لامتصاص الرطوبة وهكذا . . .

والطريقة الثانية : بواسطة جهاز ميكانيكى لتخفيف ضغط الهواء ، وهو عبارة عن مكبس تديره توربينات : إحداهما لزيادة ضغط الهواء والأخرى للتفريغ أو تخفيف الضغط . فيسخن جزء من تيار الهواء بحرارة الشمس ، ثم يرسل إلى جهاز لزيادة الضغط الواقع عليه ، وذلك حتى ترتفع درجة حرارته . أما الجزء الباقى من تيار الهواء فيبرد بتخفيف الضغط الواقع عليه ثم يعود ثانية إلى الغرف لتبريد جوها .

وللاقتصاد فى نفقات منشآت تكييف الهواء وتسخينه للتدفئة فى الشتاء ، أو لتسخين الماء ، يُصنع حوض لتجميع الأشعة والتسخين ، ليمكن استخدامه فى كلا الغرضين . والحقيقة ، التى تبدو فى أول الأمر شيئاً غريباً ومتناقضاً ، أن الحرارة — سواء أكانت مرتفعة أم منخفضة — هى شيء واحد ، فالسخونة والبرودة أمر نسبىّ فقط ، وكذلك التسخين والتبريد فى المنازل بواسطة المضخة الحرارية التى تستطيع أن تنقل الحرارة من مكان إلى آخر ، فترتفع درجة الذى انتقلت إليه ، وتنخفض درجة

حرارة الآخر إلى حد قد يبلغ التثليج ، وهى طريقة أخرى اقتصادية سوف نعود إليها بالتفصيل لأهميتها .

الثلاجات الشمسية

هذه هي ثلاجات المستقبل الشعبية التى لن تكلف كثيراً فى صنعها أو تشغيلها ، فضلا عن أنها تمتاز بسهولة نقلها واستعمالها فى أى قرية مهما كانت بعيدة عن مراكز توليد الكهربا فى الواحات الموجودة حاليًا وفى تلك التى سوف تخلقها إرادة الإنسان وعزمه على الحياة والتغلب على الطبيعة .

إن الثلاجات الكهربية الشائعة الاستعمال أساسها محرك كهربى ، عمله تسخين وضغط محلول سريع التبخر ، كالنشادر مثلاً ، ثم تخفيف الضغط الواقع عليه . ومن المعروف فى علم الفيزياء — تبعاً لنظرية « كارنو » المشهورة التى يمكن بعملية رياضية بسيطة إثبات صحتها — أن الطاقة اللازمة للتبريد أقل كثيراً من الطاقة اللازمة لرفع درجة الحرارة . وإذا كان لا يمكن الحصول على أكثر من عشرة فى المائة من كفاية الآلات لتوليد طاقة حرارية ، فمن الممكن الحصول على كفاية لا تقل عن خمسة وعشرين فى المائة بالتبريد .

وطريقة التبريد بالنشادر تتلخص فى استعمال محلول مركز من النشادر المذاب فى الماء . فبتسخين النشادر تحت ضغط عال قد يبلغ سبعة أو ثمانية أمثال الضغط العادى فى الثلاجة ،

بواسطة حرارة الشمس ، يتبخر غاز النشادر ، ثم لا يلبث أن تسحب منه الحرارة ويبرد ويتكثف فى جزء آخر من الجهاز . وهنا نرى صورة واضحة جلية للمضخة الحرارية التى تعمل بالحرارة الشمسية ، فتنقل الحرارة من جزء المكثف إلى حيث جهاز تبخير سائل النشادر وضغطه . ويمكن استخدام الثلاجة خلال ساعات الليل بإضافة جهاز للإيدروجين المضغوط ، وبذلك نستطيع الحصول على محلول النشادر وتبخيره ثم تكثيفه ، واستمرار الدائرة فى عملها ليلا ونهاراً .

وحتى تقوم الثلاجة الشمسية بعملها بطريقة اقتصادية يستعان بمرايا لتركيز حرارة الشمس والحصول على درجة حرارة تروح بين ١١٠ و ١٢٠ من أجل التسخين .

اختزان الحرارة

تمكن العلماء من استنباط عدة طرق لاختزان حرارة الشمس ، وبذلك يختفى أكبر عائق لاستغلال الطاقة الشمسية . ومن أهم هذه الطرق اختزان الحرارة فى قطع صغيرة من الحجارة والحصى يمر الهواء الساخن من بينها فتنتقل إليها الحرارة ، لتحتفظ بها بضعة أيام . وهذه أرخص الطرق وأبسطها . ويمكن كذلك بنفقات قليلة اختزان الماء الساخن فى حوض من الإسمنت يعزل تماماً بطلائه بطبقة من إحدى المواد العازلة كالقطران .

وقد نجحت « ماريا تلكس » فى اختزان الحرارة أسابيع

كاملة فى مواد كيماوية توضع فى أحواض صغيرة . وهى تجمع بذلك بين فائدتى صغر حجم الخزان والاقتصاد فى النفقات .

استعملت ماريا فى تجاربها الرائعة كبريتات الصوديوم المتبلور (ملح جلوبير ، الذى يحتوى على ١٢ جزىء من الماء . وينصهر فى درجة الحرارة المنخفضة ٣٥° ، وهو فى أثناء ذلك يمتص كميات كبيرة من الحرارة ، ثم يعيدها مرة أخرى عند تبلوره ثانية .

واستطاعت العالمة الأمريكية أن تختزن بهذه الطريقة ، فى أحد المنازل الشمسية الأمريكية ، الحرارة الكافية لتسخين ما يكفيه من الماء ولتدفئته بواسطة خزان يحتوى على عشرين طناً من ملح كبريتات الصوديوم المتبلورة . وتقول إن طريقتها لا تحتاج إلى أكثر من سدس المساحة التى يشغلها خزان للماء ، أو إلى عشر المساحة التى يشغلها خزان الحجارة والحصى . وأجرت تجاربها على عدد كبير من الأملاح ، فحصلت على نتائج طيبة أيضاً من أملاح كلودور الكلسيوم المتبلورة ، وفوسفات الصوديوم ، وكربونات الصوديوم ، وهما كذلك على هيئة متبلورة .

المضخة الحرارية

فكرة رائعة وكشف عظيم . . هذه المضخة الحرارية . إنها آلة بسيطة فى مظهرها ، تجمع الحرارة التى اختزنتها

الشمس فى باطن الأرض ، وفى مياه البحر والآبار والهواء ، بدلا من تجميعها مباشرة بالصناديق والأحواض المغطاة بألواح الزجاج أو البلاستيك الشفافة وبالمرايا المركزة .

والحرارة المختزنة فى الهواء والماء وباطن الأرض صغيرة ، ولكننا بتجميعها ، وضغطها فى المضخة ، نصل إلى كميات من الحرارة تبلغ فى كثير من الأحيان خمسة أضعاف الكمية التى امتصتها . وبفضل التحسينات المطردة فى أجزاء المضخة المختلفة أمكن الحصول على سبعة أضعاف كمية الحرارة الممتصة .

ويمكن تشبيهها بينبوع للبترول ، فالآلات التى تستخرج البترول من أعماق الآبار تحتاج إلى وقود يدير تلك الآلات ، ولكن هذا الوقود المحرك للآلات يقل عشرات الأضعاف عن القوة المحركة التى فى البترول ومشتقاته الوقودية المختلفة .

أما أعظم ما تقدمه المضخة الحرارية لسكان المدن الصغيرة والقرى فهو فائدتها المزدوجة ؛ إذ تنقل الحرارة من باطن الأرض أو الماء أو الهواء ، أو الحرارة المختزنة فى حوض ماء ساخن بواسطة أشعة الشمس ، أو الحرارة المختزنة كيماويا فى بلورات كبريتات الصوديوم مثلا ، وتقوم بعملية عكس هذه تماماً ، فهى تستطيع تكييف هواء المنازل وتبريدها وسحب الحرارة من ثلاجة ، فتؤدى عمل « الفريجيدير » تماماً .

وهيكلها الخارجى يشبه فى أغلب الأوقات « الفريجيدير » ؛ إنه صندوق معدنى جميل نظيف لا يرى منه سوى أنابيب

طويلة تمتد إلى باطن الأرض ، على عمق ثلاثة أمتار ، وقد يصل طولها إلى مئات الأمتار .

تحتوى هذه الأنابيب على غاز « الفريون » (Freon) الذى يستعمل فى الثلاجات عادة ، ويصل إلى هذا العمق من الأرض لامتصاص الحرارة ، ثم يعود إلى جهاز للضغط ، فيرفع ضغط الغاز من ٢٥ رطلاً إلى ١٢٠ رطلاً مما يرفع درجة حرارة الغاز إلى ١٢٠° . ثم يمرر تيار من الهواء العادى على الأنابيب المملوءة بالفريون فتنتقل حرارة غاز الفريون إلى الهواء فيدفئ الغرفة أو يسخن الماء ، أو يجفف الفاكهة أو الخضراوات ، أو غير ذلك من الاستخدامات المنزلية الكثيرة .

وبانتقال الحرارة من غاز الفريون إلى الهواء يبرد ، ويتحول ثانية إلى سائل ، ويعود مرة أخرى إلى جهاز خاص لتحويله من جديد إلى غاز يتخذ طريقه إلى باطن الأرض لامتصاص الحرارة ، وهكذا دواليك . . .

وما أشد الحاجة إلى مثل هذه المضخة الحرارية فى الصيف! إن الجهاز حينئذ يمكن أن يعمل بطريقة عكسية ، هى تخفيف الضغط ، وسحب الحرارة والتبريد حتى التثليج ، أى أن غاز الفريون يمتص الحرارة المرتفعة من أرجاء المنزل وينقلها إلى وسط أقل حرارة بالنسبة له ، وهو الأرض ، أو الهواء أو الماء الجوفى أو ماء البحر أو الماء فى حوض ما .

ولم تقف أحلام العلماء عند حد اختراعهم هذه المضخة ،

بل هم دائبون على التحسينات الفنية والاقتصادية . ولقد توصل « بجيت هيت » إلى مضخة تحركها الطاقة الشمسية بواسطة مجمعات مستطيلة معرضة للشمس يمر فيها الماء لتسخينه وتحويله إلى بخار .

وفكر بعض العلماء فى الاستفادة من الطاقة المختزنة فى الماء ، وفى البلورات الكماوية ، كمخازن تمد المضخة بحاجتها فى الليل وفى الأيام الغائمة والباردة .

ومن الطريف أن نذكر فى هذا المقام ما حدث لمدينة سويسرية أرادت إنشاء مضخة حراوية ضخمة تمدها بالحرارة اللازمة لتدفئتها فى الشتاء من مياه نهر يمر بجوارها ، ففوجئت بتجمد مياهه ، لضخامة كمية الحرارة التى امتصتها المضخة ، وسد مجرى الماء عما وراءه من مدن وقرى .

إن استعمال المضخات سوف يزداد بسرعة كبيرة ليعم جميع الأقطار ، ولكنه فى حاجة إلى دراسة وعناية كبيرة قبل انتشاره ، فقد تحدث فى الأقطار التى لا تظفر بحرارة مرتفعة أو مختزنة مفاجآت مشابهة لما حدث فى تلك المدينة السويسرية.

ومن المعتقد أن بلاداً تشرق عليها شمس مثل شمس الصحارى ومعظم أقطار الوطن العربى لن تخشى مثل هذه المفاجآت قبل مئات الأعوام ، فواجب ألا نستهين بطاقة الشمس ، لأنها ثروة طائلة وأساس متين للتعمير .

المياه المالحة تصير عذبة

بدأت عملية الزحف نحو الصحراء وغزوها ، لزراعتها وبعث الحياة فيها وتحويل أراضيها الرملية الماحلة إلى تربة خصبة ؛ ولكن ذلك لا يتأتى بغير الماء العذب ، فكيف الوصول إليه ؟

هناك المياه الجوفية يمكن الحصول عليها بحفر الآبار الإرتوازية العميقة ، وهناك مياه النيل تصل إلى الصحراء بواسطة أنابيب ضخمة من الصلب قد يصل مجموع أطوالها إلى عشرات الآلاف من الكيلومترات ، غير أن أراضي وادى النيل فى أشد الحاجة إلى كل قطرة من قطرات هذا النهر المبارك ، فوق أن نفقات صنع أنابيب المياه وامتدادها مسافات طويلة والعناية بها يجعل استعمالها غير اقتصادى .

ولا يذهب بنا التفاؤل بعيداً فى مضمار الحصول على المياه العذبة وسط الصحراء الجرداء ، فليس من السهل أن ننقى مياه البحر أو نصل إلى المياه الجوفية التى تكون فى بعض الأحيان — لحسن الحظ — عذبة صالحة للشرب والزراعة . وقلما يمكن الوصول إليها فى غير المناطق المنخفضة أو القريبة من الشواطئ ؛ ثم إنها قد تكون فى بعض فصول السنة متوسطة أو شديدة الملوحة . وكم يلاقى المهندسون والعلماء من العقبات فى إعداد الأجهزة اللازمة ، فهى معقدة باهظة التكاليف !

والبحوث موصولة ، والتجارب جارية فى معاهد البحوث وغيرها من المعاهد العلمية فى الجامعات لتقطير الماء المالح .

وكان من الطبيعى ان تتجه البحوث إلى النواحى الاقتصادية فأقيمت محطات لإجراء التجارب على أنواع التنقية المختلفة ، فنها ما يفيد من طاقة الشمس ، ومنها ما يفيد من التبخير المسمى التبخير المتعدد الأثر ، ومنها ما يكون بالتبخير تحت ضغط مرتفع ، أو تحت ضغط مخفف ، أو التبخير المفاجئ ، والتحليل الكهربى ، وتبادل الأيونات ، والضغط الانتشارى ، والتجميد ، والترسيب ، والمعالجة الكيميائية ، وعشرات غيرها من مختلف الوسائل . وقد نجحت أغلبها ، وإن كنا فى حاجة إلى طرق أكثر اقتصاداً وأوفر إنتاجاً .

إن حاجة الوطن إلى المياه العذبة شديدة ملحة ، لسد النقص الذى نشعر به ، ولمواجهة الزيادة المطردة فى عدد السكان التى تدفعنا إلى تعمير الصحراء . فهذا الشريط الأخضر الخصيب الذى يرويه ماء النيل لا يتجاوز جزءاً واحداً من عشرين جزءاً من مساحة الجمهورية ، وعلى جانبيه تمتد الأراضى المجدبة تنتظر الكفاح المرير للعثور على مياه الري والشرب وسد حاجة المناجم والمصانع المتناثرة فى أنحاء متفرقة من الصحراء وعلى سواحل البحار .

وهذه أيضاً هى صورة أهل الواحات التى تهددها الرمال ، لولا تلك الينابيع القليلة وأشجار النخيل . وهذه كلها إلى

تناقص وانقراض ، إذا تركت دون عناية ؛ فالواحات والأراضى التى هى فى سبيل التعمير محتاجة إلى مياه كثيرة من جوف الأرض ومن مياه البحر ، لزراعة مزيد من أشجار النخيل والزيتون والغابات الكثيفة حتى تصد عنها الرياح السافيات .

لابد إذاً من المياه العذبة مهما كلفنا ذلك كما يرى العالم « إيفريت هاو » إذ يقول : « إن تكاليف الحصول على المياه العذبة لن تكون باهظة إذا نظرنا لأهميتها للحياة الإنسانية والتعمير من أجل المستقبل » .

ومشاريع المستقبل الضخمة الجبارة لا سبيل إلى تحقيقها دون رأس المال وعزيمة الشباب المغامر الجرىء . وسوف تتحقق الأمانى بفضل التخطيط العلمى للمستقبل الذى يشترك فيه الرؤساء والعلماء ورجال الاقتصاد والاجتماع .

التقطير الشمسى

تلقى طريقة التقطير بأشعة الشمس اهتماماً كبيراً ، لأنها أرخص الطرق ، بل هى لا تكلف شيئاً من الوقود ، فالشمس فى بلادنا — والحمد لله — مشرقة ، وحرارتها شديدة معظم أشهر السنة ، والسماء صافية ، ما عدا أياماً معدودات تختفى فيها الشمس وراء السحب والغيوم . إن الساعات التى تظهر فيها الشمس وترسل فيها إلى الأرض أشعتها على وطننا الحبيب تبلغ إحدى عشرة ساعة فى اليوم تقريباً .

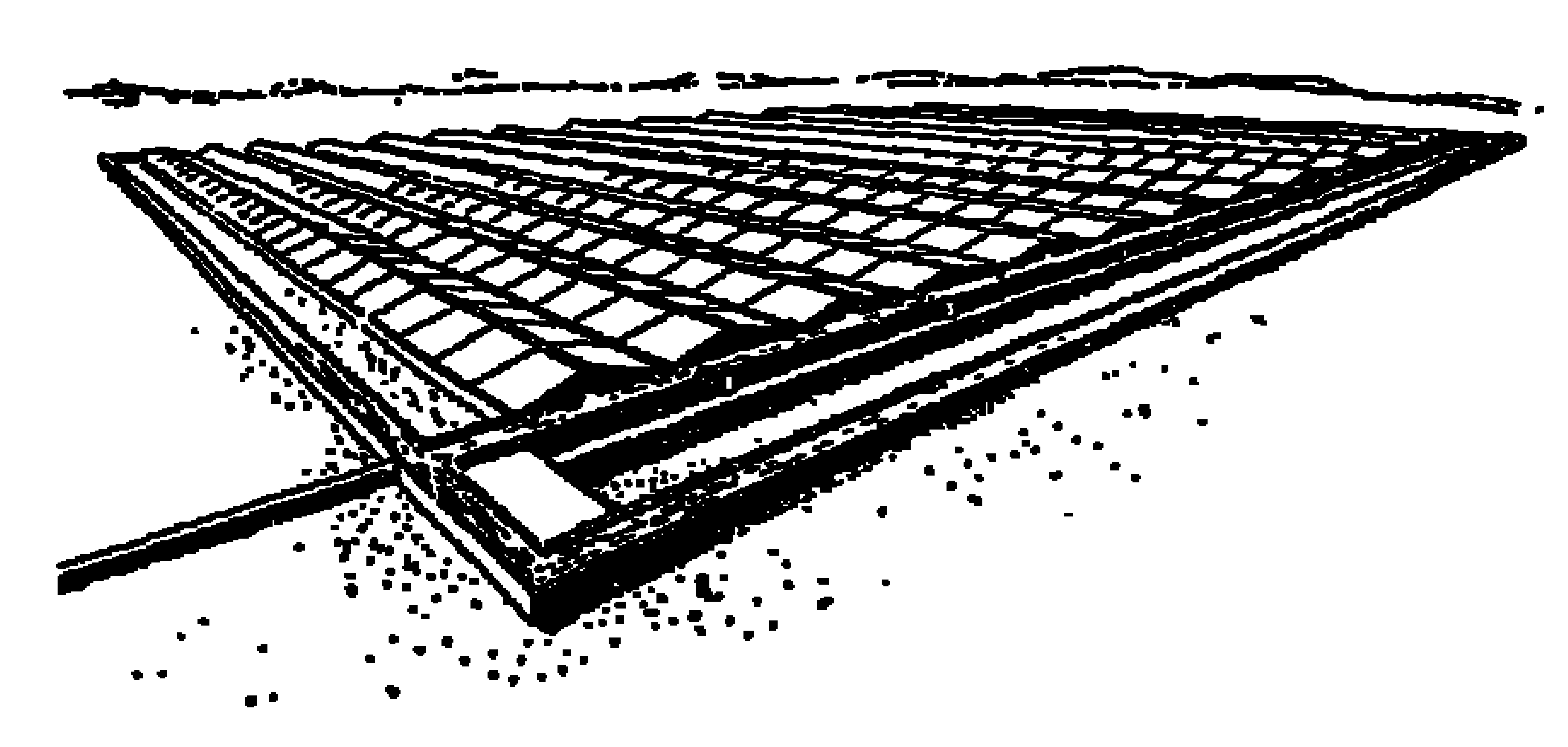
ولقد اتجه الإنسان منذ أقدم العصور إلى الاستعانة بالتبخير

الشمسى للحصول على ملح الطعام ، كما استعمل العدسات والمرايا المركزة لتقطير مياه البحر المالحة فى الأماكن المنعزلة على سواحل البحار ؛ كما استعين بها إلى جانب طرق الغلى فى الآنية بأنواع الوقود الأخرى ، للحصول على ماء مقطر للطهى والشرب بدلا من اختزان الماء فى أوعية كبيرة تشغل مساحات من السفن .

وكان « هاردنج » أول من أقام جهازاً للتقطير بالطاقة الشمسية فى عام ١٨٧٢ للحصول على كمية من الماء العذب تكفى حاجة المئات من العمال الذين كانوا يستخرجون النترات فى « ساليناس » بشيلى . فكان يحصل على ثلاثة وعشرين طناً من الماء العذب فى اليوم من جهازه الذى يشغل نحواً من أربعة آلاف وثمانمائة متر مربع . وظلت أجهزته تعمل حتى عام ١٩٠٨ ، مما يدل على مهارته البالغة ومتانة المواد وألواح الزجاج التى صنعه منها .

والجهاز الذى يمثل أبسط أنواع التقطير الشمسى هو أحواض صيغت من الخشب الأحمر المغلف من الخارج بالإسمنت ، وموضوعة على الأرض . وتغطى هذه الأحواض ألواح من الزجاج مثبتة جيداً ، وتميل بانحدار نحو خزان لحفظ المياه العذبة . وفى الجوانب الداخلية لإطار تثبيت الألواح قنوات تسير فيها المياه بعد تكثيفها .

وقد طلى قاع الحوض من الداخل باللون الأسود لامتصاص أكبر كمية من الحرارة لتسخين الماء الذى به . وللزجاج هنا فائدة مزدوجة ، فأشعة الشمس تخترق الزجاج نحو الداخل



تقطير المياه بالطاقة الشمسية فى الأحواض الزجاجية

ولا سبيل لها إلى الخروج ثانية وبذلك ترتفع درجة الحرارة فى الحوض الذى تغطى قاعه طبقة من الماء تروح بين الأربعة سنتيمترات فى جهاز « هاردنج » موضوع الحديث، وعشرة سنتيمترات أو أكثر فى الأجهزة الحديثة . أما الوجه الخارجى للزجاج الملامس للهواء فدرجة حرارته أقل منها فى داخل الحوض ، وبذلك يقوم بدور المكثف للماء الذى يتبخر عند ارتفاع درجة حرارته ، فيصطدم بالوجه الداخلى للزجاج ويتكثف متخذاً القنوات التى على جانبى الغطاء الزجاجى مساراً له حتى أحواض الاختزان .

وجاء من بعد « هاردنج » العالم الأمريكى « آبوت » والعالم الفرنسى « باستوز » بتصميم أجهزة تقوم على تركيز حرارة الشمس بالمرايا والعدسات ، ولكنها كانت باهظة النفقات لما تحتاج إليه من أجهزة معقدة تجعل المرايا والعدسات تتبع الشمس فى دورانها خلال ساعات النهار المختلفة ، حتى تظل أوانى غلى الماء دائماً فى البؤرة حيث تتركز أشعة الشمس المنعكسة .

وتعتبر العالمة الأمريكية « ماريا تلكس» (Maria Telkes) من أكبر الباحثين فى ميدان الطاقة الشمسية وتصميم الآلات لاستغلالها ؛ وكما شاركت فى تسخين الماء واختزان الحرارة والطهى والتقطير ، أسهمت بأكبر نصيب ، وكذلك العالم « آبوت » ، فى بحوث القوى المحركة والكهربا من الشمس .

وكان من أوائل الأجهزة التى قامت هذه العالمة بإعدادها جهاز شبيه بمقطر « هاردنج » ، بعد أن أدخلت عليه كثيراً من التحسينات ، حتى وصل إلى درجة من الإتقان جعلته من أحسن وأرخص الأجهزة التى صممت حتى الآن . ويتكون من عشرة مقطرات متوالية موضوعة بعضها فوق بعض : الأول منها يمتص الحرارة من الشمس فيقطر جزءاً من الماء يتكاثف ، ويمد الطبقة التى تحته بالحرارة ، وهذه بدورها تبخر جزءاً آخر من الماء ، فتنتقل حرارته إلى الجهاز الثالث ، وهكذا حتى الجهاز العاشر . وتمتاز هذه الطريقة بأنها لا تحتاج — بعد فترة وجيزة — إلا لكمية ضئيلة من حرارة الشمس تكفى لتشغيل الجهاز الذى يستمر فى العمل ليلاً دون أية طاقة حرارية .

وصممت«ماريا تلكس»جهازاً آخر يعكس الأشعة الشمسية من مرايا مصنوعة من الألومنيوم اللامع تحيط بالحوض من جهاته الأربع بطريقة تتيح جمع الإشعاعات خلال ساعات النهار كلها .

وكان أهم اختراعات « ماريا » ذلك الجهاز البسيط الرائع الذى أنقذ حياة المئات من الطيارين خلال الحرب العالمية

الثانية . ويتكون من وسادة إسفنجية سوداء اللون تتشبع بمياه البحر ، ويحيط بها ــ على مسافة صغيرة منها ــ غلاف شفاف، من البلاستيك يمتص الجزء الأعلى منه أشعة الشمس لتسخين الماء ، فيتبخر على الجوانب الداخلية للغلاف ، ثم يسيل إلى أسفل الجهاز ، حيث يمكن التحكم فى خزان الماء بواسطة صنبور صغير . أما الملح المتركز فى الوسادة فيمكن التخلص منه أولاً بأول بسهولة .

وانتشر استعمال هذا الجهاز عقب الحرب العالمية ، وأصبح جزءاً من متاع القاطنين فى الأماكن البعيدة عن الأنهار العذبة أو على سواحل البحار .

ومن بين الأجهزة الجديرة بالذكر ذلك الذى أعده العالم المهندس « لوف » ، ويتميز بوضعه فوق الأرض مباشرة ، فتقوم الأرض مقام خزان لحرارة الشمس ، فإذا غربت الشمس امتص الجهاز طاقته الحرارية من الأرض ليستمر فى عملية التبخير أثناء الليل .

وللعالم الأمريكى « إيفريت هاو » الأستاذ بجامعة كاليفورنيا ، والذى ألقى بضع محاضرات عن تحويل المياه المالحة إلى مياه عذبة بالطرق المختلفة ــ عدة أجهزة تجريبية أساسها التقطير الشمسى .

ومن العيوب التى تحاول الأبحاث تلافيها حتى تصل إلى كفاية مرتفعة لعملية التقطير ، سرعة تلف الزجاج الذى يغطى الأحواض ، وأن منه ما لا يمتص من أشعة الشمس إلا جزءاً ويعكس الباقى .

وقد كشفت أخيراً لدائن ثبت أنها تفضل الزجاج ، وأنها أقل منه ثمناً وأكثر منه مقاومة للتغيرات الجوية . وتغطى هذه اللدائن أحياناً بطبقة من مادة كيميائية تعمل على زيادة امتصاص الأشعة . وقد أصبح فى الإمكان إنشاء محطات تقطير شمسية كاملة من اللدائن والألواح الشفافة التى تمتص الأشعة يطلق عليها اسم «التيفلون »؛ أما الأحواض فقد صنعت من المطاط الصناعى ، وصنعت الطبقة السوداء التى تغطى قاع الحوض من الألياف الصناعية (الأورلون) ، لتزيد من عملية امتصاص الأشعة وسرعة التبخير .

إن أنواعاً كثيرة من اللدائن قد أصبحت تلعب دوراً هاماً فى بناء الأجهزة الحديثة والعمل على انتشار استعمالها . وفى القريب العاجل نستطيع صنع أجهزة التقطير من لدائن وألياف ومطاط صناعى بفضل إنشاء مصانع البتروكيمياثيات ، كما تمد صناعات المستقبل الوفيرة بألوف المواد والأدوات ، فتنقلنا إلى عالم سحرى رائع . . . .

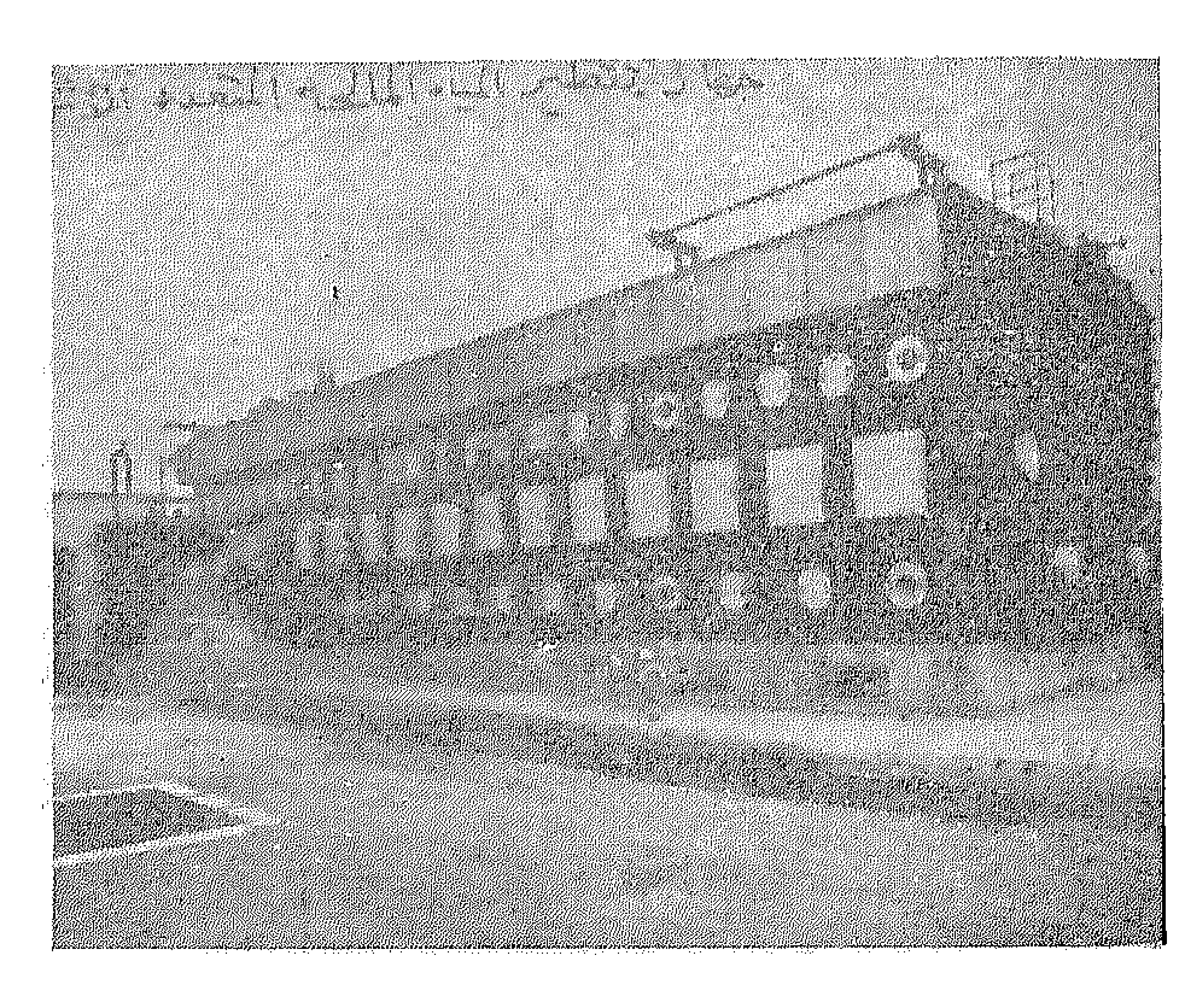
وعملية امتصاص الأشعة بواسطة قاع الأحواض المغطى باللون القاتم قد تؤثر عليها الأملاح المترسبة ، ولذلك تزال عنها الأملاح أولا بأول ، ويعاد طلاؤها فى فترات متقاربة ، كما تضاف إلى الماء صبغات كيماوية — مثل أخضر النافتول — ترفع امتصاص أشعة الشمس إلى مائة فى المائة تقريباً .

وبينما يقترح العالم « لوف » وضع الجهاز على الأرض

للاستفادة من الحرارة خلال الليل ، إذا بعلماء آخرين ينادون بوجوب عزل أحواض التسخين عن الأرض والهواء بطلائها بمواد عازلة .

مستقبل التقطير الشمسى

من المتوقع الاستفادة من أجهزة التقطير الشمسى المتعددة الأثر ، ففى الإمكان الحصول على سبعة أضعاف ما ينتجه الجهاز البسيط الواحد ، وذلك للأغراض الصناعية أو لإمداد



جهاز تقطير المياه المالحة المتعدد الأثر

مدينة كبيرة يزيد عدد سكانها على مائة ألف نسمة . أما فى الأعوام القليلة القادمة فإن جهاز التقطير البسيط المقام على مساحة قدرها خمسمائة متر مربع يكفى مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة تمدهم بنحو خمسة آلاف جالون فى اليوم .

وأجهزة التقطير البسيط رخيصة الثمن نسبيًّا يمكن إقامتها بسهولة فى الأراضى الجديدة المراد تعميرها ، فلا تكون عبئاً ثقيلا فى الأعوام الأولى من التعمير .

وقد أقيمت بالقرب من السويس فى العام الماضى المحطة الأولى للتقطير الشمسى ، وسوف تتلوها محطات أخرى كثيرة بإذن الله .

ومن التحسينات التى تدرس لإدخالها على عملية التقطير الشمسى : الاستعانة بالضغط المخفف أو تفريغ الهواء ، مما يساعد على سرعة تبخير الماء فى درجات حرارة منخفضة ، كما أن رفع الضغط إلى عدة ضغوط جوية يزيد درجة الحرارة ويضاعف تبخير الماء .

التقطير المتعدد الأثر

توجد طرق أخرى حديثة لتحويل المياه المالحة إلى عذبة جديرة بالعناية والاهتمام ، فقد استطاع العلماء تصمم أجهزة ضخمة تقوم اليوم بتقطير مئات الملايين من الجالونات من

الماء العذب فى الكويت ، وفى عدة مدن أمريكية وأسترالية ، وفى أقطار أخرى كثيرة . ومن بين هذه الطرق – إلى جانب التقطير الشمسى – التقطير المتعدد الأثر ، والتبخير المفاجئ ، والتبخير تحت ضغوط أعلى من الضغط الجوى ، والتحليل الكهربى ، والتبادل الأيونى ، والضغط الانتشارى ، والتبريد ، ووسائل أخرى كيميائية وفيزيائية وميكانيكية .

أما التقطير المتعدد الأثر فالغرض منه الحصول على أكبر كمية من البخار بأقل ما يمكن من الحرارة ، مما يقلل نفقات الإنتاج والطاقة التى يحتاج إليها ، وهذه الطريقة هى المتبعة فى جميع البواخر تقريباً .

ويتكون الجهاز من عدد من الأوعية قد يصل إلى عشرين أو أكثر . وكل وعاء يشتمل على عدد من الأنابيب الرفيعة الطويلة تروح بين مائة وأربعمائة أنبوبة . فعند تسخين الوعاء الأول يتبخر جزء من الماء الذى فى الأنابيب ، ثم يتكثف على سطح أنابيب الوعاء الذى يليه ، وبذلك تنتقل إليه الحرارة التى يفقدها البخار عند تكثفه ، ويتبخر جزء من الماء فى أنابيب الوعاء الثانى ويتجه إلى أنابيب الوعاء الثالث ليتكثف عليها بدوره ، وهكذا . . . وفى هذه العملية تضعف الحرارة تدريجاً من وعاء لآخر ، ولذلك يخفف الضغط فى كل وعاء إلى درجة أكبر من الوعاء الذى قبله لتستمر عملية التبخير فى جميع الأوعية . وبعد وقت قصير يمكن تشغيل الجهاز دون

الحاجة إلى كمية كبيرة من الوقود . ومن الممكن الإفادة من حرارة الشمس لتسخين الوعاء الأول بدلا من أنواع الوقود الأخرى .

ومن عيوب التقطير العادى والمتعدد الأثر ترسيب الأملاح على جدران الأوعية والأنابيب مما يؤدى إلى انسدادها وتوقف عملية التبخير . ومن ناحية أخرى فإن فك أجزاء الجهاز لتنظيفها حيناً بعد حين ليس من الأمور الهينة ، بل إنها مستحيلة فى أغلب الأوقات .

كان هذا الموضوع من أهم ما شغل أفكار العلماء الباحثين فى التقطير ، فأشار بعضهم بإضافة كميات صغيرة جداً من مواد عضوية تمنع ترسيب الأملاح أو تبلورها ، كما أضاف آخرون بلورات نفس المادة ، وبذلك لا ترسب الأملاح على جوانب الأنابيب والأوعية ، بل تتجمع حول البلورات الصغيرة . كما اقترح بعضهم الآخر تمرير الماء المالح قبل تبخيره فى طبقة من الرمل .

التبخير الفجائى « فلاش » (Flash)

يسخن الماء المالح فى وعاء كبير ، ثم يمرر فى غرفة خفف فيها الضغط ، فيتبخر فجأة دون الحاجة إلى التسخين إلى درجة حرارة عالية ، وهذا يمنع ترسيب الأملاح . ومن ميزات هذه الطريقة إمكان الاعتماد على التسخين بالحرارة الشمسية إذا

لم تتوافر أنواع الوقود الأخرى .

وتجرى الأبحاث فى الوقت الحاضر للاستفادة من مياه سطح البحر الساخنة ، وهى لن تحتاج من الحرارة إلا لمقدار إضافى ضئيل جداً حتى تتم عملية التبخير المفاجئ فى جهاز « الفلاش » ، فيستعمل البخار فى إدارة آلات المصانع قبل تكثيفه ليتحول ماء عذباً للشرب والزراعة وحاجات المصانع .

التقطير تحت ضغوط عالية

يتبخر الماء فى المقطرات تحت الضغط الجوى العادى ، فإذا رفع الضغط عدة أرطال ارتفعت درجة الحرارة ، وازدادت كمية الماء المتبخر . فبفضل رفع الضغط إلى عدة ضغوط جوية — وهذا لا يحتاج إلا لقوة ميكانيكية تافهة — تصبح الطاقة اللازمة لتسخين الماء فى المقطر لا تزيد على ٢٠٠ كيلووات ساعة بدلا من ٢٨٠٠ كيلووات ساعة ، وهذا الاقتصاد الكبير فى ثمن الوقود يدعونا إلى التفكير فى استعمال الطاقة الشمسية هنا أيضاً .

مقطر « هيكمان »

أضاف « هيكمان » عضو اللجنة الأمريكية إلى بحوث المياه العذبة ، بالمقطرات تحت الضغوط العالية ، خزاناً رحوياً يدور فتتناثر المياه الساخنة بالقوة المركزية الطاردة ، وتتبخر

بسرعة دون حاجة إلى حرارة مرتفعة ، مما يمنع الأملاح من الرسوب فى وعاء التبخير، ويشجع على محاولة التسخين بالحرارة الشمسية .

ويتكون الخزان الرحوى من وعاءين مخروطى الشكل ، وضعت قاعدتاهما بعضهما فوق بعض ، وتتناثر منهما المياه الساخنة فى خيط رفيع خلال دورانهما ، ويتبخر الماء ، ثم يُضغط البخار لاستخدامه فى تسخين الخزان الرحوى. والبخار إذ ينقل حرارته إلى الخزان يأخذ فى التكاثف ويجرى فى أنابيب تنقله إلى خزانات المياه العذبة . كما تأخذ المياه المركزة بالأملاح طريقها إلى الترسيب والتنقية أو إلى البحر ثانية . ومن الأصلح طبعاً أن لا تهمل مثل هذه الثروة ويرمى بها ، والأفضل أن تستخلص هذه الأملاح ذات الفوائد الاقتصادية الضخمة للبلاد .

ويمكن تشغيل مقطر « هيكمان » بفروق صغيرة فى درجة الحرارة ، مثل حرارة مياه سطح البحار الدافئة ، ثم تسخينها بضع درجات أخرى بالطاقة الشمسية مثلاً .

التحليل الكهربى :

عُرفت طريقة تحويل المياه المالحة إلى عذبة بالتحليل الكهربى منذ أعوام طويلة ، ولكنها كانت عملية مقصورة على تحليل الأملاح إلى أيوناتها الموجبة والسالبة عند مرور تيار كهربى فى إناء الماء المالح . والإناء مقسم إلى ثلاثة أجزاء بواسطة

أغشية من السيلوفان ، فيتحلل الملح (كلودور الصوديوم) إلى « الكلور » الأيون السالب ، فيذهب إلى القطب الموجب ، والصوديوم وهو الأيون الموجب يتجه نحو القطب السالب ، مخترقين أغشية السيلوفان ؛ ولكنها طريقة غير عملية ودرجة نقاوة الماء ضعيفة إلى حد أنها نحتاج إلى تكرار العملية عدة مرات .

ثم كشف العلماء من أمثال « هومس » و « آدمز » عن صموغ (راتنجات) صناعية تفيد فى تنقية المياه المذابة فيها الأملاح ، فتعلق الأيونات المختلفة فى أنواع خاصة من الراتنجات صنعت منها الأغشية الرقيقة التى قد يصل عددها إلى أربعمائة أو خمسمائة غشاء فى الحوض الواحد ، ولا تزيد المسافة بين كل غشاءين على نصف المليمتر . وهذه الأغشية لا ينفذ منها نوع واحد من الأيونات الكهربية الموجبة أو السالبة فقط ، بل إن لكل نوع من الراتنج مادة خاصة يتعلق بها ، منها الكلسيوم والمغنسيوم والبوتاسيوم والصوديوم والكلوروالبروم وغيرها ... ويمكن استخلاص الراتنجات مرات كثيرة بمعالجتها بالأحماض والقلويات .

ومنذ خمسة عشر عاماً كان هذا الجهاز يحتاج إلى أكثر من ١٨ كيلووات ساعة للطن من الطاقة ، فأصبح بفضل الأغشية الحديثة ذات الراتنجات لا يستهلك أكثر من ثلث كيلووات ساعة للطن ، وأمكن عمل أجهزة كبيرة تكفى لتنقية أكثر من

ثلاثين ألف جالون فى اليوم من مياه البحر أو المياه الجوفية أو المصارف .

وقد وصل إلى مصر منذ بضعة أشهر جهاز لتقطير مياه البحر بطريقة « فيخلين » العالم الهولندى الذى حضر لتدريب الذين يقومون بتشغيل الجهاز وإجراء التجارب والبحوث على التوسع فى طريقة التنقية بالتحليل الكهربى للمياه الجوفية وعلى سواحل البحار .

وتجرى حالياً دراسة لاقتصاديات هذه الطريقة ؛ إذ أن التحليل الكهربى بواسطة الراتنجات حديث العهد جداً . وقد توصل علماء جنوب أفريقيا إلى طريقة استعمال ورق الكرافت المغطى بأنواع الراتنجات والمواد العضوية الأخرى، وتمتاز ببقائها صالحة للاستعمال فترة تصل إلى عام كامل ؛ ولكن حكومة جنوب أفريقيا احتفظت بسريتها ولم تسمح بإذاعة شىء عنها .

ويرى « جورج مورفى » من جامعة « أوكلاهوما » ، بعد دراسات وتجارب استمرت أعواماً ، أن من الممكن الحصول على الكهربا اللازمة لعملية التحليل الكهربى ، من محلول ملحى شديد التركيز ، وذلك بأن يوضع هذا المحلول فى قسم من إناء مقسم إلى أربعة أقسام بواسطة أغشية للتبادل الأيونى . غشاءان من هذه الأغشية ذوا علامة كهربية سالبة ، والغشاءان الآخران ذوا كهربا موجبة . وفى قسمين آخرين ماء ملحى مخفف التركيز ، وفى القسم الرابع الماء المراد تنقيته .

وهذا التفاوت فى التركيز يجعل الأيونات الموجبة للمحلول الشديد التركيز تتجه نحو أحد القسمين اللذين بهما المحاليل المخففة . وباستمرار هذه العملية تتولد شحنات كهربية فى الجهاز ، وبذلك لا يحتاج إلى طاقة كهربية خارجية .

والطريقة المسماة « خلية شمع العسل » شبيهة بها ، ولكنها تمتاز عنها بطريقة ترتيبها واختصارها الطريق الذى تمر به الأيونات إلى أقل حد ممكن ، وبذلك تزداد كفايتها فى التقطير ؛ ولكن هذه الطريقة لم تتعد حتى الآن دور التجارب المعملية .

ويأمل بعض العلماء أن يتمكنوا قريباً من استخدام الطاقة الشمسية للتحليل الكهربى ، بتحويلها إلى طاقة كهربية فى بطاريات السليكون التى سيأتى حديثها فى جزء آخر من هذا الكتاب ؛ وذلك بعد العثور على طرق اقتصادية تجعل صنع تلك البطاريات ميسراً بأرخص الأثمان .

الضغط الانتشارى

إن جعبة العلماء مليئة دائماً بتلك الأفكار الرائعة والتجارب السحرية التى تقارب المعجزات . تراهم يعكسون نظرية الانتشار الغشائى . فبدلا من أن تتجه المياه المالحة القليلة التركيز إلى ما هو أكثر تركيزاً إذا بالعلماء يضاعفون الضغط على جدران الأغشية حتى يبلغ ٣٥٠ رطلاً على كل بوصة مربعة .

وفى السويد قاموا بتجارب أخرى أحق بالدهشة ، إذ وضعوا

ماء البحر فى حوض كبير ، وجعلوا عليه ضغطاً يبلغ مائتين وثمانين ضعفاً للضغط الجوى العادى ، وفى نفس الوقت رفعوا درجة حرارة الماء إلى ٤٧٥ درجة مئوية ، فانفصلت مياه البحر إلى طبقتين : العليا منهما بها نسبة بسيطة جداً من الأملاح تقارب النسبة الموجودة فى مياه الشرب العادية من الأنهار ، والسفلى غاية فى التركيز . ويمكن فصل الطبقتين كل منهما عن الأخرى فى سهولة .

ومن العلماء من يرى الإفادة من بعض أنواع الأحياء المائية الدقيقة التى تستخلص الملح من الماء فى أجسامها ، لتحتفظ به ، وتعيد الماء ثانية عذباً لا حاجة إلى تقطيره . ولكن من المستبعد اتباع هذه الطريقة عملياً لما تحتاج إليه من تجميع كميات هائلة من هذه الأحياء الدقيقة وتربيتها لمضاعفة عددها ، ولضآلة كمية المياه التى تقطرها هذه الكائنات ، واستحالة الانتفاع بها كمورد ذى شأن للمياه النقية .

المياه العذبة بالطرق الكيماوية

« الزيوليت » (Zeolites)

استعملت هذه الطريقة خلال الحرب العالمية الماضية لتنقية المياه فى الجزر النائية ومناطق الصحراء المنعزلة على سواحل البحار ، وقد عاد الحديث أخيراً للإفادة منها فى الحصول على كميات من المياه الحلوة بأدوات يسهل حملها أو نقلها ، لاتزيد أحياناً على كيس من مادة لدائنية تجرى فيه عملية تعذيب الماء

وتخزينه . وتجرى الآن التجارب المعملية فى بعض معاهد البحوث لإقامة منشآت تكفى حاجة مئات الأسر . إذ كان من عيوب الطرق القديمة أن كمية الماء العذب لا تزيد على كمية الزيوليت المستعملة ، وكانت عملية تحويل مياه البحر المركزة لا تزيد على التخلص من جزء من ملوحته .

والزيوليت مجموعات من المركبات الكيموية ، فزيوليت الفضة التى اقترح « جانس » استعمالها لفصل الملح من الماء تتكون من سليكات الألومنيوم والفضة . وهناك أنواع أخرى من الزيوليت أساسها الرصاص أو النحاس أو الباريوم أو غيرها ، وهذه الثلاثة الأخيرة سامة ، ولا يمكن تطبيقها فى عمليات تنقية المياه .

وأساس التنقية هنا التبادل الأيونى ، أو الترسيب ، أو هما معاً . ثم استخلاص الزيوليت ثانية بعد تشبعها بالأملاح . ومن أهم ميزات التنقية بالزيوليت أنها تجرى دون الحاجة إلى أية طاقة حرارية أو كهربية ، كما أن زيوليت الفضة يقوم بتطهير الماء إلى حد ما من جراثيمه .

التنقية بالتجميد

من المعروف أن الجليد الذى يغطى بحار المناطق القطبية إنما هو مياه عذبة نقية انفصلت عنها المياه المالحة . وبتطبيق هذه القاعدة على مياه البحر بتبريدها الشديد يتجمد جزء من

الماء على هيئة ثلج نقى . ولما كانت درجة غليان الماء تنخفض بانخفاض الضغط ، كان فى الإمكان أن نهبط بالحرارة إلى ثلاث درجات تحت الصفر ، بتفريغ الهواء ، فيتبخر جزء من الماء يمكن امتصاصه بمحلول بروموز الليثيوم حتى لا يؤثر فى درجة تفريغ الهواء داخل أوعية التبريد . ثم تتكون قطع من الثلج . ونستطيع زيادة سرعة التبريد بالمضخة الحرارية التى تساعد على سحب الحرارة ، فتزداد سرعة تجميد الماء وكمية الثلج المتكون . أما الماء الذى أصبح مشبعاً بالأملاح فيسحب فى أنابيب إلى خزانات حيث يمكن تبخيره بحرارة الشمس والترسيب ثم تنقيته والإفادة منه . ويجمع الثلج ويوضع فى أوعية لإذابته بحرارة الشمس ليصير ماء نقياً صالحاً للشرب والرى والصناعة.

وتقوم عملية تجميد الماء على حقيقة فيزيائية هامة ، هى أن الطاقة اللازمة للتجميد أقل كثيراً مما تحتاج إليه عملية الغليان . وقد أمكن الحصول على مائتين وخمسين جالوناً من الماء فى الساعة بسعر مليمين تقريباً للجالون ، بطاقة لا تزيد عن ثلاثة كيلووات — ساعة . وفى جهات متفرقة من العالم معامل لتنقية المياه بالتثليج ، بطريقة تخفيف الضغط ، من بينها معمل تجريبى أقيم فى سيراكوز يحول نحو عشرين ألف جالون فى اليوم.

التجميد بغاز البوتان

يعرض اليابانيون الآن مصانع كاملة رخيصة الثمن ، وأكثر

اقتصاداً من طريقة التبخير بتخفيف الضغط ، وذلك بأن يضاف إلى الماء الملحى غاز البوتان ، وهو لا يذوب فى الماء ، ويخفف الضغط قليلا فيتبخر البوتان .

ولما كان البوتان يتبخر فى حرارة قدرها نصف درجة تحت الصفر ، فإنه يمتص قدراً كبيراً من حرارة الماء ، فيتحول بجزء منه إلى ثلج يجمع ويذاب ، فى حين يعود البوتان سائلا مرة ثانية ، ليقوم بدوره مرة أخرى وهكذا . . .

طرق أخرى

وهناك طرق أخرى كثيرة لتنقية الماء ، نذكر منها : إذابة إحدى المواد العضوية فى مياه البحر ، فينفصل عنها الملح ، ثم تبخر المادة العضوية للحصول على الماء نقياً . وتزيد هذه المواد العضوية التى يجرى عليها العلماء تجاربهم على أكثر من مائتى مادة .

ومن بين ما اقترحه العلماء استخدام أنواع من الكائنات المائية الدقيقة التى من صفاتها انتزاع الملح من الماء والاحتفاظ به فى أجسامها وطرد الماء النقى . وهى وسيلة نظرية أكثر منها عملية فإن ذلك يستدعى — كما سبق القول — تجميع كميات ضخمة من مثل هذه الكائنات الدقيقة وتربيتها لتكثيرها ؛ ومع ذلك لن تزيد الكميات التى نحصل عليها فى النهاية على بضع لترات فى اليوم . . .

ثروات فى قاع البحار

لا تقف فوائد تنقية المياه عند حدّ تعمير الأراضى القاحلة وزراعة الصحراء ، بل إنها تفتح آفاقاً زاهرة باستغلال ثروات هائلة لا حدّ لها ، من تلك الأملاح الذائبة فى مياه البحار ، ومن استغلال البخار قبل تكثيفه فى إدارة آلات المصانع . . .

إن فى الماء حياة جديدة ، وثروات لم نكن نحلم بها ، سوف تغير من معالم حياتنا الحاضرة ، وتمنحنا طاقة كبيرة ، وقوة جديدة يبعثها بخار الماء بفضل الطاقة الشمسية التى ستكون فى المستقبل القريب أهم وأرخص مصدر للطاقة اللازمة لتنقية المياه المالحة . ولقد كانت الطاقة الشمسية هى الطريقة الوحيدة لتبخير الماء الملحى فى أحواض بالقرب من سواحل البحار للحصول على ملح الطعام . كان يستعملها المصريون واليونان والرومان وغيرهم منذ آلاف السنين ، وما زالت تلك الطريقة متبعة حتى الآن فى أنحاء كثيرة من العالم . وملاحات المكس بالقرب من الإسكندرية معروفة لدينا .

وفى عشرات الأعوام الأخيرة بدأ العالم يبحث عن مصادر جديدة للمعادن ، لازدهار المدنية والصناعة ، وحاجتها إلى آلات وأدوات جديدة ، فأخذ العلماء يجوبون المناطق الصحراوية والجبلية ، ثم كشفوا فى البحار كنزاً من المعادن الثمينة ، كان

لبعضها أثر كبير فى ظهور بعض الاختراعات والصناعات .

وحتى نقف على أهمية الكميات الكبيرة من الأملاح ، نذكر أن كل لتر من مياه البحر المتوسط به ثلاثة وأربعون جراماً ونصف بجرام من الأملاح ، وكل لتر من مياه البحر الأحمر به أربعة وخمسون بجراماً على الأقل . ويقوم الروس بمحاولات للحصول على الراديوم من ماء البحر ، كما يعمل الكثيرون على استخراج الذهب الذى يقدر بملايين الأطنان ، ولكن طريقة استخراجه حتى الآن تزيد نفقاتها كثيراً على ما ينفق فى استخراجه من المناجم فى باطن الأرض .

وقد حاول العالم الكيميائى المشهور « فريتز هابر » خلال عشرة أعوام كاملة (١٩١٨ — ١٩٢٨) أن يحصل على الذهب بطريقة رخيصة من ماء البحر ، لتتمكن ألمانيا من تسديد ديون الحرب العالمية الأولى . وكانت أكبر كمية حصل عليها هى خمسة مليجرامات من الذهب فى باطن الماء المالح ! وكلما ازداد إتقاناً وعناية بأجهزة التنقية نقصت كمية الذهب المستخلصة عن خمسة مليجرامات . . .

وقد كشف « داو » عن طريقة اقتصادية للحصول على البروم بخلطه بمواد قلوية اتبعت فيما بعد لاستخلاص الكلور أيضاً . والبروم عقار هام تستخدم بعض أملاحه لتهدئة الأعصاب ، ويدخل فى الصناعة فى عملية تقطير البنزين والصبغات وأدوات التصوير ومواد التجميل .

والمغنسيوم يوجد بنسبة ستة أجزاء فى المليون من ماء البحر ويستخرج بمزج الماء بماء الجير ليرسب إيدروكسيد المغنسيوم ، ويعالج بحامض الكلوردريك ، للحصول على كلورور المغنسيوم ، ثم يبخر المحلول للحصول على الملح نفسه . أما الخطوات التالية فهى صهر الكلورور ، ثم إمرار تيار كهربى لفصل المغنسيوم نقياً .

ويمتاز المغنسيوم بخفته ، فهو أخف من الألومنيوم ، كما أنه أكثر صلابة ومقاومة للأجواء ، وأشد احتمالاً للحرارة العالية ؛ ولذلك يستعمل فى صناعة القنابل وأجزاء الطائرات . كما تدخل أملاح المغنسيوم فى العقاقير ، وأشهرها كبريتات المغنسيوم (الملح الإنجليزى) وكربونات المانيزيا . . .

وأملاح الكلسيوم والبوتاسيوم تدخل فى صناعة الأسمدة . ومن الطرق التى عرفت حديثاً إمكان رى بعض الأراضى الصحراوية بمياه البحر ، بإضافة ملح البوتاسيوم إليها ، مما يتيح زراعتها ببعض أنواع المحاصيل .

واليود والفلور والسترونشيوم والألومنيوم والليثيوم وكميات صغيرة جداً من الروبيديوم والباريوم والزرنيخ والحديد وكبريتات الزنك والنحاس والفاناديوم والكوبلت . . . كل هذا وغيره يمكن الحصول عليه من مياه البحار .

وهذه فكرة سريعة عن صناعات جديدة فى طريقها إلى الظهور والنمو على سواحل البحر فى المستقبل القريب .

٦١

ولا شك أن غدنا سيكون ثورة صناعية عارمة ، تجعل من شواطئنا البحرية مراكز هامة للصناعة ، باستخراج المعادن وتصنيعها ، وامتداد العمران امتداداً سريعاً يدعونا إلى الإيمان العميق بمستقبل الوطن ، ما دمنا نأخذ للأمر عدته بالدراسات والبحوث ، والتخطيط السريع ، والعمل منذ اليوم لمستقبلنا الرائع المجيد .

الطاقة الحرارية للبحار

تمتص الطبقات السطحية من مياه البحار حرارة الشمس ، فترتفع درجة حرارتها ارتفاعاً ملموساً حتى عمق مائة متر ، ثم تقل تدريجاً حتى تصل إلى عشر درجات على بعد أربعمائة متر من سطح البحر . وتظل فى جميع البحار والمحيطات ، عند هذا العمق ، قريبة من عشر درجات ، فى مختلف فصول السنة ، ثم تنخفض كلما هبطنا إلى أعماق أكبر ، فى حين نراها تختلف اختلافاً بيناً فوق السطح .

ففى البحر المتوسط تصل إلى ٢٥ خلال جزء كبير من السنة ، وترتفع إلى ٢٩ فى أشهر الصيف . أما البحر الأحمر فتزيد حرارة سطحه على ثلاثين درجة فى أكثر من ثلثى العام . وكلما ازدادت درجة حرارة السطح كان الفرق كبيراً بين درجتى حرارة السطح والأعماق ، فهى — إجمالا — تجاوز العشرين درجة فى البحر الأحمر وسبعة عشر درجة فى البحر المتوسط خلال العام . ويزداد الفرق بين سطح البحر وعمقه كلما اتجهنا نحو خط الاستواء ، حيث يثبت الفرق بين الدرجتين طول العام .

هذا الفرق فى درجة الحرارة بين مياه سطح البحر الساخنة

وأعماقه الباردة هو الذى فكر العلماء فى استغلاله للحصول على الطاقة .

ولقد تنبأ « جول فرن » منذ نحو ثمانين عاماً بإمكان استغلال هذا الفرق ، فى قصته العلمية « عشرون ألف فرسخ تحت البحر » ، واقترح بأسلوب جذاب ضرورة الإفادة من حرارة الشمس التى تختزن فى الطبقات العليا من سطح مياه البحار ، ثم حدثنا عن مياه الأعماق وكيف أنها مياه باردة حرارتها واحدة فى جميع مياه بحار العالم .

وفى أوائل هذا القرن حاول العالم الفيزيائى « دارسونفال » أن يستغل الفرق بين درجتى حرارة سطح البحر وأعماقه ؛ وذلك بتطبيق نظرية « كارنو » التى تتلخص فى أن الحصول على طاقة ميكانيكية من الطاقة الحرارية يقتضى توافر مصدر ساخن للحرارة وآخر بارد . أى توافر فرق بين درجتى حرارتيهما . وتزداد الطاقة الميكانيكية تبعاً لزيادة هذا الفرق .

واعتمد أيضاً على ظاهرة اختلاف درجة غليان الماء وغيره من السوائل باختلاف الضغط الواقع عليها . فالماء يغلى فى درجة المائة فى مستوى سطح البحر ، فى حين يغلى فى درجة خمسين أو أربعين أو أقل كلما ارتفعنا فى الجو فوق سطح جبل أو فى طائرة ، فنحن نعرف جيداً أن الضغط يخف بازدياد الارتفاع .

وفى الإمكان تخفيف الضغط بجهاز للتفريغ فى غرفة مغلقة تماماً ، ثم ندخل إليها ماء ساخناً ، فيتبخر على الفور . وبإمرار البخار فى غرفة أخرى ملاصقة للأولى تنخفض درجة

الحرارة إلى عشر درجات مئوية مثلا ، ويتكثف البخار ليصير ماءً مرة ثانية .

وبوضع توربينة بين الغرفة الأولى المفرغة الهواء ، حيث تحول الماء الساخن إلى بخار ، والغرفة الثانية المبرّدة الهواء التى تكاثف فيها البخار ، فإن ما يحدث هو دفع البخار خلال مروره أسنة التروبينة ودورانها ، ومن ثم توليد القوة المحركة .

وهذه هي التجربة التى قام بها « جورج كلود » و « بيير بوشرو » فى الخامس عشر من شهر نوفمبر من عام ١٩٢٦ ، وتقدما بها إلى أكاديمية العلوم . قام العالمان الفرنسيان بتركيب جهاز مكون من وعاءين من الزجاج وقد اتصل بعضهما ببعض ، وأحكم إغلاقهما تماماً ، ووضعا فى الأول منهما ماء ساخناً فى درجة حرارة ٣٠ مئوية ، ووضعا فى الثانى ماء بارداً حرارته أقل من عشر درجات مئوية ، فعند ما خفف الضغط بتفريغ الهواء ، تبخر الماء الساخن ، وهو فى طريقه إلى إناء الماء البارد حيث يتكثف ثانية إلى ماء ؛ ودفع البخار توربينة صغيرة موضوعة بين الإناءين إلى الدوران وتوليد طاقة كهربية كانت كافية لإضاءة ثلاثة مصابيح كهربية . ولم يقفا عند تقدمهما بهذا الجهاز إلى الأكاديمية ، لإدراكهما ما سيكون له من قيمة عملية خطيرة فى عالم الصناعة فى المستقبل ، بل اتفقا مع إحدى شركات الصناعة الكبرى على إقامة مصنع تجريبى على نهر الموز (Meuse) ، وجعلا للماء البارد حوضاً يصل إليه الماء

من النهر . أما الماء الساخن فترتفع درجة حرارته فى سخانات إلى ٣٣° قبل تفريغها فى الحوض . ودارت التوربينات الكبيرة وحصلا على طاقة كهربية قدرها ستون كيلوات ساعة .

وأغرى نجاح التجربة بمزيد من التجارب وعلى نطاق أوسع . ففى عام ١٩٢٩ اختار « جورج كلود » مكاناً فى خليج « مانتزاس » فى كوبا ، درجة حرارة مياهه السطحية ٢٨° ، والحرارة على عمق سبعمائة متر ثمانى درجات فقط ، وأنزل فى الماء أنبوبة قطرها متران وطولها كيلومتران . وكان هذا الموضع من الخليج مناسباً من وجوه كثيرة ، ولكن الأنبوبة تحطمت فى المحاولة الأولى فى أثناء إنزالها . فعاد بعد عام ليكرر المحاولة ، بعد جعل الأنبوبة مكونة من قطع مرنة تقاوم الأمواج . وكان نصيب هذه المحاولة الإخفاق أيضاً ، إذ كانت شدة الأمواج سبباً فى تحطيمها ، فلم ييأس ، بل عاود الكرة مرة ثالثة فوق السفينة « تونس » ، وكان ذلك عام ١٩٣٤ ، ليقوم بتجربته وسط مياه البحر ، بالقرب من شواطىء البرازيل ، حتى يستطيع جعل أنابيب نقل المياه الباردة عمودية ؛ وجعل فى نهاية الأنابيب صندوقاً معدنياً ثقيلاً يرتكز على قاع المحيط . أما باقى ما يحتاج إليه من أجهزة للماء الساخن ، وغرفة التبخير المخففة الضغط ، والمكثفات ، والتوربينات لتوليد الكهرباء ، فكان فوق سطح السفينة . وفشلت التجربة الثالثة ، نقفل راجعاً إلى فرنسا .

ومرت الأيام ، ونشبت الحرب العالمية الثانية ، وبالرغم من ذلك كانت هناك بحوث علمية تجرى لدراسة العقبات الفنية التى وقفت فى طريق « كلود » . وأهم الصعاب التى تغلبوا عليها هى القواعد العائمة ، لتوضع عليها أجزاء الأنابيب ، بحيث لا تؤثر عليها الأمواج ، وقد اخترعها العالم « نيزيرى » ثم توصلوا إلى المواد ذات المقاومة الكبيرة للصدأ والتآكل لتصنع منها هذه الأنابيب ، وكشفوا طريقة لامتصاص الغازات الذائبة فى الماء كالأوكسجين والنتروجين وثانى أكسيد الكربون والأرجون ، وهى تقف حائلا دون التفريغ الكامل للهواء ، وقد كشف عنها العالم « راتو » .

وكان لهذا التقدم الكبير الذى أحرزه العلماء أثره فى تكوين جمعية « طاقة مياه البحر » التى أنشئت سنة ١٩٤٨ لإقامة محطة تجريبية فى ميناء « أبيدجان » فى ساحل العاج تحت إشراف العالم « نيزيرى » .

واعترض إنشاء المحطة عقبات مالية وفنية كثيرة خلال عشرة الأعوام الماضية ، وقد تغلبوا عليها جميعاً . فإن كان قد تأخر بدء العمل فى المحطة لاستخلاص الطاقة من فروق الحرارة بين سطح المحيط ومياه الأعماق ، فإن تلك الأعوام الطوال أفادت فى إجراء مئات التجارب ، فأصبحت الآلات صغيرها وكبيرها مثالا للدقة والإتقان . وتستطيع هذه المحطة توليد طاقة قدرها ٥٠ مليون كيلوات ساعة . وسيكون نجاح هذه المحطة

التجريبية الصغيرة دافعاً لاستغلال شواطئ البحار الدافئة . وما أجدرنا نحن باستغلال شواطئنا الطويلة التى من ورائها ملايين الأفدنة من الأراضى الرملية تنتظر المياه العذبة لزراعتها والمصانع التى تصنع ثروات البحار من أملاح ومعادن ، والتى تستطيع أن تجعل بلادنا من أغنى بلاد العالم بهمة بنيها ونشاطهم .

ولا ننس الثروات المخبوءة تحت رمال الصحراء وفى صخور جبالها . . .

ويقترح العالم « لوبو »، زميل « نيزيرى » فى « أبيدجان »، الاستفادة من البخار المولد للقوى بتكثيفه والاستفادة منه لزراعة وتعمير مناطق شاسعة ، فإن مصنعاً كمصنع « أبيدجان » يكفى حاجات مدينة بأكملها من مياه الشرب والتصنيع وزراعة مساحات كبيرة من حولها .

والجهاز الذى يولد طاقة تقدر بعشرة آلاف كيلووات يمدنا بثلاثة ملايين ونصف جالون يومياً ، فالطاقة تتناسب مع مربع فرق درجة الحرارة بين السطح والمياه العميقة .

ومن الممكن جداً زيادة كفاية المصنع بطريقة اقتصادية ، وهى زيادة تسخين سطح البحر بتغطيته بألواح من البلاستيك الشفاف ، أو بصبغة تمتص الحرارة ، أو حتى بوضع طبقة دقيقة من الزيت لمنع تبخر الماء من فوق السطح ، وبذلك تزداد درجة حرارته .

والأفضل أن تكون مثل هذه المحطات فى خلجان ضيقة ،

أو تعمل لها خلجان صناعية داخل أرض الشاطئ . ومن التحسينات التى يقترح العلماء إدخالها عدم الحاجة إلى استخراج المياه من الأعماق ، والاكتفاء بتبريد المياه القريبة من السطح بالمضخات الحرارية التى تديرها حرارة الشمس ، لتكون اقتصادية ما أمكن . وينادى آخرون باستعمال مياه السطح الساخنة لتبخير أحد الغازات التى تكون درجة غليانها منخفضة جداً ، كالبروبان أو البوتان، ويستعمل بخارها لإدارة الآلات . ويفضل أن تكون المحطات قريبة من المناجم أو أماكن الاستغلال الصناعى .

الطهى المنزلى

تعتبر مواقد الطهى المنزلى إحدى الصور لتركيز أشعة الشمس بالمرايا . ويعتبر « آبوت » أول من اخترع فرناً للطهو بتركيز الحرارة على أنابيب مملوءة بالزيت فى بؤرة المرايا ذات القطاع المتكافئ ، فى حين يوضع وعاء الطهى فوق تلك الأنابيب الساخنة التى ترتفع حرارتها إلى درجة عالية وتحتفظ بها مدة طويلة .

وفى المعهد القومى للبحوث بالقاهرة جهاز صممه العلماء المصريون ، يوضع فيه الوعاء على أنابيب بها أنواع من الزيوت ذات درجة غليان مرتفعة ، وتحيط بها مرايا جانبية عاكسة تتكون من ألواح مغطاة بورق الفضة . وكان هدفهم فى هذا التصميم أن يفى بغرضين : سرعة الطهى ، والاقتصاد فى نفقات صناعته . فالثمن الذى سوف يباع به لن يزيد كثيراً على ثلثمائة قرش ، مما ييسر اقتناء الفلاحين له ، وتوفير أنواع الوقود الأخرى كالحطب وروث البهائم ، مما يمكن الاستفادة منها فى أغراض أخرى .

فالفرن الشمسى لن يكلف إلا ثمنه ، أما ما عدا ذلك — وهو حرارة الشمس — فهى فى متناول اليد دون مقابل .

وقد أعد معهد البحوث الشمسية فى الهند فرناً صغيراً يتكون

من شريحة دقيقة من الألومنيوم يبلغ سطحها ثلاثة أمتار مربعة على هيئة مرآة مقعرة لتجميع الأشعة، ويوضع الإناء المعد للطهى فى البؤرة ذات اللون القاتم لزيادة عملية امتصاص الحرارة .

كما صمم العالم « جاردنر » مجمعاً للحرارة يحتوى على عدد كبير من المرايا الصغيرة المركبة على قضبان يمكن تحريكها بحيث تتبع حركة الشمس . وإن كان هذا المجمع مرتفع الثمن عن الفرن العادى فإنه يمدنا بطاقة حرارية أكبر لا للطهو فقط ، بل من أجل تسخين الماء والحصول على بخار ، فقد أمكن إدارة طلمبة لاستخراج المياه الجوفية بجهاز يتكون من مرايا صغيرة متحركة تبلغ مساحتها ستين متراً مربعاً .

ويمكن استخدام أفران الطهى الشمسى حوالى ست ساعات فى المتوسط يومياً ، ولا يستغرق طهى اللحوم أكثر من ساعة ، أما الخضراوات والأرز والعدس فتنضج فى أقل من ١٥ دقيقة .

ويمتاز فرن « ماريا تلكس » — الذى صممته بفضل المعاونة المالية لشركة « فورد » — بأنه يجمع بين الصندوق الزجاجى ذى الألواح الشفافة والمرايا الجانبية من الألومنيوم التى تركز الحرارة على الوعاء الموضوع فى نقطة التجميع الحرارى .

التجفيف

من الصناعات التى ينتظر لها مستقبل كبير فى جمهوريتنا العربية المتحدة : صناعة تجفيف الأغذية ، وهى صناعة جديدة ، وإن كانت معروفة منذ قديم الزمان . وفى عصور ماضية كان الناس يلجأون إلى التجفيف البطىء حتى تشغل الأغذية مكاناً صغيراً ، وتبقى فترة طويلة صالحة للأكل ؛ وقد عرف أجدادنا من قديم طريقة تجفيف العنب والبلح والتين بأشعة الشمس . ثم تجفيف تلك الأنواع من الخضراوات والفاكهة المعرضة للعطب السريع ، أو التى ينتهى موسم ظهورها بعد فترة قصيرة ، واليوم أصبح مجال التصدير إلى الخارج كبيراً بزيادة الرقعة الزراعية وانتشار التصنيع الزراعى .

وتحتوى الخضر والفاكهة على كمية كبيرة من الماء تروح بين ٦٥٪ و ٩٥٪ ، والماء الذى يساعد على استمرار العمليات الحيوية ، يساعد أيضاً على سرعة التحلل والتعفن ؛ فبتجفيفها تحتفظ بالجزء الأكبر مما فيها من فيتامينات وبروتينات مدة طويلة ، وبدون أن يتغير لونها أو طعمها .

ومن المعروف أن لخروج الماء من الخلايا دون الإضرار بها شروطاً طبيعية وكيموية . وعند استهلاكها تتبع طرق عكسية حتى تمتص خلايا الأنسجة النباتية الماء وتعود إلى طبيعتها الأولى

دون أن تتأثر حيويتها . ثم إن أكثرها لا يحتمل درجات الحرارة العالية . فالتجفيف الشمسى يعتبر لذلك من أحسن الطرق وأسهلها ، ولا يكاد يكلف شيئاً .

وأغلب أجهزة التجفيف الحديثة تتركب من صندوق زجاجى ، بداخله أرفف توضع فوقها الفاكهة أو الخضراوات ، ثم يمرر عليها تيار من الهواء الجاف الساخن ، ليساعد على سرعة عملية التجفيف . وتوضع الأرفف بعضها فوق بعض فى شكل مائل، فعند تبخر الماء من الثمار أو الخضراوات يتكثف فى قنوات تسير إلى قاع الصندوق الزجاجى ، ثم إلى الخارج .

وتتبع طرق أخرى حديثة للتجفيف بمواد كيماوية تمتص الرطوبة ، ثم تطرد منها المياه التى امتصتها بالحرارة الشمسية ، لتعود من جديد صالحة لامتصاص الماء مرة أخرى .

القوة المحركة

تقاس عظمة الأمة ومدى تقدمها ورفاهيتها بثرواتها المعنوية والمادية . وثروة الأمة المعنوية هي شعور الفرد بأنه عضو فى أسرة الوطن الكبرى ، يعمل لخدمتها ، كما يعمل الوطن من أجل خيره وإسعاده . فالإخلاص ، والمحبة ، والتعاون ، والحماسة للعمل ، والبحث والدرس ، هى دعائم يقوم عليها دون شك مستقبل البلد .

وثروة الأمة المادية هى ما تملكه من ثروات وطاقة ؛ وكلما ازدادت مدخراتها وإمكانياتها ارتفع قدرها ومكانتها بين الأمم ، فالثروات الموجودة فى باطن الأرض كالبترول والفحم والخامات ، وفى البحار ، ثم النباتات فوق سطح الأرض ، وتلك الرياح التى تنشأ من فروق فى درجات حرارة الشمس بين مختلف طبقات الجو ، فترفع المياه لتسقط ثانية على صورة أمطار ، وتكون أنهاراً تفيض بالخيرات على جوانبها ، وتمدنا بقوة كهربية ومحركة هائلة بما يقام فى طريقها من سدود قبل أن تضيع مياهها فى البحار والمحيطات — هذه الثروات الماثلة هى عوامل تقدم الأمم ورفاهيتها . . .

وهذه القوى الشمسية هى حياة الصناعة ، بل حياة الأمة . فالآلات تحركها القوة ، والقوة فى كل مظاهرها مستمدة من

الشمس ، فالفحم والبترول والديزل والسولار وقوى الريح والماء ، كلها يعود أصلها إلى الشمس . بل إن النباتات لم تكن لتنمو لولا ظاهرة التمثيل الكلوروفيلى الذى يقوم فيه ضوء الشمس بالدور الأول ، وتختزن فيه النباتات من طاقتها الحرارية ما يعادل مائتين وخمسين طناً من الفحم فى الفدان .

إن معاهد البحوث تجرى تجارب قد تغير من وجه الصحراء فى فترة وجيزة ، بما نتوقعه من ظهور أنواع جديدة من الوقود الكحولى يستخرج من نباتات كالبطاطس ، والبلح والعنب والبنجر وقصب السكر وغيرها ، لإدارة آلات السيارات والمصانع .

وكان المصريون والإغريق أول من ذكروا فى أساطيرهم فكرة استعمال الآلات الشمسية ، ومن بعدهم اختبارات « غاليليو » و « ليوناردو دافنشي » . وعرض « موشو » فى معرض باريس عام ١٨٧٨ أول آلة تحول الماء إلى بخار بالطاقة الشمسية . وكانت غلاية أسطوانية موضوعة فى بؤرة مرآة مخروطية الشكل ، قطرها خمسة أمتار . وحصل من آلته على قوة حصان واحد ، فكانت بذلك كفايتها خمسة فى المائة ، وهى نتيجة لا بأس بها بالنسبة لذلك الوقت .

وبعد خمس سنوات حصل « إريكسون » بطريق المرايا الأسطوانية ذات القطاع المتكافئ على نتيجة مماثلة .

وفى عام ١٩١٠ قام « شومان » بتجربة آلات بخارية

تحت ضغط مخفف ، بتسخين الماء فى أحواض مغطاة بالزجاج ، قد ركزت عليها أشعة الشمس التى تسقط على مرايا مسطحة وضعت على جوانب الحوض ؛ ولكنها كانت أقل إنتاجاً للبخار المحرك عن مثيلاتها ، فلم تتعد الأربعة فى المائة . ثم أعد « شومان » فى ضاحية المعادى ، بالقرب من القاهرة ، آلات شمسية لرفع ماء النيل ورى الأراضى ، ولكنها لم تستمر طويلا ، إذ نشبت الحرب عام ١٩١٤ وأهمل أمرها .

ولنذكر من التجارب : تلك التجربة التى قام بها « بارجو » سنة ١٩٣٢ بتسخين طبقة من الزيت تنتقل حرارتها إلى الماء لتبخره بدورها ؛ وتجربة « جورج كلود » باستخدام فروق درجات الحرارة ، وتجربة « ويلهلم ماير » الذى اقترح تسخين الزيت فى أنابيب تمرر بعد ذلك على خزانات من الأسمنت لتبخير ما فيها من ماء .

وتبذل مجهودات ضخمة فى أقطار كثيرة من العالم كأمريكا وروسيا والهند وأستراليا وفرنسا ومصر لتحسين تلك الطرق القديمة ، وتتجه العناية إلى البحوث الهندسية :

أولا : لتصميم أجهزة رخيصة الثمن ، وذلك بصنع مجمعات شمسية مبسطة التركيب .

وثانياً : للتعمق فى دراسة التمثيل الكلوروفيلى فى النباتات .

ويقول « جون إيرس » فى كتابه « مصادر الطاقة » : « توجد وسائل كثيرة لاقتناص أشعة الشمس فى المناطق

الصحراوية والأودية المنزرعة والغابات والبحار ، وإذا أمكن استخدام عملية التمثيل الضوئي في النبات للإكثار من النباتات، من أجل التغذية وزيادة الأراضي الخصبة ، ثم محاكاة هذه العملية بالتوصل إلى عمليات كيميا ضوئية من أجل القوة المحركة ، فإننا نكون على عتبة عصر جديد من ازدهار بحوث العلم » .

ويقدر « فارنجتون دانيلز » صاحب كتاب « البحوث في الطاقة الشمسية» أن ما يسقط على قدم مربعة من الأرض يبلغ في المتوسط كيلو سعر في الدقيقة ، أي ما يعادل نصف الحرارة المتسببة عن إشعال عود من الثقاب . وبحساب هذه الكمية الضئيلة التافهة نرى أننا نستطيع الحصول على اثنين وعشرين مليوناً من الكيلووات في اليوم من الأشعة التي يمتصها فدان واحد من الأرض ؛ وإنها لكمية لا يستهان بها ، تجعلنا نفكر في وجوب استغلالها بأقصى سرعة ممكنة ، حتى تسهل عملية تهجير عدد كبير من الرواد الأوائل ذوي الخلق والإيمان القوي بمستقبل أمتهم وعظمتها ، إلى أراض جديدة صالحة للتعمير والزراعة والتصنيع ؛ فشمسنا تمتاز بحرارتها ، ووفرة سطوعها ؛ والأراضي الجديدة في حاجة إلى تحويل تلك الحرارة إلى قوة محركة ، تتحول بفضلها الأراضي الرملية إلى مزارع خصبة بالأساليب العلمية الحديثة ، من تقطير الماء ، واستخراج المياه الجوفية بمضخات شمسية .

وتستغل القوة المحركة في الصناعات الصغيرة أول الأمر ،

وفى إنتاج كهربا تضىء المدن والقرى ، وتدير أجهزة الإذاعة والتليفزيون ؛ فتصبح الصحراء جزءاً حياً من وطننا العزيز ، وعاملاً مهما من عوامل تقدمنا ورخاء مستقبلنا .

إن مناطق كاملة من الولايات المتحدة الأمريكية أمكن تحويلها إلى مدن عامرة بالسكان ، وإلى مصانع وأراض خصبة ، لتوافر القوى الكهربية المحركة . وحتى تتحقق لنا القوة اللازمة من السد العالى ، فإن فى استطاعتنا التوسع فى توفير احتياجاتنا من طاقة الشمس.

ونحن لا نطمع فى إقامة المصانع الضخمة التى تديرها أشعة الشمس ، فهذه آمال بعيدة التحقيق . ولكن الفائدة المرجوة للمناطق الصحراوية والقرى الصغيرة فى وادى النيل ستكون للاستعمالات المنزلية ،



العالم الأمريكى « أبوت » — من أكبر رواد بحوث الطاقة الشمسية — يقوم بتوليد البخار لإدارة الآلات .

كالإضاءة وإدارة آلات صغيرة لصناعات ريفية بسيطة تروح قوتها من حصان بخاري إلى عشرة أحصنة، وبها يمكن الاستغناء عن أنواع الوقود وعناء نقلها .

ومن رواد العصر الحاضر فى بحوث استغلال الطاقة الشمسية كقوة محركة العالم الأمريكى « شارل أبوت » الذى وقف حياته وجهوده فى هذا الميدان ، وقام بتصميم جهاز يوجد الآن فى متحف معهد « سميشونيان » ، وينتج قوة شمسية رخيصة ، إذ كان أساس بحوثه أن يكون التصميم لجهاز عملى كبير القدرة رخيص الثمن ، وقد أعده من أجل ضخ الماء من الآبار الجوفية أو من الأنهار لأغراض الرى والصناعات المنزلية الصغيرة.

والجهاز الذى صممه « أبوت » يتكون من مرآة ذات قطاع متكافئ مصنوعة من الصلب الخفيف تغطيه طبقة رقيقة من ألواح « الألكوا » ، وهو نوع من الألومنيوم يمتاز بقدرته على أن يعكس أكثر من اثنين وثمانين فى المائة من الأشعة الساقطة عليه . ويبلغ سطح المرآة مائة متر مربع تقريباً ، وتبلغ كمية الطاقة الساقطة عليها مائة وثمانية وثلاثين ألف سعر فى الدقيقة . تتركز هذه الحرارة على أنبوبة من الزجاج الشفاف من « البيريكس » موضوعة فى بؤرة المرآة .

وفى داخل الأنبوبة الزجاجية سائل « الأروكلور » الأسود اللون الذى يمتاز بارتفاع درجة امتصاصه للحرارة ، ويغلى فى درجة ٣٥٥ مئوية . وتنتقل الحرارة إلى غلاية الماء المصنوعة

من الصلب القوىّ الاحتمال ، فيتبخر ، وتكون درجة حرارة البخار عالية جداً ، مما يجعل القوة المحركة لهذا الماء كبيرة يمكن تشغيلها ليلا ونهاراً .

ويعمل الروس منذ زمن طويل للعثور على طرق الإفادة العملية من الآلات الشمسية . ومن غرائب المصادفات أنه فى اليوم الثانى من ديسمبر عام ١٩٤٢ ، وهو اليوم الذى نجح فيه « أنريكو فرمي » فى محاولة شطر الذرة فى مفاعله للحصول على الطاقة ، بدأت تدور محركات آلات الجهاز الشمسى التجريبى فى طشقند .

وبعد انقضاء ستة عشر عاماً على ذلك التاريخ أصبحت التجارب المعملية حقيقة واقعة ، وافتتح أول مصنع تديره الطاقة الشمسية فى أرمينيا عام ١٩٥٨ . ففى وادى « أرارات » أقام الدكتور « بوم » برجاً يبلغ ارتفاعه أربعين متراً وضعت فوقه غلاية كبيرة تدور حول نفسها وعلى مسافة من البرج ثلاثة خطوط حديدية على شكل دائرى وضعت فوقها ١٢٩٣ عربة ثبتت عليها مرايا مساحة كل منها خمسة عشر متراً ، تتبع الشمس خلال دورانها أثناء النهار بجهاز ألكترونى دقيق ، حتى تتركز عليها أكبر كمية ممكنة من الحرارة لتسخين مياه الغلاية الموضوعة فى نقطة تلاقى بؤرات هذه المرايا جميعاً . ثم يسير البخار من الغلاية إلى توربينات كبيرة لتوليد الكهربا ، وتبلغ

القوة الكهربية التى ينتجها هذا المصنع ثلاثة ملايين كيلو وات ساعة فى السنة .

وما زال العلماء يدخلون تحسينات جديدة على اختراعاتهم نتيجة بحوثهم وتجاربهم . ألا ليت شباب الوطن العربى يتعودون منذ صغرهم أن يقوموا بأيديهم بتجارب علمية بسيطة تدخل إلى قلوبهم شغف البحث والعلم، وتجعلهم يحسون لذة الوصول إلى نتائج ، وليتهم يتوسعون فى الرحلات إلى الصحارى وسواحل البحار وتذوق حياة التقشف والهدوء الساحر ، فينمو فى وجدانهم حب تلك المناطق التى تحتاج إلى عزائمهم وعقولهم وأيديهم الفتية .

وإن بعض الأجهزة الصغيرة التى اخترعها العلماء للحصول على طاقة محركة لا تتجاوز العشرة كيلووات تتحول إلى كهربا للإضاءة وإدارة المحركات، تغرى حقاً بالدرس والبحث .

وقد صمم « شارل توليبيه » — من الرواد الأوائل للثلاجات الكهربية — محركاً يستغل خاصيتى قدرة النشادر على الذوبان بكميات كبيرة فى الماء وضغط غازه المرتفع ليعمل على إدارة المحركات ، فيمر الماء بين لوحين من الحديد متقاربين ومعرضين لحرارة الشمس ، فيتبخر غاز النشادر من الماء الدافئ بسهولة ، ويصل ضغطه إلى ثلاثة كيلوجرامات على السنتمتر المربع ، ثم يعود ثانية إلى خزان من الماء البارد ليذوب ثانية ويمر بين اللوحين من جديد وهكذا . وقد استطاع « توليبيه » دفع ٣٠٠ لتر

من الماء إلى علو عشرين متراً من جهاز مكون من لوحين مساحة كل منهما عشرة أمتار مربعة .

وباستعمال الأثير بدلا من النشادر يزداد الضغط إلى أربعة كيلوجرامات . وفى الولايات المتحدة تمكن المخترعون من تصميم محركات يدير آلاتها غاز ثانى أكسيد الكربون أو النشادر أو الفريون .

وسائل الفريون (Freon) المستعمل كثيراً فى الثلاجات يمكن استخدامه هنا للحصول على القوة المحركة . فيسخن الماء الموضوع فى وعاء أسطوانى بحرارة الشمس ثم يمرّ بعد ذلك على الأنابيب المحتوية على سائل الفريون فيتبخر وتزداد درجة حرارة بخار الفريون فى الأنابيب بتركيز حرارة الشمس عليها بواسطة عدد من المرايا ، حتى تصل إلى درجة تشغيل توربينة صغيرة ، ويعود الفريون إلى المكثف ليتحول إلى سائل ويعيد دورته مرة ثانية وثالثة . . .

الأفران الشمسية

عرف الإنسان منذ آلاف السنين أن أشعة الشمس يمكن أن تنتج حرارة عالية جداً بتركيزها .

وفى عام ١٨٤٤ اخترع « لافوازييه » ، أول فرن شمسى صهر فيه البلاتين والحديد . وبعد فترة تزيد على ثلاثة أرباع القرن عاد اهتمام العالم إلى الأفران الشمسية إثر ظهور جهاز اخترعه العالم « ستراوبيل » ، ويتكون من مرايا ذات قطاع مكافئ ، صنعت خصيصاً له من الزجاج المغطى بالفضة فى مصانع « زايس » ، وكان قطر المرآة مترين ، وبعدها البؤرى ستة وثمانين سنتيمتراً .

وفى أول جهاز صممه واستعمله « ستراوبيل » تنعكس الأشعة إلى مرآة مسطحة ، ثم إلى عدسات تركز الأشعة على الأجسام التى يريد دراستها . وقد وجد أن تركيز الأشعة على المرايا مباشرة كان يعرضها للكسر . فاستعمل لتلافى ذلك مرآة مقعرة ذات قطاع مكافئ ثابتة لا تتحرك ، وتعكس عليها الأشعة من مرآة مسطحة تتابع تحرك الشمس .

وفى خلال الحرب العالمية الماضية كان الألمان يستعملون المرايا الكاشفة ، وهى من الزجاج المغطى بالفضة ذات قطر يبلغ ثمانين سنتيمتراً . وقد حصل العلماء الفرنسيون على بعض هذه

المرايا الكاشفة لتكون جزءاً من الفرن الشمسى الذى أنشىء بالقرب من باريس ، ثم استقر نهائياً فى قلعة سان لويس على ارتفاع ١٦٠٠ متر فوق جبال البرانس ، وهو — حتى الآن — أكبر فرن شمسى فى العالم ، وقد قام بتصميمه العالم الفرنسى « ترومب» ويتكون من جهاز موجة « الهليوستات » ، وهى لوحة مساحتها ١٣٥ متراً مربعاً مغطاة بخمسمائة مرآة صغيرة متلاصقة .

وتتحرك اللوحة حتى تسقط عليها أشعة الشمس طول النهار بواسطة خلية كهرضوئية (العين الألكترونية) ، ثم تنعكس الأشعة على الجهاز المواجه لها ، وهو مرآة هائلة مقعرة مثبتة ؛ وتوضع فى بؤرتها المثبتة أيضاً المواد المراد تنقيتها أو صهرها أوفحصها . وهذا الجهاز الأخير المثبت يتركب من مرآة مقعرة ذات قطع مكافئ تحتوى على ثلاثة آلاف وخمسمائة مرآة صغيرة مقوسة وانحناءاتها البسيطة تضاعف تركيز المرايا ثمانى مرات ، فتصبح الثلاثة آلاف وخمسمائة مرآة وكأنها خمسة وعشرون ألفاً . وقد حصل « ترومب » من فرنه الشمسى على حرارة تزيد على ٣٥٠٠° م .

وبالقرب من مدينة الجزائر فرن شمسى صنعت مراياه من سبيكة من الألومنيوم والمغنسيوم تجرى فيه البحوث العلمية البحتة ، كدراسة التأثير الكيماوى الضوئى للأشعة فوق البنفسجية .

فى بؤرة المرآة المقعرة المكونة من ١٤٤ مرآة صغيرة يوجد

مرشح يحتوى على أملاح كبريتات النحاس والكوبلت لامتصاص جميع الإشعاعات الشمسية التى تزيد على أربعة آلاف إنجستروم وتركز الأشعة فوق البنفسجية .

وتجرى فى فرن الجزائر الشمسى تجارب رائعة على كثير من العمليات الكيميائية مثل: أملاح الكلود والنتروجين ، ومشتقات البترول ، وعملية تحضير حامض النتريك بخلط غازى الأزوت والأكسجين وتمرير الخليط على أكسيد الثوريوم كعامل مساعد ، وقد رفعت درجة حرارته إلى ٣٥٠٠°م ليتكون فى النهاية حامض النتريك .

كهرباء من ضوء الشمس وحرارتها

وجه العلماء والمهندسون عناية كبيرة لبحوث توليد الكهربا للإضاءة وتشغيل الآلات من أشعة الشمس بأجهزة بسيطة لا تحتاج إلى أجزاء متحركة كغلايات للبخار وتوربينات ، بل تحول ضوء الشمس وحرارتها إلى كهربا مباشرة دون اللجوء إلى تسخين الماء إلى بخار ، ثم استخدام هذا البخار فى إدارة التوربينات .

وللحصول على الكهربا من حرارة الشمس استخدمت المزدوجات الحرارية ، وهى تتكون من قطعتين من معدنين مختلفين ، قد يكونان من الزنك والأنتيموان ، مع كميات متناهية فى الصغر لا تزيد على بضعة أجزاء فى المليون من القصدير أو البزموت أو الفضة . وتحنى كل من القطعتين على هيئة نصف دائرة . فبتسخين الطرفين المتجاورين الملتحمين يتولد تيار كهربى . وقد أجرى « سيبيك » منذ أكثر من مائة وأربعين عاماً تجارب على أكاسيد المعادن والسبائك المختلفة ، وفى الأعوام القليلة الماضية ازداد اهتمام العلماء من أمثال « ماريا تلكس » الأمريكية و « يودى » الروسى بإجراء التجارب على سبائك ومعادن ومساحيق تضغط لتصبح أسطوانات ، وبذلك كشفوا عن خصائص جديدة زادت من كفاية المزدوجات الحرارية ،

فبعد أن كانت لا تزيد على واحد فى المائة ، أصبحت تزوح الآن بين عشرة و ١٥٪ .

ولنعد إلى قصة المزدوجات الحرارية من أولها :

لقد لاحظ « سيبيك » عام ١٨٢١ أن إبرة الجلفانومتر التى تنحرف عند مرور تيار كهربى فى مزدوج مكون من سلكين مختلفين ، تتأثر عند تسخين أحد أجزاء السلكين .

وكان بعض أنواع تلك الأسلاك التى أجرى عليها تجاربه من أشباه الموصلات، وكانت —لحسن حظ العالم— قد عرفت كيفية استخدامها فى الأجهزة الكهرحرارية للحصول على القوى الكهربية .

ولكن « سيبيك » لم ينتبه لهذه الظاهرة الخطيرة ، فمرت أعوام كثيرة قبل أن يكشف « پيلتييه » — صانع الساعات الفرنسى — عن الظاهرة التى عرفت فيما بعد باسمه ، وهى أننا إذا أمررنا تياراً كهربياً فى سلكين مختلفين متصلين ، فإن درجة حرارتهما ترتفع . ولم يفقه « پيلتييه » المعنى الحقيقى لكشفه وما يمكن أن يترتب عليه من نتائج عملية ، إلى أن جاء « لينز » الأستاذ بجامعة « بيترسبرج » ومرر تياراً كهربيا فى سلكين متصلين ووضع قطرات من الماء عند نقطة اتصال هذين السلكين . فعند مرور التيار الكهربى فى أحد الاتجاهين كانت قطرات الماء تتجمد وتصبح بلورات من الجليد ، فإذا عكس اتجاه التيار ذاب الجليد وعادت قطرات الماء إلى الظهور ثانية

وبهذه التجربة العلمية الرائعة استطاع العالم الروسي « لينز » أن يعرف كيف يحصل من تيار كهربى على الحرارة أو البرودة بتغيير اتجاه التيار .

ونجح فريق آخر من العلماء فى الحصول على القوى الكهربية بالطرق الكهرمغناطيسية . وفى عام ١٩٢٦ كشف « لارس جرونداهل » عن أشباه الموصلات .

والمواد التى فى الكون إما مواد عازلة تماماً لا تنقل الحرارة أو الكهربا ، وإما مواد موصلة للكهربا والحرارة ، وإما مواد بين هذين النوعين ، وتسمى أشباه الموصلات .

وأجرى « جرونداهل » تجاربه على ألواح من أكسيد النحاس ، فوجد أن التيار الكهربى يسرى فى اتجاه واحد ، ويلقى مقاومة فى الاتجاه المضاد . ثم عرف بعد ذلك أن تعريض اللوح لضوء الشمس أو لحرارتها يولد تياراً كهربياً . وكان هذا الحدث بداية اهتمام العلماء بتأثير حرارة الشمس وضوئها على أشباه الموصلات ، وأخذوا يفتشون عن أنواعها المختلفة والكشف عما تمتاز به عن الأجسام الموصلة من خواص .

ففى الألواح والأسلاك المصنوعة من المعادن الموصلة يتحرر من كل ذرة من المعدن ألكترون واحد على الأقل يسرى فى خلاله ، فى حين لا نجد فى أشباه الموصلات سوى عدد قليل جداً من الذرات التى تحرر واحداً أو أكثر من ألكتروناتها .

وبذلك يكون عدد الألكترونات التى تتحرر فى الجسم الموصل ضعف الألكترونات التى تحررها أشباه الموصلات مئات المرات ، بل ألوفها . ومن المعروف أن الحرارة تنتقل من الطرف الساخن متجهة نحو الطرف البارد ، ومن المعروف كذلك أن الألكترونات هى شحنات من الكهربا السالبة ، فإذا سخن أحد طرفى اللوح أو السلك شبه الموصل ، فإن الطرف الموجب للسلك (الطرف البارد) يجذب الكهربا السالبة ، ولا يلبث أن يصبح سالباً ، فيمتنع وصول الألكترونات إليه ، بل إنه يطردها بعيداً عنه . إذ من البدهى أن الشحنات ذات النوع الواحد — وهى هنا السالبة — تتنافر ، وبذلك يقف تيار الألكترونات المتدفق من الطرف الساخن ، وتتراكم الألكترونات الحائرة حول السلكين أو القضيبين . فإذا وضعنا سلكاً معدنيا عند طرفى السلكين المفتوحين سرى فيه تيار كهربى تزداد شدته بزيادة الفرق بين درجتى حرارة الطرف الساخن والطرف البارد .

وقد استطاع الباحثون أن يجعلوا هذا الفرق يصل إلى مئات الدرجات بتركيز حرارة الطرفين الساخنين بمرايا مقعرة أو عدسات أو بواسطة الصندوق المغطى بعدد من الألواح الزجاجية ، كما رأينا فى حالات التدفئة وتسخين الماء . أما الطرف البارد فيمكن كذلك خفض درجة حرارته بمراوح كهربية ، أو بتيارات من الهواء ، أو الماء البارد .

ثم كشف العلماء عن وسيلة أخرى يمكن بها تحسين خواص أشباه الموصلات لتوليد شحنات أكبر من الكهربا ، وذلك بما يسمى بالفجوات داخل الأجسام شبه الموصلة .

والمزدوج الحرارى يتكون من لوحين متلاصقين من أشباه الموصلات ذات الفجوات ، يطلق على أحدهما النوع (N) والثانى (P) ، وفى كل من هذين النوعين تتجه الألكترونات إلى الطرف السالب .

أما شدة التيار الذى تنتجه المزدوجات الحرارية فلا تزيد على عشرات من الوات ، وهو قدر تافه لا يصلح للصناعة أو فى المدن . ولكن فى استطاعتنا أن نجمع المئات من هذه المزدوجات لتحويل حرارة الشمس إلى كهربا تستخدم فى الريف ويكون لها أعظم الفائدة ؛ وتقوم عليها حركة التعمير فى الصحارى ، ورفع مستوى المعيشة فى الريف . فالكهربا فى القرية سوف تمد الفلاح بكل ما يحتاج إليه من إضاءة المساكن والشوارع وانتشار أجهزة الإذاعة والتليفزيون ، وبها يتحقق التصنيع الريفى ؛ وهذه أشياء تعيد إلى الفلاح ثقته بنفسه ، وأمله فى مستقبله ، وتحبب إليه قريته وأرضه ، وتجعله لا يحس فارقاً كبيراً بين الحياة فى المدينة والقرية ، فلا يهجر قريته ويهاجر إلى المدن .

ولقد أتيحت لى فرصة — فى أثناء دراستى بسويسرا خلال الحرب العالمية الماضية — أن أقضى إحدى إجازات الضيف فى قرية جميلة هادئة ، وكانت الأيدى العاملة قليلة ، فكنت

أشارك القرويين فى أعمال الحرث والحصاد وتغذية حيوانات المزرعة ودجاجها وأرانبها ، وفى جمع العسل والعناية بالنحل ، وجمع البيض وصنع القشدة والزبدة واللحوم المجففة ونقلها إلى الجمعية التعاونية فى المدينة القريبة .

المنزل تضيئه الكهربا المتوافرة فى سويسرا لكثرة مساقط مياهها ، وبه جهاز للإذاعة ، وغرفة صحية نظيفة . حياة بهيجة تدعو إلى العمل والنشاط . كنت أحلم أن أرى فى يوم قريب بيوت فلاحينا وقراهم مثل هذه القرى وتلك البيوت السويسرية .

ولقد تحقق جزء كبير من الحلم بفضل اشتراكيتنا الجديدة التى غيرت ، وسوف تغير ، الكثير من معالم القرية وحياة ساكنيها . وسيكون للطاقات البسيطة الرخيصة من طاقة الشمس ومن كهربا السد العالى ما يغطى حاجات ريفنا ، وحاجة ملايين الأفدنة المستصلحة والقرى الجديدة التى سوف تلعب دوراً هاماً فى تحقيق أعظم ثورة اجتماعية عرفها التاريخ .

وتصنع الآن فى الولايات المتحدة مزدوجات حرارية تولد طاقات كهربية تروح بين خمسين ومائة وات للإضاءة والتسخين والتبريد وللطهى فى أفران كهرحرارية .

وقد عرضت شركة « وستنجهاوس » بعض الأجهزة التى تقوم فى وقت واحد بالتدفئة والتبريد والإضاءة .

كما تستخدم أجهزة كهرحرارية أخرى تتكون من اثنين وثلاثين مزدوجاً حرارياً أو أكثر لإدارة آلات رفع الماء لرى

الأراضى ، وسد حاجات آلاف الأشخاص ، وآلات أخرى لبعض الصناعات الريفية .

وعثر بعض الباحثين على طريقة رخيصة لصنع أشباه الموصلات من مواد بسيطة موجودة فى الطبيعة بكثرة ، وهى المواد الفخارية التى تصنع منها الحراريات وتحتمل درجات حرارة عالية .

وتعتبر العوامل المساعدة المستعملة كثيراً فى الصناعات الكيماوية أشباه موصلات . ويرجو العلماء — بدراساتهم للدور الذى تقوم به أشباه هذه الموصلات — أن يصلوا إلى نتائج علمية غاية فى الأهمية لمستقبل الصناعة .

وفى طشقند السوفيتية أنشئت أول محطة تجريبية للحصول على الكهربا الحرارية من مزدوجات ركزت عليها أشعة الشمس بواسطة مرايا مقعرة قطرها متران ، فرفعت درجة حرارة الأطراف الساخنة للمزدوجات الحرارية إلى ٣٥٠٠° م . وقد وضعت هذه المزدوجات بعضها إلى جانب بعض على التوالى على هيئة بطارية شمسية .

ثلاجات من الكهربا الحرارية

تعمل هذه الثلاجات بطريقة غاية فى البساطة ، هى أن نعكس اتجاه التيار الكهربى فى المزدوجات الحرارية تبعاً لنظرية « بيلتييه » . فتنقل الحرارة من الطرف البارد للمزدوجات الحرارية إلى الطرف الساخن . وتتوقف درجة التبريد على نوع أشباه الموصلات وشدة الحرارة الشمسية الساقطة عليها .

والثلاجات الكهرحرارية فى طريقها إلى الانتشار . وتمتاز عن الثلاجات العادية ببساطتها البالغة ، فلا حاجة إلى أجهزة معقدة ، ولا سوائل مبردة . ولا تقل كفايتها عن الثلاجات الكهربية الصغيرة . وفضلاعن ذلك فإن تكاليف صنعها قليلة .

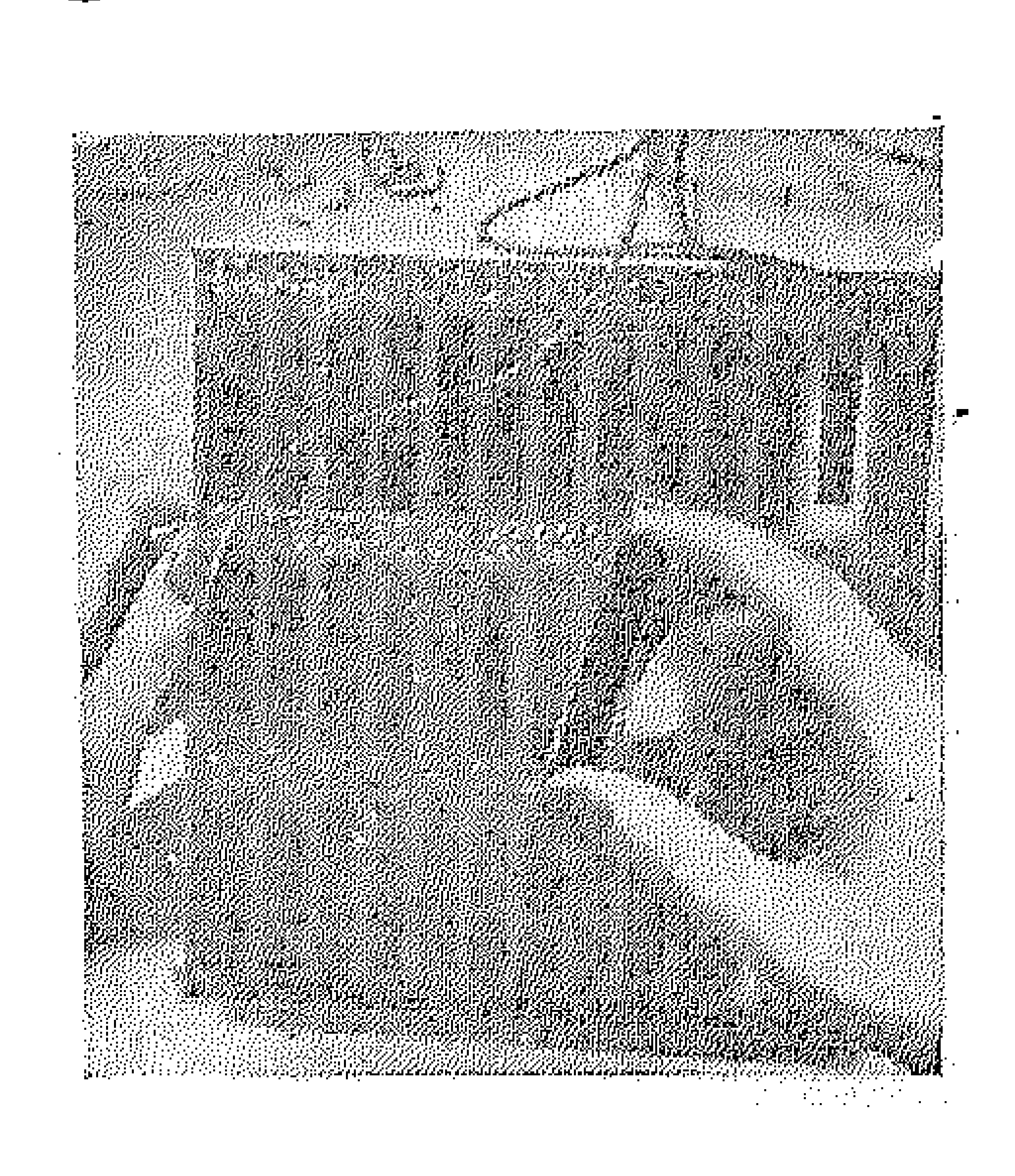
وفى الاستطاعة الجمع بين الفرن والثلاجة فى جهاز واحد يعمل بالمزدوجات الحرارية ؛ ويكفى هنا وجود جهاز صغير محول للتيار . فنى اتجاه يعمل الفرن للتسخين والطهى وغلى الماء أو تقطيره ، وفى الاتجاه المضاد يعمل الجزء الخاص بالثلاجة لتبريد الماء وحفظ الأطعمة . كما يمكن استخدامه أيضاً لتكييف الهواء على صورة مضخة حرارية ، فيمتص الحرارة من الماء وينقلها لتدفئة المنزل ، فإذا عكسنا اتجاه التيار لطف جوه وعمل على تبريده .

إن طريقة التبريد بالثلاجات التى تعمل بالحرارة الشمسية ما زالت فى أعوامها الأولى ، وسوف ينتشر استعمالها سريعاً لما تمتاز به من مزايا اقتصادية للغاية .

البطاريات الألكترونية

تحول البطارية الشمسية (الألكترونية) ضوء الشمس إلى تيار كهربى . والبطارية هى عدد من الخلايا الألكترونية المسماة بالعيون السحرية ، كانت تصنع من السيلينيوم أو غيره من المعادن القلوية . ولكن تيارها ضعيف جداً إذ لا تحول أكثر من نصف فى المائة من ضوء الشمس الساقط عليها .

وفى عام ١٩٥٤ أتمت شركة « بل » (Bell) صنع بطارية شمسية تحتوى على ٤٣٢خلية تزيد كفايتها على عشرين ضعفاً لتلك البطاريات؛ فيتحول الضوء الساقط على المتر المربع من البطاريات الشمسية إلى ما مقداره١٠٧وات ؛ وتتكون الخلايا من بلورات السيليسيوم النقية المحتوية على كميات



بطارية شمسية

متناهية الصغر من البور والزرنيخ. واستغلت شركة « بل » بطارياتها للحصول على ما تحتاج إليه من طاقة كهربية للخطوط التليفونية، فكانت تركبها فوق الأعمدة الحاملة لأسلاك التليفون بطريقة يصل إليها أكبر قدر من ضوء الشمس خلال أطول مدة من النهار .

وعرضت إحدى شركات السيارات فى شيكاغو منذ أعوام قليلة سيارة صغيرة تدير محركاتها بطارية مكونة من ثمانى خلايا كهرضوئية ، تحول الضوء إلى تيار كهربى .

وفى الأقمار الصناعية التى تدور حول الأرض أو ترسل إلى القمر والكواكب الأخرى ، توضع أجهزة لاسلكية تستمد ما تحتاج إليه من تيار كهربى ضعيف من بطاريات شمسية ، وترسل إلى الأرض بانتظام معلومات غاية فى الأهمية عن الفضاء الخارجى .

وقام الدكتور صبرى أبو حسين بإضاءة معامل حجرات كلية هندسة القاهرة بهذه البطاريات الكهرضوئية .

وتتوالى التحسينات التى تدخلها معامل الأبحاث ، فبعد أن كانت كفاية البطاريات لا تتعدى ١٪ منذ عشرة أعوام ، أصبحت ١٥٪ ، مما يجعلنا نتوقع استخدامها فى الريف خلال أعوام قليلة للإضاءة وإدارة الآلات الصغيرة بعد أن عثر الباحثون على أشباه موصلات يمكن الحصول عليها بوفرة ، ولا تحتاج إلى عناء فى تنقيتها ، كما فى السيليسيوم والجرمانيوم

ويبدو لأول وهلة أن السيلسيوم ، ومركبه الكيماوى أكسيد السيلسيوم ، سيكون أرخص وسائل الحصول على طاقة كهربية من أشعة الشمس ، فهو يستخرج من الرمل ، والرمل — يملأ صحارينا الواسعة ، والشمس تغمرها بضيائها ، فلا يكاد الحصول على هذه الطاقة يكلف شيئاً . . . غير أن مادة السيلسيوم المستخرجة من الرمل تحتاج إلى عمليات شاقة للوصول بها إلى نقاء يكاد يكون تاماً ، بحيث لا تزيد الشوائب فى طن السيلسيوم عن مليجرام واحد . ويجد الباحثون لتخفيض نفقات التنقية ولو أدى ذلك إلى كفاية أقل . وقد خرج الكيمياتيون من المعركة بانتصارات جديرة بالإعجاب ، إذ حولوا بعض اللدائن إلى أشباه موصلات بتعريضها للأشعة فوق البنفسجية . ثم أعدوا عشرات من المركبات الكيميائية التى سوف تأخذ مكان خلايا السليكون والجرمانيوم فى البطاريات الألكترونية ، كالألومنيوم والجاليوم والأنديوم والماس والجرافيت والقصدير والفوسفور والزرنيخ والأنتيمون وكبريتيد الثاليوم وكبريتيد الكادميوم .

وهناك بطاريات سائلة موضوعة فى صناديق من الزجاج أو المواد الشفافة التى ينفذ منها ضوء الشمس . وأحد قطبى البطارية معرض للضوء ، أما القطب الثانى فيوضع أسفل البطارية بعيداً عن النور ، وبذلك يسرى التيار .

الطاقة الكيموية من ضوء الشمس

من الطاقات التى ينتظر استخدامها على نطاق واسع ، وفى وقت قريب : الكيمياء الضوئية ، أى بتأثير ضوء الشمس ، وأحياناً بتأثير الضوء الصناعى على سائل أو مادة كيماوية تتحلل إلى عناصر أخرى . وفى الوقت نفسه تختزن قدراً من الطاقة يمكن استخدامه عند الحاجة .

والطاقة الناتجة من التأثير الكيمياضوئى ، والتى تختزن أثناء النهار ، يمكن من الناحية النظرية الحصول عليها كلها بالليل عند ما تنعكس العملية الكيموية ، كما يحدث فى التمثيل اليخضورى فى النباتات .

ويعتبر تحليل الماء إلى عنصريه — بواسطة ضوء الشمس من أهم الطرق التى يرجى نجاحها العملى والإفادة منها ؛ وإن كانت لا تزال فى دور التجارب المعملية .

ويقوم العالم الكبير « هيلدت » بتجاربه المثيرة فى هذا المضمار لتحليل الماء إلى عنصرى الإيدروجين والأكسجين بتأثير الأشعة فوق البنفسجية من ضوء الشمس . وقد يوضع فى الماء حامض البركلوريك وملح السيريوم (Cérium) كعامل مساعد لتنشيط العملية الكيماوية ، وهى شبيهة بما يحدث فى النبات الأخضر بوجود الكلوروفيل ؛ فتتكون بركلورات السيريك والسيروز .

والسيريوم هو أحد العناصر الأرضية النادرة ، ويوجد مختلطاً بمادة الثوريوم المشعة فى خام المونازيت الموجود عندنا بالقرب من رشيد فى الرمال السوداء . ويستعمل السيريوم بعد خلطه بالحديد لعمل الجزء الذى يشعل النار فى القادحات .

وتعتبر عملية تحليل الماء إلى الإيدروچين والأكسجين من أخطر العمليات ، فإن امتزاجهما ثانية ليعودا ماء يصحبه انفجار شديد ، وطاقة حرارية هائلة ، يحاول العلماء اليوم ، العثور على طريقة عملية آمنة لاستغلالها فى إدارة آلات المصانع بواسطة الآلات البخارية أو آلات الاحتراق الداخلى التى يمكن تصميمها من أجل إتمام عملية اتحاد الإيدروچين والأكسجين .

وقد أعلن العالم السوفييتى « سيمينوف » منذ أشهر قليلة أن الطاقة الكيموية من الشمس أقوى من الطاقة الذرية . وعند ما يعرف الإنسان كيف يحول أشعة الشمس إلى طاقة كيماوية فإن العالم سينتج من الطاقة ما يكفى جميع سكانه مهما كان عددهم . كما يمكن أكسدة الماء ، أى تحويله إلى ماء أوكسجين ، وذلك بوجود عامل مساعد مثل أكسيد الزنك الذى يعمل على زيادة امتصاص ضوء الشمس . ويمكن تنشيط هذه العملية بإضافة صبغات ملونة .

وقد وجد الدكتور « رابينوفتش » عالم النبات فى مؤسسة « كابوت » أن بعض هذه الصبغات مثل الثيونين الأرجوانية اللون ، وأزرق المثيل ، تحول كبريتات الحديدوز إلى

كبريتات الحديديك . فإذا كان أحد القطبين معرضاً لضوء الشمس ، والآخر موضوعاً فى الظلام، فإن تياراً كهربياً يمر فى السائل ويتأكسد ملح الحديدوز إلى حديديك ، ويمكن جمع هذا التيار فى سلك خارجى واختزانه فى بطاريات أو استعماله على الفور .

وعمليات الأكسدة والاختزال إن هى إلا عملية نقل الألكترونات من جزيئات إلى أخرى ؛ فالجزيئات التى تخرج منها الألكترونات يقال إنها تأكسدت ، والتى تضاف إليها هذه الألكترونات هى المختزلة . فإذا استطعنا جمع الألكترونات بعد تحررها مباشرة فى عملية الأكسدة ، ونقلها بواسطة سلك كهربى قبل أن تعود ثانية إلى الجزيئات فى عملية الاختزال ، فإننا نحصل على تيار كهربى .

وقد تختزن الطاقة الضوئية فى البلورات ، وتحرر منها الطاقة بعد ذلك بتسخينها .

وهناك أيضاً طريقة زيادة الحساسية ، وهى تشبه عملية التصوير بإضافة مستحلب بروموز الفضة للمحلول ، فيزيد من نشاط عملية الأكسدة والاختزال الكيموى .

كما يمكن أكسدة الأكسجين ، فتتحول ثلاث جزيئات من الأكسجين إلى جزيئين من الأوزون . كما يحدث فى طبقات الجو العليا .

وعملية التكسير فى الغازات الهيدروكربونية شبيهة بما يحدث

البترول بتأثير الأشعة فوق البنفسجية من ضوء الشمس . ومن منتجات هذه العملية الإيدروجين ومواد عضوية ، مع اختزان قدر هائل من الطاقة الضوئية .

إن هناك طرقاً أخرى كثيرة ومواد كيموية عضوية وغير عضوية يمكن تحليلها إلى العناصر المركبة منها واستخدام بعضها على صورة غازات كقوة محركة . ولكن هناك عقبة لم يصل العلم بعد إلى التغلب عليها نهائياً ، هي كيفية الاحتفاظ بمثل هذه الغازات فى صورتها الحرة ، دون أن تعود فى الطريق العكسى إلى الاتحاد بمركباتها الأصلية ، فهى عمليات كيموية غير ثابتة ، بل تحدث فى الاتجاهين العكسيين الواحدة بعد الأخرى مباشرة .

ومن الحلول التى وصلوا بها إلى نتائج أولية مرضية « بطاريات الاختزان الضوئية » ، وتسمى « خلايا ڤولت الضوئية » ، وهى تلك التى يوضع أحد قطبيها معرضاً لضوء الشمس ، والقطب الثانى فى الظلام . وتجرى تجارب أخرى على البطاريات الجلفانية »للحصول أولا بأول على التيار الكهربى فى سلك خارجى ، وبطاريات ثالثة أساسها صبغة الثيونين الأرجوانية .

التمثيل الضوئى

هناك عملية كيمياضوئية تقوم بها الطبيعة على نطاق واسع لاختزان الطاقة الشمسية . وكثيراً ما حاول العلماء خلال عشرات الأعوام الماضية العثور على طريقة يمكن بها الحصول على ثانى أكسيد الكربون من الهواء بطريقة اقتصادية سهلة وتقليد العملية التى يقوم بها النبات لتركيب مواد كربوهيدراتية مقعدة ، مثل السكر والنشويات ، وقد نجحوا إلى حد ما فى الكشف بالنظائر المشعة، وأهمها « الكربون — ١٤ »، عن كثير من أسرار هذه العملية البيولوجية التى تجرى فى أوراق النبات ؛ وتوصلوا كذلك منذ أعوام إلى تركيب المادة الحية فى المعمل من مواد وعناصر بسيطة ، ولكنهم ما زالوا فى أول الطريق .

وقديماً كانوا يعتقدون أن النبات يستمد جميع ما يحتاج إليه من ماء وغذاء من الأرض، حتى جاء العالم « فان هلمونت » وأثبت بتجارب دقيقة أن وزن إحدى الأشجار قد زاد ١٦٧ رطلا فى حين لم تفقد التربة التى زرعت فيها سوى رطلين فقط ، واستنتج أن هذه الزيادة جاءت من مياه الأمطار .

ثم مرّ قرن من الزمان ، وإذا بالعالم الإيطالى « مالفيجى » ينزع أوراق بعض النباتات فتموت نتيجة لذلك ، وحينئذ أدرك ما للأوراق من أهمية لحياة النبات ، وعرف أنها مخزن

تختزن فيه ما تحصل عليه من أغذية بواسطة جذورها . وفى ذلك الوقت نفسه وضع العالم السويسرى « بونيه » جزءاً من كرمة عنب فى مكان يصل إليه ضوء الشمس الساطع ، فتصاعدت من حولها فقاقيع غاز ، ثم اكتشف « بريستلى » أن هذا الغاز المتصاعد هو الأكسجين ، وأن هذه العملية لا تحدث إلا فى ضوء الشمس . وجاء « أنجن هاوس » الهولندى ليعلن حقيقة رائعة هى أن النبات يمتص الأكسجين أثناء الليل ، ويطرد ثانى أكسيد الكربون ؛ وفى النهار يمتص ثانى أكسيد الكربون . ويخرج الأكسجين فى ضوء الشمس بواسطة الأوراق الخضراء . واكتشف صيدليان من باريس : « بيلتييه » و « كافنتو » أن المادة الخضراء الموجودة فى الأوراق هى الكلوروفيل ، ونجحا فى عزلها وتحضيرها نقية .

والكلوروفيل جسيمات صغيرة خضراء توجد فى خلايا السيتوبلازم فى الأوراق .

وقد عكف الكيميويون على دراسة تركيب الكلوروفيل ، فعرفوا العلاقة التى تربطه بهيموجلوبين الدم ، فتركيبهما الكيموى يكاد يكون واحداً ، وما بينهما من فرق لا يعدو أن جزيئات مادة الكلوروفيل يتوسطها عنصر المغنسيوم على حين يتوسط مادة الهيموجلوبين عنصر الحديد ، وأن لا سبيل إلى تكون هيموجلوبين الدم فى الجسم إلا بتغذيته بنباتات خضراء تمده بالكلوروفيل الذى تتفاعل عناصره مع الدم لتحضير الهيموجلوبين .

وكان « ليبيج» الكيماوى الألمانى أول من أعلن تكوّن المواد العضوية فى أوراق النباتات بطريقة كيماوية تدريجية من ثانى أكسيد الكربون ، فإن أحماض الطرطريك والماليك والسولسينيك التى عثر عليها فى أوراق النبات بالتحليل ، إن هى إلا بعض خطوات التركيب العضوى للسكر من ثانى أكسيد الكربون . وجاء من بعده العالم « باير » الذى كشف عن حامض النمليك فى أواق النبات وغيره ، حتى كانت الخطوات الحاسمة بعد استعمال النظير المشع للكربون .

ويسير العلماء بخطى الجبابرة فى هذا الطريق الجديد لتقليد الطبيعة فى تركيب المواد الغذائية التى تقوم بها فى مصنعها العجيب داخل الأوراق ، فتنشىء الدول مصانع لتحضير المواد الغذائية بكميات هائلة وبنفقات قليلة ، فهى لن تحتاج إلى أكثر من الماء وثانى أكسيد الكربون وعامل مساعد كاليخضور « الكلوزوفيل » وضوء الشمس .

وإلى أن نحقق هذا الحلم ، علينا أن نفيد من ضوء الشمس فى زراعة النباتات واستخدام أخشابها وثمارها كوقود . فقد اخترع العالم « ريكاردو » آلة ، واستخدم أخشاب شجر الإيكالبتوس الضخمة وقوداً لها ، فنجحت نجاحاً عظيماً . فبزراعة أربعة أفدنة بأشجار الإيكاليتوس يمكن الحصول باستمرار على طاقة سنوية قدرها ألف كيلو وات .

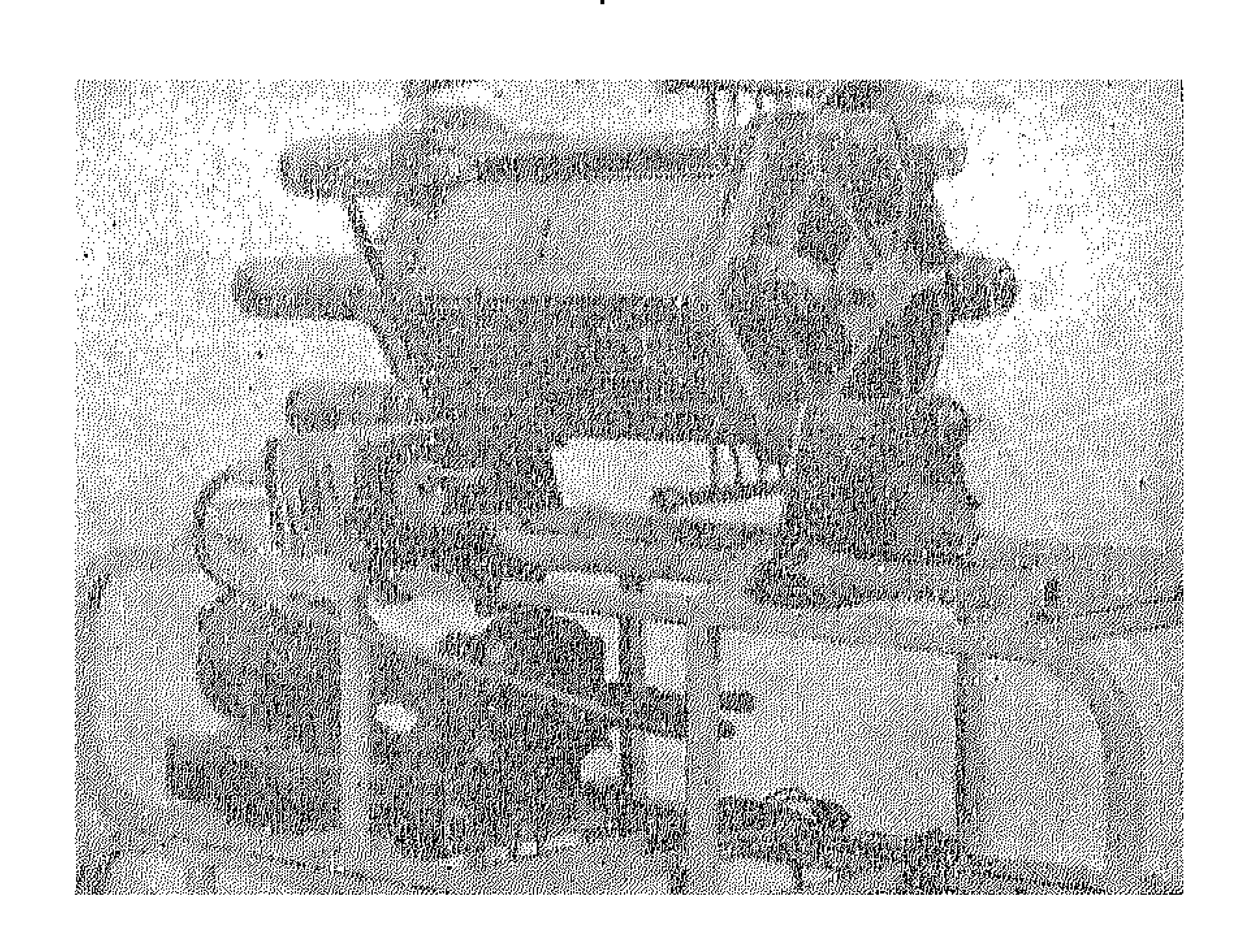
وفى الحرب العالمية الأخيرة كان العالم فى أشد الحاجة إلى

طاقة محركة لآلات المصانع والبواخر والسيارات ، بدلا من الفحم والبترول الذى امتنع عن بعض البلاد المحاربة . وقد اتجه الباحثون إلى مخلفات المزارع ، وإلى زراعة نباتات يحصلون منها على كحول صناعى فالبطاطس وغيره من النشويات ، وقصب السكر والبنجر والعنب ، والحبوب وفول الصويا والفول السودانى ، يمكن ببعض عمليات التخمير والتقطير الحصول على كحول يحول إلى وقود آلات تجرى دراستها الآن فى معاهد كثيرة ، ويتوقعون استخدامها قريباً فى إدارة الآلات . فإن الطريقة المعروفة باسم « فيشر — تروبش » تعد خطوة كبيرة إلى الأمام وإن كانت لا تزال غير اقتصادية ، وفيها تسخن المواد النباتية مع بخار الماء للحصول على غازى الإيدروجين وأول أكسيد الكربون . وبضغط هذين الغازين معاً — بوجود عامل مساعد يحتوى على الحديد والكوبالت — يتحولان إلى مواد كحولية وهيدروكربونات ، وهذه من أحسن أنواع الوقود لآلات الاحتراق الداخلى وإدارة آلات السيارات والمصانع ، ولكن عيبها أنها باهظة النفقات ، ولن تصبح عملية إلا بعد العثور على طرق أخرى تهبط بالتكاليف إلى حد كبير .

خلايا الوقود

هذان الغازان ، وغيرهما من الغازات كالإيدروجين والأكسجين الناتجين من تحليل الماء ، يمكن تحويلها إلى

كهربا فى الأجهزة المسماة بخلايا الوقود ، وهى بطاريات كهركماوية ، فتمرر الغازات على أقطاب من البلاتين المغمورة فى أحد المحاليل الحمضية أو القلوية . ويحدث فرق فى الجهد بين القطبين يولد تياراً كهربياً يمكن استخدامه فى إدارة الآلات . وهناك أيضاً بطاريات يمرر الأكسجين فوق أحد قطبيها وأكسيد الكربون أو غاز الميتان أو أى غاز عضوى على القطب الآخر .



خلية وقود

وقد عرض « كيلاتار » عام ١٩٥٣ فى « أمستردام » خلية من الوقود تعمل بمحلول فوسفات الصوديوم فى درجة ٦٠٠ م ، فيمرر الهواء المحتوى على الأكسجين من خلال ثقوب على أحد القطبين ، والغاز العضوى الآخر مثل أكسيد الكربون فوق القطب الثانى ، فيتولد تيار قدره ربع ڤولت فى السنتيمتر المربع ، وهى كفاية عظيمة للخلية تعادل ضعفى كفاية الآلات الحرارية الأخرى. ومن ميزات خلية « كيلاتار » توليد طاقة حرارية قدرها ثلاثون فى المائة تحفظ فوسفات الصوديوم فى حالة انصهار سائلة طوال عمل الخلية ، وذلك إلى جانب ٧٠٪ الذى يمثل الطاقة الكهربية المتولدة .

وأجريت تجارب أخرى فى كمبردج صنعت أقطابها من النيكل ، والمحلول المنصهر من البوتاسا الكاوية، ويمرّر فى الخلية غازا الإيدروجين والأكسجين تحت ضغط يبلغ ثلاثين ضعفاً للضغط الجوى .

وتعمل خلية الوقود بطريقة عكس التمثيل الضوئى تماماً ، ففى التمثيل الضوئى الكلوروفيلى تتكون المواد الكربوهيدراتية التى تصل فى نهاية العمليات الكيماوية المعقدة إلى مواد سكرية ونشوية .

فإذا وضعنا إحدى المواد السكرية أو النشوية فى خلية للوقود نحصل على ما اختزنته هذه المادة من طاقة فى صورة

كهربية . وتجرى عملية الأكسدة فى وسط قلوى (محلول البوتاسا الكاوية) ، وهى عملية تحليلية أى العودة إلى الوراء ، فمن سكر إلى فورمالدهيد ، إلى حمض النمليك ، مضافاً إليها الطاقة الكهربية ، فإذا وضعنا فى الخلية عاملاً مساعداً ملائماً نصل بعملية الأكسدة إلى ثانى أكسيد الكربون وماء ، وفى الوقت نفسه نحصل على ما اختزنه من طاقة .

وخلية الوقود التى تعمل بالطاقة الشمسية تحلل الماء إلى أكسجين وإيدروجين خلال النهار ، وتدار بالقوة الكهربية الناتجة فى الخلية آلات السيارات والمصانع ؛ وعندما يأتى الليل تستعمل الكميات المختزنة من كل من الغازين لتحريك الآلات .

ويتنبأ بعض العلماء بأن خلايا الوقود سوف تعمل جنباً إلى جنب مع المحركات الذرية فى عالم المستقبل ، لما ينتظر من إدخال تحسينات فنية واقتصادية على صناعتها .

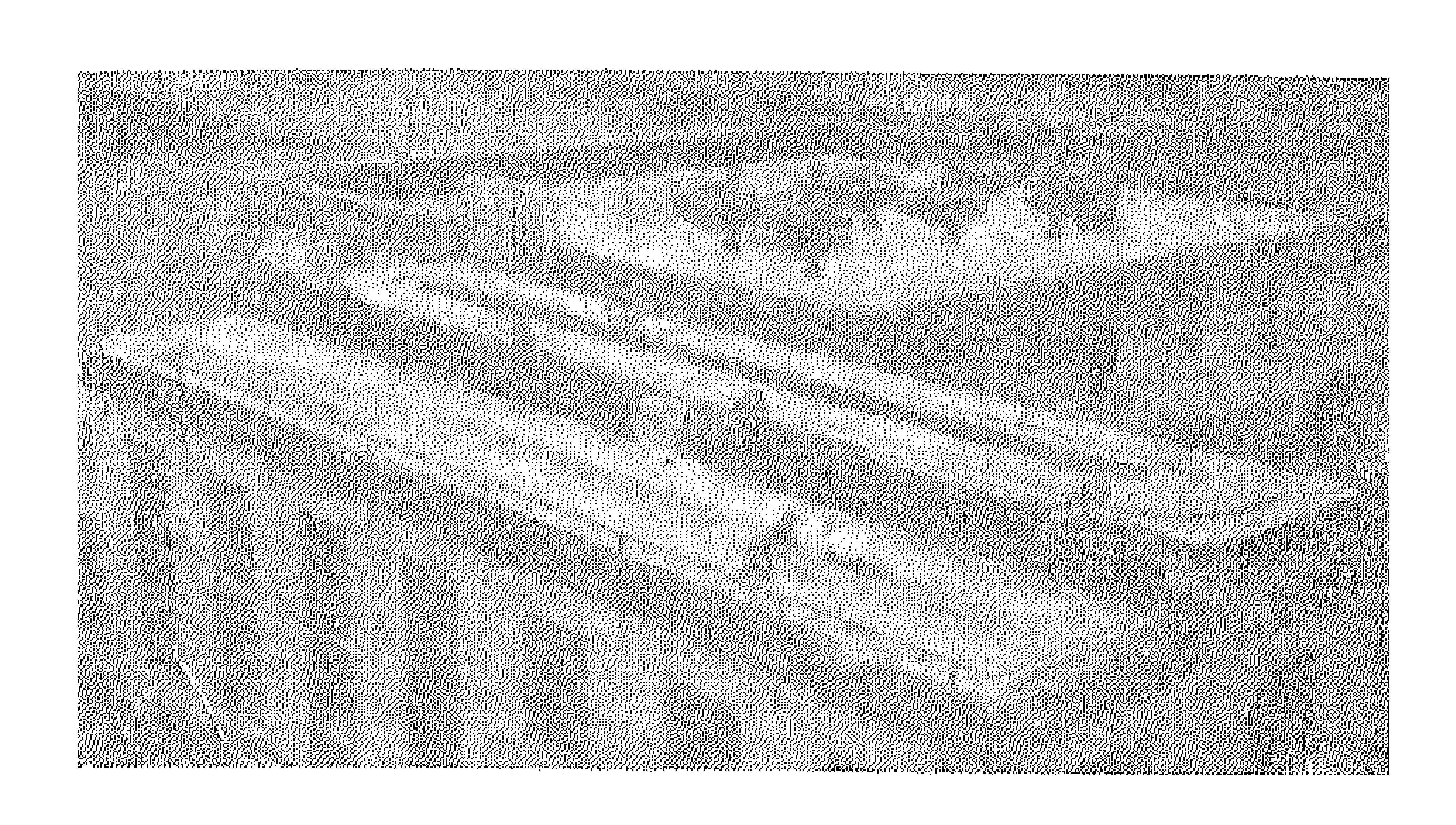
الطحالب مصدر غذاء وطاقة

وجه الكثيرون عنايتهم فى الأعوام القلائل الماضية لدراسة الطحالب المختلفة ، وخاصة الطحلب الأحادى الخلية الأخضر اللون « الكلوريلا » ؛ لأنها غنية بالفيتامينات والمواد البروتينية والنشوية والدهنية والمواد ذات الفوائد الصناعية . ويمكن التوسع فى زراعتها فى الأراضى الصحراوية ، إذ لا تحتاج إلى أكثر من أحواض مغطاة بزجاج تمر منه أشعة الشمس .

وتجرى التجارب المعملية فعلا فى أنحاء كثيرة من العالم ، ومن بينها وطننا العربى . وتعتبر « الكلوريلا » من أغنى الطحالب بالبروتينات ، فهى تحتوى على أكثر من خمسين فى المائة من البروتينات ، وخمسة وثلاثين فى المائة من المواد السكرية والنشوية ، وخمسة فى المائة من الدهن وعدد من الفيتامينات الهامة والمعادن ، كما يمكن زيادة كمية البروتينات بإمرار تيار من ثانى أكسيد الكربون فى المحلول المغذى لطحلب الكلوريلا .

وتتكون هذه المواد فى الطحالب بواسطة الطاقة الشمسية بعملية التمثيل الضوئى ، كالنباتات الكثيرة الخلايا ، وهى لا تفيد من ضوء الشمس بأكثر من اثنين فى المائة ، ويضيع الباقى

هباء . وقد فكر العلماء فى زيادة كمية الطاقة التى يمكن أن يحولها الطحلب إلى غذاء وطاقة ، وتنشيط عملية تكاثرها .



منزل نموذجى لتربية الطحالب

وتجفف الطحالب لاستعمالها كوقود ، أو تخمر وتقطر كما فى النباتات الأخرى ، للحصول على كحول صناعى يمكن تحويله إلى وقود بنزينى محرك . وهو فى الوقت نفسه غذاء غنى ببروتيناته ودهونه ونشوياته ؛ ويصنع منه اليابانيون أغذية وحلوى شهية سوف يلجأ إليها العالم كمكمل غذائى عند ما يزداد عدد السكان ولا تعود تكفيهم تلك الكميات المتوافرة من الأغذية فى الأراضى المزروعة .

طاقة من الرياح

لا بدّ لنا — فى هذا العصر الذى تطلعت فيه أبصارنا إلى ما وراء الأراضى المنزرعة فى وادى النيل باحثة منقبة عن أراض جديدة ، وثروات جديدة ، وطاقات جديدة ، — لا بدّ لنا أن نتعمق أكثر وأكثر ونطمع فى المزيد ، ولا نقف عند حد طاقات البترول والفحم ، ولا عند الطاقة من الشمس ، فإن هناك طاقتين لهما أهمية حيوية فى مستقبل البلاد ، وكلتاهما مستمدة من طاقة الشمس الزاخرة ؛ وبذلك نجد كل حاجتنا من الطاقة فى الأرض الطيبة لو عملنا على استغلالها بكل ما أوتينا من علم وقوة وحماسة . إنها الطاقة المائية التى تولد كميات ضخمة من الكهربا تسدّ حاجات البلاد للإضاءة والصناعة عندما يتم بناء السد العالى .

ثم طاقة الرياح ، وما هى إلا أحد مظاهر الطاقة الشمسية . فالشمس ترفع درجة حرارة طبقات الفضاء — وهى ليست على درجة واحدة فى كل الأماكن وفى الطبقات المختلفة الارتفاع ، بل تتحكم فى ذلك الزاوية التى تسقط بها الأشعة — وينتقل الهواء البارد ليحل محل الهواء الساخن ، وكذلك يرتفع الهواء الساخن إلى أعلى ليحل مكانه الهواء البارد .

هذه التحركات هى التى تسبب الريح فتختلف من

موضع إلى آخر ، ومن فصل إلى فصل ، وإن كان المتوسط في أي شهر من العام يكاد يكون مماثلا للمتوسط في الشهر نفسه من الأعوام الأخرى . كذلك يكاد يكون متوسط قوة الرياح خلال الأعوام ثابتاً إذا أخذنا متوسط عشرة أعوام متتالية مثلاً .

ويمكن مقارنة حركة الرياح بآلة حرارية ، الهواء هو وقودها ؛ وتتكون أجزاؤها المولدة للطاقة من سطح الأرض والطبقات العليا من الجو .

وطاقة الرياح طاقة هائلة يمكن الحصول منها على ملايين الكيلوات ، فتغنينا عن أضعاف ما يستهلك اليوم من منتجات البترول الوقودية والفحم . ولكن ذلك يحتاج إلى دراسات وقياسات ، فهي كطاقة محركة ما زالت في دور الاختبار . وقد أنشئت محطات لتنفيذها عملياً . والنتائج تبشر بخير عميم .

وتقام على سواحل البحار وفي المناطق المكشوفة والأماكن المرتفعة فوق الجبال والهضاب أعمدة ترتفع أكثر من عشرين متراً ، وتوضع فوقها أجهزة قياس الريح « الأنيمومتر » . . . يمكن بعد دراسات تستغرق أعواماً طويلة، معرفة أحوالها المختلفة من سرعات وأوقات الهبوب واتجاهاتها وأحسن الطرق لاستغلالها استغلالا عملياً واقتصادياً .

لقد عرف المصريون القدماء طاقة الريح منذ نيف وأربعة

آلاف عام ، واستغلوها فى ضخ الماء لرى الأراضى ، وفى طحن الحبوب .

وفى خلال العصور المختلفة استخدمت الطواحين الهوائية فى أقطار كثيرة لهذه الأغراض نفسها ؛ ولا يزال بعضها موجوداً حتى الآن فى مناطق مختلفة فى الريف ، وفى ضواحى القاهرة والإسكندرية . وهذه الطواحين كانت تستعمل لطحن الغلال ، واستخراج الماء من الآبار الجوفية ، لرى الحدائق والمزارع الصغيرة . أما معظمها فقد اختفى نتيجة لاستخدام الآلات البخارية ثم الفحم والبنزين والديزل . وتناقص عدد السفن والقوارب التى كانت تدفع الريح شراعها بعد إدخال آلات الوقود والبخار بدلا عنها .

ولكن حاجة بعض الأقطار التى لا تملك خامات الفحم والبترول أو مساقط مائية دفعها إلى دراسة طاقة الرياح ، فعثرت على طاقة هائلة لا تنفد ... وكانت طواحين الهواء فى هولندا أكبر عون لها على تجفيف مناطق بأسرها من ماء البحر وتحويلها إلى أرض زراعية . وهناك بلاد أخرى جعلت منها عماد القوة لرى أراضيها من مياه الأنهار .

وكانت الدنمارك — وهى من الدول المفتقرة إلى الطاقة — من أوائل البلاد الحديثة التى عملت على استغلال الريح على نطاق واسع ، أكثر من سبعين عاماً . وكانت فى عام ١٩٠٠ تملك أكثر من ثلاثة وثلاثين ألفاً من طواحين الهواء على سواحلها وفى

الداخل ، تمدّها بطاقة لإدارة الآلات وإضاءة المنازل والبلاد الصغيرة بالكهربا بطاقة تربو على مئات الآلاف من الكيلووات.
ومنذ الحرب العالمية الماضية ازداد اهتمام الولايات المتحدة وروسيا وإنجلترا وألمانيا ومصر والهند وبلاد أخرى كثيرة بهذه القوى ، فأنشئت فى الولايات المتحدة خلال الحرب الماضية مراوح تروح طاقاتها بين ١٣ و ٤٥ كيلوات لحاجات المزارع الريفية النائية . ثم أجهزة صغيرة لا تزيد قدرتها على ثمانية أو عشرة كيلوات لحاجات المنازل من إضاءة ومياه جوفية للشرب والطهى ورىّ المزارع المحيطة بها . وهذه الأخيرة صغيرة إلى حد لا يمكنها توليد الكهربا للإضاءة .

وفى الولايات المتحدة قدّر العلماء كمية الطاقة التى يمكن الحصول عليها من الرياح بثلاثين مليار كيلوات — ساعة فى السنة . وصنعوا أنواعاً مختلفة من الآلات الصغيرة والكبيرة يتكون بعضها من شبكة كبيرة من الأجهزة لتوليد ما تحتاج إليه مدينة أو مصنع من القوة للإضاءة أو إدارة الآلات . وبعضها الآخر صغير ورخيص جداً لاستعماله فى البيوت والمزارع الريفية .

وفى روسيا السوفييتية قدر العلماء كمية الطاقة التى يمكن الحصول عليها من الرياح التى تهب على بلادها الشاسعة بما يزيد على خمسة وثلاثين ملياراً من الكيلوات ساعة فى السنة .
وقام المهندسون الإخصائيون فى « المعهد المركزى لاستغلال

طاقة الريح» بالقرب من موسكو بإعداد مراوح مختلفة الأحجام كما أنشأ شبكات كاملة ، فى مناطق كثيرة الرياح ، لتوليد كميات من الكهربا تكفى لإضاءة مدن ومصانع كبيرة بأكملها .

وقد نجح العلماء فى كل من أمريكا وروسيا فى تصميم أجهزة تعمل فى كل الرياح ، سواء أكانت خفيفة أم قوية جداً تبلغ حد العواصف العنيفة ؛ كما أدخل عليها علماء آخرون الأجهزة الألكترونية لتقوم بعملها فى الأماكن البعيدة عن العمران ..

واقترح عالمان روسيّان إقامة حواجز ترتفع نحو ٣٥٠ متراً تدور حول نفسها بالأجهزة الألكترونية ، فتتبع اتجاهات الرياح ؛ ويوضع على سطح الحاجز الهائل عدد كبير من العجلات التى تديرها الريح ، فتتولد كميات من الكهربا تبلغ الآلاف من الكليوات من الحاجز الواحد . ولا تزيد نفقات إنتاج الكليوات الواحد — حسب تقديرهم — عن ربع المليم .

وفى فرنسا صمم المهندس « أندريو » محركاً تسيره طاقة الرياح بطريقة فريدة فى نوعها وفكرتها . إذ أقام برج المروحة من معدن مفرغ من الداخل كما أن الأجنحة التى تدور مفرغة هى الأخرى من داخلها . فعند ما تديرها الريح يطرد الهواء الموجود داخل الأجنحة بالقوة المركزية الطاردة إلى الخارج ، عن طريق فتحات فى طرف الجناح المثبت عند وسط البرج ، فيدخل تيار جديد من الهواء بقوة هائلة تبلغ أضعاف قوة

الريح العادية إلى البرج المفرغ القائمة عليه الأجنحة ، فتدور بسرعة كبيرة جداً . ولكن « أندريو » مخترع تلك المروحة لم يلق فى بلاده فرنسا أذناً صاغية أو تشجيعاً ، فرحل إلى إنجلترا حيث أقام جهازه فى أحد معاهد بحوث طاقة الريح ، ونجح فى الحصول على طاقة قدرها مائة كيلوات من رياح سرعتها ٤٨ كيلومتراً فى الساعة .

وأقيم فى إنجلترا أيضاً معهد آخر للبحوث فى جزر « أوركنى » صممت فيه طاحونة لها ثلاثة أجنحة تدير محركات كهربية بواسطة تروس متشابكة . ويقدر علماء هذا المركز للبحوث أن فى استطاعة إنجلترا توليد نحو عشرة ملايين من الكيلوات ساعة فى السنة إذا أقامت مراوح هوائية على طول سواحلها .

فالقوة المحركة من تلك الطاقة العظيمة التى لا تنفد أبداً لا يستهان بها ، وإن كان عيبها الوحيد عدم انتظامها . ويمكن تلافى هذا العيب بعمل بطاريات لاختزان الطاقة لاستخدامها فى الأوقات التى لا تهب فيها الريح أو تكون فيها ضعيفة .

وفى مصر تقوم المصانع الحربية بصنع طواحين ذات قدرة متوسطة تروح بين ٢٥ كيلوات ومائة كيلوات ، وتنتشر الصغيرة منها الآن فى الصحراء وسينا وعلى شواطىء البحار لاستخراج المياه الجوفية واستصلاح الأراضى المجدبة . وسوف تقوم بصنع آلات أكبر حتى تفى بمطالب جماعات تسكن القرى على

السواحل والأماكن البعيدة عن العمران . ومن المستطاع صناعتها من مواد رخيصة متوفرة ، حتى تصبح فى متناول الجميع ، وتكفى حاجات الأسرة للإضاءة والزراعة . ويمكن فى المستقبل إنشاء شبكات كبيرة منها لتوليد كميات كبيرة من هذه الطاقة التى لا تكلف سوى الجهاز نفسه وما يحتاج إليه من صيانة . كما أن الآلات الصغيرة تروح قدرتها بين عشرة كيلوات وخمسين كيلوات ، ولكن يحصل منها على مئات وألوف الكيلوات فى العام .

فإذا عرفنا أن الكيلوات الواحد يقوم بعمل ثمانية من الرجال استطعنا أن ندرك ما لهذه الثروة الهائلة من طاقة تمنحنا إياها الرغبة الصادقة فى اقتحام ميادين جديدة لبناء مستقبل زاهر .

سوف يجد الفلاح والعامل فى عالم الغد طاقات رخيصة لإضاءة المنازل بكهربا لا تكاد تكلف أكثر من ثمن أدوات الجهاز . وربما يستطيع الواحد منهم بقليل من المعرفة والدراية أن يصنع هذا الجهاز بنفسه ، فيتحول بيته الصغير إلى جنة تمنحه الضوء الكهربى والراديو والثلاجة الصغيرة ، ويتاح له فى المزرعة طحن الحبوب وعصر الزيوت وتجفيف الخضر والفاكهة ، ورفع المياه من الترع والآبار للرى ، وإدارة الآلات الجديدة الصغيرة للحرث والحصاد ببطاريات تختزن الكهربا من إدارة المراوح الهوائية ، فتخفف من أعباء الحياة ، وترفع مستوى المعيشة إلى درجة لم يحلم بها أحد من قبل .

ويمكن الإفادة منها أيضاً فى الصناعة ، باستخدام الكهربا من الريح فى تحليل الماء إلى إيدروجين وأكسجين ، فيحفظ الإيدروجين لاستخدامه كوقود لإدارة الآلات . أما الأكسجين فكلنا نعرف فوائده الطبية والصناعية . كما أن الجمع بين الاثنين فى خلية الوقود قد يكون فى المستقبل القريب إحدى القوى المحركة الهامة التى يعتمد عليها فى إدارة الآلات وتسيير السيارات ، كما قد تستخدم الريح فى اختزان الهواء والإفادة منه كهواء مضغوط .

ومن الاقتراحات التى نادى بها « جولدنج » عالم الطاقات المحركة الطبيعية الجمع بين كل من طاقات الشمس والرياح والفضلات الزراعية بتحويلها إلى كحول ، لسد حاجات الأراضى الريفية والصحراوية البعيدة عن مراكز الكهربا من مساقط الماء والوقود . وهو اقتراح جدير بكل تفكير .

مساقط المياه

تستخدم مشتقات البترول من بنزين وديزل وسولار لإدارة أنواع كثيرة من السيارات والمحركات والآلات البخارية ؛ وقد أوشك أن ينتهى عصر المصانع التى يحركها الفحم والبترول ، وبدأ عصر جديد للمصانع بطاقة الكهربا . وسيختفى معها عناء نقل الفحم والبترول واختزانه والحاجة إلى كميات ضخمة من المياه لتبريد الآلات والأجهزة المعقدة لقياس ضغط البخار . أما المصنع الكهربى فلن يحتاج إلى أكثر من التيار ولوحة تتحكم فى شدته وسيره ووقوفه .

والكهربا اليوم فى طريقها إلى كل مصنع ، وكل مدينة ، وكل بيت ، وكل حقل ، فهى فى المنزل للإضاءة وطهى الطعام وإدارة الثلاجة والراديو والتلفزيون والمدفأة وآلات تكييف الهواء وغسل الثياب وتنظيف المنزل من الأتربة .

وهى فى المصانع تستخدم فى صناعات الغزل والنسج والسماد والماء الثقيل والمركبات الكيموية ، وفى صناعات الحديد والألومنيوم والمغنسيوم والصودا الكاوية والورق والمطاط والدائن الزجاج ، وطحن الحبوب ، ومصانع السيارات والطائرات . بل إنها تلك القوة السحرية التى أدخلت إلى العالم عصراً جديداً للألكترونات .

إن أكبر المصانع اليوم تديرها الكهربا بتوربينات يصل وزن الواحدة أحياناً إلى مئات الأطنان ، تدور مئات من اللفات فى الدقيقة . ولنا أن نتخيل مقدار الطاقة الضخمة الهائلة التى تستطيع دفعها .

إنها لقوة جبارة حقاً تلك التى ننتظر — فى رغبة وتلهف — أن نراها بعد أعوام قليلة تدير توربينات السد العالى وتولد للبلاد مليارات من الكيلوات .

وليس معنى ذلك أننا ننظر إلى البترول والفحم بعد ذلك نظرة عدم اهتمام ، بل بالعكس ، فإن عصراً جديداً لهذه الخامات سوف يجعلها تصبح ركناً هاماً من أركان نهضة البلاد فى المستقبل القريب .

إنها المواد الخام لصناعات كيميائية هامة كالنشادر والأسمدة والكحول المثيلى والشحوم والمذيبات العضوية واللدائن والأقمشة والأطلية والصبغات الصناعية ومبيدات الحشرات والعقاقير الطبية ؛ فالحاجة إليها أكثر وأكثر ، وكذلك البحث عنها .

لقد خرج العلماء من أبراجهم العاجية التقليدية إلى الصحارى والجبال ، وهم يؤكدون أنها زاخرة بالثروات والكنوز من الخامات والمعادن . .

أما تلك القوة الكهربية التى سوف تغزو المصانع والمنازل وجميع أوجه الحياة ، فمن العسير تصور تلك الجهود العنيفة

والبحوث والكشوف التى قام بها أحياناً علماء مجهولون ، عاشوا حياة مليئة بالعمل الشاق والبذل والتضحية والصبر والمثابرة . فلم يكن أحد ليعرف عن الكهربا فى أواخر القرن الثامن عشر أكثر من إحداث شرارات كهربية .

ثم اخترع العالم الإيطالى « ڤولتا » البطارية عام ١٧٩٥ ولم تزد طاقتها عما تحتاج إليه المراسلات البرقية .

وجاء « فاراداى » ، ومن بين كشوفه المحوّل الكهربى الذى أفاد منه العلماء فيما بعد فى محطات توليد الكهربا .

وفى عام ١٨٦٩ اخترع « جرام » — نجار من بلچيكا — « الدينامو » أول مولد للكهربا . ولم يهتم به أحد فى ذلك الزمان ، إذ كان عصر البخار قد قفز بأوربا إلى عصر صناعى زاهر .

وجاء « إديسون » الملقب بالساحر وكشف عن المصباح الكهربى ، فتغيرت نظرة العلماء والناس إلى دينامو « جرام » ، وأدركوا أهميته البالغة للعهد الجديد . .

وبقيت هناك عقبة كان على العلماء التغلب عليها ، تلك هى نقل الطاقة الكهربية إلى أماكن بعيدة . وعثر المهندس الفرنسى « مارسيل دوبريه » على طريقة ينقل بها التيار فى سلك كما حدث فى نقل المراسلات البرقية ؛ وسخر منه الجميع ، إذ كانوا يجهلون القوانين التى وضعها الباحثون بعد التجارب الطويلة ومن أهمها « أن الطاقة الكهربية تتوقف على شدة التيار الذى يمر فى السلك ، على الفرق فى الجهد بين طرفيه » وأراد « دوبريه »

أن يثبت لهم إمكان نقل التيار ، فطلب إلى حكومته أن تضع خطاً من خطوط البرق تحت تصرفه لإجراء التجارب العملية مدة لا تزيد على الساعتين ، ولكنها لم تحفل بطلبه ، فسافر فى سنة ١٨٨٢ مع العالم المشهور « دارسونفال » إلى « ميونخ » أثناء المعرض الكهربى ، وحصل على إذن من ألمانيا بإجراء تجربته على أحد خطوط البرق بين « ميونخ » و « ميلزباخ » ، والمسافة بينهما سبعة وخمسون كيلومتراً ، وسافر « دوبريه » إلى « ميلزباخ » ووضع الدينامو عند مسقط مياه نهر صغير يمر بالمدينة فيحرك الدينامو . أما « دارسونفال » فقد ظل فى معرض ميونخ إلى جانب الطرف الآخر للسلك الذى وصله بمحرك لإدارة آلة تضخ الماء من حوض أعد لذلك ، ونجحت التجربة نجاحاً رائعاً إذ سرى التيار فى السلك تلك المسافة الطويلة ، ودار محرك المضخة وقام بعمله أمام أعين المتفرجين .

ولم يكن الطريق ممهداً أمام « دوبريه » لتحقيق حلمه بنقل التيار من مكان إلى آخر ؛ بل كان عليه أن يدخل عليه اختراعات علماء آخرين من أمثال « فاراداى » كمحول التيار و « فورنيرو » و « توربينه » .

وفى سنة ١٩٠٧ صمم العالم « بلونديل » مشروعاً كاملا لاستغلال مساقط مياه أحد الأنهار . وكان هذا العالم ملازماً فراشه يدرس ويبحث ويفكر ، وهو يسائل نفسه : لماذا ندع هذه القوة الطبيعية الهائلة تضيع هكذا هباء فى مياه البحار .

وقصة « بلونديل » ؛ جديرة بالذكر ، ففيها كفاح وتصميم . . .
أصيب فى عام ١٩٠٠ – وهو فى العشرين تقريباً – بشلل الأطفال ، وبقى ملازماً فراشه حتى وفاته فى سنة ١٩٣٨ .

لقد تحول مرضه وعجزه عن الحركة إلى قوة هائلة دفعته إلى النجاح . واختارته إحدى كليات الهندسة أستاذاً بها ، ومع ذلك لم يذهب يوماً ليحاضر الطلبة ، وإن كانت بحوثه ونظرياته والأجهزة البالغة الدقة التى أعدها بنفسه وهو طريح الفراش – كانت مرجعاً لطلبة جامعته وغيرها من الجامعات .

كانت جميع البحوث والكشوف والمخترعات دليلا على أن العلم لن يتقدم ولن يثمر أعظم الثمار إلا بتعاون العلماء . إن واحداً من هؤلاء العلماء من أمثال « إديسون » أو « ڤولتا » أو « فاراداى » أو « دوبريه » أو « جرام » أو « بلونديل » أو غيرهم ، لم يكن ليصل بمفرده إلى كل هذا المدى البعيد الذى بلغه بنا عصر الكهربا ، . فأقيمت السدود والخزانات فى سويسرا وفى السويد والولايات المتحدة وكندا وروسيا والهند . . . وعرف المهندسون أهمية البحيرات الصناعية لتخزين الماء للحصول على طاقة الكهربا .

فنى عام ١٩٣٣ كان وادى نهر « التنسى » – أحد فروع المسيسبى – يسير فى خطى سريعة بأهله البالغ عددهم أربعة ملايين نحو الخراب والموت ، فالغابات قد أزيلت عن جهل لاستغلال أخشابها ، وجرفت السيول والأمطار الأرض الخصبة

فى طريقها ، وتحولت إلى أرض قاحلة صحراوية تزداد انتشاراً واتساعاً كل يوم .

وكانت الأزمة الطاحنة تجتاح أمريكا والعالم كله فى تلك الآونة ، فأمر الرئيس الأسبق « روزفلت » بتكوين لجنة للإنقاذ ، وكان مشروع إحياء وادى التنسى فى مقدمة الأعمال التى أوصى بالتعجيل فى تنفيذها . وصدرت الأوامر إلى مصنع تديره الطاقة المائية ينتج المواد المتفجرة من النترات ، بأن يجعل إنتاجه أساساً لصنع السماد من أجل تخصيب الأرض بدلا من المتفجرات . وقاموا بزراعة الغابات الجديدة ، وبدأ التحكم فى جريان النهر الذى يبلغ طوله نحواً من ألف كيلومتر ، بإقامة تسعة سدود لتوليد أكثر من اثنى عشر ملياراً من الكيلوات — ساعة فى السنة . وأصبح وادى التنسى إحدى معجزات القرن العشرين ، بإحيائه مناطق شاسعة كان قد حكم عليها بالفناء ، وهى الآن نموذج للخصب والرخاء . يهرع إليه الملايين من أنحاء العالم ، ليقفوا على ما تستطيعه القوة البشرية إذا ما أرادت الخير والتعمير والسلام .

وفى سنة ١٩٥٧ أقام الروس سد « كويبيشيف » على نهر الفولجا ، مما رفع من مستوى ماء النهر ثلاثين متراً ، وينتج فى السنة ما يزيد عن عشرة مليارات من الكيلوات ساعة .

السد العالى

فى التاسع من يناير عام ١٩٦٠ وضع الرئيس جمال عبد الناصر الحجر الأول فى بناء السد العالى . ومنذ ذلك اليوم والعمل الجبار يسير بخطى ثابتة . وسوف يكون أكبر سدود العالم قاطبة . وهو يقع على مسافة ستة كيلومترات جنوبى أسوان فى منطقة تحفها لحسن الحظ الصخور الجرانيتية . إذ سوف يتكون السد العالى من ركام هذه الصخور الجرانينية بدلا من تلك الأبنية الهندسية الضخمة من الأسمنت المسلح فهى لا تصلح إلا فى السدود المتوسطة الحجم . إذ أن القشرة الأرضية معرضة فى كل مكان للاهتزازات أو التحركات التى قد تحدث تشققاً فى صميم بناء هائل كالسد العالى يحجز من ورائه مائة وخمسين مليار متر مكعب من الماء فى بحيرة يبلغ طولها ثلثمائة كيلومتر وعرضها خمسة كيلو مترات . أما الصخور الجرانيتية والطفل والرمال ومواد أخرى ، فتوضع بطرق فنية لتسد الثغور دون أن تمنع التحركات الخفيفة لتلك القطع الضخمة من الجرانيت والتى تبلغ نحواً من أربعين مليون متر مكعب أى ما هو أكثر ١٦ مرة من حجم الهرم الأكبر .

وسيكون ارتفاع السد عن مستوى سطح البحر ١٨٢ متراً ، ويقوم الألوف من الرجال الأقوياء بأعمال الحفر والنسف والنقل الميكانيكى والأعمال الفنية والهندسية فى حر الصيف القائظ ،

وفى كل الأجواء ، بهمة وحماسة عظيمين ، كى يمهدوا القنوات لتحويل مجرى النيل مؤقتاً ، والأنفاق لتركيب التوربينات ، وقد أنشئت الطرق الزراعية وخط حديدى يصل هذه المنطقة بأسوان ، وظهرت مدينة حديثة بمنازلها وطرقها ومتاجرها ووسائل الحياة فيها .

وسوف تغطى بحيرة « ناصر » وادى حلفا وعدداً من القرى والبلاد الصغيرة فى كل من القطرين الشقيقين : السودان ومصر ، لكنه قد أعد لسكانها مدن وقرى ومزارع نموذجية جديدة .

لماذا أنشىء هذا السد الجبار الذى قال عنه الرئيس جمال عبد الناصر : « إن السد العالى إنما هو حافز مستمر لكل الأمم فى أفريقيا وآسيا يذكرها دائماً أن الشعوب الصغيرة مهما تضاءل ما تملكه من معدات الدمار تستطيع أن تقوم بأعظم الأعمال الإنشائية . . . استطاع شعبنا أن يتصدى لبناء أكبر سد فى العالم وفى التاريخ . وإنه يفعل ذلك فى ظروف بالغة الصعوبة والمحاولات تبذل لحصاره . ولكن الشعب الصغير استطاع أن ينتصر .

إننا اليوم نشعر بالفخر . لأننا كافحنا ، وأثبتنا للعالم أجمع هذا الدرس الكبير ، وسنسير فى طريقنا نعتمد على الله وعلى وحدتنا وعلى أنفسنا والله الموفق » .

ذلك لتنظيم توزيع مياه النيل ، فلا يصبح الفيضان مصدر خطر سنوى داهم للقرى والمزارع وللمدن والسكك الحديدية ،

وحتى لا تتعرض البلاد لفيضانات أقل من المتوسط فلا تكفى مياهها رى الأراضى المنزرعة فتهدد البلاد بالقحط ، كما حدث فى بعض السنين . وأعظم ما سوف نجنيه من بنائه إضافة ملايين جديدة من الأفدنة بالأراضى الجدباء لتصبح أرضاً خصبة تحقق للملايين المقبلة الرخاء بازدهار زراعاتهم وصناعاتهم ، وتصبح « بحيرة ناصر » وهى أكبر بحيرة صناعية من نوعها فى العالم ، منطقة سياحية معتدلة الجو ، تحيط بها الموانىء الصغيرة والفنادق والبنسيونات الهادئة وحدائق الفاكهة والزهور ، ثم السفن والقوارب للنزهة وصيد السمك . ومن حولها تنمو الغابات وتمتد لتنقية هوائها من رمال الصحراء ، والتجول فى أنحائها متعة لها عشاقها الكثيرون .

ثم نجنى أكثر من عشرة مليارات من الكيلوات ساعة من الكهربا لمصانع الأسمدة وتنقية المعادن وتصنيعها . ومنطقة أسوان غنية بمناجم الحديد والمنجنيز والفوسفات والولفرام والتونجستين . وهناك مشروع آخر تجرى دراسته منذ أعوام يرمى إلى وصل البحر الأبيض بمنخفض القطارة بواسطة قناة عبر الصحراء ، فتتدفق المياه إلى المنخفض ، إذ أن الفرق بين مستواهما خمسون متراً . ويتحول إلى بحيرة مساحتها ثلاثة عشر ألفاً من الكيلومترات المربعة . سيتبخر جزء من مياه البحيرة فيلطف جو المنطقة ويسقط على أرض الصحراء من جديد على هيئة أمطار فيخصبها ويتيح زراعتها بالمراعى والمحاصيل . كما تقام

توربينات تستغل طاقة سقوط المياه لتوليد مليارات أخرى من الكيلوات ، وتقام مصانع تقطير المياه المالحة لزراعة أراض أخرى جديدة ، وتنقى الأملاح — وهى كما رأينا ثروة عظيمة للبلاد .

سوف يحقق هذا المشروع تعمير المنطقة الواقعة بين الدلتا ومنخفض القطارة ، واستصلاح ملايين الأفدنة الأخرى ، عدا المناطق الجديدة التى سيحولها السد العالى من رمال صفراء إلى تربة خصبة . وسنحصل على الكهربا للإضاءة والصناعات الجديدة بثمن بخس .

وفى مؤتمر جنيف لاستغلال الطاقة اقترح الدكتور « باتلى » مندوب بورما إقامة سد عند مضيق باب المندب الذى يفصل المحيط الهندى عن البحر الأحمر وبذلك ينخفض مستوى سطح البحر لكثرة تبخر مائه بالحرارة الشديدة ؛ بمعدل ثلاثة أمتار ونصف فى السنة ، وبذلك يمكن الحصول عند مضيق باب المندب ، وعند مدخل قناة السويس ، على أكثر من تسعين ألف مليون كيلوات من الكهربا فى السنة . وقد ذكرت الصحف منذ أسابيع قليلة أن لجنة من هيئة اليونسكو من بين أعضائها خبراء مصريون سافرت لدراسة هذا المشروع والتأكد من فوائده العملية .

إن الكرة الآن قد تلقفتها أيدى الشرق العربى : خزانات وسدود ومئات المليارات من الكيلوات من الكهربا سوف تتدفق

من كل النواحى ، وطاقات أخرى من الشمس والرياح ، وثروات جديدة من الفحم والبترول يكشفها العلماء والمهندسون ، وأراض خصبة ، وثروات معدنية . . . وحياة جديدة تغزو الصحراء فتغير وجه العالم ، بل وجه التاريخ .

إنها لوحة رائعة بدأ تصويرها منذ أعوام قلائل . . . تبدو فى جزء منها أراضى الوادى الجديد — . . . كيف كان . . . تتخلل أراضيه المقفرة واحات صغيرة كانت فى طريقها إلى الزوال ، إذ كثيراً ما يشاهد أهلها وهم يهاجرون إلى مدن وادى النيل يعملون ، ثم يرسلون بعد ذلك فى طلب أسراتهم لتعيش معهم ؛ وإذا بروح جديدة تبعث فى قلب الصحراء حياة قوية جديدة . ليس فى الواحات فقط بل فى تربة كان يبدو سطحها لا حياة فيه ، وإذا بالماء يفيض من تحته . لم يكن فى حاجة إلى أكثر من الإرادة القوية والتصميم على الحياة والبقاء ، فظهرت تباشير الحياة ، وازدهرت ، وأخذت تنمو وتنتشر ؛ وسوف يأتى يوم يتصل الواديان بعضهما ببعض . . .

وترى فى اللوحة نفسها آلات جديدة جبارة تزحف على الأرض وتقلب ثراها ، وأخرى تدق الآبار الجوفية لتخرج الماء ، وسيارات كبيرة تنتقل فى طرق معبدة حديثاً كأنها من فعل ساحر . والمعجزة والسحر هنا هو التصميم على بعث الحياة وبعث القوة والعمل لخير الوطن مئات الأعوام إلى الأمام .

واللوحة لم ينته رسمها بعد . ففى كل يوم تضاف إليها

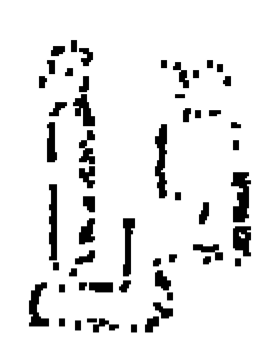
خطوط جديدة للخير والبركة ... منازل جديدة وزراعات جديدة وصناعات زراعية ومعدنية جديدة . . .

هذه هى اللوحة الخالدة للثورة العربية العلمية والصناعية والزراعية والاقتصادية والاجتماعية . .

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف
سنة ١٩٦٣

سبتمبر ١٩٦٣

الثمن ٣٠ مليماً



عادل [illegible] العمراني

ابن حمديس الصقلي

دار المعارف

ابن حمديس الصقلي

على مصطفى المصراتى

ابن حمديس الصقلى

اقرأ ٢٥٠

دار المعارف

اقرأ ٢٥٠ – أكتوبر ١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

حياة ابن حمديس

ينتمى ابن حمديس[1] إلى عروبة خالصة إذ يتصل نسبه إلى قبيلة « أزد » ووطنه سرقوسة من أشهر مدن جزيرة صقلية .

كان مولد عبد الجبار بن حمديس حوالى عام ٤٤٥ هـ — ١٠٥٣ م ؛ وظل بصقلية حتى رحل منها إلى الأندلس حوالى عام ٤٧١ هـ — ١٠٧٨ م — وكان الشاعر الشاب عندما هاجر إلى مغانى الأندلس ، يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً أى أنه كان فى عنفوان الشباب . وكانت بلدته « سرقوسة » لم تسقط فى يد الروم . على عكس عاصمة الجزيرة « بلرم » فكانت قد وقعت تحت قبضتهم .

ولا بد أن الشاب المعتز بوطنه المتحمس للدفاع عنه قد أسهم مع شباب بلده فى الدفاع عن الجزيرة التى أخذت تقتلعها أعاصير الغزاة .

وشاهد الشاب الشاعر بضع معارك فى البر والبحر أمدته بلهب من الحماسة ، وزودته هذه المشاهد بذخيرة من الوصف .

وقد كان لهذا أثر فى نفسه وتصويره الشاعرى .

وشاب مثله من أسرة متوسطة الحال على جانب من الثقافة

---

(١) هو أبو بكر عبد الجبار بن أبى بكر محمد بن حمديس .

والتفتح الشعرى لا شك أنه شاهد فى مسارب الجزيرة ودروبها ألواناً من حياة الليل هناك فى ملاهى الشاطئ .

وقد كانت « سرقوسة » و « بلرم » مترعة بآيات الجمال ، سواء جمال الطبيعة فى روابيها وحدائقها ، أم جمال الحسان من بنات الروم ذوات الشعور المسترسلة ، والنظرات الحالمة ، وجمال العربيات ذوات العيون السود والقامة الهيفاء ، وكانت عناقيد صقلية ذات شراب يقبل عليه أهل اللهو البرىء ، وغير البرىء .

وقد أثرت هذه المشاهد والصور فى وصف ابن حمديس وتلوين قصائده ، وكانت تلك الحقبة من حياته — برغم قصرها — فى عمر الزمن من الوقدات التى ألهمت شاعريته . ولقد كان لذلك الصدى المتجاوب فى نفسية الشاب المرهف الإحساس .

وهناك الشىء الذى كان له الأثر العميق .

صدمة الكارثة المفجعة بوقوع جزيرة صقلية فى قبضة الروم .

وتنازعت فى أعماق نفسه أحاسيس الجمال ، وأحاسيس الصدمة . . . جمال الجزيرة ، وذكريات الأمسيات الحالمة التى نعم بها الشاعر فى الشاطئ الصقلى .

والأثر الأول أكسبه بكاء وحناناً فلم تفارقه مرارة الذكريات وأطياف أحلامها طوال عمره .

والأثر الثانى أكسبه وأمده بدقة الإحساس وروعة الوصف .
فكانت لديه شاعرية ثرية متدفقة .
وعند ما توجه ابن حمديس إلى الأندلس ، فى عهود ملوك الطوائف ، كان يحمل معه بضاعة الشعر والألم ، فقصد إلى مجالس الأمراء يدق أبوابهم ويعرض بضاعة المديح التى كانت رائجة لديهم ، وأخذ يجرب حظه .
وقد مدح بعضاً من الأمراء والحكام قبل أن يحط رحاله لدى باب « المعتمد بن عباد » ولكن كان لقاء ابن حمديس مع المعتمد نقلة فى حياته ، ووجد فيه الصديق الوفى ، والسمير المؤنس .
ولقى المعتمد فى ابن حمديس الشاعر الرقيق ، ولمس فيه روح الفنان .
وكان المعتمد بن عباد فى إشبيلية .
وقصة هذا اللقاء بين الشاعر المهاجر وبين الشاعر الأمير لا تخلو من إثارة وطرافة ، فهو لقاء فيه امتحان ثم تقدير ووفاء .
ولندع عبد الجبار بن حمديس يروى قصة هذا اللقاء .
« أقمت بإشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إلىّ ، ولا يعبأ بى حتى قنطت لخيبتى مع فرط تعبى ، وهممت بالنكوص على عقبى .
فإنى لكذلك ليلة من الليالى فى منزلى ، إذا بغلام معه شمعة ومركوب فقال لى :

أجب السلطان ، فركبت من فورى ، ودخلت عليه ، فأجلسنى على مرتبة (فنك)[1] وقال لى :

افتح الطاق الذى يليك ، ففتحته فإذا بكوة زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه وواقدة يفتحها تارة ويسدها أخرى ، ثم دام سد إحداها وفتح الآخر ، فحين تأملتها قال أجز :

انظرهما فى الظلام قد نجما .

فقلت : كما رنا فى الدجنة الأسد .

فقال : يفتح عينيه ثم يطبقهما .

فقلت : فعل امرئ فى بجفونه رمد .

فقال : فابتزه الدهر نور واحدة .

فقلت : وهل نجا من صروفه أحد .

فاستحسن ذلك وأمر لى بجائزة سنية ، وألزمنى خدمته » .

هكذا يروى الشاعر قصة اللقاء الأول ، ومن هذا اللقاء ، وبعد هذا الاختبار استمرت المجالسات والمسامرات فى مجلس حاكم « إشبيلية » فترة غير قصيرة .

مدة لا تقل عن ثلاثة عشر عاماً .

وقد تدفقت شاعرية — ابن حمديس — فى الأندلس ، ونظم المطولات ودبج قصائد المديح وفن الوصف فى صاحبه المعتمد ولياليه وقصوره .

---

(١) مرتبة (فنك) أى من جلد فنك — دابة فروتها من أجود أنواع الفراء كالقطيفة .

وكانت فى هذه الحقبة ليال مزدهرة ، وأمسيات طروبة زودت ابن حمديس بكثير من روائع الإلهام ولكن مع هذا الإكرام والجو الشاعرى ورغادة العيش فى ربوع الأندلس لم يستطع الشاعر ابن حمديس أن ينسى لواعج الحنين ، ولم تبارح مخيلته بواعث الأنين .

فهو دوماً يرنو إلى شاطئ صقلية .

وفى كل فينة يذكر موطنه ومراح صباه ومراتع لهوه ويحلم بالعودة .

وما زالت الآمال تتجدد ، ويمنى نفسه بالأوبة إلى صقلية ، وفى كل مناسبة يشيد ببلاده وهو فى هذه الحقبة يشير إلى انتصارات « ابن عباد » هناك فى شواطئ صقلية .

فقد كانت « لابن عباد » هذا حملات بحرية يخوضها ضد أساطيل الروم .

وتجد لابن حمديس الشاعر المهاجر مقطوعات غير يسيرة فى وصف وتسجيل هذه الحملات والمعارك البحرية وغير البحرية التى كانت تقع على أرض بلاده .

و « ابن عباد » صاحب الحملات فى صقلية غير « المعتمد ابن عباد » صاحبه فى إشبيلية .

وفى أوصاف الشاعر ومقطوعاته تراه يتطرق إلى تصوير وطنه السليب والشعب الجريح .

وأحياناً ينغمس فى حياة اللهو والمتعة ويعيش مع المترفين

ويشاهد حفلات الرقص التى امتلأت بها قصور الأندلس وأشبيلية وقرطبة .

إنه شاعر وجد مراتع صبابة .

ولكنه أحياناً يفيق على جرحه العميق فما زالت بلده « سرقوسة» التى خرج منها تجاهد فكان يتسقط الأنباء ، وتبعث انتصارات قومه فى أعماق نفسه روح الأمل ونشوته ثم تلهب وقدته الشاعرية وكلما سمع بموقعة أو ملحمة تحركت شياطين شعره أو رقصت عرائس أحلامه ، ثم تثور لواعج نفسه .

وكل شىء من حوادث صقلية يلهبه ويجعل أوبة الشاعر المغترب أمراً فى حيز الإمكان .

والفترة التى عاشها « ابن حمديس » فى الأندلس هى من الفترات الباسمة اليانعة من ناحية والقلقة الحائرة من عدة أنحاء .

فهو يجد فى قصر « ابن عباد » وصحبته الأمانى التى يبحث عنها الشعراء فيضحك ما وسعه الضحك ، ويطرب ما راق له الطرب ، ويأخذ من أطاييب الحياة ولكنه — مع هذا — تراه ممزق النفس قلق الحس إذا ما خلا إلى نفسه وتدفقت ذكرياته .

يشعر بالاغتراب وتطول به الذكريات ويحلق ويمضى به التحليق وتصل إلى يده رسالة من صقلية تحمل فى طياتها وسطورها نبأ هزه — لقد توفى والده — وكان قد سبق أن كتب إليه هذا الوالد الحنون رسالة أبوية يوصى فيها ابنه الشاعر المهاجر بالبر والتقوى .

١١

وتجمعت لدى الشاعر أحاسيس من فقد عزيز لديه ، وعواطف الغريب ، ومن يكون أعز من الوالد الحنون والشفوق الناصح ؟ !

أتانى بدار النوى نعيه
فيا روعة السمع بالداهية
فحمر ما ابيض من عبرتى
وبيض لمى الداجية
بدار اغتراب كأن الحياة
لذكر الغريب بها ناسية
تمثلت فى خلدى شخصه
وقربت تربته القاصية
ونحت كثكلى على ماجد
ولا مسعد لى سوى القافية
وما أنس لا أنس يوم الفراق
وأسرار أعيننا فاشية
ورحت إلى غربة مرة
وراح إلى غربة ساجية
مضى وهو منى أخو عسرة
تماذج أنفاسه الراقية

* * *

ولم يجد الشاعر المغترب غير القافية يصب فيها اوعته ويضمنها أشجانه، إنها — بحق — مسعفته، إنها مسعدته . . . وأى سعادة لدى الفنان !

ونلحظ فى القصيدة التى نظمها إثر سماعه نعى والده أنه لم يبك فى القصيدة أباه بمقدار ما بكى نفسه ، وما كان تأثره لحالته بأقل من تأثره لوفاة والده .

وقد زاد تأثره أن الولد المهاجر لم ير أباه قبل رقدته الأخيرة ، ولم يودعه الوداع الأخير .

وفى هذا الحزن الجارف تتمثل له تلك الصورة العاطفية، ويذكر يوم الفراق ، وساعة التوديع ، وحرقة الوالد عند ما كان يودعه ، وود ألا يودعه ، كأنما الشاعر كان يحس من يومئذ أنه الوداع الأخير ويحاول « ابن حمديس » أن يزيح الألم عن صدره ، ويبتعد عن أشباح الأحلام ومواكب الذكريات فينغمس فى ليالى إشبيلية الساهرة لينسى — أو على الأقل — يتناسى ويخفف من حدة آلام الاغتراب ويشير فى كثير من مقاطعه الشعرية أن صلته بالمعتمد بن عباد قوية وأن غربته والابتعاد عن الأهل والأحبة لا يحول بين الوفاء والإخلاص لصديقه حاكم إشبيلية :

وكم حوى الترب دونى من ذوى رحم

وما مقلت لبعــدى منهم أحــدا

ولم يسر بى من مثواك موت أبى
وقد يقلقـــل موت الوالد الولدا

* * *

ويبدو أن الشاعر « ابن حمديس » نظم عديداً من القصائد فى مرحلة شبابه الأولى وقبل أن يغادر صقلية .

ولكن شعر « ابن حمديس » تفجر بقوة ، وانساب فى رقة وطلاوة ، وتوهج فى لهب وحرارة بعد هجرته وغربته .

ويلاحظ لدى الدارسين والنقاد أن ديوان الشاعر الصقلى قد حوى أكثر المقطوعات التى كان نظمها فى أثناء إقامته بالأندلس وتونس .

ومن ناحية أخرى للمتأمل فى أطواره الشاعرية ومدى إقبال الناس على قصائده وتقويمهم لها أن « ابن حمديس » قبل هجرته لم تسبقه شهرة ولم يتناقل الناس شعره خارج صقلية .

لم تسبق « ابن حمديس » شهرة قبل رحيله ، كما كانت تسبق كثيراً من شعراء ذلك العصر وعلمائه وأدبائه .

فالشعراء الذين قصدوا المغرب أو المشرق كانت لهم فى الأوساط العلمية ومسارح الأدب سمعة أو آثار علمية ساعدتهم على تعريفهم للناس والإقبال عليهم .

حتى إننا نرى « المعتمد بن عباد » يستدعى إلى مجلسه بإشبيلية أديباً كالحصرى وشاعراً كابن الفرات ؛ فقد بعث « المعتمد » إلى الشاعر « أبى العرب بن الفرات الصقلى » بخمسمائة دينار وأمره أن يتجهز إليه بها . فتوجه إليه : وبعث مثلها إلى « ابن الحسن الحصرى » وهو بالقيروان فكتب إليه أبو العرب الصقلى :

لا تعجبن لرأسى كيف شاب أسى
واعجب لأسود عينى كيف لم يشب
البحر للروم لا تجرى السفين به
إلا على غـــرر والبر للعرب

وكتب إليه الحصرى :

أمرتنى بركوب البحـــر أقطعـــه
غيرى ـــ لك الخير ـــ فاخصصه بذا الداء
ما أنت نوح فتنجينى سفينتـــه
ولا المسيح أنا أمشى على الماء

* * *

وكما يستدل من جواب الشاعرين على أن أساطيل الروم كانت تهدد البحر وأن صقلية محصورة بالسفن لقوات الأعداء ، إلا أنها تدل أيضاً على أن سمعة هذين الأديبين كانت سبباً لأن

يستدعيهما « المعتمد » إلى قصره بإشبيلية .

ولكن « عبد الجبار بن حمديس » الشاب المغترب تدل قصة اللقاء الأول مع « المعتمد بن عباد » أنه كان لا يتمتع بشهرة أو سمعة قبل ذلك ، فهو يدعوه ينتظر ، وهو أيضاً بعد هذا يمتحنه وهو أيضاً يقبل عليه بعد هذا ، فيجد « المعتمد » لدى « ابن حمديس » الشعر الدافئ والشعور الصادق .

وبقى فى إشبيلية فى ظل المعتمد وبحبوحة نعمائه حتى تغلب « يوسف بن تاشفين » على المعتمد ، وقوض سلطانه ، وساق الشاعر الملك أسيراً .

وظل « ابن حمديس » وفياً لصاحبه ملازماً له ، أو متردداً عليه فى منفاه بمدينة « أغمات » وقد تفتحت شاعريته وأخذ يطارح الأدباء ، ويناقش الشعراء وله حكايات وأسمار فيها طرافة وبها دعابات ، فمن حكايات مجالس الشعر وأسمار الأدب ما حكاه « عبد الجبار بن حمديس » كما ثبت فى ديوانه . قال عبد الجبار : « صنع لنا الشاعر عبد الجليل بن وهبون المرسى بإشبيلية نزاهة فى الوادى شهدها جماعة من الشعراء والأدباء والمغنين ، فأقمنا بها من بكرة إلى العشى ، وهبت ريح لطيفة النسيم صنعت فى الماء حبكاً جميلا . فقلت عند ذلك لجماعة أجيزوا :

حاكت الريح من الموج زرد

فأجاز هذا القسم كل إنسان بما سنح خاطره ، وكان فى القوم الشاعر أبو تمام غالب بن رباح الغالب على اسمه الحجام، فلما سمع ما أتى به كل واحد منهم قال :

لم يصنعوا شيئاً . ثم التفت إلى وقال : كيف قلت أنت يا أبا محمد ؟ قلت :

حاكت الريح من الموج زرد

فقال مجيزاً :

أى درع لقتـال لو جمد

فلم نحفظ لأحد منهم مع هذا شيئاً .

ومن أهل الأندلس من يثبت هذا البيت "لأبى القاسم بن عباد المعتمد" ولم نسمع به وقد وقع لى مثل هذا فى صفة زراقة الماء وهو :

ولربما سلت لنـا من مائهـا
سيفاً وكان على النواظر مُغمدا
طبعت لجيـنا وذابت صفحة
منـه ولو جمدت لكان مهندا

وأبو تمام كان يغير علىّ فى المعانى وأنتزعها منه وينتزعها منى بوجه من الوجوه التى تسلم المعنى لقائله وسيأتى ذلك فى موضعه . » اهـ .

من حديث « ابن حمديس » هذا نلحظ ثلاث نقاط تلقى ضوءاً على بعض الجوانب فى الحياة الأدبية :

● الأسمار والمباحثات الشعرية التى كانت تدور بين الأدباء .

● الأبيات المنسوبة للمعتمد فى قصة الجارية على شاطئ النهر ينفيها « ابن حمديس » .

● إغارة الشعراء فى هاتيك المجالات على تصوير المعانى والتنافس فى ذلك ، حتى إننا نجد صاحب كتاب « الحديقة » يسوق شيئاً من المآخذ على الشاعر ابن حمديس وسرقاته التى زاد بها على معنى الشعر المسروق من الشعراء فى العصر الجاهلى والعصر الإسلامى .

وأورد صاحب « الخريدة » كثيراً من شعر عبد الجبار بن حمديس ، ونحن هنا لا نتفق مع النقاد الأقدمين فى قضية الاتهام بالسرقة بل قد يكون المعنى مشاعاً بين الجميع أو من قبيل الوصف المشترك .

وعلى كل حال لم يسلم ابن حمديس من لواذع النقد بأسلوب الأقدمين .

ولكن مع هذا فإن شاعرنا أشار إليه صاحب كتاب « الحديقة » بشهادة فيها عدل وإنصاف فقد قال عن ابن حمديس : « جيد السبك حسن المأخذ » .

ولقد عرف الشاعر بروعة التصوير والتشبيه وقد لمس فيه الأدباء من قديم هذه الناحية ، فهذا « ابن بسام » يقول فى كتابه « الذخيرة » : — عند ما أراد وصف شاعرية « ابن حمديس » — : « هو شاعر ماهر يقرطس أغراض المعانى البديعة ، ويعبر عنها بالألفاظ النفيسة الرفيعة ويتصرف فى التشبيه المصيب : ويغوص فى بحر الكلام على درر المعنى الغريب» .

نفسية ابن حمديس

وليست أمامنا لوحة ترسم لنا ملامح « ابن حمديس » .

ولكن من أشعاره ، ومن اتجاهاته العقائدية والنفسية توضح لنا صورة تبرز فيها الملامح فى وضوح وإبانة .

وتظهر طباعه من خلال شعره وتعابيره التى تعبر عن نفسه . ويمكن لنا أن نستشف صورة له ونتعرف على طباعه وميوله ومدارج سلوكه .

فهو من ناحية الإطار العام إنسان مرهف الأحاسيس ، شاعر عاطفى دقيق الحس ، ذكى الملاحظة لماح الطرف . به ميل إلى الجد أكثر منه ميلا إلى العبث واللهو .

بل قد تلمس فى نفسيته أحياناً انقباضاً وامتعاضاً قد يبلغ به إلى حافة التشاؤم ، أو يكاد يتردى فى هوة التشاؤم ، وهو — مع هذا — شاعر يتصل بالمجتمع فلم يكن عزولياً بل له فى المحيط الذى عاش فيه أصدقاء وجلساء يطارحهم الحديث ويراسل البعيد منهم ، وقد تدور فى المجالس التى يتردد عليها ألوان من الدعابات والفكاهات ، فهو حلو المعشر وفى للصداقة

ولوازم الصداقة لا يتخلى عن أصدقائه فى الأزمات والأحداث .
ومن جانب العقيدة فهو مؤمن قوى الإيمان يتمسك بأهداب الدين وشعائره ، ليس فيه تحلل ولا تفسخ ولا زيغ . بل قد يلجأ إلى الموعظة والدعوة إلى الفضيلة فى بعض قصائده .

وأكثر ظاهرة تلمسها فى شعر « عبد الجبار بن حمديس » وتبدو واضحة فى تصويره الفنى ، تلك التى تملكت عليه أقطار نفسه : حب الوطن إلى حد العشق والوله ، والتغنى بصقلية ولياليها وأمجاد بنى قومه ، حتى أصبح جديراً بلقب شاعر صقلية .

وعند ما تسمع « ابن حمديس » يعزف على هذا الوتر أو يرسم هذه الصورة :

أصف الراح ولا أشربها
وهى بالشدو على الشرب تدور
كالذى يأمر بالكرّ ولا
يصطلى نار الوغى حيث تدور

فهو بهذا قد يعبر عن حالات فى أوج عمره عزف فيها عن الشراب ، وهفا إلى الاستماع إلى ألحان الفن ، ولكنه لم ينقطع عن مسايرة الناس والاتصال بالحياة الاجتماعية ، وهى من

الصور التى يرسمها لنا فى شعره ويوضح بعضاً من سلوكه ونظرته للحياة .

وهو عف النفس ، عف اللسان ، لا يجنح للهجو ، وإن كانت لديه مقدرة فنية على الكلام وإجادة التصوير إلا أنه لم يستهلك هذا فى ألوان الشتائم والهجو ، فابن حمديس يقول :

إنى امرؤ لا ترى لسانى
منظماً ما حييت هجوا
كم شاتم لى عفوت عنه
مصمما فى اللسان لهوا

* * *

يعف عن لهجة السباب وإن كان له مقدرة على صوغ المقدمات ، ويستطيع أن يسلط من لسانه شواظاً لاذعة، ولكن ليس هذا من طبعه وخلقه . لا يرتضى الهجو خطة ... ألم يقل :

وما أنا ممن يرتضى الهجو خطة
على أن بعض الناس أصبح يهجونى
أسالم من ألفيت قدرى كقدره
وأعظم من فوقى وأحقر من دونى

٢٢

ولو شئت يوماً لانتصرت بمقول
يحيل على الأعراض حد السكاكين

ولكن ما معنى أن يحقر الشاعر من دونه ! هل هذا من خلق الفضلاء ؟ !

لعله يحقر من دونه فى الخلق والنفس لا فى المرتبة والمال .

أسلوب ومنهج ابن حمديس

وقصائد ابن حمديس تنعكس فيها صورة من نفسيته العطوفة .

وفى اختياره لسبك القصيدة وموادها كان الشاعر يتخير اللفظ الواضح ، والجملة السهلة من غير تكلف ولا إعنات .

فابن حمديس — فى قصائده — بعيد عن الألفاظ المستهجنة أو الكلمات النابية حتى فى وصف الليالى المعربدة أو المجالس الساهرة أو فى أسلوب الفكاهة والمداعبات .

ولعل التبرم الذى تلمسه وتحس به فى بعض المقطوعات والقصائد ، كان ذلك من حتمية التقدم فى العمر أو هو نتيجة من تكاثر الأزمات عليه ومعاكسة الظروف له . أو هو بصورة عامة من الأثر العميق للصدمة من البعاد عن الوطن ، وضياع أمجاد صقلية وسقوطها فى أيدى الروم .

فنرى ابن حمديس فى الأوتار الحزينة يعزف ألحان المآسى ويشتكى . حتى لقد تبلغ به حدة الثورة على الزمن وأهله ومعاملة الناس وأخلاقهم حالة يخيل إليك أن ابن حمديس قد غدا شيخاً واعظاً .

أو كأنه ذلك الناسك المتبتل الذى يحذر من أنياب الدنيا ، وينفر من أطايبها ويخوف الناس من عواقبها .

ولكن فى الكثير نراه صافى النفس مشرق الجانب ، ويقبل على الاغتراف من مناهل الأمل واقتطاف لذائذ الحياة ، حتى لا تكاد تعثر على الخيط الذى يربط بين الحالتين ، والإطار الذى يجمع بين الصفتين .

حالة التبرم والسخط والنفور .

وحالة الاطمئنان والرضا والبهجة .

أو صفة الشاعر الواعظ ، وصفة الشاعر الطرب الجذلان .

وليس هذا من التناقض — على ما يبدو — أو هو من قبيل ازدواج الشخصية كما يقول بعض المحللين من دارسى علم النفس .

بل كانت قصائد الشاعر تعبيراً عن حالات وتصويراً لانفعالات تعترى الشاعر ، فلكل حالة لبوسها ولكل انفعال أثره وصداه ، ثم لون تصويره وأصباغ حواشيه وطريقة إبرازه الفنى ، وهى حياة لم تكن على وتيرة واحدة .

ولن تكون حياة إنسان عاش فوق السبعين عاماً على شط الحياة لن تكون بطبيعة الأحوال والظروف صفاء كلها ولا كدراً كلها ولا طرباً متواصلا ونغماً متكاملا . بل هى من صنوف الأزاهير ذات العبق الفواح والشوك الدامى . وعند ما تصفو له

الأحوال وتتفتح شاعريته على الكون ، ويتشرب ما فى الطبيعة من آيات الجمال والإبداع ، نراه يتناول بالوصف النهر وخريره ، والزهر وأريجه ، والصيد وملاعبه ، والخيل ومواكبها : وما فى الطبيعة من قمر وشمس وليل ونهار ونجوم ، ويصف قصور الطبقة المترفة وما فيها من زخارف ذات دقة وزخرفة وتصاوير ونافورات وفسيفساء وتماثيل ويصف مجالس الشراب والكؤوس الدائرة والساقيات ذوات الجمال الفتان ، والراقصات مع الدف وعلى إيقاع نغمات الموسيقى .

بل هو يلتفت إلى أمسيات الأمس البعيد ليلون الصورة الشعرية بوصف راقصات الروم وراقصات العرب وأسمار الأندلس وليالى شاطئ صقلية وصاحبة الحانة .

وابن حمديس فنان أصيل ، فى نفسه خميرة خلاقة وفى ذكرياته ومشاهداته ذخيرة استطاع عن طريقها أن يمد « ابن حمديس » الأدب العربى بصور فنية من الوصف الدقيق .

وتناولت أوصافه آلات الحرب والمعارك ، فكأنه الجندى الذى خاض المعركة ، ولا عجب ، فقد عاش فى زمن معارك وحروب ودارت على شاطئ صقلية موطنه عديداً من المناورات والمعارك ووصف الأساطيل البحرية ، ورثى وبكى ، وحن وشكى .

وتناولت شاعريته الموضوعات التى كان يطرقها شعراء

عصره ، وشعراء ما قبل عصره ، إلا أنه كان مهذب اللسان بزغم أنه خاصم وحورب من جانب الذين تألبوا عليه ولكنه لم يذكر مثالب الناس ، وهل يخلو أديب شاعر من خصوم أو من منافسين ؟ ! . . .

وهنا نثبت نماذج من أوصاف ابن حمديس .

فقد وصف الكأس فى ليلة مرحة كان الشاعر قد نسى همومه ودعاب الأحلام ، وها هو يصف النظرة من مقلتيها ، ورشفة الخمر من يد ساقية :

هات كأس الراح أو خذها إليك
ينزل اللهــو بها بين يديك
ريقــة العيش بها فاخلع على
شــفتيها كل حين شــفتيك
وأطع فيها نديميك بمــا
حكما واعص عليهــا عاذليك
وإذا ســقيت منهــا شــفقا
طلعت حمــرته فى وجنتيــك
وتنــاول رشــفة من روضــة
طلعت كالشمس بالنجم عليك
تتغــنى بنســيب قلتــه
فهــواها راجع منــك إليك

فاوضت في الوصـــل عيني عينها
فازدهت عجبـــاً وقالت مالديك ! ؟
أعليك أنت ! ماذا تشـــتهى
قلت قطفي بيـــدى رمانتيك
فانثنت كبراً وقالت ويلتـــا
أو هـــذا كله يطلب ويك !
أنا شـــمس وبعيـــد فلكى
وضـــيائى نافر من راحتيـــك
لو بدا أمرك لى من قبل ذا
ما رأت ناظرتى ناظرتيك

وتلمس أو تسمع فى هذا الحوار الدائر بين ذات الجمال وصاحب الشاعرية الإحساس الفياض قد انساب فى مجلس صاحبة الوجه الصبوح والكأس المذاب والثدى الذى يشبه الرمان يود قطفه ، وهذه النظرة المعبرة — فاوضت فى الوصل عينى عينها —

شطرة معبرة أو قل نظرة معبرة .

وصور الشاعر السؤال المحرج والجواب الذى كان أشد إحراجاً .

صد ، ومن طبع الغانيات الصدود .

هى صورة طريفة فى أسلوب سهل قريب إلى أسلوب الغناء..

وصف الشاعر « مزهر » آلة موسيقية .

ويصف العود ، هذه الحدبة الخشبية التى تنبعث منها حلو الأنغام من أصابع عازف تعبث أصابعه على أوتارها ، وفى إحدى المجالس التى طرب فيها ابن حمديس يصور العود والشبابة ذات الثقوب التى ينفخ فيها العازف ، ويصف كأس الخمر وتلوينه فى مجلس طرب :

فى حجره أجوف له عنق نيطت بظهر تخاله حدبه
يمد كفا إليـــه ضاربه أعناق أحزاننا إذا ضربه
تحسب لفظًا بأختها نغما ويودع المستمعين ما حسبه
قلت ألا فانظروا إلى عجب جاء بسحر فأنطق الخشبه
وقهوة فى الزجاج تحسبهـــا شعلة برق فى الغيم ملتهبـــه
كأنما الدهر من تقادمها أودع فى طول عمرها حقبه
ماء عقيق إذا ارتدى زبدا حسبت درًّا بجوفها حببه
يسكر من شمه بســـورته فكيف بالمنتشى إذا شـــربه
وذى حنين تحن أنفسنا إليه منقـــادة ومنجـــذبه
يفشيه ذو حكمة أنامله منغمـــات بزمرة ثقبـــه
يرسل من منخريه من فمه ريحاً لها نغمة من القصبه
كأن ألحانه الفصيحة من صرير باب الجنان مكتسبه

ومن أوصاف الشاعر فى لحظات نشوته وسويعات هنائه ، ويبدو أن الساقية كانت ذات وشاح أظهر منها روعة الجمال :

قم هاتها من كف ذات الوشاح
فقـــد نعى الليـــل بشير الصباح
باكر إلى اللذات واركب لهـــا
سوابق الليل ذوات المـــراح
من قبل أن ترشف شمس الضحى
ريق الغـــوادى من ثغور الأقاح

وهذا البيت الذى يكفى عن قصيدة يخاطب إحدى الغادات :

لا تنكرى أنك حـــورية روائح الجنـــة نمت عليك

ومن أوصاف الغزل من الأبيات المصورة :

وزادت على كحل الجفون تكحلا
ويسم نصـــل السهم وهو قتول

* * *

وقد تكون المبالغة من أدوات الوصف والتصوير وقد عرف شعراء العرب بالمبالغة إلى حد قد يخرج عن دائرة الواقع ولكن ابن حمديس كان يصف فى تصاويره — الواقع — وينقل الرسوم ، ولكن بحس وإثارة وقد يبالغ فى الوصف كما نرى من هذا البيت الذى زعم أن التكحل بالقصر يعيد الأعمى مبصراً فيقول :

قصر لو انك قـــد كحلت بنوره
أعمى لعـــاد إلى المقـــام بصيرا

ألا يذكرك هذا من المبالغة بما كان يلجأ إليه حتّى كبار الشعراء كقول القائل :

وأخفت أهل الشرك حتّى إنه
لتخافك النطف التى لم تخلق

وابن حمديس يعدّ من شعراء العربية الذين رزقوا موهبة فائقة وخصوبة ممتعة فى الوصف؛ فهو كما نلمس فى قصائده، رسام دقيق فى تعابيره ، ومصور يجسّم الأشياء ويلونها ولكن ينفخ فيها من شاعريته فلا تكون رسوماً جامدة ولا أصباغاً باهتة .

وهو يلجأ إلى أدوات التشبيه ، والتمثيل ، والاستعارة ، والمجاز ، ويمزج لقصيدته من هنا وهناك ألواناً وأصباغاً ويصهرها فى « بوتقته » اللاهبة ، ويصبغ عليها من وهج إحساسه ليصوغ لنا بالشعر أو ينحت بالشعر لوحة مجسمة ، وتمثالا فيه حس الحركة وحيوية الروح؛ فهو من طراز شعراء الوصف الذين أبدعوا لا من قبل المحسنات البديعية التى جنت على الأدب الشعرى ثم تطاولت إلى الأدب النثرى .

هذه المحسنات التى جنت على أدب التعبير حتّى أفقدته روعة الأداء الفنى . . . لا . . . قد يلجأ ابن حمديس إلى شيء من هذه المحنطات أو المحسنات البديعية ، ولكن ليس هذا

بشغله الشاغل ، بل هو ممتع فى وصف الأشياء التى تناولها وأحس بها .

وصف الأشياء المعنوية — الخلجات — أعماق الأحاسيس — فى المعانى النفسية ، وفى المرئيات ودنيا المحسوسات ، فتراه وتسمعه فى قصيدة يصف النغم الموسيقى فكأنك تسمع نغمة ، وينقلك على بعد الزمان والمكان إلى تلك الجلسة الأندلسية ويصف العازف ، وكأن العازف أمامك ، وكأن اللحن يصب فى أذنك ويتبلور فى حسك .

وهو من ناحية أخرى عند ما يتصدى لوصف معركة فكأنك تسمع جلبة الخيل وتشهد لمعان السيوف ووثوب الفرسان واصطراع الجند أو ترى لهب القذائف النفطية من الأساطيل المتعاركة على شواطئ صقلية .

ويصف القصر والبركة والتماثيل وتدفق المياه ، والشمعة وذوبانها ، وإرسال الضوء من فتيلها والساقية التى تدور بالكأس فيبدع فى كل هذه الصور والمحسات والأجواء التى شاهدها فى محيطه بصقلية أو بالأندلس أو بتونس .

وتدل هذه الخصوبة فى فن الوصف على الإحساس الفوار والمشاعر الملتهبة .

وقد تكون الأشياء التى تناولها ابن حمديس بالوصف وضمنها قصائده سبق أو لحق أن تناولها الشعراء بالوصف ، ولكن

الذى يبعث على الإمتاع ويدفع إلى الإعجاب فى شعر ابن حمديس أصالة التعبير والنظرة الفاحصة كأنها عين لاقطة .

وقد يكون الشيء الذى تناولته القصيدة معنى مطروقاً أو مجرد حادثة عابرة ، ولكن الذى يأخذ بمجامع الحس هو جمال التعبير وشاعرية الإحساس ولمس أوتار النفس وتحريك المكامن .

فالرسام قد يرسم بألوانه وأصباغه أشياء عادية أو أموراً متداولة نجدها فى الخارج ، ولكن براعة التصوير تكمن فى الإثارة وطريقة العرض ودقة التعبير عن الأحاسيس التى تدل عليها هذه الظواهر أو قل الإبداع فى تحريك الوتر النفسى فى « الروح » واللمسة الفنية ، ومن هنا يظهر الفارق بين رسام ورسام وبين شاعر وشاعر .

إن جلال الفن يصبغ على « الأشياء » والموضوعات المتناولة ما يجعله مقبولا جميلا ومترجماً عن أحاسيس باطنية ومشاعر عميقة فتشعر نحو القصيدة أو التحفة الفنية بشيء من الروعة والدهشة أو الرهبة والإعجاب .

وهنا يكون مبعث الإثارة .

وقد تناول الشاعر ابن حمديس — فى المجال الوصفى — كما سبق أن أشرنا — أشياء حسية ، وأشياء معنوية ، وأشياء فى بؤرة الشعور ، وما وراء الحواس أيضاً .

قال ابن حمديس يصف أحد الأديرة وراهبة تبيع الخمر

وقد جاءها مع ثلة من أصدقائه آخر الليل عند ما كانت تغلق الدير :

وراهبة أغلقت ديرهـــا فكنا مع الليل زوارها
هدانا إليها شـــذى قهوة تذيع لأنفـــك أسرارهـــا
طرحت بميزانهـــا درهمى فأجرت من الدن دينـــارها
تفرس فى شـــمسه طيبها مجيد الفراسة فاختـــارها
فتى دارس الخمر حتى درى عصير الخمور وإعصارها
يعـــد لما شئت من قهوة سنيها ويعرف أخبـــارها
وعدنا إلى هالة أطلعت على قضيب البان أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم تثور فيقتـــل ثوارهـــا
وقد سكنت حركات الأسى قيـــان تحرك أوتارهـــا
فهذه تعـــانق لى عودها وتلك تقبل مـــزمارهـــا
وراقصـــة لقطت رجلهـــا حساب يد نقرت طارها
وقُضْب من الشمع مصفرة تريك من النار نوارها
كأن لها غمداً ضعفت وقد وزن العدل أقطارها

ويدفعه هذا الجو الشاعرى ونغمات الموسيقى وألحان الغناء وجمال الطرب ، إلى وادى الذكريات فتهيج عواطفه وتنهال أحاسيسه صوب موطنه ، وهنا يبلغ الإحساس الشاعرى ذروته فى نفس الشاعر فيهتف من أعماق وجدانه :

ذكرت صقلية والأسى يهيج للنفس تذكارها

ومنزلة للتصابى خلت وكان بنو الظرف عمارها
فإن كنت أخرجت من جنة فإنى أحدث أخبارها
ولو لا ملوحة ماء البكاء حسبت دموعى أنهارها

* * *

وهو عند ما يستمع لنغمات الحادى وتصل إلى أذنيه أهازيج القوافل وأغانى المسافرين فيجد فى ذلك صورة تحرك مكامنه ونغمة تهز أوتار نفسه وتشده إلى وطن يعبده ، وشاطئ سيطرت عليه قوات الروم :

دعونا نسائر حاديًا قاد نحوها
مسامعنا منه الحداء المنغم
فما هذه الأهداج إلا قلوبنا
حبائبنا فيها سرائر تكتم
أرجع بالشوق الحنين وإنما
يهيج حنينى عودها حين يرزم
فلله عمر مرّ بى فكأننى
به فى جنان الخلد كنت أنعم

وابن حمديس احتفظ لنا فى شعره بكثير من أوصاف القصور والنقوش والنافورات . ونرى قطعة شعرية نقل فيها صورة قصر بما حوى من زخارف فى أبوابه وسقوفه وممراته ، وهو فى هذه الناحية قد يفوق أوصاف البحترى للقصور والتماثيل ، وها هوذا

ابن حمديس يصف أحد القصور التى دلت على براعة الهندسة العربية والفن الإسلامى :

وضراغم سكنت عرين رياسة
تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النظار جسومها
وأذاب من أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك
فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما
أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها ــ والشمس تجلو لونها
نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول
ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه
درعا فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها
عيناى بحر عجائب مسجورا
قد سرجت أغصانها فكأنما
قبضت بهن من الفضاء طيورا

وكأنمـــا تأبى لوقع طيرهـــا
أن تستقل بنهضهـــا فتطيرا
من كل واقعـــة ترى منقـــارها
ماء كسلسال اللجين نمـــيرا
وكأنمـــا فى كل غصن فضـــة
لانت فأرسل خيطهـــا مجرورا
وتريك فى الصهريج موقع قطـــرها
فوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا
ضحكت محاســـنه إليك كأنمـــا
جعلت لهـــا زهر النجوم سحورا

وهذا نوع من القصائد التى تصور لوناً من الحضارة وآثارها، وينقل الشاعر لنا صورة النقوش والرسوم كأنما يرسم لوحة تحكى ما صورته يد الفنان العربى فى قصور الأندلس، وتلك الأبيات من قصيدة فى وصف قصر «المنصور بن علناس»، وكان بالقصر بركة عليها أشجار من ذهب وفضة، وكانت تنساب المياه من فروع الشجرة وعلى البركة الرخامية تماثيل منحوتة على هيئة أسود، كما يشاهد أسود قصور الحمراء وغيرها. والشاعر إذا أخذت عينه مناظر أخاذة مثل نهر من أنهار الأندلس قال وهو يشحن الأبيات بوافر من التشبيهات :

ومطرد الأجـــزاء يثقل متنـــه
صبـــا أعلنت للعين ما فى ضميره

جريح بأطراف الحصى كلما جرى
عليهـــا شكى أوجـــاعه لخريره
كأن جبـــاناً ريع تحت جبابه
فأقبـــل يلقى نفسه فى غديره
كأن الدجى خط المجرة بيننـــا
وقد كللت حافاته ببدوره
شـــربنا على حافاته دون سكرة
نقبـــل شكراً منه عين مديره

ومن أوصاف ابن حمديس يصور خسوف القمر :

والبـــدر قد ذهب الخسوف بنوره
فى ليلة خسرت أواخر مدها
فكأنه مرآة قـــين أحميت
تمشى احمرار النار فى مسودها

والشيب والمشط والمرآة صورة رسمها « ابن حمديس » :

شـــبابى وراع شيبى
منى ســـرب المهـــا وفضّه
كأنمـــا المشـــط فى يمينى
تجـــر منـــه خيوط فضّـــه

* * *

ولقد كان الشاعر « ابن حمديس » فى منهاجه الوصفى وتنقله بأحاسيس المستمع للقصيدة أو القارئ لها لا يقتصر على موضوع واحد يضمنه القطعة الشعرية ، بل تراه يتنقل فى الوصف وتلمس منه أو تلحظ عليه حالة « القلق » فهو فى القصيدة الواحدة يتنقل من وصف المحسوس إلى وصف المعقول .
أو يتدرج من المعقول إلى المحسوس .

بل من الناحية النفسية فى القصيدة الواحدة قد ينتقل من الرضا والاستسلام إلى القلق والاضطراب حتى لتكاد أن تلمس منه — أحياناً — رائحة التشاؤم ، وتلحظ ملامح الملل واضحة فى نفس الشاعر ، ومرجع هذا إلى نفسية الشاعر غير المستقرة ، أو هو فى الواقع صدى وأثر من الأحداث فى حالته النفسية .

أما عن سبك القصيدة وشد أوتارها وتوزيع ألوان اللوحة وتسليط الأضواء ، وأبعاد الخطوط فإن القارئ للقصيدة فى تأمل وتذوق يجد أن القصيدة — لا سيما فى المطولات منها — تكاد أن تنعدم منها الوحدة الفنية والنغم المنسجم — أى الوحدة ذات الوتيرة — فهى لا تسير على وتيرة واحدة . . لا نقصد هذا من ناحية الإيقاع والجرس الموسيقى ، بل من ناحية الموضوع والمشمول .

والناقدون فى الأدب العربى يلاحظون هذه الظاهرة فى الشعر العربى على مختلف عصوره ، وفى مختلف أبعاده وأغواره ،

وفى عصور ازدهاره . أو فى آونات معطياته الحضارية وفى عهود انحطاطه وتأخره .

فالشعر العربى الملتصق بالعمود والقافية سارت القصيدة فيه على منهج التنقل فى الموضوع أو التنوع فى تصوير الحالات والأوصاف .

فالشاعر فى القصيدة الواحدة قد ينتقل فجأة وبلا رابط من غزل إلى رثاء ، ومن مديح إلى وصف مأدبة ، ومن فلسفة ذات اتجاه تفاؤلى أو تشاؤمى إلى وصف معركة حربية . أو ينقلك إلى أجواء ليلة ساهرة . ومن تصوير أزمة فردية وحالة شخصية أدلتها ظروف الحاجة الموحية للنظم إلى سبحات صوفية ، أو من تحليق فى خيال إلى واقع مرير .

وهكذا يظل الشاعر يتنقل فى أوصافه عبر القصيدة الواحدة إلى أكثر من حالة ، وإلى حشر أكثر من موضوع .

وهكذا كان يصنع الشعراء حتى العماليق أمثال « أبى العلاء المعرى » و « المتنبى » و « البحترى » و « أبى تمام » و « ابن زيدون » وأضرابهم .

ولذا تجد كثيراً من قصائد « عبد الجبار بن حمديس » قد يبدأ فى المطلع بالمديح ثم ينتقل إلى الغزل ويختم القصيدة بالشوق للوطن ، أو يبدأ بالتحنان والشوق ويتدرج إلى المديح وهكذا .

وأنت تتذوق هذه الأوتار وتنصت لهذه الأنغام التي صاغها ابن حمديس تلحظ في نغم القصيدة أو في مضمون تعابيره ظاهرة الشكوى من الزمان وإظهار التبرم من تصاريف الأحداث.

ولكن الشاعر تراه يصوغ شكواه وتبرمه في أسلوب شائق وتعبير لماع ، وتلمس في تعابيره طلاوة لا تنفرك من القصيدة ، بل تدفعك إلى مواصلة القراءة والإنصات ، ويدفعك هذا إلى التأثر بل التفاعل معها . كما أن الناقد والمتأمل في قصائد « ابن حمديس » يلحظ تغلب صفة الجد والاتزان ، ولكنه — في الواقع — هو جد ليس فيه تكلف ، وهو اتزان لا يشوبه وقار مصطنع .

فالشاعر لم يكن — على ضوء ما وصل إلينا من شعره — ماجناً معربداً في تعابيره وأوصافه ولم يكن نابي اللفظ ، أو مستهجن الأسلوب .

لا تجد في شعره عبارات تحمل المجون والإسفاف .

ولكن ليس معنى هذا أن شاعرنا كان صوفي المذهب والطريقة ، بل كان « عبد الجبار بن حمديس » شاعراً يعيش في عهد حضاري وجو ملآن بالمسارح التي تجذب إليها الشعراء .

وهو أخو سفر وترحل وشاهد بنات الحان وتحدث إلى الساقيات ، ووصف الراقصات وعازفات اللحن الطروب في

مجالس السمر ، وارتشف سلافة العناقيد .

والشاعر كان فى أماسى سرقوسة وإشبيلية وتونس قد غشى مجالس اللهو والمجون بل هو فنان موهوب وشاعر مفطور يرسم لنا صورة فنية لمجالس الخمر والرقص ، ولواعج الحب وتباريح الشوق ، ولحاظ العيون الفواتك ، ودلال المائسات .

و « ابن حمديس » — كما تلمس من غزله وصباباته — لا يبعد أن مر بتجربة الحب ولواعجه : من آمال تداعب ، وأحلام تهدهد ، وآلام تؤرق وتهز ، إنها تباريح تدفعه إلى الآهة الشاعرية الطويلة ، وقد تلمس هذه الظلال أكثر وضوحاً فى قصيدته التى أوحت بها جاريته الغريقة التى ابتلعها الموج عندما كان مسافراً فى المركب :

واحشتا من فراق مؤنسة ... يميتنى ذكرها ويحييها
أذكرها والدموع تسبقنى ... كأنى للأسى أجاريها
بجوهرة كان خاطرى صدفا ... لها أقيها به وأحميها
يا بحر أرخصت غير مكترث ... من كنت للبياع أغليها
أبتها فى حشاك مغرقة ... وبت فى ساحليك أبكيها
ونفحة الطيب فى ذوائبها ... وصبغة الكحل فى مآقيها
عانقها الموت ثم فارقها ... عن ضمة روحها فيها
ويلى من الماء والتراب ومن ... أحكام ندين حكما فيها

أماتها ذا وذاك غـيرهـا كيف من العنصرين أفديها

ومن أبيات الشاعر الغزلية فى وصف الجمال :

يا غزالا حرم اللـ ـه دمي وهو يحـله
إنمـا الحسن محـل لك أو أنت محـله
بعضه فى أوجـه النا س وفى وجهك كله

أو فى هذه الصورة الغزلية التى وصف فيها رقة قلبه وتعذيب صاحبته له :

عذبت رقـة قـلبي ظلمـاً بقسوة قلبك
وسمت جسدى سـقماً وما شفيت بطبك
أسخط كل عـدو رضيتـه لمحبـك
من لى بصبر جميل على رياضة صعبك
فيا تشوق بعـدى إلى تنسم قربـك
ووجنـة غمستهـا فى الورد صنعة ربك
لقد جنحت لسلمى كما جنحت لحربك
فبالدلال الذى زا د فى ملاحـة عجبك
بكى من الأسر قلباً عليـه طابع حبك
فإن نعمت بعتبى فقد شقيت بعتبـك

* * *

وهو من الشعراء القلة الذين استطاعوا فى موهبة خلاقة أن

يرسموا بالشعر الصورة المتحركة بتشبيهات بعيدة عن طابع التكلف أو التحايل على تصيد التشبيهات المغرقة؛ فهو يرسم لنا فى ثنايا قصائده باللفظ ما يرسمه أو ينقله الفنان المصور .

أثبت فى شعره الصورة المتحركة المتوجة ، كما رسم الصورة الثابتة .

ويرسم الأصابع التى تتحرك على الأوتار .

والصورة الصوتية — إن صح هذا الوصف — فهو يسجل خرير المياه واصطفاق الأمواج وهو يرسم أو « يسجل » صورة للروائح والأزاهير والعطور وأغاريد الطيور .

ويشغل فى رسمه وأصباغ ألوانه ونغمات أوتاره كل حواس العين والأذن والأنف . بل أهم من هذا التحريك الخارجى ، فهو يحرك المشاعر حتى لكأنه ينقل الصورة الشاعرية بأدوات الرسم والعاطفة لا بألفاظ شاعر ، فهو من هذه الأنحاء وبتلك المشاعر والموهبة دقيق الحس ، ذكى المديح ، وهو عندما يصف الخمر والرقص والغوانى ربات الدلال لم يكن من تصنع الخيال المجرد ، أو من منابع التصوير الذهنى المتكلف . بل هو شاعر أتاحت له أجواء الأندلس وشواطئ صقلية أن يشاهد هذه الأشياء مشاهدة العين أو لم يكن فى حاشية أمير أيام مجد المعتمد وعزه .

كانت ملاهى الأندلس وأفريقية غاصة بالحور والغانيات وألوان من جمال بنات الروم وبنات العرب ، وأشكال الجمال الممتزج بين أوربا وأفريقيا ، ذوات العيون العسلية ، والعيون الدعج ، والضفائر الطويلة .

ولقد أمدته مشاهداته الحسية وتذوقه للجمال بذخيرة من معين الوصف وساعدته على التفنن فى الرسم والتصوير .

وبرغم أن الشاعر انغمس فى حياة الشعراء .

وبرغم نكبته وجرحه العميق فى صدره ، إلا أنه يلجأ للموعظة والعبرة ، حتى كأنه فى بعض أبياته يرمى ريشة الفنان المصور ويطرح أحلام الشاعر ليرتدى مسوح الواعظ . فيلجأ إلى كلام العبر والحكم ويحذر من اللهو وغرور الدنيا ، ويصف الشيب ، ويذكر الموت والفناء .

وتجد الشاعر ابن حمديس يقول فى الوعظ والشيب كما يقول فى الغزل واللهو والمرح ؛ فيصف الحياة وبباهج الدنيا ومتعها ، ويقول فى التحذير منها والإنذار بعواقبها ، وتلمس فى مجموعة قصائده هذه المعالم :

- الوصف الفنى .
- الغزل والصبابة .
- الوطنية المتأججة .

● الموعظة والعبرة .

وابن حمديس شاعر — بلا شك — قد تأثر كل التأثر بالمحيط القلق والأجواء المضطربة التى شاهدها وعاش فيها ، سواء فى بلده الأول أو فى مهجره وتنقلاته ، وتجربة الاغتراب والفراق والابتعاد هى عوامل جعلته فى أوصافه الشاعرية يلحظ الأحداث الفردية والجماعية بدقة وحاسة حساسة .

ويصوغ لنا مقطوعات فيها النغمة المحركة ، والمقطع المعبر المؤثر . وأسلوب الشاعر البلاغى يدل على أنه أديب ثقف ثقافة رفيعة ، فلديه فى جعبته حصيلة لغوية تسعفه وتسند شاعريته ، وهو على وجه عام قد تأثر بالشعر المطعم بالحكمة والتأمل وثاقب النظر ، والاتجاه المشبع بفلسفة الإيمان والعقيدة فى تصرف المقادير .

وتتضح بعض ملامحه النفسية بصورة أوضح فى باب الشكوى. وهل يلام الشاعر المغترب إن نفخ معزوفاته فى ناى الشكاية ؟ ! .

وهو فى هذا اللون من الشعر قد يعبر عن حالة المجموع وصدى الأحداث المحيط وتعبيراً عن أهله وبلده وأهل جيله .

وقد يعبر عن آلام عامة ويطرق أبواباً كلية ، ومن هنا هو فى أنات من شكاياته وتوجعاته قد يجد صاحب الألم والحرقة فى أى بلد أو أى جيل — فى بعض قصائد ابن حمديس — تجاوباً وصدى وترجمة نفسية عميقة الإحساس متبلورة المشاعر .

وهكذا الصدق والتجاوب من مقاييس الإبداع الفنى .

ومقطوعات ابن حمديس ذات الصبغة الغزلية قد يلمس فيها من أولعه الحب ، وأرقته تباريح الشوق صورة نفسية وحكاية ذاتية ، حتى يحس كأنما القصيدة صبغت له ، وخيط الثوب على قده ألم يطرق الشاعر المتغزل وتراً مغموساً فى نفس العاشق ، فحرك إحساس الواله المحب .

وعندما يقرأ المتشائم والمتألم والدامع المتحرق قصيدة من قصائد الشكاية وحرقات « ابن حمديس » قد يجد فيها تجاوباً نفسياً وصدى عميقاً ، أو صورة محسة لما فى قرارة نفسه من ألم دفين وشكاية هامسة أو مدوية صارخة .

فى الإطار العام قد لا تحكى حادثة معينة أو قصة فرد معين .

وإن كان مبعثها حادثة معينة ودافعها واقع محس فردى . غير أن شكوى الشاعر من الزمان وتبرم نفسه من الأحداث قد يأخذ صورة عامة وكليات مجملة .

ومن هنا، فى معزف الإحساس والوتر المغموس، قد يخرج بنا الشاعر فى قصائده من دائرة الإحساس الفردى ومن وصف الحادثة المعينة إلى الإحساس العام حتى ينتقل الشاعر فى استطراداته وفضفضة أوصافه من تصوير حالة خاصة إلى حالات عامة فعندما يشكو تصرف الدهر ، أو غزو الشيب ، أو تقلب

الأحداث . هذا شيء عام يحدث لكل متألم .

ومن هنا يخرج من دائرة ضيقة إلى أحكام عامة ، فيجد الإسعاف ، ويتلمس طرق النجاة والإنقاذ في أنواع من الوصايا ، والحكم ، والإيمان ، والعبر ، ويحاول أن يبث الشجاعة المعنوية في النفس .

ومن هنا — من جانب العموميات — تلمس في ثنايا شعره صوراً إنسانية ، لكل الناس على مختلف البلدان والأزمان ، ولكنها — إنسانية — ذات منهاج عام غير مرسوم .

فلا نستطيع أن نقول عنه ما تقوله المقاييس الجديدة في تفهم إنسانية الأدب ، أو عالمية الشعر ويكون من الإعنات إخضاع هذه المقطوعات إلى المقاييس المنهجية المستحدثة .

ومع هذا ، فهناك جانب آخر من زاوية الإضاءة والدلالة ، فشعر ابن حمديس لم يمت بفوات زمن « ابن حمديس » .

وصورة القلق النفسي ليست قاصرة في تصويره وكما رسمها في شعره لفرد كان يعيش في القرن السادس الهجري . بل يستطيع أن يقرأها ويتذوقها الشاكي الباكي ويلمح فيها صورة لنفسيته في ثنايا القصيدة .

ومن القطع الشعرية التي صور فيها « ابن حمديس » جوانب من — القلق — والحيرة — والنظرة إلى الدهر نظرة دافعها الألم .

تلك الأبيات التي صور فيها كيف أن أحداث الزمن هزته وزرعت الشيب فى رأسه ، وأن الدهر ملآن بالعجائب ، بل إذا خلت جعبته من الأنباء وسرد الأخبار وحكايات العجائب ، فإن لدى « ابن حمديس » ما يقرأه على مسامع الدهر من ألوان الغرائب . ولكن — مع هذا — مع الكثير الذى فى جعبته ، فهو صبور جسور ، لديه عزم .

وكأن عزم شاعرنا سيف بتار وسهم صائب مهما تجمعت تلك المعضلات التي تزحم طريقه ، وتحاول أن تسد عليه المسالك حتى دفعته إلى الاضطراب فى بعض الحالات .

ويصور الشاعر صبره وجلده إزاء الاضطراب النفسى والقلاقل بشكل لا يخلو من مبالغات الشعراء . إنه يبعث أنفاسه برداً وإن كانت فى قرارة نفسه من أفاعيل دهره وأحداث زمنه لهباً مستعراً .

يا له من صانع معجزة — برد يصنعه من اللهيب المستعر — جدير بالحر الأبى أن تلقاه صاحب جلد برغم أن الداء لديه كمين والألم عميق والجرح ينز فى نفسه .

الدهر . . ما أكثر شكواه من الدهر . . ومرة أخرى : هل يلام على هذا شاعر مغترب وصاحب نفس جريحة ؟ !

ولو أطلت النظر ، بل ولو أسرعت فى النظر ، لألفيت « ابن حمديس » لا ينفك من ذكر الدهر ، هكذا بصيغة التعميم والإجمال .

فهو يشير إلى الدهر وشوائبه، والشكاية من الدهر من طبع وشيمة شعراء البكاء والشكاية .

ولكن بكاء شاعرنافيه عزم، وأنينه الملتهب به حزم قد يبلغ فى تصويره حد المبالغات وأسلوب الغرور والإطناب المكرر . وهل خلا الشعراء يوماً من الغرور عندما ينزلقون إلى الحديث عن أنفسهم ، وفى يدهم ثروة من الألفاظ يصوغونها حسب رغبتهم ؟

تلك طبيعة مدرسة القدامى ، بل وحتى المحدثين .

فهل هذه « الأنا » فى شعرهم ، وهذا الحديث عن النفس من قبيل « التعويض » عن مطولات « المدائح » التى أصبغوها على الغير ، من أمراء أو صعاليك ؟ !

وشاعر يغرق فى مدح الناس لقاء إكرام أو فسحة فى مجلس وبضعة دنانير . أتراه يضن على نفسه بالحديث وإظهار محامده ؟ !

حتى لا يكون بينه وبين الناس ، أو بينه وبين نفسه أقل منزلة وأحط قيمة .

والآن ، وقبل أن يتسرب بنا القول إلى أودية أخرى ، إليك جانباً من قصيدة يتحدث فيها ابن حمديس عن الدهر وأفاعيله مع الشاعر المغترب :

هل أقصر الدهر عن تعنيت ذى أدب
أو قال حسبى من إخمال ذى حسب
لا يلحظ الحـــر إلا مثلمـــا وقعت
على أخى سيئات عين ذى غضب
وكيف يصفو لنـــا دهـــر مشاربـــه
يخوضهـــا كل حين جحفـــل النـــوب
ولو خلا الدهر ذو الأنباء من عجب
أكثرت منـــه ومن أنبـــائـــه عجبى
قرأت وحـــدى على دهـــرى غرائبـــه
فمـــا أعاشر قومـــاً غـــير مغـــترب
أحلت عزمى عـــلى همى فقطعـــه
كأن عزمى عـــلى صمصامتى الذرب
ما قرّبى السير فى سهـــل ولا جبـــل
إلا كما قر جـــارى المـــاء فى صبب
ولم أضق فى السرى ذرعـــاً بمعضـــلة
قـــد زاحمتنى حتى ضـــاق مضطربى
وتـــرتقى حـــر أنفاسى فأبعثـــه
بـــرداً وإن كان مستبقى من اللهب
وأحـــرِ بالحـــرّ أن تلقـــاه ذا أدب
وإن تبطن داء قابـــل الوصب

وفى حالات قد يتذرع بالصبر ، وتداعبه بوارق الأمل ،

وأحلام الأمانى ، فيشد من عزم نفسه باعثاً الثقة فى نفسه .
ولكنه فى أحايين كثيرة قد تبلغ به حالة الفوران إلى حافة اليأس ، ويشاهد بمنظار القلق الحائر صنع أيامه فيأخذ فى تعداد مساوئ دهره ويصور أفاعيل زمنه .

فهو يتأوه فى حرقة غاصة على ما فات وضاع من زمن المرح ، وأطاييب الشباب . وبعد طوفة تأملية فى وادى الذكريات ، وبعد نظرة فى باعث العظة ، تنساب خواطره الجياشة ، ويلجأ إلى أسلوب الوعظ ، ثم يطلب الغفران والإنابة كطائر جريح ترف بجناحه ، ويجد الدفء فى هذا العش . فقد وقف على مشارف العمر ، وقطع أشواطاً طويلة على درب الحياة ، وأدمت قدميه وعورة الطريق ، وصعوبة المسالك . قد بلغ السبعين . . وهزته آلام وجراحات . . وانسلت من بين يديه آمال ، فيرى الدنيا غرورة ، والأمانى كواذب . .

بئست الصاحبة الدنيا التى سلبت منه ثوب الشبيبة ، وألبسته ثوب المشيب . . فيذكر الموت وأشباح الفناء :

وعظت بلدتـــك الشائبـــه وفقد شبيبتك الذاهبـــه
وسبعين عاماً تـــرى شمسها بعينك طالعـــة غاربـــه
فويحـــك هل عبرت ساعة ونفسك عن زلة راغبـــه
فرغت لصنعك ما لا يقيك كأنك عاملة ناصبـــه
وغرتك دنيـــاك إذ فوضت إليك أمانيها الكاذبه

أصاحبة ! خلتها ؟ أنهـــا بأحداثها بئست الصاحبه
أما سلبت منك برد الشباب فهل يسترد من السالبـــه
وإن دقائق ســاعاتهـــا لعمرك آكلة شـــاربـــه
وإن المنيـــة من نحـــوها عليـــك بأظفارها واثبه
ألم ترها بحصـــاة الـــردى لـــكل جسيم لها حاصبه
فيا حاضراً أبداً ذنبـــه وتوبتـــه أبـــدا غائبـــه
أذب منك قلباً تجارى بـــه سواكب عبرتك الساكبه
على كل ذنب مضى فى الصبا وأتعب إثبـــاته كاتبـــه
عسى الله يدرأ عنك العقاب وإلا فقـــد ذمت العاقبـــه

* * *

وقد تناول الشاعر وهو فى مشارف العمر صوراً من الشعر الذى هو من وادى المتصوفة ولهجة النساك .

وهذا الشعر الزهدى كان فى فترات ديدن المتقدمين .

ولم يكن نظم ابن حمديس فى مجال الزهد عن تصوف ولا عن منهج اعتنقه بل هى من تلك الحالات التى تعترى الناس حتى الأفراد العاديين ، فهم قد يجنحون للتنسك وتراهم فى الشوط الأخير ونهاية المطاف من العمر يحجون ويسبحون ويكثرون من الاستغفار والإنابة فى مشارف العمر ، أو عند الأزمات والملمات ، وإذا هزتهم الأحداث .

وفى الواقع أن قصائد وأبيات ابن حمديس التى تلمس فيها روائح التصوف لم تكن صادرة عن منهج صوفى بل هى من ظواهر

حالات الأوبة إلى محراب الله واللجوء إلى رحاب السماء ، ومن هذا نلمس فى هذه الصورة من قبيل الابتهالات والاستغفار :

يا ذنوبى ثقلت والله ظهرى ... بان عذرى فكيف يقبل عذرى
كلما تبت ساعة عدت أخرى ... لضروب من سوء فعلى وهجرى
ثقلت خطوتى وفــودى تعرى ... غيهب الليل فيه من نور فجرى
دب موت السكون فى حركاتى ... وخبا فى رماده خمر جمر
وأنا حيث سرت آكل رزقى ... غير أن الزمان يأكل عمرى
كلما مر منه وقت بربح ... من حياتى وجدت فى الربح خسرى
يا رفيقاً بعبــده ومحيطــا ... علمه باختلاف سرى وجهرى
هل بقلبى إلى صلاح فسادى ... منه واجبر برأفة منك كسرى
وأجرنى بما جنــاه لسانى ... وتناجت به وساوس فكرى

* * *

والشاعر يكثر من التأمل العميق ، ويطيل النظر فى مشكلة زوال العمر ، وتقلص ظل الحياة ولكن هى نظرات أو انتفاضات لا عن منهج فلسفى بل عن باعث الحسرة من فوات العمر وتصرم الأيام .

فهو يرى ويحس فى ألم أن عمره ينساب على شاطئ الحياة ويقترب من هوة العدم . فتراه كلما قطع مرحلة وقف يتأمل ثم يتأوه .

عندما يبلغ الخامسة والخمسين — وإذا بلغ الستين — وإذا وقف على شاطئ السبعين له فى كل شوط وقفة تأمل ولهجة

تحسر ، أو هو نوع من محاسبة النفس ومراقبة سيرهما فابن حمديس يقول :

كملت لى الخمسون والخمس ووقعت فى مرض له نكس
ووجدت بالأضداد فى جسدى غصناً يلين وقامة تقسو
وتنافرت عنى الحسان كما لحظ الهصور جآذر خنس
وابيض من فودى من شعرى وحف كأن سواده النقس

ثم هو يلجأ للسماء فى دعاء وتضرع ناظراً إلى يوم الحساب ، وينبع دعاؤه عن إيمان :

يا رب إن النـــار عاتيـــة ولكل سامعة لها حس
لا تجعلن جسدى لها حصبا فيـــه تحرّق منى النفس
وارفق بعبد لحظة جـــزع يوم الحساب ونطقه همس

* * *

فهل هو زاهد ؟ ! لا لم يكن زاهداً .
هل هو ناسك ! ؟ لا لم يكن ناسكاً .

بل هى صورة من اللمسات الشاعرية فيها إنابة ولجوء إلى الحقيقة أو هى من أنواع أساليب الاعتراف والمحاسبة ، وهى نفس تتوق إلى محراب التوبة ، وفى عديد من الأبيات نسمع من « ابن حمديس » لهجة الوعظ ، وحتى الشاعر « أبى نواس » كان فى بعض الحالات يقف واعظاً ، كما كان بعض الفقهاء

والمتصوفة يقفون موقف المتغزل .

وهناك فى مسارح الأدب العربى وأشكال تعابيره . . ظاهرة : غزل المتصوفة ، وزهد الشعراء .

وفى الواقع كلاهما لون قد يدخل من باب التصوير الفنى ، وليس ولا بد أن يكون المتصوف عاشقاً وغارقاً فى الوله .

كما أنه ليس ولا بد أن يكون الشاعر فى منظوماته الزهدية الورعية صوفياً ناسكاً . وعلى كل حال ، ومهما كانت الأسباب والدوافع تلحظ فى أبيات لابن حمديس أنه كان يتناول تصوير — النهاية ، وغروب شمس الإنسان ، ويدور حول السؤال الذى حير أدمغة البشر . . .

ما هو المصير ؟ أين نهاية الشوط ؟ !

وإنه لمصير مخيف مربك ، فالدنيا محفوفة بالشهوات ومزالق الغرور ، وابن حمديس يقول :

بيتك فيه مصرعك ... وفى الضريح مضجعك
غرتك دنياك التى ... لها سراب يخدعك
همت بحب فارك ... وقلما تمتعك
يضرك الحرص بها ... والزهد فيها ينفعك
لا تأمنن منية ... إن عصاها يقرعك
يغربك القبر الذى ... يكون منه مطلعك
إن فرقتك تربة ... فالله سوف يجمعك
كم جرماً أشفقت من ... لمسك منه أصبعك

فكيف بالنار التى من كل وجه تلسعك
يراك ذو العرش إذا ناديته ويسمعك
فثق به ولا يكن لغيره تضرعك

* * *

وما كان الشاعر مظلم النفس فأحياناً يتجول فى مراتع اللهو ، وقد يكون هذا تنفيساً ، أو محاولة لنسيان الصدمة التى طوحته عن بلده صقلية ، أو بدافع من روحه الشاعرية ويسير بنا شوطاً وهو يصف حالات الصفو والإمتاع والانسجام مع مجلس اللهو ، ويدعونا إلى أن نعب من أطايب الحياة والمرح ، ولكنه فى القصيدة نفسها لا يلبث أن يعود إلى أسلوب الموعظة وتتغلب عليه روح الحذر .

وكأنه فى آخر القصيدة يعتذر بأنه مجرد شاعر ، وليس من أهل الصبابة والمجون . ونتساءل إزاء هذا لم كان هذا الاعتذار منه وهو الشاعر المتفنن الذى دل شعره على شغف بالحياة واستطابة لذائذها واهتباله الفرص عند مسارح اللهو ومطارح الصبابة ؟ ولكنها عودة بعد جولة وتلاف بعد سرحان .

هل لأنه كان فى جو وبيئة يخاف أن تحسب عليه سقطاته ؟ أو لأن الغربة لاحت له بآلامها؟ أو لتقدم العمر أثر فى ذلك ؟ !

على أية حالة من أوصاف ابن حمديس لهذا المجلس :

حبذا فتيان صدق عرسوا بعذارى من سلافات الخمور
عربد الصحو عليهم بالأسى فاتقاه السكر عنهم بالسرور

عمروا ربع الصبا من قبل أن ... يتمشى فيه بالشيب وثور
إن للأعمار إعجازاً إذا ... بلغت لم تثن منهن صدور
يقتفون العيش من قافيــة ... ذات عمر كثرت فيه الدهور
اطلع الساقى عشاء منهم ... أنجم الكاسات فى أيدى البدور

* * *

ولكن ها هو الشاعر ينتكس ويندم . . لماذا ؟ هل هو الشيب الذى يكره أن يخضبه ؟

عد بالأكواب عنى إن لى ... فى يد الإنس عنهن نفور
عمر الشيب الدجى فى لجتى ... بنجوم طلع ليست تغور
لا نشور لشبابى بعــدما ... مات من عمرى إلى يوم النشور
وخضاب الشيب لا أقبــله ... إنه فى شعرى شاهد زور
فــكأنى ذو غليل تتلظى ... لوعة منه إلى ماء الثغور
أصف الراح ولا أشربهــا ... وهى بالشدو على الشرب تدور
كالذى يأمر بالــكر ولا ... يصطلى نار الوغى حيث تفور
فسواء بين إخوان الصفا ... وذوى اللهو مغيبى والحضور
أنا من كسب ذنوبى وجــل ... وإن استغفرت فالله غفور

* * *

ومن الأبيات التى يذكر فيها ابن حمديس الشيب والاعتبار بالدهر عندما بلغ الشاعر الخمسين من عمره :

حللت بيومى إذ رحلت عن الأمس
وسرت ولم أعمل جوادى ولا عنسى
مراحل دنيـــانا مراحلنـــا الـــتى
ترانا عليها تقطع العيش بالخمس

* * *

وابن حمديس شاعر نفسانى غواص لا يتناول مجرد المظهر والإطار الخارجى بل فى أعماق الحس والإدراك .

وتلمس فى شعره هذا سواء أكان شعر المرح واللهو ، ووصف الرقص والخمريات والغزل .

أم فى شعر البكاء وظلال الحيرة وانفعالات القلق .

فى هذا الجانب وفى ذلك اللون تلتقى مع شاعر نفسانى يتناول المضمون ، فلم يكن من شعراء الحواشى المطرزة والصور اللفظية المنمقة ، ولم يكن مجرد — وزّان — ومقفى تفعيلات يقتطع الأوزان ويتصنع التفاعيل .

وينطلق بك هامساً عبر القصيدة مؤثراً ، فهو من الذين رسموا للشعر العربى طريقاً سهلاً وطوروا الصورة النفسية .

ولا نزعم — هنا — أن عبد الجبار بن حمديس فى كثرة تفجعاته وشكواه أنه كان مريض النفس ، سوداوى المزاج ، متشائم الجبلة .

لا نزعم أن شاعرنا فى أناته وحرقاته صنع هذا لأنه مضطرب

الأعصاب ، فليس من السهل أن نزعم هذا وأن نكون مع تلك الظاهرة التى تلمسها عند بعض الكتاب والنقاد فى العصر الحديث ، فعندما يتحدث بعضهم عن كبار الشعراء والكتاب القدامى ، فى غابر الأزمان ، نرى المتصيدين لفن دراسة التراجم يمسكون بسماعة الطبيب ويدخلون هؤلاء الأدباء والشعراء إلى معامل التحليل الطبى وتراهم يقدمون بدل تفحص النتاج « فحصاً » طبياً ويقدمون « تقارير » طبية ، أبو نواس مريض نفسانى. المتنبى مريض نفسانى . الحطيئة مريض .

وعلى هذا يزجون بابن حمديس فيرونه على هذا القياس الطبى ، وعلى ضوء تقاريرهم مريضاً وهذه الظاهرة . . زج الأدباء القدامى فى العيادات النفسية . . لا نستطيع أن نتقبلها على علاتها ، وأن نخضع لهذا « التشخيص » و « التحليل » . . و « التعليل » .

وإذا أخذنا بهذه الظاهرة الجديدة فى دنيا النقد والتحليل وسرنا على منهاجهم لأدخلنا كل الشعراء والفنانين وذوى الحساسية إلى « المصحات » النفسية وأخضعناهم قسراً وغصباً أمام الأطباء النفسيين أو غير النفسيين .

لا . . لم يكن ابن حمديس مريضاً نفسانياً . إنما كان حساساً مرهف الإحساس ، قلقاً . وسبب هذا :

١ ــ أنه كان شاعراً مفطوراً ، وهل يكون الشاعر المفطور الفنان الموهوب غير حساس !

٢ ــ قضية بلده وانقضاض الروم على صقلية .
٣ ــ آلامه فى الأندلس ، ونكبة صاحبه فى إشبيلية .

هذه بلا شك عوامل أثرت فى شعره ، وطبعت مضامين القصائد بالصورة الحساسة المرهفة وقد دفعته إلى أسلوب الشكاية والتبرم والقلق الذى قد يبلغ فورانه إلى حد التوتر والحيرة ، ولقد كانت حياة ــ ابن حمديس ــ فى المهجر صورة من الهزات ، وتفاعل الأحداث .

وعلى الرغم من هذا كله ، ليس من السهولة أن نزعم أن ابن حمديس كان مريضاً نفسانياً ، إنما نستطيع أن نؤكد أنه كان شاعراً حساساً ، ولم يكن صاحب مزاج سوداوى من صرعى التشاؤم .

فى حياة ابن حمديس حب وشراب وارتشاف من مناهل الحياة ، إنما الظلال التى صور فيها التشاؤم كانت تعبيراً عن حالات من القلق وفترات ، أو هى نتيجة لإحداث هزته وفى هذا المجال قد يكون الشاعر ابن الرومى خاضعاً لعوامل نفسية طبيعية عميقة وتكوين مزاجى ، وهو مريض متشائم أو جنى عليه التشاؤم فى حياته الخاصة ، كما تدل على ذلك المرويات ونفثات التعابير ، والنوادر الشائعة عنه من حكايات وتصرفات دلت عليها معتقداته ونظرته السوداوية لكثير من الأشياء كان يراها ذات تأثير على حياته ، فطبعته بطابع السوداوى المتشائم .

ولكن هل كان عبد الجبار بن حمديس كذلك متشائماً

على هذا الشكل والمنوال ؟ !

لا . . نقولها مرة . . بل ونؤكدها مرات .

وهو أيضاً ليس معربداً « كأبى نواس » كما أنه ليس متشائماً « كابن الرومى » . ولم يكن ابن حمديس نافراً من الحياة وأطايبها « كأبى العلاء المعرى » ولا هو بصاحب الطموح الفردى والبحث عن المجد الفردى « كالمتنبى » ولا هو ربيب القصور والليالى المترفات كالشاعر « ابن المعتز » ولكنه شاعر محس بآلام وطنه شغلته مطالب بلده ومأساة جماهير شعبه ، فكانت منتهى الأمل عنده هو الوطن وقضية الوطن . . تغنى بأمجاده . . وتغزل بجماله . . وبكى لجراحاته .

لم يكن ابن حمديس مضطرب الأعصاب مريض النفس . وإلا لعددنا كل شاعر من شعراء الإحساس من مضطربى الأعصاب ومرضى النفس .

ولا شك أن هناك فارقاً كبيراً بين حاسية الشاعر ورفاهية مشاعره ، وبين المرض النفسى واضطراب الأعصاب .

فرق بين المرض الذى يحتاج إلى « سماعة » وتشخيص الأطباء ، وبين القلق الذى يدفع صاحبه إلى الإنتاج ومواصلة الإبداع . . ذلك النتاج الذى فى حاجة إلى نقاد ومفكرين وذواقة لفن الملهمين .

لولا قلق الفنان لما أنتج .

ولولا الحيرة لما فكر مفكر . . ولا خط قلم . . ولا صور فنان .

تلك ظاهرة تكاد أن تكون من البديهيات يلمسها المترجمون والدارسون لأصحاب النتاج الفنى ونعنى هنا بالحيرة : حيرة الموهوب ، وقلق الفنان ، لا حيرة المرضى واضطراب المحتاجين للعلاج والطب النفسى .

* * *

وعندما يشكو الشاعر الآلام الممضة ويشيد ببصره نحو موطنه فهو فى تأوهاته ونفثاته قد نفّس عن خاطره وهون على نفسه من ناحية ، وأرضى عاطفة الشعر وموهبة الفن من ناحية أخرى .

فشكوى الفنان وآلامه تغذى آلهة الشعر .

ومدامع أهل المواهب الفنية يورق شجرة الفن .

فابن حمديس شاعر تألم ولكنه لم يسكت ، وفى السكوت مضض مضاعف ، أو مضض غير منتج ولعله وجد سلواه ، وتخفيفاً لحدة آلامه فى الثناء على نفسه ، ولكنه غرور نراه من زاوية الإبداع الفنى ، غروراً محبباً .

ونلمس فى هذا — الاستعلاء — شيئاً مفيداً لأنه منتج أو قد يدفع إلى التصوير والإنتاج . وقد لا يعرف أمثال هؤلاء من الفنانين والشعراء فضيلة التواضع .

* * *

وابن حمديس قد تذوق العزلة ، وصور فى ثنايا أبياته لوناً من العزلة ، ولكنه فى حياته العامة لم يكن منعزلا على طول الخط ودائماً ، بل هو إنسان قد اندمج فى دنيا المجتمعات ومر بتجارب .

والذى يصاحب أمثال المعتمد بن عباد ويجالس الأدباء ويراسل الأصدقاء ويتابع قضية وطنه ويرنو إلى بلده ، والإنسان الذى يحب ويكره ، ويعربد ويعفّ ، ويلهو ويمرح . . لن يكون معتزلا الناس .

وأبو العلاء المعرى شاعر وفيلسوف ، تكون صادقاً عندما تطلق عليه لفظة شاعر أو فيلسوف معتزل ، فهو كما صور نفسه ، وأطلق على نفسه « رهين المحابس » .

ولكن هل ابن حمديس كان معتزلا حياة الناس ، وهو الذى يسافر ويجوب الشواطئ ويقطع الفيافى ، وينغمس فى الأسمار بين كأس ووتر .

قد يكون بن حمديس فى بعض الحالات الطارئة والأزمات الملمة عندما يصاب بفقد عزيز أو قريب أو هجران حبيب أو غدر المقادير ، قد يكون — هنا — يلجأ إلى العزلة فترة ، أو قد يكون من زاوية أخرى فى لحظات « الاستوعاب الفنى » صاحب عزلة .

ولكنها عزلة الفنان عندما يهرب من الصخب والنفاق ، ليخلو بنفسه ويعتصر ذهنه هى عزلة « المخاض الفنى » إن صح

هذا التعبير ، عزلة الفنان فى مرسمه ، أو لحظات صوغ ألحانه ، أو عزلة راهب الفكر فى محراب التأمل .

ولكنها أيضاً ــ وفى الواقع ــ ليست مثل هذه الحالات عزلة بالمعنى الصحيح ، إذ هو يغترف من نهر الحياة الكبير ثم يعود ليتصل بالناس ويسير فى موكب عصره ، يلتقط الصور ثم قد يخلو لعملية « التجميض » أو « الصهر الفنى » .

إنه يختلط بالمجتمع ويحتك بصنوفه .

والمهم ــ هنا ــ بلا مقدمات وتعاريج .

كان ابن حمديس الشاعر فى ثنايا قصائده يشير إلى العزلة ، والغربة . وهو صادق عند الإشارة إلى الغربة . . لأنه عاش فى صقلية حوالى خمسة وعشرين عاماً ، وما تبقى من السبعين عاماً ــ أى حوالى خمسة وأربعين عاماً ــ أو يزيد ، عاشها بين الأندلس وتونس ومضارب الشمال الأفريقى .

ولكن ما هى حكاية العزلة !

ليست عزلة بالمعنى المعروف من العزلة والفرار من الناس ، والترهب والانقطاع عن حياة المجتمع ، بل كان ابن حمديس يعب من أطايب الحياة ، ووخزت أقدامه حصباء الطريق ، وعندما يتذكر موطن مراحه وصباه يهتف بالشكاة وينبعث الأنين من نفس تواقة ، وهنا يذكر العزلة والغربة .

صور تلاحقه فى كل الآونات .

ونجده فى إحدى مقطوعات حنينه ، ومعازف أناته ، يتذكر مواطن لياليه ، ويشير إلى ضياع بلده التى استولى عليها الروم ويأخذ فى سرد محاسن أهل بلده وتمجيد صفاتهم، ويظهر الاعتزاز بالموطن والتعلق بالديار والأهل ، ثم يصف شجاعة نفسه ويتحدى الزمن — وكأنه فى حلبة مبارزة — . . فإن لم تسالم يا زمان فحارب .

فتحدى فى نشوة الغضب أو ثورته فهو يقول :

تدرعت صبرى جنة للنوائب ... فإن لم تسالم يا زمان فحارب
عجمت حصاة لا تلين لعاجم ... ورضت شموساً لا يذل لراكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة ... إذا لم أنقب فى بلاد الأغارب
فطمت بها عن كل كأس ولذة ... وأنفقت كأس العمر فى غير واجب
يبيت رياش الغضب فى ثنى ساعدى ... معوضة من جيد غيداء كاعب
وما ضاجع الهندى إلا مُثلَّما ... مضاربه يوم الوغى فى الضرائب
وكنت وقدّ ى فى الصبا مثل قدّه ... عهدت إليه أن منه مكاسبى
فإن تك لى فى المشرفى مآرب ... فكم فى عصاموسى له من مآرب

* * *

والشاعر وهو ابن الشاطئ المتحضر ، وابن صقلية الواقعة فى أوربا ، والرجل الذى عاش فى إيطاليا وأسبانيا والأندلس وشواطئ تونس الخضراء ، عاش يجوس خلال الديار المترفة فى عصورها الزاهرة ومغانيها المترعة بجمال الطبيعة ، ولكنه — مع

هذا — يذكر فى ثنايا أبياته أمثال عبارات :

الرحل — النوى — ركوب القلاص — .

هل هذا فى أسلوبه الشعرى من أثر الثقافة المتداولة المحفوظة .

أو هذا أثر من التأثر برجال — النوى — والقلاص — والرحل — والهندى الصارم — والصمصامة .

كما تلحظ فى شعره ألواناً من المجاز والاستعارة والتراكيب المعهودة فى شعر الأسلاف ، ولاعجب فهو إنسان رقيق متحضر ليس فى ألفاظه يبوسة ولا تجد فى تعابيره غموضاً كثيراً .

ولكنك قد تجد ألفاظاً وتراكيب وأنواعاً من التعابير تنساب وتتسرب فى نظمه من تلك الأشكال التى كان يستعملها شعراء ما قبل عصره ، أو التى استعملها ما بعد عصره من شعراء . . . التقليد والمحاكاة .

وهى — على الجملة — ليست كثيرة فى مضامين ديوانه .

ويهمنا — فى هذه القطعة — حديث الشاعر عن نفسه وشكواه وهو بيت القصيد ، أو هو كل القصيد ، والمقصد هنا :

أتحسبنى أنسى وما زلت ذاكراً ... خيانة دهرى أو خيانة صاحبى

تغذى بأخلاقى صغيراً ولم تكن ... ضرائبه إلا خلاف ضرائبى

ويا ربّ نبت تعترّيه مرارة ... وقد كان يسقى عذب ماء السحائب

علمت بتجريبى أموراً جهلتها ... وقد تجهل الأشياء قبل التجارب

ومن ظن أمواه الخضارم عذبة قضى بخلاف الظن عند المشارب
ركبت النوى فى رحل كل نجيبة تواصل أسبابى بقطع السباسب
ولما رأيت الناس يرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب

* * *

وشىء جدير بالملاحظة : التنوع والانتقال .

والمتأمل فى القصيدة العربية يلحظ التنوع والتنقل من طبع الشاعر العربى قديماً ، طبع الشعراء من أغوار القدم ، قفزات ، ولفتات ، ورؤوس مواضيع ، وازدحام الخواطر حتى تزدحم القصيدة الواحدة بألوان ومنوعات من الموضوعات ، وهذا شىء يلحظه الدارسون للتراث الشعرى على مختلف عصور أدبنا العربى ، ولم ينج منه شاعر من أصحاب طوال النفس أو قصار النفس ، سواء من المجيدين الأوائل ، أو من المقلدين الأواخر .

وهنا ، إزاء هذه الأبيات لابن حمديس ، وبعد هذه اللفتة إلى نفس الشاعر وحديثه عن خوالجه وركوبه الرحل النواجب وتواصل أسبابه بقطع الفيافى والسباسب ، وعزلته كأنه راهب .

ماذا يريد أن يصور ؟ وأية نقلة ينقلنا إليها ؟ !

مدح نفسه .

ولا عجب مرة أخرى فألصق الناس بوادى الغرور هم الشعراء .

بعد هذا المطاف ، كيف تنتهى القصيدة ؟!

ومن تجارب الشعراء يلحظ الدارسون أن من السهل البدء

فى القصيدة ، ولكن من الصعب التخلص والنهاية .

وذلك مرجعه لازدحام الخواطر ، وفوران القلق النفسى ، فترى هنا ابن حمديس بعد رحلته الصحراوية — وهو ابن الشاطئ وربيب الجزيرة ، البلد المتحضر — تراه يرنو إلى جراحات وطنه ويعرج على ذكر محاسن أهله وفضائل بلده :

ولى فى سماء الشرق مطلع كوكب جلا من طلوعى بين زهر الكواكب
متى تسمع الجوزاء فى الجو منطقى تصخ بمقالى لارتجال الغرائب
وكم لى به من صنو ود محافظ لذى العيب من أعدائه غير عائب
أخى ثقة لا دسّة الراح والصبا له من يدى الأيام غير سوالب

إنه يذكر وطنه فى « سماء » الشرق ومطلع « كوكب » .

إذاً « الجوزاء » فى الجو تسمع منطقه ، بل وتصيخ له فهو يرتجل الغرائب .

تسمع الكواكب أناشيده ، هل هذا مستمد من غرور المتنبى الذى زعم فى بيت من الشعر أنه إذا قال شعراً أسمع الدنيا وهز الكون :

وهذا الغرور من الشاعر ابن حمديس ، هذا السمو قد يكون سببه ودوافعه أزمة حادة من القلق .

وقد يكون منشؤه عدم انسجام فى بعض الحالات مع البيئة والناس الذين عاشرهم فى مهجره ، فغضب الرجل وتذكر سوالف أيامه وحن لموطنه ، وهزته أشواق شاعر ، فرأى بمرآة الوفاء أن

هله من ميدان ـ سما ـ وسمو ـ وعلو ـ .

ويتذكر أطاييب الحياة وصفو الليالى ، غريب يمجد وطنه ، شأن كل غريب يتألم من الناس فى غربته .

ولكن ما الداعى إلى ذكر الخمر ، وأنها معتقة أو غير معتقة . وكأن هذين البيتين المتعلقين بالخمر « بين قوسين » فى القصيدة ، وهل هما من باب « الإقحام فى الوصف » والاستطراد فى السرد ، من قبيل تداخل وتزاحم الخواطر والمواضيع .

أم ترى أن هناك أبياتاً ساقطة من القصيدة ، ففقدت عملية الربط ، وبدت عملية الاسترسال فى القصيدة كأن بها فجوة ؟

ما نظن أن هناك أبياتاً ساقطة من القصيدة بل هى من تزاحم الصور وزحمة الخيال وقلق الحس .

فتراه يصف الخمر ثم يعود بنا ثانية إلى الإشادة بوطنه . . بأرضه . . آهة عميقة فى زفرة حارة ، لو كانت حرة لعاد إليها وارتاح من الغربة وآلامها ومن خصام الناس فى أرض الاغتراب :

إذا خاض منها الماء فى مضمر الحشا
بدا الدر منها بين طاف وراسب
ولو أن أرضى حــرة لأتيتهـا
بعـزم يعـد السير ضربة لازب
ولـكن أرضى كيف لى بفـكاكها
من الأسر فى أيدى العلوج الغواصب

أمثلها فى خـاطرى كل سـاعة
وأمرى لها قطر الدموع السواكب
أحن حنين النيب للوطن الـذى
مغـانى مغانيـه إليـه بجواذبى
ومن يك أبقى قلبـه رسم مـنزل
تمـنى لـه بالجسم أوبـه آئب

* * *

وكما ترى كان الشاعر فى القصيدة يطرق موضوعات عدة . ويصف بريشته الشاعرية أشياء كثيرة يضمنها إطاراً واحداً. وهذا مرجعه المنهج الشعرى لدى المتقدمين .

ألم يمدح « كعب بن زهير » الرسول مبتدئاً بالتغزل فى قصيدته : « بانت سعاد » وهناك سبب آخر ، انسياب وتدفق الخواطر عند ابن حمديس ، وهو صادق فى شعوره حساس فى إدراكه.

وطنية وعروبة

وعبد الجبار بن حمديس شاعر تغنى بالعروبة .

وهتف لأمجاد قومه ، وصور الحنين لوطنه فى كل قصيدة ومناسبة .

فى قصائد الغزل ، ومطولات المديح ، حتى فى لحظات البكاء والرثاء ، فهو مرهف الحس دقيق المشاعر .

عاش الشاعر المهاجر مشبوب العاطفة ، وأكثر شعره فى الديوان عروبة صادقة وأنات خالصة .

عندما هاجر من وطنه صقلية كان فى حوالى الرابعة والعشرين . . شاب يمتلئ حيوية ويتدفق شاعرية ، ويترسم أمام عينيه معالم وطنه الجريح ، وتشبع خياله بمأساة قومه .

فهو يتذكر وتؤرقه الذكريات ، ولا تفارق مخيلته مواطن آبائه وأجداده ، ومراح طفولته وصباه ، ومطلع شبابه ، ومسارح ملاهيه وصبواته .

وتكون هذه الذكريات ذخيرة تمده بشحنة من الوقدات الفنية والقبسات التى يستمد منها الظلال فى تصوير حنانه .

وهو شاعر أصدق ما يكون الوفاء .

طاف بالأندلس وحط به المقام فى تونس ، وكان آخر المطاف صفاقس والمهدية ، ثم أخيراً ميورقة .

قرابة نصف قرن، وهو لا يغيض معينه من الحنين والأنين ، وجرابه لا ينتهى من التصوير الفنى فى إطارات مشبوبة بلهب الوطنية ، وتصوير مشاعر الغروبة فى صدق النبرة وروعة التصوير . وكان ينسج آمال قومه، ويهيب بالرجوع والعودة إلى وطنه الذى اغتصبه الروم .

وابن حمديس شاعر هادف ، إن أردنا من الهدف الإيمان بفكرة ، والعيش لقضية ، ومنهاج مرسوم .

وابن حمديس ، شاعر صاحب رسالة إن أردنا من الرسالة الأدبية تحمل المسئولية .

وهو شاعر صاحب مضمون إن أردنا من المضامين فكرة وغاية .

وقد يقال إنه شاعر غرق فى المدائح .

ولكن هناك مبررات ودوافع ، لأن العصر الذى عاش فيه ابن حمديس لا يستطيع الشعراء فيه أن يتخلصوا من المديح .

وهو شاعر مد يده لتلقى الجوائز ، وتناولت أصابعه دنانير المعتمد بن عباد ، وبنى تميم لأن ذلك كان طابع تلك العصور ، ولكن مع الإغراق فى المديح ، ومع مد يده للجوائز وتناول العطايا ، هناك شىء يجب أن يلاحظ : فالشاعر لم ينس ولم

يهمل قضية وطنه حتى فى قصائد المديح ، حتى فى مقطوعات الجوائز ، حتى فى سهرات الأسمار ووصف الغانيات والتفنن بالجمال ، ووصف الراقصات والأوانس .

شعراء كثيرون هاجروا واضطرتهم الظروف إلى مغادرة أوطانهم ، إما بدافع الطموح وطلباً للمجد ، وعن طيب خاطر من تلقاء أنفسهم ، أو كانت هجرة بعضهم بدافع الحاجة وتحت وطأة ظروف خاصة بحثاً عن لقمة العيش ، أو نزوحاً عن الوطن طمعاً فى الشهرة والالتصاق بحاكم شهير أو وزير خطير .

أو هى غربة من أجل تلقى العلم وتصيد الرواية .

وهناك أنواع من الهجرات والتغرب ، كانت هروباً من الأحكام القاسية والظروف السياسية، أو بدافع هجوم غزاة على بلادهم .

كثير من أهل الأدب والعلم وفن الشعر هاجروا واغتربوا . وقد امتلأت صفحات الأدب العربى فى مجال الشعر والنثر بصور من ذكريات الأدباء المهاجرين والشعراء المغتربين، وهى مادة خصبة للدارسين ومدعاة للتأمل والمقارنة .

شعراء تغربوا عن بلادهم وساحوا . من شعراء جزيرة صقلية إلى الأندلس وطرابلس والمغرب وبلاد الشام والعراق ومصر وبلاد الجزيرة وما وراء النهر .

ومن شعراء الهجرة نذكر «الودانى» صاحب الأبيات الشهيرة :

من يشترى منى النهار بليـــلة لا فرق بين نجومها وصحابى
دارت على فلك الزمان ونحن قد درنا على فلك من الآداب
وأتى الصباح ولا أتى وكأنـــه شيب أطل على سواد شبابى

* * *

وهناك كثير من الشعراء قد تبلوروا فى البيئة الجديدة ، وانسجموا فى المجتمع الذى هاجروا إليه حتى إنهم غدوا من تاريخه الأدبى ويعدون من أعلامه ، وعلى مر السنين وكر الليالى نسوا أوطانهم الأولى — أو على الأقل — خفت حدة تلهفهم وأشواقهم.

ولكن الظاهرة الواضحة فى شعر ابن حمديس تدفق ذكرياته وفوران شاعره نحو صقلية طوال إقامته فى مهجره ، سواء بالأندلس أو إفريقية — مع أن فى مسرح الأدب العربى عديداً من الشعراء المهاجرين من صقلية اندمجوا فى الوطن الجديد .

وهذا الأديب أبو العرب مصعب المعروف بابن الفرات ، خرج من صقلية لما تغلب عليها الروم عام ٤٦٤ هـ ١٠٧١ م وقصد المعتمد — أى قبل خروج وهجرة ابن حمديس بحوالى سبع سنوات . ولكن ابن الفرات الصقلى هذا يرسم لنا صورة أخرى تختلف عما رسمه ابن حمديس يقول ابن الفرات الصقلى :

إلى ما اتباعى للأمانى الكواذب وهذا طريق المجد بادى المذاهب
أهم ولى عزمان عزم مشرق وآخر يثنى همتى للمغارب
ولابد لى أن أسأل العيش حاجة تشق على أخفافها والغوارب
علىّ لآمالى اضطراب مؤمل ولكن على الأقدار نجح المطالب

ويا وطنى إن بنت عنى فإننى سأوطن أكوار العتاق النجائب
وإن كان أصلى من تراب فكلها بلادى وكل العالمين أقاربى

فهل هذه نظرية إنسانية من هذا الأديب الصقلى أبى العرب. عند ما يرى كل العالمين أقاربى . .

وهل تلك نظرية ضيقة محدودة المعالم من الشاعر عبد الجبار ابن حمديس . لا . . . ليس هذا نظرة إنسانية من الأول .

ولا هى بالنظرة المحدودة الضيقة من الثانى .

إنما هى حرارة الشوق للوطن الصقلى ظلت قوية لا تفتر عند ابن حمديس بينما اللوعة أخذت تخف حدتها عند الشاعر أبى العرب الصقلى فساوى بين أرض وأرض وموطن وموطن ويتساءل : ألا ما اتباعى للأمانى الكواذب . . ويرى كل العالمين أقاربه .

بينما الشاعر ابن حمديس فى إحدى قصائده يتمنى فى سبحة من خيال، وفى لهفة من شطحات الأمانى لو أن الهلال غدا زورقاً وعبر به البحر إلى موطنه — صقلية — .

والشاعر فى إحدى جلساته على شاطئ البحر الأبيض يرنو ببصره إلى مراتع وطنه وعلى مر الأيام لم ينس الشاعر فقد شغل الغير من الأدباء والشعراء وأهل العلم المهاجرين بينما هو يهتف بدوافع من الشوق والحنين :

وراءك يا بحر لى جنـــة لبست النعيم بها لا الشقاء

إذا أنا طالعت منها صباحاً تعرضت من دونه لى مساء
فلو أننى كنت أعطى المنى إذا منع البحر منها اللقاء
ركبت الهلال لها زورقــاً إلى أن أعانق منها ذكاء

وهو يعلم أن ذلك مجرد أمنية ، مجرد حلم ينفس به عن خاطره — ومنع البحر منها اللقاء — لعلها إشارة إلى أساطيل الأعداء التى كانت تحاصر جزيرة صقلية ولا زال شوق الشاعر متزايداً متصاعداً حتى غدا الشوق والحنين للوطن لدى الشاعر مضرب المثل ومنبعاً من التمثيل والتشبيه،وانظره هنا بماذا يشبه الشاعر عند ما يريد التصوير والتشبيه فى بيت من أبيات التغزل :

لقد حنت إلى مثواك نفسى كمرزاة إلى وطن تتوق

* * *

حتى فى الغزل وأساليب الصبابة يجد الشاعر مناط التشبيه فى هذه الروعة وتلك اللفتة :

يقر قرار السر عندى كأنه غريب ديار قال فى وطنى حسبى

* * *

ولقد تملك عليه الحنين للوطن أقطار نفسه وظل شغله الشاغل حتى أصبح الحنين للوطن عند الشاعر موضع التشبيه والمنبع الذى يستمد منه ألوان التصاوير للوحاته الفنية فى أكثر

من قصيدة ؛ فهو عند ما يشاهد جميلا تهفو إليه النفوس .. بما يراه فى التشبيه . . . إنه يقول :

رشأ أحن إلى هواه كأنـــه وطن ولدت بأرضه ونشيت

* * *

وابن حمديس يحذر من الاغتراب فقد ذاق مرارته وجرب آلامه الممضة فريع منه . .

إياك أن تجرب الغربة — الصق بأرضك . .

وليست هذه الصرخة من الشاعر لأنه من دعاة الخمول، بل كان هذا منه بدافع الاعتزاز بوطنه وأثر من تأثير الصدمة :

وإياك يوماً أن تجرب غربة فلن يستجيز العقل تجربة السم

* * *

وأيضاً يلمح الشاعر فى الرشأ والوجه الصبوح ما يذكره بالوطن ، وعند ما يصف ابن حمديس الذى يتذوق الجمال ويستطيبه ، إحدى الغادات فى البلاد الأندلسية يتذكر غربته حتى فى هذه اللحظة :

كم غريب حنت إليه غريبة وكئيب شجاه شجو كئيبه
سلطت كربة التنائى علينا فعسى فرحة التدانى قريبه
فمتى نلتقى فتصبح منـــا كل نفس لكل نفس طبيبه

* * *

وتكثر فى قصائد ابن حمديس كلمات — غربة — واغتراب — وغريب — فهو يقول :

أنا من صاح به يوم النوى   عن معانيه غراب فاغترب

* * *

وفى إحدى المرثيات التى نظمها بعد أربعين عاماً من هجرته يقول :

أرانى غريباً قد فقدت غريبة   كلانا مشوق للمواطن والأهل

* * *

ويوحى إليه قبر عمته وقد وسدها التراب فى بلدة «صفاقس» بتونس قصيدة فيها ظلال الاغتراب :

غريبة قبر عن قبور بأرضها   مجاورة فى خطة الطعن والضرب

* * *

وابن حمديس يذكر ألم الغربة ومرارة الفرقة وحرقة البعاد عن الوطن فى كل مناسبة وهو القائل :

أنا — يا ابن أختى — لا أزال أخا أسى
حتى أوسد فى الضريح وسادى
إنى امرؤ — مما ظرمت مهمهم
بفراق أهلى وانتزاح بلادى
أردى الغريب بعلة ترتاده   بالكرب وهى غربة الرواد

والشاعر كانت هجرته فى أرض عربية واغترابه وهجرته فى بلاد إسلامية إنه – فى الواقع – بين أبناء عمومته وملته ، ولكن – مع هذا – ترك لنا ابن حمديس فى أناته حنيناً قد لا تجد مثله لدى المتشوقين المغتربين ، وبرغم سخاء العيش والترحاب به لدى الأمراء وبرغم مجالس السمر وجمال الطبيعة الخلابة فى ربوع الأندلس والشاطئ الإفريقى الذى لا يقل روعة وجمالا عن صقلية وسرقوسة وقلورية . برغم ليالى إشبيلية وبجاية وميورقة وقرطبة والمهدية .

إنه مشدود إلى بلده يلهج به ويحن إليه .

ولا شك أن الحنين إلى الوطن طبيعة فى الإنسان ، وشىء مغروز مفطور عليه الإنسان العادى ، فما بالك بشاعر حساس ، وفنان قلق النفس مرهف الأحاسيس .

وهنا نستمع لابن حمديس الذى ذاق الغربة والهجرة يحذر الناس من الهجرة عن الأوطان والابتعاد عن أراضيهم .

ويرى إن عدم هؤلاء هواء بلادهم فإن أمانيهم فى الأرض تضيع وتتبعثر ، وعزهم يفضى إلى الذل والهوان ، وبلاد الناس ليست بلادهم والخالة مهما كانت حنونة مكرامة لا تغنى فى حنانها ودفء صدرها عن صدر وحنان الأم .

وإنها لمقارنة فيها لفتة فنية بين الأم الوطن والأم التى ترضع بثديها وتغذى الأبناء بفيض حنانها ، ومن تصويرات تحذيره

من الاغتراب عنده ما يخاطب مواطنيه :

ولله أرضى إن عدمت هواءها فأهواؤكم فى الأرض منشورة النظم
وعزكم يقضى إلى الذل والنوى من البين ترمى الشمل منكم بما ترمى
فإن بلاد الناس ليست بلادكم
ولا جارها والحلم كالجار والحكم
أخلى الذى حدبى بحبى وصلته
لديه كما نيط الرواد من الوسم
تقيد من القطر العزيز بموطن ومت عند ربع من ربوعك أو رسم
وإياك يوماً أن تجرب غربة
فهل يستجيز العقل تجربة السم

* * *

ومن صور الحنين إلى أرضه التى بها مفاصل أهله وقد تقدم به العمر :

أحن إلى أرضى التى فى ترابها مفاصل من أهلى بلين وأعظم
كما حن فى قيد الدجى بمظلة إلى وطن عود من الشوق يرزم

* * *

وتلمس صورة الشوق للوطن وتصوير الشاعر حلاوة الرجوع وروعة اللقاء ، وكان هذا ضمن قصيدة امتدح بها ابن حمديس الأمير « على بن يحيي » وأشار فيها إلى إرجاع الأمير

أهل صفاقس بتونس إلى أوطانهم ، وأوبتهم إلى ديارهم ، وقد حركت سواكن نفسه هذه الصورة :

يا يوم ردّهم إلى أوطانهم	لرددت أرواحاً إلى أبدان
نزلت بك الأرواح فى عرصاتهم	وبها يكون ترحل الأحزان
فلـذا القلوب إلى القلوب تراجعت	فى ملتقى الآباء بالولدان
والأمهات على البنات عواطف	والمشفقات على اللّدات حوان
سر القرابة بالقرابة منهم	وتآنس الجيران بالجيران
وتزاور الأحباب بعد قطيعة	دخلت بذكر الوّد فى النسيان
فى كل بيت نعمة ومسرة	شربوا سلافتها بلا كيزان

* * *

ثم بعد أن يفيض فى وصف أثر هذا الموقف فى نفسه يعرج على وصف حالته الأدبية ومدى مقدرته الشاعرية .

وإنه شاعر يقول فيجيد القول ، ويبنى من القوافى ويصوغ من ترانيم الأناشيد ما لا يمحوه الزمان ، ولا تستطيع معاول الدهر هدمه .

وهل هذا الشكران لنفسه والالتفات إلى بواطن حسه من دوافع الاستعلاء ، أم هو من قبيل رد الفعل لفقدان الأهل والأحباب والوطن .

أم هو من شيمة الشعراء تراهم يعكفون على نسج برود المدح ، وعند ما يصنعون الثوب لأنفسهم يزيدون فى الزركشة والبرقشة ويوسعون الثوب ويتفننون فى صنعه وإجادته .

وعلى كل حال — هنا — نلمس صورة نفسية لابن حمديس فيها عاطفة جياشة ، وإحساس فوار فهو فنان يبنى القريض ، ويراه شامخاً خالداً فى وجه عوامل الدهر وتقلباته . وهو يصنع الثناء ويحوك منه دقائق الأوصاف ويجمع نوّار الربيع وأزاهيره .

والشعر . . هو الفن الساحر كما يراه ابن حمديس ويصفه بأنه شيء يسرى فى النفس سريان الخمر . . سريان الألحان .. إنه ذلك الساحر الخفى . .

وهو شاعر يسابق الريح فى حلبة المجد ولكنه فارس لا تستطيع اللحاق به ، ولا يقدر أحد على إمساك عنانه . فهوفارس من فرسان الشعر ، وسباق فى ميدان القول .

لقد كبر فى السن وتقدم به العمر ، ولكنه لم يشخ إحساساً ، وبرغم كبر سنه فإن للفارس جولات وطعنات ، أو قل تجليات فى حلبة البديع أو قل الإبداع ، له جولات فلا ينبو سنانه :

إنى امرؤ أبنى القريض ولا أرى
نومنا يحاول هدم ما أنا بانى
صنع بتحبير الثناء وحوكه فكأنما صنعاء تحت لسانى !!
وأفيد نوّار الربيع تضوعاً متنسماً بدقائق الأذهان

والشعر يسرى فى النفوس ولا كما
يسرى مع الصهباء والألحان

ولقد شأوت الريح فيه مسابقاً　　من بعدما أمسكت فضل عنانى
وطعنت فى سن الكبير وما نبا　　عن طعن شاكلة البديع سنانى

* * *

وكان اتصال الشاعر ابن حمديس بالمعتمد بإشبيلية حوالى عام إحدى وسبعين وأربعمائة (٤٧١) هـ بعد أن كان روجر قد توغل فى صقلية .

وظل الشاعر فى هذه الحقبة يرسل قصائده الحماسية يحاول أن يبث الشجاعة فى بنى وطنه ويدفعهم على الصعود ومواصلة النضال من أجل رد قوات الروم المغيرة ، من أجل تخليص الوطن الصقلى من غارات الشواطئ .

ويبدو أن الشاعر قد لجأ إلى ساحات الأمراء والحكام من بيت بنى عباد وبيت بنى تميم وغيرهم لأجل أن يجد منقذاً . وتحريكاً للهمم ويريد أن يلفت أنظار هؤلاء الحكام والأمراء فى الأندلس وتونس إلى محنة الوطن الصقلى ومأساة العرب على الشاطئ المهدد إنه يصرخ فى صدق مصوراً الخطر الزاحف من أوربا على العالم الإسلامى ، فهو يحذر وينذر ويلهب ولتسمع إلى إحدى صرخاته المدوّية :

بنى الثغر لستم فى الوغى من بنى أمى
إذا لم أصل بالعرب منكم على العجم
دعوا النوم إنى خائف أن تدوسكم
دواه وأنتم فى الأمانى مع الحلم

وردوا وجوه الخيـــل نحو كريمة
مصرحة في الردم بالثكل واليتم

* * *

والشاعر يمجد بني قومه ويذكر فضائل وشمائل مواطنيه :

ولله أرضي التي لم تزل كناس الظباء وغيل الأسود
فمن شادن بابلي الجفـــون نفور الوصال أنيس الصدود
ومن قسور شائك البرثن له لبدة صردت من خديد
يصول بمثل لسان الشواظ فيوغله في نجيع الوريد
زبانيـــة خلقوا للحروب يشبون نيرانها بالوقود

* * *

ومن وطنيات ابن حمديس ما صوره عن الوضع التي آلت إليه صقلية في عهد استيلاء الروم :

أعاذل دعني أطلق العبرة التي
عدمت لها من أجمل الصبر حابسا
لقدرت أرضي أن تعود لقومها
فساءت ظنوني ثم أصبحت يائسا
وعزيت فيها النفس لما رأيتها
يكابد داء قاتل السم ناحسا
وكيف وقد سيمت هوانا وصيرت
مساجدها في أيدي النصارى كنائسا

إذا شاءت الرهبان بالضرب أنطقت
مع الصبح والإمساء فيها النواقسا
صقلية كاد الزمان بلادها وكانت على أهل الزمان محارسا
فكم أعين بالخوف أمست سواهرا
وكانت بطيب الأمن منهم نواعسا
أرى بلدى قد سامه الروم ذلة
وكان بقومى عزة متقاعسا
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه فأضحى لذاك الخوف منهن لابسا
عدمت أسوداً منهم عربية ترى بين أيديها العلوج فرائسا

* * *

ثم يمتد بابن حمديس النفس ويسترسل الشاعر فى وصف الحالة وإبراز الصورة قائلا عن وصف « قلورية » كلابرية — جنوب إيطاليا :

أما ملئت عراراً قلورية بهم وأرادوا بطارقة بها وأشاوسا
هم فتحوا أغلالها بسيوفهم وهم تركوا الأنوار فيها حنادسا
وساقوا بأيدى السبى بيضاً حواسرا
تخال عليهن الشعور برانسا
يخوضون بحراً كل حين إليهم ببحر يكون الموج فيه فوارسا
بحربية ترمى بمحرق نفطها فيخشى سعود الموت فيها المعاطسا
تراهن فى حمر اللبود وصفرها كمثل نبات الزنج صيغت عرائسا
والأبيات الأخيرة فى وصف الأساطيل الحربية .

من طرائف الوصف

من طرائف ما صوره الشاعر ابن حمديس كراهية الغانيات، ونفور ربات الجمال من الكهول .

ورأى الشاعر أن من العار أن يتهالك الشيخ المتقدم فى السن على صغار السن وزهور الفتيات .

أنرى أن شاعرنا كان يستهجن أن يتزوج الكهول بالفتيات الصغار ؟ تلك المشكلة التى تعانى منها بعض الأوساط الرجعية :

أرى الشيخ يكره فى نفسه ... مشيبا أفاض عليه النهارا
وضعفا يهد قوى جسمه ... وينقل من خطاه قصارا
فكيف يجشمهـا طفلة ... يطير بها القلب عنه قصارا
وعار على الشيخ تقريبـه ... فتاة ترى قربه منها عارا
وقد جبل الغانيات الصغار ... على بغضهن الشيوخ الكبارا

* * *

ومن تصوير ابن حمديس لكبره وعدم قدرته على النهوض بعد أن كان جيوى الشباب لا يشعر بتعب المشى :

أسلمنى الدهـر للرزايـا ... وغير الحادثات نقشى
وكنت أمشى ولست أعيا ... فصرت أعيا ولست أمشى
كأننى إذ كبرت نسر ... يطعمه فرخه بعش

وفى ديوان ابن حمديس جاءت هذه الكلمة :

« أخبرنى محمد بن عبد الجبار بن حمديس وقد سألته عن التمثيل بالنسر فقال :

ذكر بعض العلماء بأسرار الحيوان ، أنه ليس فى الطير ما يطعمه ولده إلا النسر وذلك إذا ضعف عن الطيران للتكسب» .

وما دمنا بصدد هذه الأبيات لابن حمديس ، فمن الجدير بالملاحظة أن كتب الأدب تثبت هذه الأبيات إلى أديب آخر .

أراد « ابن زرقون » من علماء إشبيلية أن ينهض من مجلسه ، فلم يستطع لكبر فى ركبتيه وسنين تثاقلت على كاهله فتأثر واعتمد حتى أعانه الغير على النهوض فلما استوى ناهضاً أنشد :

أصبحت عند الحسان زيفا وغير الحادثات نقشى
فكنت أمشى ولست أعيا فصرت أعيا ولست أمشى

* * *

وإذا أدركنا أن « ابن زرقون » توفى بإشبيلية فى القرن السادس الهجرى عام ٥٨٠ هـ يتضح لنا أن « ابن زرقون » قد ستشهد بأبيات ابن حمديس الصقلى ، ولم يكن « ابن زرقون » ناظماً لهذه الأبيات ، إذ أن ابن حمديس كان أسبق ، وقد سارت أبياته فى مجالس الأدباء واستشهد بها «ا بن زرقون » . وكلمة « أنشد » التى أوردها المقرى فى نفح الطيب قد تدل على الاستشهاد لا على النظم وإنتاج هذه الأبيات إذاً من الخطأ أن تنسب الأبيات « لابن زرقون » بل هى من منظومات ابن حمديس.» .

سرقوسة بلدة الشاعر

كانت مدارج طفولة ابن حمديس فى بلدة سرقوسة .

وهى فرضة بحر تقع شرقى جزيرة صقلية وتبعد حوالى ثلاثين ميلا إلى جنوب الجنوب الشرقى وحوالى واحد وثمانين ميلا من « قطانية » .

وقد أشار إليها ابن حمديس كثيراً فى قصائده وصور لياليها والمعارك الحربية التى دارت على شاطئها .

وقال عبد المنعم الحميرى فى كتابه الجغرافى « الروض المعطار فى خبر الأقطار » عند ذكر « سرقوسة » — وكان هذا الكتاب موجوداً قبل القرن الثامن الهجرى — : « هى مدينة بينها وبين جزيرة صقلية مجاز لطيف ، وهى كبيرة عليها ثلاثة أسوار وهى من مشاهير المدن وأعيان البلاد ، يقصدها كل حاضر وباد ، من جميع الأقطار والبحر محدق بها من جميع جهاتها ، والدخول إليها والخروج عنها على باب واحد شمالها ، ولها مرسيان ، وليس مثلها فى جميع البلدان ، أحدها أكبر من الآخر وبها فوارة "النبودى" تنبع من جرف على حاشية البحر ، وهى عجيبة الأمر . وبها ما بأكثر المدن من الأسواق ذوات "السماطان" والخانات والديار والحمامات والمبانى الرائقة والأفنية الواسعة ولها إقليم كبير وضياع ومنازل حصينة زكية

المزارع توسق فيها السفن بالطعام .

وفى سرقوسة مات أسد بن الفرات ، كان وجهه زيادة الله الأغلبى أمير القيروان غازياً على صقلية . فسار إليها مقلعاً من سوسة ودخلها فى عشرة آلاف فارس وكان أميراً وقاضياً فقاتل أهلها وفتح فيها بلاداً وتوفى بها .

وافتتحت سرقوسة سنة أربعة وستين ومائتين (٢٦٤) هـ وكان جعفر بن محمد التميمى أخرج أبا العباس أحمد بن عبد الله بن يعقوب بالصائفة فهزم أهل سرقوسة وقتل منهم مقتلة عظيمة . وحاصرها براً وبحراً وفتحها بعد تسعة أشهر من نزوله عليها فى رمضان من العام المؤرخ ، وأصاب فيها من المغانم ما لم يكن يصاب مثله فى مدينة من الشرك .

وسرقوسة مدينة كبيرة ، عليها ثلاثة أسوار ، ولها مرسى يعرف بالمينا الصغير ، وبينه وبين المرسى المينا الكبير حفير ، وعلى الحفير قنطرة إلى المدينة ، والمينا الكبير مشتى للسفن والفوارة على المرسى وعليها المسجد » اهـ .

وسرقوسة بلدة الشاعر ابن حمديس قد نسب إليها كثير من أهل العلم والأدب منهم أبو عمر عثمان بن على السرقوسى النحوى وقد قال عنه السلفى :

« كان من العلم بمكان نحواً ولغة وله تواليف فى القراءات والنحو والعروض » .

وكانت هجرة هذا الأديب السرقوسى إلى القاهرة ، وكانت

له حلقة للتدريس والإفتاء بجامع عمرو بن العاص .

وإلى سرقوسة ينسب الفقيه « أبو القاسم عبد الرحمن أبو بكر السرقوسي . وقد أشار العماد فى كتابه « الجزيرة » إلى عدد وافر من علماء وأدباء سرقوسة .

وكانت من قديم عاصمة الجزيرة . وعندما استولى المسلمون على أنحاء الجزيرة انتقلت عاصمة الروم إلى مدينة « قصريانة » حتى استطاع المسلمون أن يستولوا على سائر الجزيرة .

كان فتح سرقوسة فى ١٤ رمضان ٢٦٤هـ. شهر مايو ٨٧٧م .

* * *

ويذكر ابن حمديس « سرقوسة » فى شعره ويتحسر على غياب أبطالها وذهاب فرسانها واحتلال الروم لها فيقول :

ومن عجب أن الشياطين صيرت
بروج النجوم المحرقات مجالسا

وقد أصبحت سرقوسة دار منعة
يزورون بالديرين فيها النواوسا

مشوا فى بلاد أهلها تحت أرضها
وما مارسوا منهم أبيًّا ممارسا

ولو شققت تلك القبور لأنهضت
إليها من الأجداث أسداً عوابسا

ولكن رأيت الغيل إن غاب ليثه
تبختر فى أرجائه الذئب مائسا

ملوك الطوائف ـ بنو عباد ـ المعتمد

وفد الشاعر ابن حمديس من سرقوسة بصقلية إلى بلاط المعتمد بن عباد أحد ملوك الطوائف بالأندلس .

فمن هم ملوك الطوائف ، وما كان من أمر ابن عباد ؟

لقد خلع الأجناد آخر خلفاء بنى أمية واهتز عرش الأمويين بالأندلس .

كان المخلوع هشام بن محمد الملقب بالمعتمد ـ كان ذلك عام ٤٢٢ هـ .

وهنا قام « الطوائف » مقام الخلائف .

وتشهد الأندلس فى هذه الحقب إمارات وممالك مقسمة ، ورؤساء من البربر والعرب والموالى ، وتوزعت رقعة الأندلس أقساماً وألواناً .

وأخذ البعض يتهجم على البعض وبرزت دولة الطوائف.

ومع ذلك خضعوا بدفع الجزية للإسبان لئلا يهاجموهم .

مضت على ذلك حقبة من الزمن حتى دخل الأندلس السلطان « يوسف بن تاشفين » من مراكش وعمل على خلع ملوك الطوائف ، وأزال دولتهم .

وقد شاهد تاريخ الأندلس ألواناً وأشكالا من ملوك الطوائف فمن هؤلاء :

بنو عباد : ملوك أشبيلية وغرب الأندلس .
بنو جهور : فى قرطبة
بنو الأفطس : ملوك بقليوس
بنو ذى النون : ملوك طليطلة
باديس بن حسون : ملك غرناطة والبيرة
ابن أبى عامر : صاحب شرق الأندلس
ابن صمادح : كان مستقلا بالمرية

وهذا الشاعر الذى امتلأ ألماً لهذه الحالة يصور هذه الأشتات

مما يزهدنى فى أرض أندلس تقليب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

* * *

وهذا شاعر آخر يصور تقلص « الطوائف » وما وصلت إليه الحالة عند ما أخذ الإسبان طليطلة من ذى النون .

إنه الشاعر « ابن العسال » يصرخ :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس
فما المقام بها إلا من الغلط

من جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات فى سفط

وبنو عباد الذين نبغ منهم الشاعر الملك « المعتمد بن عباد » كان أول دخولهم إلى الأندلس من بلاد الشرق .

فقد كان « نعيم » و « عطاف » قدما إلى ربوع الأندلس

من المشرق ، ويرجع أصلهما إلى بلدة « العريش » تلك القرية النائية بين حدود مصر وفلسطين .

وأقام الأخوان « عطاف » و « نعيم » بقرية قرب « تومين » من إقليم « طشانة » وهى من « إشبيلية » .

وتناسل حتى ظهر من هذه السلالة محمد بن إسماعيل القاضى وولى قضاء « إشبيلية » وكان صاحب كياسة وسياسة .

بينما كان الحاكم على « قرطبة » يحي بن على حمود الحسنى المنعوت بالمستعلى ، مذموم السيرة .

وعند ما توجه هذا إلى « إشبيلية » بقصد حصارها هرع أهل البلد إلى القاضى وقالوا له :

« أما ترى ما حل بنا من هذا الظالم وما أفسد من أحوال الناس ، قم بنا نخرج إليه ونملكك ونجعل الأمر إليك » .

وهزم يحي بن حمود وقتل . وهنا ظهر نجم القاضى . وملك « قرطبة » وغيرها من البلاد ، وكان رجل علم وأدب وتوفى عام ٣٢٢ هـ وهو فى ذروة مجده وقام بعده ولده المعتضد بالله أبو عمر وعباد .

وقال صاحب الذخيرة :

« ثم أفضى الأمر إلى عباد قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة ناهيك من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا يسلم منه قريب ولا بعيد »

وبقى فى الملك حتى أصابته الذبحة عام ٤٦١ هـ .

وهنا يلمع اسم « المعتمد بن عباد » .

ويقول عنه « ابن القطاع » :

« أندى ملوك الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم ثماداً ، وأرفعهم عماداً ، ولذلك كانت حضرته ملتقى الرجال ، وموسم الشعراء ، وقبلة الآمال ، ومألف الفضلاء .

حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه ، وتشتمل عليه حاشية جنابه » .

ولقد صدق الكاتب « ابن القطاع » فقد كان من شعراء المعتمد :

الوزير بن عمار ، وابن اللبانة ، وأبو بكر الدانى .

كلهم من فحول الشعراء .

وفى عصر المعتمد بن عباد كان الشاعر ابن زيدون ٣٩٤ هـ ١٠٠٣ م .

وأبو بكر بن عمار الشلبى المتوفى ٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م

وأبو بكر بن اللبانة الدانى توفى ٥٠٧ هـ ١١١٣ م .

وأبو بكر عبد الله بن الحداد توفى ٤٨٠ هـ ١٠٨٧ م .

وأبو محمد عبد الجليل بن وهبون توفى ٤٨٠ هـ ١٠٨٧ م

وقد تنافس ملوك الطوائف فى جلب الشعراء إليهم وها هوذا أحد العلماء يصف هذه الظاهرة : « ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادى النواسم بين الرياض ، وتفتك فى أموالهم فتكة

لبراض. حتى إن أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم في إمداحه أنه حلف ألا يمدح أحداً منهم بقصيدة إلا بمائة دينار».

ولقد كثر الشعراء في هذا العصر بالأندلس حتى نجد «القزويني» يقول :

«أي فلاح يحرث بأثوار في شلب يرتجل ما شئت من لأشعار بما شئت من المعاني» .

ولقد كانت سوق الشعر رائجة وهرع إلى رحاب المعتمد شاعرنا عبد الجبار بن حمديس وأبو العرب مصعب بن أبي الفرات الصقلي بعد أن أرسل له المعتمد بن عباد خمسمائة دينار يتجهز بها ليتوجه إليه :

ويرحب المعتمد بالشعراء ويرسل إلى الأديب أبي الحسن الحصري القيرواني صاحب القصيدة الشهيرة :

يا ليل الصب متى غده .

والتي بها إيقاع ولحن موسيقى ، وكانت مدار تنافس بين الشعراء وأوجدت لوناً من الأدب الشعرى في فن المعارضات وشغل بمعارضتها شعراء كل عصر حتى شوقي فاستوحاها في :

مضناك جفاه مرقده .

لقد غص مجلس المعتمد بالشعراء .

بل كان المعتمد نفسه شاعراً بل كانت جواريه شواعر .

والأندلس نفسه قطعة من الشعر الذى أصبغت عليه يد الطبيعة جمالا ، ومما ترويه كتب الأدب والتاريخ مما يدل على اتجاه المعتمد الفنان والحاكم المرهف أن ذوقه الشاعرى جعله يختار زوجة له من أجل شطرة شعر .

وجارية المعتمد بن عباد المشهورة « بالرميكية » عند ما ركب ابن عباد النهر ذات يوم ومعه وزيره الشاعر « ابن عمار » وقد زردت الريح صفحة النهر فقال المعتمد لابن عمار أجز .

صنع الريح من الماء زرد .

فأطال ابن عمار فى إجهاد الفكرة ولم تسعفه القريحة ، فقالت امرأة من الغاسلات على الفور :

أى درع لقتال لو جمد .

فتعجب المعتمد من حسن ما أتت به من النظم وما عجز عنه الشاعر ابن عمار ، ونظر إليها فإذا هى جميلة كما هى فصيحة البيان . فسألها : أذات بعل أنت ؟

قالت : لا . فتزوجها وكانت أماً لأولاده الرشيد والراضى والمأمون والمؤتمن .

والمعتمد من يوم نشأته الأولى كان يقرب الشعراء ولا يخلو مجلسه من أديب وفنان حتى قبل توليته الملك فى « إشبيلية »

فعندما كان عاملا لأبيه فى « شلب » وحاكماً على إقليم الجوف البرتغالى ، كان صديقه الملازم له شاعراً ذا أثر فى دولة الشعر « أبو بكر بن عمار » .

وعند ما جلس على عرش « إشبيلية » كان الشعراء يفدون إليه ويلقون لديه المراح الخصيب والليالى الموسيقية .

ولا عجب أن يتجاوب مع الشعراء ، ألم يعجب بجارية كانت تجيز له شطر بيت من الشعر وكانت الجارية — التى أشرنا إليها — على ضفة النهر من مقربة من « فحص الفضة » .

والمعتمد شاعر قد يجعل من الخيال حقيقة ومن الأمانى صوراً ملموسة وقد جعل أيضاً بتصرفه الحقيقة والواقع أيضاً خيالا وحلماً ، فهذه الجارية الحالمة — كانت ذات مرة — تتمنى لو عجنت برجليها الطين ، فنثر لها الشاعر الحاكم الكافور والعنبر والمسك على الحصى وصنع من هذه المواد الغالية العطرة طيناً .

ولقد وجد الشاعر ابن حمديس لدى المعتمد مجالس الأنس وسهرات الشعراء . وتذوق المعتمد شعر ابن حمديس وتفهم ذوقه المرهف وحاسيته الفياضة .

فيمكث الشاعر الصقلى عند بلاط المعتمد زهاء ستة أعوام ، ولكن الشاعر المعتمد توالت عليه أعاصير الأحداث وهزت عرشه زلازل الأيام .

وتوالت الأيام ودارت دواليبها عند ما ثقلت وطأة ألفونس السادس . نجد المعتمد يوجه وجهته صوب بلاد المغرب ويستنجد بيوسف بن تاشفين وخاض معه معركة « الزلاقة » وكان فيها حاملا إكليل الانتصار (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) ولكن أعاصير

السياسة أو دوافع الطموح جعلت « يوسف بن تاشفين » يتألب على المعتمد وينقلب عليه وينقض عهوده ومواثيقه معه .

وانهزم المعتمد فى هذه الجولة .

ودارت الأيام وتوالت الأحداث ونفى المعتمد إلى « أغمات » عند سفح جبال الأطلس وغدا الأمير الحاكم مشرداً تائهاً مقيداً فى الأغلال .

وصحبه الشاعر عبد الجبار بن حمديس .

وكلاهما غدا يصور ألمه وفرقة وطنه ، هذا ابن حمديس يصور صقلية وسرقوسة ، وهذا يصور « إشبيلية » وليالى الأندلس .

مأساة دامية . . . كلاهما يندب حظه العاثر ويشكو أفاعيل القدر وجبروته .

وقد وافى الأجل المعتمد وهو فى دار حقيرة اتخذها من طين وسعف نخيل فى ظلال الأحزان ورقرقات الدموع وظلال الذكريات .

وكان نفى المعتمد وأسره فى عام ٤٨٤ هـ .

وفى هذا العام كان النورمان قد تمكنوا من السيطرة على أنحاء صقلية ، فهى صدمة مزدوجة تعترى نفس الشاعر الملهم عبد الجبار بن حمديس .

ولقد ذهبت دولة ملوك الطوائف وتقوض عرش المعتمد ابن عباد وما بقى فى سيل الزمن إلا قصة مؤلمة ومأساة عميقة .

أو ما بقي إلا أدب وشعر يصور فترة من فترات القلاقل فى عصر الأندلس قبل غروب شمسه وانحسار أمجاده .

وليست هذه المأساة الأخيرة التى تهتز لها نفس ابن حمديس الذى شاهد غزو الروم لصقلية ، بل إن مسرح حياته شاهد ألواناً من المآسى والهزات التى ترتبط بالوضع السياسى والاجتماعى فى بلاد الأندلس وأفريقية .

ثم هزات تتصل بحياة أسرته وحياته الخاصة فقد شاءت الأقدار أن تغرق المركب الذى هرب عليها من صفاقس إلى الأندلس ، وغرقت جاريته التى كان يحبها وصاغ فيها ألواناً من الشعر .

وكان يجد فيها شيئاً من السلوى وأنواعاً من الإلهام والوحى الشعرى .

ولقد ظل الشاعر ابن حمديس وفيا لصاحبه المعتمد فى منفاه وأسره وصاغ فيه ألواناً من الشعر العاطفى الذى يصور مأساة الأمير المنفى . فعندما سيق أسيراً إلى « أغمات » قال ابن حمديس :

أباد حياتى الموت إن كنت ساليا
وأنت مقيم فى قيودك عاتيا

تعريت من قلبى الذى كان ضاحكا
فما ألبس الأجفان إلا بواكيا

وما فرحى يوم المسرة طائعاً ولا حزنى يوم المساءة عاصيا

وهل أنا إلا سائل عنك سامع أحاديث تبكي بالنجيع المعاليا

* * *

ومن صور ابن حمديس لصاحبه المعتمد وتصوير ذكريات لياليه :

أمر بأبواب القصور وأغتدى لمن بان عنها فى الضمير مناجيا
وأنشد لا ما كنت فيهن منشدا إلا حيّ بالدّو الرسوم الخواليا
وأدعو بنيها سيداً بعد سيد ومن بعدهم أضبحت رماماً بواليا
مضيت حميداً كالغمامة أقشعت وقد ألبست وشى الربيع المغانيا
سأدمى جفونى بالسهاد غفية إذا وقفت عنك الدموع الجواريا
وأمنع نفسى من حياة هنيئة لأنك حى تستحق المراثيا

* * *

وكانت هناك مراسلات شعرية بين ابن حمديس والمعتمد وهو فى أسره ومنفاه :

كتب المعتمد إلى الشاعر ابن حمديس قصيدة مطلعها

غريب بأرض المغربين أسير سيبكى عليه منبر وسرير

فأجابه عبد الجبار بن حمديس بقصيدة منها :

لئن كنت مقصوراً بدار عمرتها فقد يقصر الضرغام وهو هصور
أعز الأسارى أن يقال : محمد غريب بأرض المغربين أسير

* * *

وذات مرة ذهب ابن حمديس لزيارة المعتمد بمنفاه فى

أغمات » فصرفه عن لقياه بعض الخدم وزعم له أنه لا يوجد في ذلك الوقت ، وأثر هذا في نفسه .

وعند ما علم المعتمد بمجيء الشاعر وكيفية صده ورده تتألم لهذا وعنف خادمه وكتب يعتذر إلى صاحبه الشاعر قائلا :

حجبت فلا والله ما ذاك من أمرى
فاصغ فدتك النفس سمعاً إلى عذرى

فلا صار إخلال المكارم لى هوى
ولا دار أخجال لمثلك فى صدرى

عدمت من الخدام كل مهذب … أسير إليه بالخفيض من الأمر
ولم يبق إلا كل أدكن ألكن … فلا آذن فى الأذن يبرأ من عسر
حمار إذا يمشي ونسر محلق … إذا طار بعداً للحمار وللنسر
وليس بمحتاج أتانا حمارهم … ولا نسرهم مما يحن إلى وكر
ولو كنت ممن يشرب الخمر كنتها … إذا نزعت نفسي إلى لذة الخمر

وأنت ابن حمديس الذى كنت مهديا
لنا السحر إذ لم يأت فى زمن السحر

* * *

وقد كان لاعتذار المعتمد الأسير أثر فى نفس الشاعر ابن حمديس وتقبل عذره بقبول حسن ورد عليه ابن حمديس قائلا :

أمثلك مولّى يبسطُ العبدَ بالعذر
بغير انقباض منك يجرى إلى وكر
لهدّ قريض الفضل ما هدّ من قوى
وحلّ به ما حلّ من عقدة الصبر
وإنى امرؤ فى خجلة مستمرة يذوب لها فى الماء جامدة الصبر
أتتنى قوافيك التى جلّ قدرها بها نقطة منهن مغرقة بحرى
لعلك إذ أغشيتنى منك بالندى
أردت الغنى لى من مديحك بالفخر
يخفّ على خدّام ملكك جانبى
كما خفّ هدب فى العيون على شفر
إذا طار منهم بالوصية سوزمُدُ فذلك فى إفصاح منطقه القمرى
تحدثُ عينى عينه بالذى يرى
بوجهك لى من حُسن مائية الشر
ليالىّ لا أشدوك إلا مطوقاً بنعمالك فى أفنان روضاتك الخضر
ولا زال من نداك يبلنى ويثقلنى حتى عجزت عن الوكر
بكيت زماناً كان لى بك ضاحكاً
وكسر جناحى كان عندك ذا جبر
وأطرقت لما حالت الحال حيرّة
تحير منى عالم النفس فى صدرى
فخذها كما أدرى وإن كلّ خاطرى
وإن لم يكن منها البديع الذى تدرى

ويلاحظ أن المعتمد بن عباد أرسل القصيدة التى يتعذر بها فى سرعة ، كما أرسل ابن حمديس الجواب على الفور .

وكانت مناسبة أفاضت فيها أحاسيسه نحو صديقه الشاعر .

لقد كثر الشعراء وحفلت المجالس الخاصة والعامة بألوان من الفن الشعرى ، وهل كان انهيار الأندلس بسبب تفشى الروح الشاعرية بين أهل الأندلس ؟ !

وهل الأدب والفن كان من عوامل تقويض هذه الدولة ؟ !

إن من الجناية على روح الفكر بل من التجنى على الحقيقة أن يزعم بعض من الناس أن أسواق الأدب وأسمار الشعراء قد ضيعت أمجاد هذه الدولة !

وأى منطق هذا . . !

والشعر كان وليد حضارة ونتاج ازدهار .

إن زوال ملوك الطوائف . بقى بعده رواج للأدب والشعر ، وبماسكت بعد انهيار بنى عباد الأندلس وتملك الأمر قائد طموح « يوسف بن تاشفين » وبعد يوسف بن تاشفين ظلت دولة الموحدين بالأندلس .

والذى نريد أن نشير إليه هنا دفع فرية هى أن الشعر ضيع الأندلس . . إن الأندلس بعد عصر المعتمد وشعرائه ظلت فى أيدى العرب زهاء ثلاثمائة عام ونيف .

وفى هذه الحقب والأعصر مدت المكتبة الإسلامية بنتاج وافر من القرائح ، وأمدت الأندلس بذخائر الفكر وأسهمت

في تغذية العقول وإنعاش الحضارة

لم تكن أسواق الشعراء ومجالس الفن والأدب هي المعاول التي هدت الأندلس لم يكن عصر المعتمد هو الذى قوّض الأندلس .

فقد أنتجت الأندلس بعد هذه الحقبة أدمغة من أهل الفلسفة والطب والعلم والاختراع والاكتشاف .

وناهيك بأسماء لامعة فى سماء الإنتاج الفكرى : — ابن رشد — وابن الطفيل — وابن زهر — وأبى بكر — وأبى القاسم الرازى .

وهل سمعت بمحاولة الطيران الأولى على يد شهيد التجربة الأولى « عباس بن فرناس » .

وهل سمعت بقصة المغامرة الجريئة من الأخوة الذين ركبوا بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) كى يكتشفوا أرضاً وراءه ؟ !

وكانت البحرية مزدهرة ومؤلفات العلماء فى الطب والجراحة تشهد بنبوغ الفكر الأندلسى ، كل هذا يقدمه أهل الفكر فى هذه الحقب ، فهل يصح أن يزعم أن الأدب والشعر فى مجالس المعتمد عملت على زعزعة المجد السياسى والقضاء على النتاج العلمى !

• صقلية فى عصر ابن حمديس

جاء فى « الكامل » لابن الأثير :

« كان الأمير على صقلية سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة ٣٨٨ هـ . — أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد الحسين ، ولاه العزيز العلوى صاحب مصر وأفريقية فأصابه فى هذه السنة فالج فتعطل جانبه الأيسر وضعف الجانب الأيمن ، فاستناب ابنه صغيراً فبقى كذلك ضابطاً للبلاد حسن السيرة فى أهلها إلى سنة خمس وأربعمائة — ٤٠٥ هـ .

فخالف عليه أخوه علياً وأعانه جمع من البربر والعبيد .

فأخرج عليه أخوه جعفراً جنداً من المدينة « بلرم » فاقتتلوا سابع شعبان وقتل من البربر والعبيد خلق كبير .

وهرب من بقى منهم وأخذ « على » أسيراً فقتله أخوه جعفر وعظم قتله على أبيه — فكان بين خروجه وقتله ثمانية أيام .

وأمر جعفر حينئذ أن ينفى كل بربرى بالجزيرة فنفوا إلى أفريقية ، وأمر بقتل العبيد فقتلوا عن آخرهم .

وجعل جنده كلهم من أهل صقلية ، فقتل العسكر بالجزيرة ، وطمع أهل الجزيرة فى الأمراء فلم يمض إلا يسير حتى ثار بهم أهل صقلية وأخرجوه وخلعوه وأرادوا قتله .

وذلك لما ولى عليهم إنساناً صادرهم وأخذ الأعشار من غلاتهم واستخف بقوادهم وشيوخهم فى البلد .

وقهر جعفر واستطال عليهم فلم يشعر إلا وقد زحف إليه أهل البلد كبيرهم وصغيرهم فحصروه فى قصره ، فى المحرم سنة عشر وأربعمائة — ٤١٠ هـ . — وأشرفوا على أخذه فخرج إليهم أبوه يوسف فى محفة وكانوا له محبين فلطف بهم ورفق فبكوا رحمة له من مرضه وذكروا له ما أحدث ابنه عليهم وطلبوا أن يستعمل ابنه أحمد المعروف بالأكحل ففعل ذلك .

وخاف يوسف على ابنه جعفر منهم فسيروه إلى مركب إلى مصر .

وسار أبوه يوسف بعده ومعهما من الأموال ستمائة ألف درهم وسبعون ألفاً ، وكان ليوسف من الدواب ثلاثة آلاف حمر سوى البغال وغيرها ، ومات بمصر وليس له إلا دابة واحدة .

ولما ولى الأكحل أخذ الأمر بالحزم والاجتهاد وجمع المقاتلة وبث سراياه فى بلاد الكفرة وجنوب إيطاليا . وأطاعته جميع قلاع صقلية التى للمسلمين .

وكان للأكحل ابن اسمه جعفر كان ينيبه إذا سافر فخالف سيرة أبيه .

ثم إن الأكحل جمع أهل صقلية وقال أحب أن أشيلكم على الإفريقيين وأهجم بكم عليهم لطردهم فقد شاركوكم فى

بلادكم . والرأى إخراجهم . فقال لهم مثل ذلك فأجابوه إلى ما أراد ، فجمع حملة فكان يحمى أملاكهم ويأخذ الخراج من أملاك أهل صقلية ، فسار من أهل صقلية جماعة إلى المعز بن باديس وشكوا إليه ما حل بهم .

وقالوا نحب أن نكون فى طاعتك وإلا سلمنا البلاد للروم . وذلك سنة سبع وعشرين وأربعمائة ٤٢٧ هـ ، فسير معهم ولده عبد الله فى عسكر فدخل — بلرم — وحصر الأكحل وخلعه ثم اختلف أهل صقلية وأراد بعضهم نصرة الأكحل فقتله الذين أحضروا عبد الله بن المعز .

ثم إن الصقليين رجع بعضهم إلى بعض فقالوا : أدخلتم غيركم عليكم والله لا كانت عاقبة أمركم إلى خير . فعزموا على حرب عسكر المعز .

فاجتمعوا وزحفوا إليه فاقتتلوا فانهزم عسكر المعز .

وقتل منهم ثمانى مائة رجل ، ورجعوا فى المراكب إلى إفريقية وولى عليهم أهل الجزيرة الصمصام أخا الأكحل .

فاضطربت أحوالهم ، واستولى الأراذل ، وانفرد كل إنسان ببلد وأخرجوا « الصمصام » فاستولى عبد الله بن منكوت بمازر وطرافش وغيرها وانفرد القائد على بن نعمة المعروف بابن الحواس بقصريانة وجرجنت وغيرها .

وانفرد ابن الثمنة بمدينة سرقوسة وقطانية. وتزوج بأخت ابن الحواس .

ثم إنه جرى بينها وبين زوجها كلام أغلظ كل منهما لصاحبه وهو سكران ، فأمر ابن الثمنة بفصدها فى عضديها وتركها لتموت وسمع ولده إبراهيم فحضر وأحضر الأطباء وعالجها إلى أن عادت لقوتها . ولما أصبح أبوه ندم واعتذر إليها بالسكر فأظهرت قبول عذره ثم إنها لما طلبت منه بعد مدة أن تزور أخاها أذن لها وسير معها التحف والهدايا فلما وصلت ذكرت لأخيها ما فعل بها فحلف ألا يعيدها إليه .

فأرسل « ابن الثمنة » يطلبها فلم يردها إليه . فجمع « ابن الثمنة » عسكره وكان قد استولى على أكثر الجزيرة ، وخطب له فى مدينة « بلرم » قصبة صقلية .

وسار وحاصر « ابن الحواس » بقصريانة . . فخرج إليه فقاتله وانهزم « ابن الثمنة » وتبعه إلى قرب مدينة « قطانية » وعاد بعد أن قتل من أصحابه فأكثر القتلى. فلما رأى « ابن الثمنة » أن عساكره قد تمزقت فسولت له نفسه الانتصار بالإفرنج .

فسار إلى مدينة « مالطة » وهى بيد الإفرنج . فلما خرج بردويل الفرنجى « بنجاوين الرابع » ملك فلاندر سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة ٣٧٢ هـ .

واستوطنها الإفرنج إلى الآن .

وكان ملكها حينئذ — روجار النورمندى .

فوصل إليهم « ابن الثمنة » وقال : « أنا أملككم الجزيرة . فقالوا له إن فيها أجناداً كثيرة ولا طاقة لنا بهم . فقال إنهم مختلفون وأكثرهم يسمع قولى ولا يخالفون أمرى .

فساروا معه فى رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة ٤٤٤ هـ فلم يلقوا من يدافعهم فاستولوا على ما مروا به فى طريقهم وقصد بهم إلى « قصريانة » فحصروها فخرج إليهم « ابن الحواس » فقاتلهم فهزمه الفرنج ، فرجع إلى الحصن فرحلوا عنه .

وساروا إلى الجزيرة واستولوا على صوامع كثيرة وفارقها كثير من العلماء والصالحين . وسار جماعة من أهل صقلية إلى « المعز بن باديس » وذكروا له ما الناس فيه بالجزيرة من الخلف وغلبة الفرنج على كثير منها .

فعمر أسطولا كبيراً وشحنه بالرجال والعدد ، وكان الزمان شتاء وصاروا إلى « قوصرة » جزيرة صغيرة بالبحر الأبيض المتوسط من أجزاء إيطاليا وتبعد عن إفريقية بحوالى ستين كيلو .

وكان ذهاب هذا الأسطول مما أضعف المعز ، وقوى عليه حتى أخذوا البلاد منه . فملك حينئذ الفرنج أكثر البلاد على مهل وتؤدة ، ولا يمنعهم أحد ، واشتغل صاحب أفريقية

مما دهمه من العرب ، ومات المعز بن باديس سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ٤٥٣ هـ . وولى ابنه تميما فبعث أسطولا وعسكراً إلى الجزيرة وقدم عليه ولديه أيوب وعلياً .

ووصلوا إلى صقلية فنزل أيوب والعسكر إلى المدينة ونزل أيوب على « جرجنت » ثم انتقل أيوب إلى « جرجنت » وأقام فيها فأحبه أهلها فحسده « ابن الحواس » فكتب إليهم ليخرجوه فلم يفعلوا فسار إليه فى عسكره وقاتله فشد أهل « جرجنت » من أزر أيوب وقاتلوا معه .

فبينما « ابن الحواس » يقاتل تاه سهم غرب فقتله ، فملك العسكر عليهم أيوب ثم بعد ذلك وقع بين أهل المدينة وبين عبيد تميم فتنة أدت إلى القتال ثم زاد الشر بينهم فاجتمع أيوب وعلى أخوه ومعهم جماعة من أهل صقلية والأسطولية ، ولم يبق للإفرنج ممانع ، فاستولوا على الجزيرة ولم يثبت بين أيديهم غير « قصريانة » بعد ثلاث سنوات .

فلما اشتد الأمر عليهم أذعنوا إلى التسليم فتسلمها الإفرنج سنة أربع وثمانين وأربعمائة ٤٨٤ هـ .

وتملك « روجار » جميع الجزيرة وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين ولم يترك لأحد من أهلها حماماً ولا دكاناً ولا طاحوناً ومات « روجار » ذلك قبل التسعين والأربعمائة . وملك بعده ولده — رجار — طريق ملوك المسلمين ، من الجنائب والحجاب والسلاحية والجاندارية وغير ذلك وخالف الإفرنج فإنهم لا يعرفون

شيئاً منه ، وجعل له ديوان المظالم ترفع إليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده ، وأكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الإفرنج فاحبوه » . ا هـ

ويلاحظ أن « رجار » هذا هو الذى ألف له « الشريف الإدريسى » كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (هذا كلام المؤرخ « ابن الأثير ») . أثبتناه هنا لنعطى صورة عن الحالة فى صقلية فى عصر الشاعر ابن حمديس وما قبله وما بعده بقليل .

الفهرس

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة

على مطابع دار المعارف

سنة ١٩٦٣

أكتوبر ١٩٦٣ الثمن ٣٠ مليماً

